

مَنْبَغُ الْعَامِلِينَ إِلَى جَنَّةِ رَبِّ الْمَالِينَ

تأليف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن محمد القزويني
المتوفى سنة ٥٥٥ هـ

بتحقيق

الدكتور محمود مصطفى حلاوي

دار النشر الإسلامية

مِنْهُ لِكُلِّ الْعَابِدِينَ
إِلَى جَنَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

شركة دار البشائر الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

أسسها الشيخ رزقي رشيدية رحمه الله تعالى

سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥

هاتف: ٧٠٢٨٥٧/٧٠٦١١ فاكس: ٧٠٤٩٦٣/٧٠٦١١

email: info@dar-albashaer.com \ bashaer@cyberia.net.lb

website: www.dar-albashaer.com

مِنْهُمْ إِلَى الْعَابِدِينَ
إِلَى جَنَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تأليف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن محمد الغزالي

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

تحقيق

الدكتور محمود مصطفى حلاوي

دار النشر الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد،
خاتم الأنبياء والرّسل أجمعين، وبعد:

فإنّ عهدي بكتاب منهاج العابدين للإمام أبي حامد الغزالي يعود
إلى خمس وعشرين سنة مضت، عندما عثرت على نسخة خطيّة منه في
مدينة قونية بتركيا، وقرأتها بشغف وشوق، ودعوت الله أن يمدّ بعمرى
حتى أخرج هذا الكتاب ليكون عوناً لكل مسلم في سلوك طريق الجنّة،
وهي الطريق المحفوفة بالمكاره، كما قال رسول الله ﷺ.

وقد وفّقتني الله لإتمام هذا العمل، وقامت مؤسسة الرسالة بطباعته
ونشره عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ونفدت هذه الطبعة بعد أقلّ من عام
على صدورها، ثمّ حالت ظروف المؤسسة دون إعادة طبعه.

ولمّا كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً؛ نظراً لقيّمته العلمية
والدينية ولشُهرة مؤلّفه، وللجهد الذي بذل في تحقيقه وإخراجه بالشكل
الذي يستحقّه، فقد عهدتُ إلى الأخ الصديق رمزي دمشقية، صاحب
دار البشائر الإسلاميّة، بإعادة طباعته، بعد أن تمّت مراجعة الكتاب
وتنقيحه من بعض الأخطاء المطبعية، وإعادة النظر بإخراجه وبفهارسه
العلمية الملحقة به، راجياً الله تعالى أن أكون قد وفّقت فيما قصدت
إليه.

ولا أدعي أن الكتاب بحلته الجديدة أصبح خالياً من الأخطاء،
فالكمال لله وحده، لا إله إلا هو، ولكنني سعيت قدر المستطاع أن يكون
هذا العمل مقبولاً من العامة والخاصة، سهل التناول، واضحاً في
التعليقات والحواشي التي أضفتها أو اختصرتها؛ راجياً من الله تعالى أن
يجعله في صحيفة أعماله، ولا يحرمني خيره وخير من استضاء بنوره
في ظلمة الحياة الدنيا، علّه يستعين بما جاء فيه لسلك منهاج العابدين
إلى جنّة ربّ العالمين.

ولا يفوتني أن أشكر دار البشائر الإسلاميّة، بشخص صاحبها،
الأخ الصديق رمزي دمشقيّة، والشيخ أمين شحور الذي بذل جهداً طيباً
في تنقية الكتاب من بعض ما وقع فيه من أخطاء وشوائب، كما أشكر
كل من قدّم جهداً لإخراج هذا الكتاب وتقديمه للقراء بحلته الجديدة.

وفّقنا الله جميعاً لما يحبّه ويرضاه، وسدّد خطانا على الطريق
المستقيم، وألهمنا الرشاد في أقوالنا وأفعالنا، وثبّت قلوبنا على محبته،
وأخذ بيدنا لخدمة العلم وأهله، إنه سميع مجيب.

وَصَلِّ اللّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَسَلِّمْ وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

كتبه

مُحَمَّدُ مُصْطَفَى حَلَاوِي

بيروت في صباح يوم الجمعة

الثامن والعشرين من محرم عام ١٤١٦ هجرية

الموافق ١٤ حزيران ١٩٩٦ ميلادية

مقدّمة التحقيق

— أولاً: الكاتب .

— ثانياً: الكتاب .

— ثالثاً: التّحقيق .



أولاً: الكاتب: الغزالي^(١)

الإمام زين الدين، حجّة الإسلام، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الفقيه الشافعي، أحد الأعلام^(٢)؛ لم يكن في آخر عصره مثله^(٣). صاحب التصانيف والذكاء المفرط^(٤)؛ كان من أذكى العالم في كل ما يتكلم فيه^(٥).

١ - ولادته ونشأته: طوس - جرجان: ٤٥٠ هـ - ٤٧٣ هـ:

ولد الغزالي سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٩ م^(٦) بالطبران، إحدى مدينتي طوس^(٧) من أعمال «خراسان»، من والد فقير صالح، كان يشتغل بغزل الصوف، ويحبّ مجالسة الفقهاء والمتصوّفة ويشاركهم في

(١) قال الغزالي في بعض مصنفاته: ونسبني قوم إلى الغزّال، وإنما أنا الغزالي، نسبة إلى قرية يقال لها غزّانة بتخفيف الزاي (را. الوافي بالوفيات ١/٢٧٧).

(٢) شذرات الذهب ٤/١٠.

(٣) الوافي بالوفيات ١/٢٧٤. وكذلك وفيات الأعيان ٤/٢١٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٣.

(٥) البداية والنهاية ١٢/١٧٤.

(٦) في رواية أخرى قيل إنه ولد سنة ٤٥١ هـ (را. الوافي بالوفيات ١/٢٧٧).

(٧) معجم البلدان: مادة طبران (مجلد ٤ ص ٣) وفيه: أن طوس عبارة عن مدينتين أكبرهما طبران والأخرى نوقان. وقد خرج من طبران جماعة من العلماء نُسبوا إلى طوس، وقد قيل لبعض من نُسب إليها الطبراني.

حلقاتهم ويتأثر بأقوالهم؛ وكان يتضرع إلى الله أن يرزقه ولدًا صالحًا مثلهم، ويجعله فقيهاً واعظاً^(١).

لمَّا احتضر والده أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له صوفي صالح، فعلمهما الخطَّ وأدبهما^(٢). وبعد أن فني ما خلف لهما أبوهما من رزق، وتعذَّر عليهما تحصيل قوتهما، انتظما في سلك مدرسة تُعلِّمُ الفقه وتوفِّر لتلاميذها القوت^(٣).

اشتغل الغزالي في مبدأ أمره بطوس بالفقه^(٤) على أحمد الراذكاني^(٥). ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان^(٦)، فأقام عنده^(٧) إلى أن أخذ عنه التعليقة في الفقه^(٨).

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٠٢/٤.

(٢) شذرات الذهب ١١/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٣٥/١٩.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١٩ وشذرات الذهب ١١/٤.

(٥) الوافي بالوفيات ٢٧٤/١ وكذلك وفيات الأعيان ٢١٧/٤.

والراذكاني نسبة إلى راذكان، وهي بلدة بنواحي طوس. راجع: معجم البلدان مادة: راذكان، (مجلد ٣ ص ١٣).

(٦) شذرات الذهب ١١/٤.

(٧) انتقل الغزالي إلى جرجان وهو دون العشرين، ولا نعلم كم بقي فيها يدرس الفقه على أستاذه أبي نصر الإسماعيلي. (راجع: الغزالي، تيسير شيخ الأرض ص ٧).

(٨) سير أعلام النبلاء ٣٣٥/١٩، والتعليقة كما ذكر الغزالي هي «كتب هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها». راجع خبر هذه التعليقة وما جرى للغزالي مع اللصوص الذين سطوا عليها في طريق عودته من جرجان إلى طوس في كتاب طبقات الشافعية الكبرى للشُّبكي ١٠٢/٤.

بعد ذلك، عاد الغزالي إلى طوس وأقام فيها ثلاث سنوات^(١).

٢ - ملازمته إمام الحرمين: نيسابور: ٤٧٣ هـ - ٤٧٨ هـ :

رغب الغزالي في زيادة تحصيله العلمي، فارتحل إلى إمام الحرمين بنيسابور أبي المعالي الجويني^(٢)، واشتغل عليه، وجدَّ في التحصيل حتى تخرَّج في مدَّة قريبة^(٣)، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه^(٤)، فكان أنظر أهل زمانه؛ وجلس للإقراء في حياة إمامه^(٥) بعد أن برع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل^(٦). وشرع في التصنيف في ذلك الوقت^(٧)، وكان أستاذه يتبجَّح به^(٨)، ولم يزل ملازماً له إلى حين وفاته^(٩) عام ٤٧٨ هـ^(١٠).

والملاحظ أن الغزالي لم يدرس على أستاذ غير الإمام الجويني فيما بعد^(١١)؛ كذلك فإن أثر أستاذه الجويني كان قوياً إلى

(١) الغزالي، تيسير شيخ الأرض ص ٧.

(٢) شذرات الذهب ١١/٤.

(٣) الوافي بالوفيات ١/٢٧٤.

(٤) وفيات الأعيان ٤/٢١٧.

(٥) شذرات الذهب ١١/٤.

(٦) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٣.

(٧) الوافي بالوفيات ١/٢٧٤، وشذرات الذهب ١١/٤، ووفيات الأعيان ٤/٢١٧

وسير أعلام النبلاء ٣٢٣.

(٨) وفيات الأعيان ٤/٢١٧. وسير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٣.

(٩) الوافي بالوفيات ١/٢٧٤، وفيات الأعيان ٤/٢١٧.

(١٠) راجع ترجمة الإمام الجويني وأخباره في ملحق تراجم الأعلام ضمن ملاحق هذا الكتاب.

(١١) العقل في الإسلام، كريم عزقول، ص ٣٨.

حدٌ كبير، حتى يمكننا أن نعدّه أثراً حاسماً في تطور الغزالي
الفكري^(١).

٣ - إقامته عند نظام الملك: العسكر: ٤٧٨ هـ - ٤٨٤ هـ :

لَمَّا مات إمامه، خرج من نيسابور إلى العسكر^(٢) - المخيم
السلطاني^(٣) - ولقي الوزير نظام الملك^(٤). وكان مجلسه محطّ رحال
العلماء ومقصد الأئمة والفصحاء؛ فوقع للغزالي أمور تقتضي علوّ
شأنه، من ملاقاتة الأئمة ومناظرة الفحول ومناطقة الكبار^(٥)، وجرى
بينهم الجدل والمناظرة في عدّة مجالس^(٦)، وكان ذلك بحضور نظام
الملك^(٧)، فظهر الغزالي عليهم^(٨)، وانبهر له الوزير^(٩)، فأقبل عليه
وحلّ منه محلاً عظيماً، فعظمت منزلته وطار اسمه في الآفاق^(١٠)،

(١) الغزالي، تيسير شيخ الأرض ص ٨.

(٢) عسكر نيسابور: المدينة المشهورة بخراسان، فيها محلّة تسمّى العسكر. والعسكر
مجتمع الجيش حين يأتي لدخول مدينة يعسكر خارجها أحياناً، أو بعد أن يفتحها
يعسكر الجيش خارجها في ناحية من نواحيها، ومع مرور الزمن يصبح العسكر
هذا مدينة أو بلدة أو محلّة تابعة للمدينة. راجع: معجم البلدان، مادة عسكر،
(المجلد الرابع ص ١٢٤).

(٣) هكذا سمّاه الذهبي، راجع: سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١٩.

(٤) وفيات الأعيان ٢١٧/٤، والوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٥) شذرات الذهب ١١/٤ - ١٢.

(٦) وفيات الأعيان ٢١٧/٤.

(٧) سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١٩.

(٨) وفيات الأعيان ٢١٧/٤، والوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٩) سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١٩.

(١٠) شذرات الذهب ١٢/٤.

وسار بذكره الركبان^(١)، فولّاه نظام الملك التدريس في نظامية بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة^(٢)، وله أربع وثلاثون سنة^(٣).

٤ - التدريس في المدرسة النظامية: بغداد: ٤٨٤ هـ -
٤٨٨ هـ :

قدم الغزالي مدينة بغداد للتدريس في نظاميتها، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة^(٤)، فأعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته^(٥)، ونفذت كلمته وعظمت حشمته^(٦)، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء، وضرب به المثل، وشُدَّت إليه الرحال^(٧)، وحضر عنده رؤوس العلماء فتعجبوا من فصاحته واطلاعه^(٨)، وقال القاضي أبو بكر بن العربي: رأيت ببغداد يحضر مجلس درسه نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم، يأخذون عنه العلم^(٩).

وكانت هذه الفترة من حياته فترة إنتاج خصب، فقد أخذ في

(١) وفيات الأعيان ٢١٧/٤، والوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١٩، وشذرات الذهب ١٢/٤.

(٣) البداية والنهاية ١٧٤/١٢، وسير أعلام النبلاء ٣٢٩/١٩.

(٤) وفيات الأعيان ٢١٧/٤.

(٥) الوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٦) شذرات الذهب ١٢/٤، والوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٧) شذرات الذهب ١٢/٤.

(٨) البداية والنهاية ١٧٤/١٢.

(٩) شذرات الذهب ١٣/٤.

تأليف الكتب في الأصول والفقه والكلام والحكمة^(١).

٥ - تزهُدُه وانقطاعه عن التدريس: دمشق - مكة: ٤٨٨ هـ -
٤٩٠ هـ:

في ذي القعدة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة^(٢)، شرفت نفس أبي حامد عن رذائل الدنيا فرفضها وأطرحها وأقبل على العبادة والسياحة^(٣)، وسلك طريق الزهد والانقطاع عن الناس^(٤)، تاركاً جميع ما كان عليه في بغداد من شهرة وصيت ومركز، مظهرًا العزم على الخروج لمكة لأداء فريضة الحج، فتوجّه إلى الشام واعتكف في زاوية بالمسجد الأموي، وظل في دمشق حتى ذي القعدة عام ٤٩٠ هـ^(٥)، حيث قصد الحج وزيارة رسول الله ﷺ^(٦).

٦ - اشتغاله بالعبادة وإيثاره للعزلة: دمشق: ٤٩٠ هـ -
٤٩٨ هـ:

لمّا رجع الغزالي من أداء فريضة الحج توجّه إلى الشام وأقام في مدينة دمشق يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي

(١) سير أعلام النبلاء ٣٢٩/١٩.

(٢) وفيات الأعيان ٢١٧/٤، والوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٣) شذرات الذهب ١٢/٤.

(٤) وفيات الأعيان ٢١٧/٤، والوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٢١٧/٤، والوافي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٦) المنقذ من الضلال ص ١٣٠، سير أعلام النبلاء ٣٣٠/١٩.

منه^(١) وقد عرفت هذه الزاوية آنذاك به^(٢). وفي هذه الأثناء صَنَّف كتاباً عديدة يقال إن «الإحياء» منها^(٣).

ويذكر العلماء الذين ترجموا للغزالي، أنَّ إقامته في دمشق كانت عشر سنين^(٤)، وهي تشمل زيارته الأولى لها بعد انقطاعه عن التدريس، ثم إقامته فيها بعد رجوعه من الحج^(٥).

٧ - السياحة والاجتهاد في العبادة: بيت المقدس - مصر:
٤٩٨ هـ - ٥٠٠ هـ :

توجَّه أبو حامد من دمشق إلى بيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظَّمة^(٦)، فقد جاور بالقدس^(٧)، ويروى أنه كان يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه. كذلك توجَّه إلى الخليل لزيارة مقام إبراهيم عليه السلام^(٨). ثم قصد مصر، وأقام مدَّة بالإسكندرية^(٩)، ولعلَّه أراد زيارة مساجد مصر وأضرحة الأولياء فيها.

(١) وفيات الأعيان ٢١٧/٤. والوفاي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٢) الوفاي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٣) شذرات الذهب ١٢/٤. البداية والنهاية ١٢/١٢، سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٣.

(٤) شذرات الذهب ١٢/٤. سير أعلام النبلاء ١٩/٣٣٤.

(٥) شذرات الذهب ١٢/٤.

(٦) وفيات الأعيان ٢١٧/٤. الوفاي بالوفيات ٢٧٥/١.

(٧) سير أعلام النبلاء ١٩، ٣٣٠ و ٣٣٤.

(٨) المقصد الأسنى ص ٨.

(٩) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٣٤، شذرات الذهب ١٢/٤، الوفاي بالوفيات ٢٧٥/١.

ويقال: إنه عزم منها على ركوب البحر للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين، صاحب مراكش لما بلغه منه من محبة أهل العلم والإقبال عليهم، فبلغه نعي المذكور - وكان ذلك عام خمسمائة - فصرف عزمه عن تلك الناحية، وعاد إلى وطنه بطوس^(١).

٨ - العودة إلى الوطن والاشتغال بالعبادة: ٥٠٠ هـ - ٥٠٥ هـ :

بعد أن بلغه نعي يوسف بن تاشفين عاد إلى وطنه بطوس، وصنّف بها كتاباً نافعة^(٢) مفيدة في عدة فنون^(٣)؛ وأقبل على العبادة وملازمة التلاوة ونشر العلم وعدم مخالطة الناس^(٤).

ثم إن الوزير فخر الملك أبو المظفر علي بن نظام الملك، لما وَزَرَ على خراسان لسنجر حاكمها من قبل أخيه محمد بن ملكشاه، حضر إلى الغزالي واثمس منه القدوم إلى نيسابور والتدريس بنظاميتها^(٥). وتشير المصادر إلى أن فخر الملك ألحَّ عليه كل الإلحاح^(٦)، وأن الغزالي ألزم بالتدريس في نظامية نيسابور^(٧)، وأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاولات^(٨)، لكنه ما لبث أن ترك التدريس فيها وعاد إلى بيته في وطنه.

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٣٤، الوافي بالوفيات ١ / ٢٧٥، وفيات الأعيان ٢١٧ / ٤.

(٢) الوافي بالوفيات ١ / ٢٧٥.

(٣) وفيات الأعيان ٤ / ١٢٧.

(٤) شذرات الذهب ٤ / ١٢.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٤.

(٦) شذرات الذهب ٤ / ١٢.

(٧) وفيات الأعيان ٤ / ٢١٨، الوافي بالوفيات ١ / ٢٧٥، البداية والنهاية ١٢ / ١٧٤.

(٨) وفيات الأعيان ٤ / ٢١٨.

ولا ندري كم هي المدّة التي قضاها الغزالي في نيسابور يدرّس في نظاميتها. لكننا نعلم أن وفاة يوسف بن تاشفين التي جعلته يعود من الإسكندرية إلى طوس، ووفاة فخر الملك الذي ألزمه بالتدريس في نظامية نيسابور، كانتا في العام ذاته، أي عام خمسمائة للهجرة^(١)، لذا يمكننا أن نرجّح أن الغزالي استطاع أن يتخذ وفاة فخر الملك ذريعة لترك المدرسة النظامية، والعودة سريعاً إلى وطنه، والتخلّص من الإلزام الذي مارسه عليه هذا الوزير.

لهذا لم نعتبر مدة بقائه في نيسابور للتدريس في المدرسة النظامية مرحلة مهمة من حياته يجب الوقوف عندها.

وهكذا عاد الغزالي إلى وطنه بطوس، وعاد إلى ما كان عليه من رغبة في كيفية قضاء أيامه الأخيرة، فأقام بها، واتخذ له داراً حسنة وغرس فيها بستاناً أنيقاً^(٢)، وابتنى إلى جوار داره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم، ووزّع أوقاته على وظائف الخير، من ختم للقرآن ومجالسة أهل القلوب^(٣)، بحيث لا يمضي لحظة منها إلا في ضاعة من التلاوة والتدريس، والنظر في الأحاديث، وحفظ لأحاديث الصحاح^(٤)، وخصوصاً البخاري. ويروي الذهبي^(٥) أن الغزالي سمع صحيح البخاري من أبي سهل

(١) راجع خبر وفاة فخر الملك في البداية والنهاية ١٢/١٦٧.

(٢) البداية والنهاية ١٢/١٧٤.

(٣) البداية والنهاية ١٢/١٧٤. وفيات الأعيان ٤/٢١٨ - ٢١٩.

(٤) شذرات الذهب ٤/١٢.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٥ - ٣٢٦ و ٣٣٤.

الحفصي، وأنه سمع سنن أبي داود من القاضي أبي الفتح الحاكمي الطوسي، وأن خاتمة أمره كانت إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين.

ولعلَّ السبب في إقباله على طلب الحديث شدَّة نقد العلماء والمحدِّثين له ولكتابه «الإحياء» ففيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات^(١)، ومن الأحاديث الباطلة جملة^(٢)، ومن الواهيات كثير^(٣)، حتى قال أبو الفرج ابن الجوزي: صنَّف أبو حامد الإحياء، وملاه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها^(٤).

ورغم هذا فالإحياء كما ذكر العلماء، من أنفس الكتب وأجملها^(٥)، وهو الأعجوبة العظيم الشأن^(٦)، وهو غاية في النفاسة^(٧).

قال الذهبي^(٨): ما زال الأئمة يخالف بعضهم بعضاً، ويردُّ هذا على هذا. وما زال العلماء يختلفون، ويتكلَّم العالم في العالم

(١) البداية والنهاية ١٢/١٧٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤٠.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤٢.

(٥) وفيات الأعيان ٤/٢١٨.

(٦) شذرات الذهب ٤/١٣.

(٧) الوافي بالوفيات ١/٢٧٥.

(٨) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤٢.

باجتهاده، وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور، وإلى الله تُرجعُ الأمور^(١).

وانتقل أبو حامد الغزالي إلى رحمة ربّه، يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بالطبران، وهي قصبة طوس^(٢)، بعد مقاساة لأنواع من القصد والمناوأة من الخصوم والسعي فيه إلى الملوك^(٣).

رحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٧.

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢١٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤٦.

ثانياً: الكتاب: منهاج العابدين

منهاج العابدين^(١)، أو منهاج العابدين إلى الجنة^(٢)، أو منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين^(٣)، للإمام أبي حامد الغزالي.

والعابد هو القائم بحق العبادة، التي هي ثمرة العلم... واختيار أولي الأبصار... وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة^(٤).

والتَّهَجُّجُ والمَنْهَجُجُ والمِنْهَاجُ: الطريق الواضح البين^(٥). وفي التنزيل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، ولعلَّ العلماء أخذوا لفظة «منهاج» الواردة في الآية الكريمة واستعملوها حسب مقتضى الحاجة أو الفن الذي كتبوا فيه. فقد استعملت هذه اللفظة عند كثير من العلماء والمؤلفين في فنون مختلفة؛ وكما يبدو

(١) كما ورد في المخطوطة (١) وفي النسخة المطبوعة (ه).

(٢) كما ورد في آخر المخطوطة (ب): تمَّ منهاج العابدين إلى الجنة.

(٣) كما ذكره الكديري في شرحه: سراج السالكين شرح منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين.

(٤) را. افتتاحية منهاج العابدين.

(٥) را. القاموس المحيط ولسان العرب.

فالمنهاج هو الطريق الواضح البين الذي يجب أن يسلكه طالب فن من الفنون أو علم من العلوم.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب كشف الظنون^(١):

فمن كتب الحديث وشرحه: منهاج الابتهاج لشرح مسلم بن الحجاج.

ومن كتب الأصول: المنهاج في الأصول.

ومن كتب الفقه: منهاج الدراية في فروع الحنفية، وكذلك منهاج الطالبين.

ومن كتب البلاغة: منهاج البلاغة.

ومن كتب النحو: منهاج الأدب في التصريف.

ومن كتب التاريخ: منهاج السنوك.

ومن كتب نطب والدواء: منهاج البيان في ما يستعمله الإنسان.

ومن كتب الوعظ: منهاج الواعظين.

ومن كتب تربية الدينية: المنهاج في العبادة، منهاج القاصدين، منهاج العبيدين.

١ - صحة نسبة الكتاب للغزالي:

إن المخطوطات التي بين أيدينا تظهر بوضوح عند ذكر اسم

(١) كشف الظنون ٢/ ١٨٧٠ - ١٨٨٠.

الكتاب ومؤلفه أن صاحب الكتاب هو أبو حامد الغزالي، كذلك نقرأ في الأسطر الأولى من افتتاحية الكتاب ما نصّه: قال الشيخ الفقيه الصالح الزاهد عبد الملك بن عبد الله: أملى عليّ شيخي... أبو حامد الغزالي... هذا الكتاب.

وذكر صاحب كشف الظنون عندما أورد اسم الكتاب^(١)، أنه للغزالي.

وأورد الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي»^(٢)، «منهاج العابدين» في القسم الأول من الكتاب، أي ضمن الكتب المقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي، مرتبة حسب تاريخ تأليفها، فكان المنهاج آخر كتاب في هذا القسم.

وذكره فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق - قسم التصوف - ونسبه إلى أبي حامد الغزالي أيضاً^(٣)؛ كما ذكره الزركلي في «الأعلام» من بين مؤلفات الغزالي^(٤).

هذا وقد أثير كثير من الجدل حول صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي؛ والسبب في هذا الجدل هو أن محيي الدين بن عربي في كتابه «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»^(٥). ينسبه إلى أبي الحسن

(١) كشف الظنون ١٨٧٦/٢.

(٢) مؤلفات الغزالي ص ٢٣٤.

(٣) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - قسم التصوف - الجزء الثاني، ص ٧٨٠ - ٧٨٦.

(٤) الأعلام ٧/٢٢.

(٥) طبع هذا الكتاب في مجلدين، ونشرته دار اليقظة العربية - ١٩٦٨. را. ٢٢٤/١.

علي المسفر السبتي^(١)، وكان زاهداً مغموراً لقيه ابن عربي بسبته وقال: إنه مؤلف منهاج العابدين ورسالة النفخ والتسوية، اللذين يُنسبان كلاهما للغزالي، بل والصحيح أنهما ليسا للغزالي بل لأبي الحسن علي المسفر السبتي.

وأول من أشار إلى هذه الشبهة هو السيد محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، وذلك في كتابه «إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين»، الفصل التاسع عشر، في ذكر مصنفاته - أي الغزالي - التي سارت بها الركبان؛ الرقم (٧٥) يقول: «ومنها: منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، قيل: هو آخر تأليفه، رتبّه على سبع عقبات.

قلت (والكلام للزبيدي): ولم يذكره السبكي في تعداد مصنفاته. ورأيت في كتاب المسامرة للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي - قدس الله سرّه - ما نصّه: إن الشيخ أبا الحسن علي بن خليل السبتي، كان عالماً بنحقيقة، عارفاً، مخمولى الذكر، رأيت بسبته وتباحثت معه. ورأيت أنه تصانيف منها: منهاج العابدين الذي يُعزى لأبي حامد وليس له».

ومن هنا، تلتفت ماسينيون هذه الشبهة وذكرها في كتابه

(١) نسبة إلى سبته، بلدة مشهورة من بلاد المغرب، على البحر تقابل جزيرة الأندلس (را. معجم البلدان ٣ ١٨٢).

(٢) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لمرتضى الزبيدي ١/٢٧. راجع: مؤلفات الغزالي ص ٤٩٤ - ٤٩٥.

«عذاب الحلاج» (ج ٢ ص ٢٠ تعليق ١)، وفي إثره جرى بويج، فشكك في صحة نسبة المنهاج إلى الغزالي اعتماداً على ما ذكره ابن عربي.

وعلى عكس هذا نرى جوشه، واسين بلاثيوس، وجاردنر، وباور، كلهم يقولون إن الكتاب للغزالي^(١).

ويبدو لنا أن الكتاب صحيح النسبة للغزالي لأسباب عدّة أهمها:

١ - إن الذين ترجموا للغزالي وأشاروا إلى مؤلفاته عزوا هذا الكتاب له.

٢ - إن مقدمة الكتاب تشير بوضوح إلى أن مؤلفه الغزالي أملى هذا الكتاب المختصر على تلميذه عبد الملك بن عبد الله، وهو آخر كتاب صنّقه.

٣ - إن الكتاب هو حلقة في سلسلة كتب الغزالي الوعظية التي كان يلقيها على تلاميذه، بل هو واسطة العقد فيها.

٤ - إن الإشارات الواردة داخل الكتاب والتي تعيد القارئ إلى مؤلفات سابقة للغزالي تدلُّ بوضوح على صحة نسبة الكتاب.

٥ - إن الأحاديث النبوية الواردة داخل الكتاب هي في معظمها من ضمن مجموعة الأحاديث الواردة في كتاب الإحياء.

٦ - إن الرجوع إلى الكلام الذي ساقه ابن عربي في كتابه

(١) مؤلفات الغزالي ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» يُظهر أن هذا الكلام مقحم في سياق نص مأخوذ عن كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ في باب المماجنات، يتحدث فيه الجاحظ عن أخبار عنان جارية الناطفي؛ وهذا مما يضعف صحة كلام ابن عربي وصحة نسبته إليه. (را. محاضرة الأبرار ١/٢٢٢).

٧- إن اطلاعنا على القصيدة التي يوردها ابن عربي لأبي الحسن علي المسفّر، والذي يدّعي نسبة كتاب المنهاج له، يُظهر لنا نزعتها الصوفية الحلولية^(١) البعيدة كل البعد عن مضمون المنهاج، الخالي كلياً من هذه النزعة، والمشمول على دعوة لتربية النفس على العبادة والطاعة، والتغلب على نوازغ النفس الأمارّة بالسوء.

٨- إن خبر الواحد لا يقف أمام الأخبار العدّة التي تذكر أن منهاج العابدين هو لأبي حامد الغزالي، وهو آخر ما صنّقه.

٩- قد يكون لأبي الحسن علي المسفّر كتاب يحمل العنوان ذاته، وقد ظن ابن عربي عندما رأى كتاب أبي الحسن، أنه هو نفسه الكتاب المنسوب إلى الغزالي، ولعل ابن عربي كان يسمع بكتاب

(١) من هذه القصيدة نختار الأبيات التالية:

فكُونِي إِذْ رَأَوْنِي حَزْنًا	قُلْ لِإِخْوَانِ رَأُونِي مَيًّا
لِحَيَاةٍ هِيَ غَايَاتُ الْمَنَا	لَا تَنْظَنُوا الْمَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ
تَبْصُرُوا الْحَقَّ جَهَارًا بَيْنَنَا	فَاخْلَعُوا الْأَجْسَادَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ
وَأَرَى الْحَقَّ جَهَارًا عَلَنًا	فَأَنَا الْيَوْمَ أَنْجِي مَلَأَ
كُلِّ مَا كَانَ وَيَأْتِي وَدَنَا	عَاكِفٍ فِي اللُّوحِ أَقْرَأُ وَأَرَى
وَأَعْتَقَادِي أَنْكُمْ أَنْتُمْ أَنْأَا	مَا أَرَى نَفْسِي إِلَّا أَنْتُمْ

الغزالي دون أن يراه، فلما رأى كتاب أبي الحسن ظنه هو، وقال ما قال .

٢ - تاريخ تأليفه وموقعه من كتبه الأخرى:

عاد الغزالي إلى وطنه طوس عام خمسمائة للهجرة، وعاد إلى ما كان عليه من رغبة في كيفية قضاء أيامه الأخيرة، فأقام بها، واتخذ له داراً حسنة، وابتنى إلى جواره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم، ووزع أوقاته على وظائف الخير، من ختم للقرآن، ومجالسة أهل القلوب^(١)، بحيث لا يمضي لحظة منها إلا في طاعة من التلاوة والتدريس والنظر في الأحاديث، وحفظ الأحاديث الصحاح^(٢)، وخصوصاً البخاري^(٣).

في هذه المرحلة الأخيرة من عمر أبي حامد، صنّف كتابه منهاج العابدين، وأرجح أن الغزالي صنّفه في آخر هذه المرحلة أي ما بين عامي ٥٠٤ هـ و ٥٠٥ هـ، وذلك للأسباب التالية:

١ - وجود إشارة واضحة صريحة في افتتاحية الكتاب أنه أملاه على تلميذه عبد الملك بن عبد الله، وأنه آخر كتاب صنّفه، ولم يستعمل منه إلا خواص أصحابه .

٢ - إن الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب هي في معظمها أحاديث صحيحة وحسنة، فقد خلا الكتاب من تلك الأحاديث

(١) البداية والنهاية ١٢/١٧٤، وفيات الأعيان ٤/٢١٨-٢١٩.

(٢) شذرات الذهب ٤/١٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٥-٣٢٦، و ٣٣٤.

الموضوعه أو الباطلة أو الواهية التي وردت في الإحياء، والتي كانت سبباً أساسياً في مطاعن العلماء عليه^(١). وهذا ما يفسّر سبب رجوعه إلى كتب الحديث في أيامه الأخيرة للنظر فيها، ولحفظ الأحاديث الصحاح وخصوصاً البخاري كما سبق وأشرنا.

ولا شك أن مثل هذه العملية تحتاج إلى وقت، فإذا عرفنا أنه بعد أن عاد عام ٥٠٠ هـ إلى طوس، اضطر للتدريس في نيسابور مدة، ثم رجع بعدها ثانية إلى طوس، ثم عكف على النظر في كتب الحديث وحفظ الصحاح خصوصاً البخاري وكل ذلك احتاج إلى وقت صُرف بعد عام ٥٠٠ هـ. وهذا ما يؤيد ترجيحنا أن الغزالي صنّف كتاب المنهاج في العامين الأخيرين من حياته.

٣ - هناك إشارات أخرى أقل أهمية مما ذكرت، لكنها تتفق مع الحالة النفسية الهادئة التي أراد أن يعيشها الغزالي بعيداً عن الصراع مع العلماء ومخاصمتهم والرد على افتراءاتهم ودعاويهم. فبعد أن صنّف في قطع هذه الطريق - أي الطريق المؤدي إلى الجنة - كتباً كإحياء علوم الدين، والقربة إلى الله تعالى، وأسرار المعاملات، واحتوت على دقائق من العلوم اعتاصت على أفهام العامة، فقدحوا فيها، وخاضوا فيما لم يحسنوه منها^(٢)، عاد الغزالي إلى نفسه التي هدأت وسكنت فرأى أن الحال - الجديدة - اقتضت النظر إلى كافة خلق الله تعالى - لا إلى جماعة خاصة منهم - «فابتهلّت إلى من بيده

(١) راجع ما أورده الذهبي من أقوال العلماء كابن الجوزي حول أحاديث الإحياء: سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤٠ - ٣٤٢.

(٢) افتتاحية منهاج العابدین.

الخلق والأمر، أن يُوفَّقني لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع»^(١).
وطلب الإجماع دليل طلب الراحة والهدوء لا طلب الصراع
والخصومات، وهذه هي حاله في آخر أيام عمره.

٣ - مضمون الكتاب وأهميته:

أراد الغزالي من هذا الكتاب شرح كيفية سلوك طريق
الآخرة^(٢)، وذلك بالعبادة التي هي ثمرة العلم وطريق الأتقياء
ومنهاج الجنة^(٣)، حتى ينتفع به المبتدئ والمتتهي، والقوي
والضعيف^(٤)، فهو للعامة وليس للخاصة كما هو كتاب القربة إلى الله
تعالى أو كتاب أسرار معاملات الدين، الذي لا ينتفع به إلا فحول
العلماء الراسخون في العلم^(٥).

لذا يقول الغزالي: «فاقتصرت في هذا الكتاب الشريف على
نكت وجيزة اللفظ، غزيرة المعنى، تقنع من تأملها، وتدعه على
واضحة من الطريق، إن شاء الله تعالى»^(٦).

ولعلَّ الغزالي تعب في آخر أيامه من الاختلاف مع العلماء
والمحدِّثين فأراد أن يكتب كلاماً واضحاً سهلاً مفهوماً لا يعتاص

(١) م. س.

(٢) المنهاج: الورقة ٩٧/أ.

(٣) م. س: الورقة ٢/أ.

(٤) م. س: الورقة ٣٤/ب.

(٥) م. س: الورقة ٣٤/ب.

(٦) م. س: الورقة ٤٤/أ.

على أحد. يقول: «فابتهمت إلى من بيده الخلق والأمر، أن يوفّقني لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع»^(١)، ولا يعترض عليه معترض.

من هنا تبرز أهمية كتاب منهاج العابدين من بين كتب الغزالي التي ألّفها في الموضوع ذاته أو في مواضيع أخرى.

كذلك فالكتاب يتناول النفس البشرية بالوصف والعلاج مما علق أو يعلق بها من شرور وآثام أو ميل نحوها. فقد «سألت الله أن يُطلّعني على سرِّ معالجة النفس، وأن يُصلّحني ويُصلّح بي»^(٢).

ويظهر الغزالي كرجل عالم بالأخلاق عظيم، قابض على زمام موضوعه تماماً، دقيق إلى الغاية، نفساني ذرب، مصنّف عجيب في ضروب الأخلاق، يُعرب عن أفكاره بفيض وحرارة تفرضان على قارئه الإعجاب به.

إنه يقرر نظرية معتدلة عن التصوف الإسلامي الذي يُبعد مذهب وحدة الوجود والحلولية وغيرها مما أخذ على بعض رجال الصوفية.

فالغزالي يمسك التصوف ضمن حدود مرسومة بدقّة وعناية متناهيتين، ويجعل منه مدرسة رائعة لإيمان متواضع وقلب ملؤه النقاوة والصفاء، ينعكسان خلقاً إسلامياً مثالياً.

لم يخرج الغزالي عن جادة السنّة، وإنما رغب في أن يجعل لتعاليمها وأحكامها تأثيراً مباشراً على حياة المسلم، أعظم نبلاً

(١) م. س: الورقة ٣/١.

(٢) م. س: الورقة ٤٤/١.

وأوثق اتصالاً بالقلب، وأن يقرب بينها وبين المثل الأعلى الذي يبغيه ويحبّده للفرد المسلم.

٤ - منهج الغزالي وأسلوبه في هذا الكتاب:

يقرُّ الغزالي أن المنهج الذي اتبعه في هذا الكتاب كان بإلهام من الله تعالى، وهو ترتيب فريد لم يذكره في غير هذا الكتاب. يقول: «... وألهمني فيه ترتيباً عجيباً لم أذكره في المصنفات التي تقدّمت»^(١).

ثم بيّن الغزالي هذا الترتيب الذي ألهمه إياه مولاه في طريق العبادة، فرأى أن فيها سبع عقبات هي: عقبة العلم، عقبة التوبة، عقبة العوائق، عقبة العوارض، عقبة البواعث، عقبة القوادح، عقبة الحمد والشكر، وبتمامها يتمُّ كتاب منهاج العابدين إلى الجنة^(٢).

بعد ذلك يتبع الغزالي هذه العقبات بشرح يقتصر على نكت وجيزة اللفظ، غزيرة المعنى، تقنع من تأملها وتدعه على واضحة من الطريق إن شاء الله^(٣).

والكلمة عند الغزالي تجري من بين شفّتيه من غير أن تجفّ،

(١) م. س: الورقة ٣/أ.

(٢) م. س: الورقة ٥/ب. وقد ورد في معجم مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق أن منهاج العابدين يضم سبع عقبات وأربع موات. والمعروف أن الغزالي لم يتكلم في المنهاج إلا على العقبات السبعة، ولعلّ الناسخ أو غيره أضاف عبارة الموات الأربعة هذه. والله أعلم.

(٣) م. س: الورقة ٤٤/أ.

لما يهبها من حياة وعاطفة صادقة، وتتدفق الكلمات والعبارات
بغزارة لا تنافي الرقة واللطافة وسرعة الانسياب والتأثير في القلوب
والنفوس.

٥ - مخطوطات الكتاب :

يورد الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي»
أماكن وجود مخطوطات منهاج العابدين وأرقامها في مكتبات
العالم؛ ولا نبالغ إذا قلنا إن مخطوطات هذا الكتاب تكاد تكون
موجودة في معظم المكتبات العالمية المشهورة. ونود أن نضيف إلى
ما ذكره الدكتور بدوي أن هناك نسختين من المنهاج في صنعاء
باليمن (- فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير - صنعاء):

- النسخة الأولى: أولها: حدثني الشيخ الفقيه الصالح
الزاهد... وآخرها: كل خير وامة وهي مرآة تريك الحسنات
والسيئات.

الخط نسخي جيد، عدد أوراقها ٨١ ورقة، عدد الأسطر في
الورقة ٢٥ سطراً، قياسها ٣٢ × ٢١. والملاحظ أنها تبدأ بحدثني
وليس بأملى كغيرها من المخطوطات التي بين أيدينا ولعلها ناقصة
من آخرها. ورقم هذه النسخة (٤١٢).

- النسخة الثانية: خطها نسخي معتاد، وتاريخ نسخها هو
محرم ١٠٢٠ هـ. أوراقها ١٣٨، في الورقة الواحدة ١٧ سطراً
وقياسها ٢٠ × ١٥، وقد كتبت بمصوغ، وهي من وقف محمد بن
الحسن، ورقمها (٢٠٣٤).

أما النسخ التي استطعت الحصول عليها أو على صورة لها فهي:

أ - نسخه دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم: ٥٨٧٤ تصوّف.

أولها: الحمد لله الملك الحكيم، الجواد الكريم، العزيز الرحيم... اعلموا إخواني أسعدكم الله وإيانا بمرضاته أن العبادة ثمرة العلم...

آخرها: فهذا ما أردنا أن نذكره في شرح كيفية سلوك طريق الآخرة، وقد وقّينا بالمقصود، وصلى الله على خير مولود دعا إلى أفضل معبود، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

مواصفاتها:

الخط نسخي واضح، الحبر أسود، وبعض الكلمات بالأحمر. عدد أوراقها سبع وتسعون ورقة، في كل صفحة تسعة عشر سطرًا، وعدد كلمات السطر الواحد ما بين ١٢ - ١٥ كلمة تقريباً.

قياس الورقة: ١٧,٥ × ١٣,٥ سم مع هامش ٣ سم. والنسخة مراجعة ومقابلة، وفي هامشها تصويبات وتوضيحات. وفي آخرها ذكر لعدد من المقابلات والمطالعات.

ناسخها: محمد بن سالم الحسيني.

تاريخ النسخ: ١٦ ذي الحجة سنة ٨٧٧ هـ.

وقد رمزت إلى هذه النسخة بـ (أ) واعتمدها أصلاً للتحقيق
لأسباب عدة أهمها:

— إنها من أقدم النسخ التي بين يدي.

— إنها تامة كاملة من بدايتها حتى نهايتها.

— إن خطها هو أوضح الخطوط.

فحيثما ذكرت عبارة «في الأصل» فإنني أعني هذه النسخة (أ).

ب — نسخة ثانية في دار الكتب الظاهرية بدمشق: رقم ٨٢٤٥
تصوف.

أولها: في الدين والحكم، إذ لا تجتمع هذه الأمة على
ضلالة... وهذا يعني أنه سقط من أول هذه النسخة خمس
وعشرون ورقة تقريباً تضم افتتاحية الكتاب والعقبة الأولى، والعقبة
الثانية، ونصف العقبة الثالثة.

آخرها: كالنسخة السابقة.

مواصفاتها:

الخط نسخ معتاد، لكنه أقل إتقاناً من خط النسخة السابقة،
الحبر أسود، وبعض الكلمات بالأحمر.

عدد أوراقها خمس وتسعون ورقة، والترقيم فيها متسلسل من
الرقم واحد إلى آخر المخطوطة، وهذا يعني أن الذي رقمها ليس
ناسخها.

وفي كل ورقة منها واحد وعشرون سطرًا، وعدد كلمات
السطر الواحد ما بين ٩ - ١٢ كلمة تقريباً. قياس الورقة: ٢٣,٥ ×

١٥,٥ سم مع هامش ١,٥ سم تقريباً والنسخة مراجعة وفي هوامشها بعض التصويبات.

ويلاحظ أنّ الورقة الأولى أُفحِمت فيها، وتعود إلى شرح مختصر للرسالة المسماة بذخيرة السلامة، وضعه حسين بن الشيخ طعمة البيتماني الشافعي الدمشقي؛ وهو من وقف نقيب السادة الأشراف في الشام محمد سعيد آل حمزة.

ناسخها: أحمد بن علي الحلبي.

تاريخ النسخ: ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٤٢ هـ.

وقد رمزت إلى هذه النسخة بـ(ب)، ولم أعتدّها أصلاً. لعملي مع أنها أقدم من النسخة الأولى، وذلك للنقص الواقع في أولها، لكنني اعتبرت نصّها مرجّحاً إذا اختلفت النسخ ولم يكن في النسخة الأصلية ما يساعد على الترجيح.

ج - نسخة قونية (بتملك المحقق).

هذه النسخة كنت قد اشتريتها من دكان صغير يبيع الكتب القديمة في أحد أسواق قونية وذلك عام ١٩٧١، وهي ضمن مجموع مخطوط يشتمل: إضافة إلى منهاج العابدين، كتاب الكشف والتبيين، وتفاسير مجموعة من سور القرآن الكريم.

أولها: قال الشيخ الإمام عبد الملك بن عبد الله، أملى عليّ شيخي الإمام حجة الإسلام، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه هذا الكتاب، وهو آخر كتاب صنّفه وهو هذا، الحمد لله الملك الحكيم، الجواد الكريم، العزيز الرحيم . . .

آخرها: فهذا ما أردنا ذكره في شرح كيفية سلوك الآخرة، وقد وقينا بالمقصود، وصلى الله على خير مولود، ودعاء إلى أفضل مبعوث محمد النبي، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

مواصفاتها: الخط نسخي جيد، والحبر أسود.

عدد أوراقها تسع وثمانون ورقة، في كل ورقة منها واحد وعشرون سطراً، وعدد كلمات السطر الواحد ما بين ١٢ - ١٥ كلمة تقريباً قياس الورقة ١٠ × ١٦ سم مع هامش ٢ سم تقريباً.

النسخة مراجعة، وفي الهوامش تصويبات.

ناسخها: عثمان بن محمد، وهو مالكاها أيضاً.

تاريخ النسخ: صفر ١١٤٢ هـ.

وقد رمزت إلى هذه المخطوطة بـ(ج).

٦ - طبعات الكتاب:

طبع كتاب منهاج العابدين أول مرة في القاهرة عام ١٢٨٨ هـ، ثم طبع ثانية عام ١٢٩١ هـ ثم ثالثة ١٣٠٥ هـ، وفي هذه الطبعات ظهر الكتاب منفرداً. وبعد ذلك أعيد طبع الكتاب وبهامشه بداية الهداية الذي هو للغزالي أيضاً، أو المنهاج بهامش البداية، من عام ١٣٠٦ هـ حتى عام ١٣٥١ هـ، وذلك بمطبعة البابي الحلبي بمصر.

٨

منهاج العابدين

للسيخ الامام العارف بالله تعالى زين الدين حجة
الاسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
القاوسي قدس الله روحه ونور ضريحه ونفعنا
والمسلمين بعلومه آمين

(وبهاشبه الكتاب المسمى بداية الهداية لا زلت أيضا)

طبع بطبعة

مطبعة البيان في بيروت وازداد بمصر

رمضان - ١٣٢٧ هـ

صورة غلاف النسخة المطبوعة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال الشيخ الامام العالم
الامير ابو حامد محمد بن محمد
ابن محمد الغزالي الطوسي
قدس الله روحه ونور
ضريحه آمين والحمد لله
عبد والملائكة والسلام على
خير خلقه محمد وعلى آله
وصحبه من بعده (أما بعد)
فاعلم أيها الحريص المتقرب
على اقتباس العلم النافع
من نفسه صادق الرغبة
وقربا التماس اليه أنك
ان كنت تفقد بطلب العلم
النافع والمباهاة والتقديم
على الأقران واستناله
وجوه الناس اليك وجمع
عظام الدنيا فانت ساع في
هدم دينك وهلاك نفسك
ومع آخرتك بدنيك
صفحة كخانة وتجاركتك
بائرة ومعصيتك
على عصيانك وشريكك
في خسارتك وهو كيانك
سنة من فاطم طريق كما
قال صلى الله عليه وسلم
من أعان على معصية ولو
بشطر كفة كان شريكا
فيها وان كانت نيتك وقصدك
بينك وبين الله تعالى من
طلب العلم الهداية دون
بحر الزوايا فأبشر فان

فذكر ان نعمت الذكرى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخنا في السالك الزاهد عبد الله بن عبد الله غفر الله له أمي - علي - شيخنا الاجل الامام الزاهد
السيد الورق حجة الاسلام زين الدين شرف الامة أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس
الله روحه ورفيع رتبة في الجنة درجة هذا الكتاب المنصهر وهو آخر كتب صنفه ولم يستعمله منه
الاخرس أصحبه وهو (الهدية) الملك الحكيم الجواد الكريم أمير المؤمنين الذي خلق الانسان
في أحسن تقويم وأطر السموات والأرض بقدرته ودبر الامور في الدارين بحكمته وما خلق الجن
والانس الا لعبادته فالطريق الواضح اليه عديد والدليل عليه لا يخفى على الناظرين ولكن الله يصل من
يشاء ويهدي من يشاء وهو أعلم بالمتدين والصلاة على سيد المرسلين وعلى آله الابرار الطيبين
الطاهرين وسلام وعظم الى يوم الدين (والله واخواني أوسعكم كرامة وأبأي برضائه) أن العبادة مرة العلم
وقائد العمر وحاصل العبيد الاقوياء وبضاعة الاولياء وطريق التقيا ورفع الاعزة ومقصد
ذوي الهمة وشهد الكرام وحرفة الرجال واختيار أولى الابصار وهي مدار العبادة ومنها الجنة قال
الله تعالى وأمر بكما تريدون وقال تعالى ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ثم انما نظرنا
فيها وانما نلت طريقها من مبادئها الى مقاصدها التي هي آمانى سالكيها فالعلم طريق عز وسبيل صعب
كثيرة العقبات شديدة الشقات بعيدة ذات عظمة الآفات كثيرة المرائق والموانع حقيقة
المهلكة وانما طريق عزيرة الاعداء والقطع عزيرة الاشباع والاتباع وما نتاج أن تكون لانها
طريق الجنة وسرها تصديقنا قاله صلى الله عليه وسلم ألا وان الجنة مفت بالمكاره وان النار حفت
بالكاهنات وقال صلى الله عليه وسلم ألا وان الجنة حزن بريرة ألا وان النار سهل بسهولة ثم مع ذلك كله
فان العبد صعب والزمان صعب وأمر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير
وقب العمل تقصير والناقد بصير والاجل قريب والشرف بعيد والندمة هي الراد فلا بد منها وهي
فاتنة فلا ردها فنظفها ففار وسما بيدا لأبدن ودهر بالمرين ومن فاته ذلك خسر مع

وقد استطعت الحصول على إحدى هذه النسخ المطبوعة في مصر عام ١٣٣٧ هـ ورمزت إليها بـ(هـ). وعدد صفحات هذه النسخة خمس وتسعون صفحة.

٧ - شروح الكتاب ومختصره:

ذكر صاحب كشف الظنون^(١)، أن شمس الدين البلاطنسي شرح المنهاج شرحين كبيراً وصغيراً؛ ثم اختصر المنهاج في جزء وسمّاه بغية الطالبين، أوّله: الحمد لله الذي وفق من شاء من عباده.

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في «مؤلفات الغزالي» (٢٣٦) أن البلاطنسي توفي حوالي ٨٥٠ هـ/١٤٤٦، ومن مختصره مخطوط في برلين برقم ٣٢٦٧، وأن هناك شرحاً آخر لمصطفى البكري، منه مخطوط في برلين برقم ٣٢٦٩، وشرحاً لعبد الوهاب الشعراني سمّاه مقاصد منهاج العابدين، منه مخطوط في بنكيبور بالهند.

كذلك شرح المنهاج الشيخ إحسان بن محمد دحلان الجمفسي الكديري، أوّله: هذا شرح وجيز منيف، وتحرير رائق شريف، على كتاب منهاج العابدين إلى جنّة رب العالمين... سمّيته: سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنّة رب العالمين^(٢).

وقد طبعته ونشرته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنة ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م في جزأين: الأول: ٥٤٤

(١) كشف الظنون ٢/١٨٧٦.

(٢) يذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن سراج السالكين لمحمد بن عبد الحق بن شاه محمد وأنه طبع بمصر سنة ١٣٣١ هـ وأن للزيني دحلان كتاب تنبيه الغافلين ولعلّه تلخيص منهاج العابدين، طبع بمصر سنة ١٢٩٨ هـ.

صفحة والثاني: ٥٥٤ صفحة أي ما مجموعه ١١٠٠ صفحة تقريباً.

ومع أهمية هذا الشرح إلا أنه شرح مفصل يبعد القارئ عن جمال النص وعمق تأثيره ويدخله في شروحات مستفيضة أحياناً، يمكن الاستغناء عنها. وقد استعنت بهذا الشرح في عملي ورمزت إليه بحرف (د).

٨ - ترجمة الكتاب:

ترجم منهاج العابدين إلى اللغتين التركية والفارسية حسب ما تشير المصادر التي بين أيدينا. فقد ذكر صاحب كشف الظنون أن إلياس بن عبد الله المعروف بنهاني نقله إلى التركية سنة ٩٢٥ هـ وألحق به مسائل العبادات الخمس^(١). ويذكر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق^(٢)، ترجمة أخرى للمنهاج إلى التركية قام بها عناني المتوفى سنة ٩٢٥ هـ، منها نسخ في جوتا ٧٧، وآيا صوفيا ١٧٢٢، وفتح ٢٨٧٦.

كذلك ترجم المنهاج إلى الفارسية شيخ يوسف يدهه ساكن أيرج، المتوفى سنة ٨٣٤ هـ، ومنه نسخ في بنكيبور ١٣٧٩، ليدن ٣١٥/٤، الديوان الهندي ١٨٦٥، الجمعية الآسيوية في البنغال ١١٦٥. كما أن هناك ترجمة فارسية للمنهاج طبعت ببومباي سنة ١٢٩٤ هـ في ١٠٧ صفحات^(٣).

(١) كشف الظنون ١٨٧٦/٢، ويذكره الدكتور بدوي ضمن تلخيصات المنهاج لا ضمن ترجماته، ويذكر أن منه مخطوطاً في برلين برقم ٢٣٠٩.
(٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق - تصوف - ٧٨٦/٢.
(٣) م.س.

ثالثاً: التحقيق

١ - النسخ المعتمدة:

- اعتمدت في تحقيق كتاب منهاج العابدين على ثلاث نسخ
خَطِيَّة^(١)، ونسختين مطبوعتين^(٢)، وهي حسب أهميتها:
- أ - نسخة خطية موجودة في دار الكتب الظاهرية (مكتبة الأسد).
بدمشق، رقمها ٥٨٧٤ تصوّف، تاريخ نسخها عام ٨٧٧ هـ.
- ب - نسخة خطية ثانية موجودة في دار الكتب الظاهرية (مكتبة
الأسد) بدمشق، رقمها ٨٢٤٥ تصوّف، تاريخ نسخها عام
٨٤٢ هـ.
- ج - نسخة خطية ثالثة مصدرها قونية بتركيا، وهي بتملك
المحقق.
- د - نسخة مطبوعة ضمن شرح للكتاب باسم: سراج الطالبين شرح
منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، للشيخ إحسان بن

(١) راجع ما ذكرناه عند الحديث على مخطوطات الكتاب.

(٢) راجع ما ذكرناه عند الحديث على طبعات الكتاب.

محمد دحلان الكديري. طبعت عام ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م

بمصر في جزأين كبيرين.

هـ - نسخة مطبوعة وبهامشها بداية الهداية للمؤلف أيضاً، طبعت

عام ١٣٣٧ هـ بمصر في خمس وتسعين صفحة.

٢ - المنهج المعتمد في التحقيق:

رغبة في إخراج النص إخراجاً علمياً جيداً يسهل على القارئ مطالعته والاستفادة منه على أفضل وجه، رأينا أنه من المناسب اعتماد المنهج التالي:

- أ : تقطيع الكتاب إلى أبواب وفصول تتفق مع مضمونه.
- ب : إضافة عناوين في المتن وفي الهوامش حيث تدعو الحاجة.
- ج : شرح المفردات وإيضاح المشكل منها.
- د : ضبط أوزان الآيات الشعرية الواردة مع ذكر بحورها.
- هـ : تخريج الآيات القرآنية الواردة.
- و : تخريج الأحاديث النبوية وبيان درجة صحتها ومكان ورودها في الكتب الحديثية، مع إعطائها رقماً متسلسلاً من أول الكتاب إلى آخره.
- ز : وضع فهرس أبجدي بالأحاديث النبوية الواردة، مرتب حسب بداية الحديث ومكان وروده تسهيلاً للعودة إليه.
- ح : التعريف بالأعلام الواردة أسماؤهم، مع إعطاء نبذة مختصرة عنهم.
- ط : وضع فهرس أبجدي بالأعلام مع ذكر مكان ورودها في الكتاب.

ي : وضع فهرس بأسماء الكتب الواردة في متن الكتاب سواء أكانت للمؤلف أو لغيره.

ك : وضع فهرس بالأشعار الواردة مع ذكر قائلها ومكان ورودها وبحورها، مرتب على القوافي.

ل : وضع فهرس بأهم مصادر التحقيق.

م : إن ما وضع ضمن هلالين هو زيادة من المحقق أو من النسخ الأخرى.

وفي الختام، أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على ما وقَّفتني إليه من خير وصواب، ويغفر لي ما اقترفت يداي من أخطاء، ويلهمني من لديه علماً ورشداً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

د. محمود حلاوي

بيروت في ٢٧ رمضان ١٤٠٨ هـ
الموافق ١٣ أيار ١٩٨٨ م

وكان تأليف هذا الكتاب بطريق الاستدلال
على قلبه عبد الملك بن عبد الله



الله
١٥



١٥٥٥

صورة غلاف النسخة (أ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَحَسْبُ اللَّهُ نَعْمَ الْوَكِيلُ
 بِحَمْدِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَكِيمِ ، الْجَوَادِ الْكَرِيمِ ، الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، الَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ فِي ثَمَنِيَةِ أَيَّامٍ ، وَدَبَّرَ الْأُمُورَ فِي ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، وَمَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ إِلَّا عِبَادَةً
 لِقَائِهِ ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ ، وَرَاحَةُ الْمَقْبُورِينَ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ لِأَعْيُنِ النَّاطِرِينَ ، وَكَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ
 مِنْ شَرِّ الْوَهْدِيِّينَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَابِينَ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ،
 وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ الطَّيِّبِينَ أَجْمَعِينَ ، وَسَلَّمَ وَعَظَّمَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، أَعْلَمُوا أَحْوَابِي أَسْعَدَكُمْ
 اللَّهُ ، وَأَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، إِنَّ الْعِبَادَةَ تَمُنُّ بِالْعِلْمِ ، وَفَائِدَةُ الْعَمَلِ وَحَاصِلُ الْعَدَدِ وَنَضَائِجُ
 الْأَوْلِيَاءِ ، وَطَرَبُ الْأَقْوِيَاءِ ، وَتَمِيمُ الْأَعْرَفِ ، وَمَقْصِدُ دَوَى الْهَيْبَةِ ، وَسِحْرُ الْكِرَامِ ، وَحِرْمَةُ
 الرَّجُلِ ، وَاحْتِسَابُ رَأْيِ الْأَصَارِ ، وَفِي سَبِيلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنْحَاحِ الْخَيْرِ ، فَاتَّبِعُوا سَبِيلَ
 اللَّهِ ، وَتَعَالَى وَتَأْتِيكُمْ فَأَعْبُدُونِ ، وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ هَذَا كَارِهُكُمْ جَزَاءٌ ، وَكَارِهُكُمْ سَعْيَكُمْ
 مَشْكُورًا ، فَمَا نَظَرْنَا فِيهَا ، وَمَا مَنَعْنَا مِنْهَا ، وَمَا نَدَّهَا إِلَّا مَقَاصِدُهَا ، الَّتِي لَمْ يَأْمُرْ
 تَسَالُكُهَا ، نَادِيًا ، طَرَبًا ، وَتَعَبْرًا ، وَتَسْبِيلًا ، كَيْفَ الْعَيْشَاتِ شَدِيدَةِ الْمَشَقَاتِ
 بَعْدَهُ ، الْمَشَافَاتِ ، فَطَبِخُ الْإِطْرَابِ ، كَثِيرُ الْعَوَائِقِ ، وَالْمَوَائِقِ ، حَقِيقَةُ الْمَالِكِ ، وَالْمَطْلَعِ
 عَرِيضُ الْأَدْبَابِ ، وَالْفَطْحُ ، مَعْرِيفَةُ الْإِشْيَاعِ ، وَالْإِتْبَاحِ ، وَهِيَ كَذَلِكَ ، أَنْ يَكُونَ
 لِأَهْلِ سِرِّهِ ، مَعْرِيفَةُ هَذَا ، تَعْبُدُوا اللَّهَ ، رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 إِنَّ اللَّهَ حَقٌّ بِالْمَكْرَاهِ ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ بِالشَّهَوَاتِ ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 الْأَوْجُوحُ جَزْنٌ ، وَرَبْوَةٌ الْأَوَانِ ، الْمَارِئُ سَهْلٌ ، سَهْوٌ تَمُّ مَعْ ذِكْرُهُ ، عِلَّةٌ طَارُ الْعَبْدِ
 ضَعِيفٌ ، وَالرِّمَاءُ صَعْبٌ ، وَأَمْرٌ الدُّنَى مَرِاحٌ ، وَالْبَيْعُ قَلْبَانٌ ، وَالنَّفْلُ كَثِيرٌ ، وَ
 الْعَرْقُ قَمِيرٌ ، وَفِي الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ ، وَالْإِبْلُ قَرِيبٌ ، وَالسَّعْرُ بَعِيدٌ

وَمَا كَانَ صَدَقَ

وَالْحَقُّ

الورقة الأولى من النسخة (أ)

ولأنك بعبادة ربنا هذا والرابع من علم غير طائفه منظر الامام علي عليه السلام
مع لسفينا بدوا ليا هو وحده الذال منه ومن خلفه حتى يقول لا كرم الخلق غير علي
عليه وسلم ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك ان لا تشركا الا ان تقولوا ما هو حتى انه
عليه الصلاة والسلام يقول شئت فقولوا واخافنا من حمله الامر وتفصيله ما قاله رب
العالمين واربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل انما خلقناكم قبضات وانكم
الى الارجعون ثم قال عز وجل ولننظر نمت ما قدمت لعدو القوم ان الله جود
بما تعلمون ثم قال عز وجل والذين جاءوا من بعدهم فانهم ظنوا انهم المخرجين
ثم اجمل الكل فقال وهو اشدق العالمين ومن جاهد فانه لجاهد لبيمان الله تعالى
عز العالمين ويحترق من الله كل ما اذله القدم او الطغي به الفم وتضعف
من انا ولنا التي لا توافق اعمالنا وتضعف مما اذعنا والمهزاة من العلم دين
الله تعالى مع القصير فيه وتضعف من كل خطر دعنا الى تصحيح وترين
في كتاب نظرنا ما وكان طناه او علم اذناه ونشالنا بحفنا واياكم معت
الاجران بما علمنا عالمين ولو حجبهم يريدن وان لا جعله وبالا علنا
وان يصعب ومرار القنا ما اذا اردت انما لنا الينا انما جوادكم تصنا
ما اردنا ان يكون في شرح كيفية سلوك طريق الاحق وقد وفتا بالمفود وسيا
الله على خير مولود دعا الى الصلابة بعبوده غير على له عليه وعلى الله فحبه وسلم
سلماتا كثيرا ثم كل من هاج العابد من محمد بنه تعالى وهو نوره وحسن بوضعه
في كتابنا الحنفى اذ من شهرنا الحنفى من سنة سبع وتسعين وثمان مائة
على يد كاتبه لثغفني ولم يتلوه عز وجل من بيده غير عوفيه ودره العبد الفقير العالما

شهادة

لا

الورقة الأخيرة من النسخة (أ)

عهد من الملوك في عهد الله له ولوالديه
 وجميع المسلمين ولشيوخه واصحابه ومجسه
 وفيه بطلان ولم يقل امين ويحيى
 للمسلمين امين والحمد لله
 وربي العالمين

ليعقب الله
 في غابله والحمد لله

هذا ما كتبه
 في سنة ١٠٠٠
 في شهر ربيع الثاني
 في يوم الاثنين
 في سنة ١٠٠٠
 في شهر ربيع الثاني
 في يوم الاثنين

وقال الله في كتابه العزيز
 وما كان لعلنا ندينهم
 على ما كانوا يعملون

قولت هذه النسب
 على نسخة قويت على
 الشيخ فصحت بعد
 ٨٨١

يكون في سنة
 قواع من السنة
 في تاريخه
 ١٣٠٠

من يقرأه
 ينجى الله
 به نفسه
 من النار
 والحمد لله
 رب العالمين

هذا ما كتبه
 في سنة ١٠٠٠
 في شهر ربيع الثاني
 في يوم الاثنين
 في سنة ١٠٠٠
 في شهر ربيع الثاني
 في يوم الاثنين

المصر
 في سنة ١٣٠٠

الورقة الأخيرة من النسخة (أ) وتبدو عليها المقابلات

يا الذين في الحكم اذا اجتمع هذه الامتد على مناداة تحرق الاجتماع ولا
 عليه جهود الامية والشيو ودعهم بلطال وضلات واما ان يختار
 فيهم فليس هذا من ذلك في سبي والثاني ^{الذي} فيكم بلماعة بان لا تنقطعوا عنهم
 جمعهم وجماعاتهم ولجوها فان فيها قوة الدين وجمالك الاسلام وتحتفظ الكفا
 المبرزين ولا يخلوا دلائل من بركات ونظر من الله بالزينة ولذا يقول
 حق المنفرد ان يشارك الناس في الجموع العاخذ في الخير وان يحاربهم
 فيهم والمزاج في سائر الامور كما فيها من مزوب الامان وثالث ان
 في غير زمان الفتنة للرجل الضعيف في امر الزين واما رابعه
 في امر الله اذ اراني زمان الفتنة الذي خذ وعنه الحق على الله
 عمل الامتد منه ^{الدين} و امرهم بالعترة او بالي الخليفة من نفسه
 لا في قطع من جموع الاسلام والجماعات العائمة وال
 في غير ذلك منة فيسكن نسا هو جيل او يظن فلاة لصلاح
 فيه من في ولا ازل مثل هذا الرجل انما كان الا وبعك الله في
 بوجوه والجماعات والجماعات وسائر جموع الاسلام من الله يمكن ان
 في زمانه قد فهمد واكد اسمعنا من حاله لانه الى انهم يحضرون جموع
 في انما كانت ويسهبون من الارض حيث ساءوا فان العرض
 في يوم واحد وفي الاخبار تطوى لهم وتنادون بالجماعات فيحتمون
 بوجع البير والديانات وهي الكفر ما طفر وابه واحسن انه من عقل
 في نظري خلاص نفسه واجاب الطالب الذي لم يصل الى المنصور
 على ما لنا ولقد عرض لي في صفة حال نبات من الشعور في صلاة
 طيرة الطالبون والفصل التوصل وقار الاجابات بالاجاب

بداية النسخة (ب) ويلاحظ أنها ليست الورقة الأولى من الكتاب

جاهدوا في الله ولعلكم تتقون
 القائلين ومن جاهدنا فما جاهدنا
 انفسنا في الله من كل ما رزقنا
 من قاتلنا الفيلاننا ونسبنا
 من العمل بغيره تعالى مع
 وحطه دعنا الى صبح ورتن
 بطننا او علم اذناه ونسالة
 انما علمنا علمين واوحده
 انما علمنا العلماننا اذ
 حواد كريمة فذنا اذ
 الاخرة وذل وفسا المقصود
 الى افضل عبود محمدا النبي
 يوم الدين ثم كانت
 وحده وصلى الله على
 عن الصلوات الخمس وسلم
 ولا حول ولا قوة الا بالله
 المبارك حاشين عشر من
 وما نام احسن الله تعالى
 المنفرد بالتقدير الراجح
 على العالمين عنده له
 بالمحبة والرحم والجميع
 الله

الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

سورة التوحيد

قال شيخ الامام عبد الملك بن عبد الله اعلم على شيخ الامام محمد بن الامام زين الدين ابو حامد محمد بن
 محمد بن محمد الفراء رحمه الله عليه هذا الكتاب وهو كتاب ضئيل ولم يستعمله غير الفراء
 مع اصحابه وهو من الكتب الملت لكثيره للوارد الكونح العزيز الرحيم الذي ذكره الفراء
 بقدرته ودبر الامور في الدارين بحكمة ولم يخلق الخلق ولا نسأله مسأله فالطريق الى
 واضح للمفاهيم والدليل لا يخفى لنا ليس ولكن الله يفر من سبانه ويهدى من سبانه
 هر انعم بالهدى والفتوة والسلام على سيد المرسلين وعن الابرار والسيئين
 وسلم وعظم الى يوم الدين اعلموا اخواني اسئلكم الله وايامه بفضائه ان يبيد عن العلم
 وفائده البر وحاصل العبد وبضاعة اولاده وطريق الايوباء وتسم الاغزاة ومقصد ذوق
 الله وسما والكلام وعرفه الرجل وخبايا واوكى الاضداد وهي سبيل السادة وسراج الجاهل
 قاله تعالى ان ياريتكم فليعدون وقاله انه ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً
 ثم انما نظرا في اسما طريقها في سبانه الى غاية مقاصدها التي هي امانى سالها فانها هي
 طريق عسرو وكان وعبر سبيل صعب كثيرة العتبات سديدة المشقات بسيدة المسافات
 علمية الافاق كثيرة العوايق والوانع حفية المراتل المقاطع غزيرة الاعداء والقطائع
 غزيرة الاشباع والاتباع وهكذا يجب ان تكونه لانها الطريق الى الجنة فيصير هذا الصبر نفا
 لما قال رسول الله عليه السلام ان الجنة خفت بالمكاره وان النار خفت بالسهوات وكل
 رسول الله الا وان الجنة عزوب بريرة الا ان التائب من سيئة ثم مع ذلك كله فانه العبد
 والزمان صعب في امر الدين من اجمع والمزاج قليل والتشغلكين والعرف قصير وفي العمل تقصير

الشيخ
 لم يستعمله

الورقة الأولى من النسخة (ج)

ومن جاهدنا بما جاهدنا فيه ان الله لفتي عن العالمين ونحن نستغفر الله رب العالمين
 مع كل ما ذكر به التمس او تطلبه القلم ونستغفر من افعالنا التي لا توافق اعمالنا
 ونستغفره فما ادعينا به واعلمنا به من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره
 من كل خطرة دعوتنا الى تصحيح وتزيين في كتاب سلطاننا وكلامنا او علمنا
 ونسأله ان يجعلنا اياكم مشركا اخوان باعلاننا عالمين ولو جهه به مردين
 ولا يجعله ولا علينا ولا بعضهم في ميزان الصالحات اذا اردت اعمالنا المنا
 انه جواد كريم هذا ما اردنا ذكره في شرحه كيفية سلوك الاخرة وقد فهمنا المقصود
 وصلواته علو خير وورد ودعاءه الافضل سمعنا بحمد النبي والى الله واصحابه
 وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين بين الرسالة ووضح الدلالة وعبدته
 حتى اتاه اليقين . وحده سبحانه الموكب . ولا حول ولا قوة الا
 بالله العلي العظيم . . . ثم صدر الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
 في يوم تجيبه في صفر الحرام المشهور سنة ١٤٢٠ الهجرية التي وافقها
 وماتت بعد ذلك من هجرة النبوية من سنة ١٢٠٠ هجرية
 غفرته له ولوالديه ولانسابه
 بحمة الانبياء والاولياء
 والشهداء والعباد
 الصالحين

الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

مِنْهَا لِمَنْ الْعَابِدِينَ
إِلَى جَنَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تأليف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن محمد الغزالي

المؤلف سنة ٥٠٥ هـ

تحقيق

الدكتور محمود مصطفى حلاوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

إِفْتِتَاحِيَّةُ الْكِتَابِ

قَالَ الشَّيْخُ الْفَقِيهُ الصَّالِحُ الزَّاهِدُ، عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،
غَفَرَ اللَّهُ لَهُ: أَمَلَى عَنِّي شَيْخِي الْأَجَلُّ، الْإِمَامُ الزَّاهِدُ، السَّعِيدُ
الْمَوْفَّقُ، حُجَّةُ الْإِسْلَامِ، زَيْنُ الدِّينِ، شَرَفُ الْأُمَّةِ، أَبُو حَامِدٍ
مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ الْغَزَالِيِّ الطُّوسِيِّ، قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ،
وَرَفَعَ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَتَهُ، هَذَا الْكِتَابُ الْمَخْتَصَرُ، وَهُوَ آخِرُ كِتَابٍ
صَنَعَهُ وَلَمْ يَسْتَمَلِّ مِنْهُ إِلَّا خَوَاصُّ أَصْحَابِهِ/ (١).

[٢/أ]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْحَكِيمِ، الْجَوَادِ الْكَرِيمِ، الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ،
الَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ، وَدَبَّرَ الْأَمْرَ، فِي الدَّارَيْنِ
بِحِكْمَتِهِ، وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِهِ؛ فَالطَّرِيقُ إِلَيْهِ وَاضِحٌ
لِلْقَاصِدِينَ، وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ لَائِحٌ لِلنَّاطِرِينَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

(١) المقدمه من نسخة (د)، وقد خلت نسخة (أ) منها. وجاءت في نسخة (ج)
مختصرة، وهي تتفق مع ما جاء في (ه).

وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ الْأَبْرَارِ الطَّيِّبِينَ
أَجْمَعِينَ، وَسَلَّمْ وَعَظَّمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَعْلَمُوا إِخْوَانِي، أَسْعِدْكُمْ اللَّهُ وَإِنَّا بِمَرْضَاتِهِ، أَنَّ الْعِبَادَةَ ثَمَرَةُ
الْعِلْمِ وَفَائِدَةُ الْعُمْرِ، وَحَاصِلُ الْعَبْدِ، وَبِضَاعَةُ الْأَوْلِيَاءِ، وَطَرِيقُ
الْأَقْوِيَاءِ، وَقِسْمُ الْأَعْزَةِ، وَمَقْصِدُ ذَوِي الْهِمَّةِ، وَسِعَارُ الْكِرَامِ، وَحِرْفَةُ
الرَّجَالِ، وَأَخْتِيَارُ أَوْلِي الْأَبْصَارِ؛ وَهِيَ سَبِيلُ السَّعَادَةِ وَمِنْهَا جَنَّةُ؛
قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١١).

[٩٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (٢٢) [الإنسان:

٢٢]. ثُمَّ إِنَّا نَنْظُرُنَا فِيهَا، وَتَأَمَّلْنَا طَرِيقَهَا، مِنْ مَبَادِيهَا إِلَى مَقَاصِدِهَا
الَّتِي هِيَ أَمَانِي سَالِكِيهَا فَإِذَا هِيَ طَرِيقٌ وَعُغْرٌ، وَسَبِيلٌ صَعْبٌ، كَبِيرَةٌ
الْعُقَبَاتِ، شَدِيدَةُ الْمَشَقَّاتِ، بَعِيدَةُ الْمَسَافَاتِ، عَظِيمَةُ الْآفَاتِ، كَثِيرَةُ
الْعَوَائِقِ وَالْمَوَانِعِ، خَفِيَّةُ الْمَهَالِكِ وَالْمَقَاطِعِ، غَزِيرَةُ الْأَعْدَاءِ وَالْقَطَاعِ،
عَزِيزَةُ الْأَشْيَاعِ وَالْأَتْبَاعِ؛ وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ، لِأَنَّهَا طَرِيقُ الْجَنَّةِ،
فَيَصِيرُ هَذَا تَصْدِيقًا لِمَا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ،
وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ» (١) وَقَالَ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ حَزَنٌ بَرَبُورَةٌ،

(١) — رواه مسلم (٤/٢١٧٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، بلفظ (حُفَّتْ الجنة

بالمكارة وحُفَّتْ النار بالشهوات). (الحديث رقم ٢٨٢٢).

— رواه البخاري (٨/١٢٧) في الرِّقَاقِ، باب حجبت النار بالشهوات، عن أبي

هريرة بلفظ: (حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكارة).

ورود أيضاً في:

— سنن أبي داود (كتب السنة، باب في خلق الجنة والنار) (٥/١٠٨) (الحديث

رقم ٤٧٤٤).

— وفي سنن الدارمي (٢/٣٣٩).

أَلَا وَإِنَّ النَّارَ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ»^(١). ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ ضَعِيفٌ،
وَالزَّمَانَ صَعْبٌ، وَأَمْرُ الدِّينِ مُتْرَاجِعٌ، وَالْمَعِينُ قَلِيلٌ، وَالشُّغْلُ كَثِيرٌ،
وَالْعَمْرُ قَصِيرٌ، وَفِي الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ، وَالتَّاقُدُ بِصِيرٌ، وَالْأَجَلُ قَرِيبٌ،
وَالسَّفَرُ بَعِيدٌ، وَالطَّاعَةَ هِيَ الزَّادُ فَلَا بُدَّ مِنْهَا، وَهِيَ فَائِثَةٌ فَلَا مَرَدَّ لَهَا؛ [٢/ب]
فَمَنْ ظَفِرَ بِهَا فَقَدْ فَازَ وَسَعِدَ أَبَدَ الْآبِدِينَ (وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ)^(٣)، وَمَنْ فَاتَهُ
ذَلِكَ فَقَدْ خَسِرَ مَعَ الْخَاسِرِينَ، وَهَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ، فَصَارَ هَذَا الْخَطْبُ
إِذْنٌ وَاللَّهُ مُعْضَلًا، وَالْخَطْرُ عَظِيمًا، وَلِلذَلِكَ عَزَّ مَنْ يَقْصِدُ هَذَا الطَّرِيقَ
وَقَلَّ، كَمَا قِيلَ: «إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ»، ثُمَّ عَزَّ مِنَ الْقَاصِدِينَ
مَنْ يَسْلُكُهُ، ثُمَّ عَزَّ مِنَ السَّالِكِينَ مَنْ يَصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ وَيَظْفِرُ
بِالْمَطْلُوبِ، وَهُمْ الْأَعَزَّةُ الَّذِينَ أَصْطَفَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ،
وَسَدَّدَهُمْ بِتَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ. ثُمَّ أَوْصَلَهُمْ بِفَضْلِهِ إِلَى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ.
فَنَسَأَلُهُ، جَلَّ ذِكْرُهُ، أَنْ يَجْعَلَكُمْ وَإِيَّانَا مِنْ أَوْلِيكَ الْفَائِزِينَ بِرَحْمَتِهِ.

= — وفي مسند ابن حنبل روية أخرى عن أبي هريرة بلفظ (حفت الجنة بالشهوات
وحفت النار بالمكاره) (٢/٢٦٠). وهذه الرواية فريدة.

(١) — رواه ابن حنبل (١/٣٢٧) عن ابن عباس، وهذا جزء من حديث، وتمامه
كالتالي: (من أنظر مُعْسِرًا أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم. ألا إن عمل
الجنة حزنٌ بربوة ثلاثاً، ألا إن عمل النار سهل بسهولة، والسعيد من وقى الفتن،
وما من جرعة أحب إلي من جرعة غيظ يكظمها عبداً، ما كظمها عبداً لله، إلا
ملا الله جوفه إيماناً). ينظر: المسند ج ٥ / ص ٣٠١٥ / رقم الحديث ٣٠١٥
— وأورد السيوطي (الجمع الصغير ٢/٥٠٤) القسم الأول من هذا الحديث. وقد
صححه (الحديث رقم ٨٥٣٧).

راجع أيضاً: فيض القدير نمنائي (٦/٨٩) (الحديث رقم ٨٥٣٧).

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في (ج) و (د) و (هـ).

نَعَمْ، وَلَمَّا وَجَدْنَا هَذِهِ الطَّرِيقَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، نَظَرْنَا فَاْمَعَنَّا
النَّظَرَ فِي كَيْفِيَّةِ قَطْعِهَا، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَبْدُ مِنَ الْأُهْبَةِ وَالْعُدَّةِ وَالآلَةِ
وَالْحِيلَةِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ، عَسَى أَنْ يَقْطَعَهَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي
سَلَامَةٍ، وَلَا يَنْقَطِعُ فِي عَقَابَتِهَا الْمُهْلِكَةَ، فَيَهْلِكَ مَعَ الْهَالِكِينَ،
وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

فصنّفنا في قَطْعِ هَذِهِ الطَّرِيقِ وَسُلُوكِهَا كُتُبًا كإِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ
وَالقُرْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاحْتَوَتْ عَلَى دَقَائِقَ مِنْ
العُلُومِ، اعْتَصَمَتْ عَلَى أَفْهَامِ الْعَامَّةِ، فَقَدَّحُوا فِيهَا، وَخَاضُوا فِيهَا لَمْ
يُحْسِنُوهُ مِنْهَا، فَأَيُّ كَلَامٍ أَفْصَحُ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ قَالُوا
﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٥]، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ زَيْنِ
الْعَابِدِينَ^(١) عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ، حَيْثُ يَقُولُ مَضْمَنًا: [البيضا]

إِنِّي لَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي جَوَاهِرَهُ كَيْ لَا يَرَى الْحَقُّ دُوَّ جَهْلٍ فَيَفْتِنَنَا
وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا أَبُو حَسَنِ إِلَى الْحُسَيْنِ وَأَوْصَى قَبْلَهُ الْحَسَنًا
يَا رَبَّ جَوْهَرَ عِلْمٍ لَوْ أَبُو حُ بِهِ لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنًا
وَلَا سَتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْنِمُونَ دَمِي يَرُونَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنًا

(١) علي بن الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب، السيد الإمام زين العابدين يكنى
أبا الحسين، وأمه أم ولد، اسمها سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد. ولد في سنة
ثمانية وثلاثين.

وكان مع أبيه الحسين الشهيد يوم كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة، كان ثقة،
مأموناً، كثير الحديث، ورعاً.

وقد توفي في سنة ٩٤ هـ. سير أعلام النبلاء ٤/٣٨٦.

وَأَقْتَضَتْ الْحَالُ عِنْدَ ذَوِي الدِّينِ النَّظَرَ إِلَى كَافَّةِ خَلْقِ اللَّهِ بِعَيْنِ
الرَّحْمَةِ وَتَرْكِ المُمَارَاةِ، / فابْتَهَلْتُ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ الخَلْقُ وَالْأَمْرُ، أَنَّ [أ/٣]
يُوقِّفُنِي لِتَصْنِيفِ كِتَابٍ يَقَعُ عَلَيْهِ الإِجْمَاعُ، وَيَحْصُلُ بِقِرَاءَتِهِ الإِنْتِفَاعُ،
فَأَجَابَنِي لِذَلِكَ الَّذِي يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، وَأَطْلَعَنِي بِفَضْلِهِ عَلَى
أَسْرَارِ ذَلِكَ، وَاللَّهِمَنِي فِيهِ تَرْتِيباً عَجِيباً، لَمْ أَذْكَرُهُ فِي المُصَنَّفَاتِ الَّتِي
تَقَدَّمَتْ فِي «أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ»، وَهُوَ الَّذِي أَنَا لَهُ وَاصِفٌ فَأَقُولُ
وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ^(١).

(١) إلى هنا تنتهي افتتاحية الكتاب، ويبدأ التقديم للكتاب والتعريف بعمل المؤلف.

تقديم الهداية إلى طريق العبادة

إِنَّ أَوَّلَ مَا يَتَنَبَّهُ الْعَبْدُ لِلْعِبَادَةِ وَيَتَحَرَّكُ لِسُلُوكِ طَرِيقِهَا بِخَطَرَةٍ سَمَاوِيَّةٍ، وَتَوْفِيقٍ خَاصٍّ إِلَهِيٍّ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وإليه أشار صاحبُ الشَّرْحِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَأَنْشَرَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِدَلِّكَ مِنْ عِلْمَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزُولِ الْمَوْتِ»^(١).

(١) - رواه الحاكم في المستدرک عن ابن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ». فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هل لِدَلِّكَ مِنْ عِلْمٍ يُعْرَفُ؟ قال: «نعم التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزُولِهِ».

وفي رواية الذهبي (إذا دخل القلب) والباقي لا خلاف فيه. وتعقب الذهبي رجال هذا الحديث، فذكر أن عدي بن الفضل ساقط. راجع المستدرک ٣١١/٤.
- وورد هذا الحديث في «الإحياء» بصيغ ثلاث: إن النور إذا دخل الصدر انفسح (٤/٤٦٠) وإذا دخل في القلب انشرح له (٤/٢٢٠).
وإذا قذف في القلب (٧٧/١).

فَإِذَا خَطِرَ بِقَلْبِ الْعَبْدِ أَوْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَتَى أَجِدُنِي مُنْعَمًا بَضْرُوبٍ مِّنَ
النِّعَمِ، كَالْحَيَاةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعَقْلِ وَالتَّنَطُّقِ وَسَائِرِ الْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ وَاللَّذَاتِ،
وَمَا يَنْصَرِفُ عَنِّي مِّنْ ضُرُوبِ الْمَضَارِّ وَالْآفَاتِ، وَإِنَّ لِهَذِهِ (النِّعَمِ) (١)
مُنْعَمًا يُطَالِبُنِي بِشُكْرِهِ وَخِدْمَتِهِ، فَإِنْ أَغْفَلْتُ ذَلِكَ فَيُرِزِلُ عَنِّي نِعْمَتَهُ،
وَيُذَيِّقُنِي بِأَسْأَةِ وَنِقْمَتِهِ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولًا أَيَّدَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ
لِلْعَادَاتِ الْخَارِجَةِ عَنِ مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ لِي رَبًّا جَلَّ ذِكْرُهُ قَادِرًا
عَالِمًا حَيًّا (مُرِيدًا) (٢) مُتَكَلِّمًا، بِأَمْرٍ وَيَنْهَى، قَادِرًا عَلَيَّ أَنْ يُعَاقِبَ إِنْ
عَصَيْتُهُ، وَيُثِيبَ إِنْ أَطَعْتُهُ، عَالِمًا بِأَسْرَارِي وَمَا يَخْتَلِجُ فِي أَفْكَارِي،
وَقَدْ وَعَدَ وَأَوْعَدَ، وَأَمَرَ بِالتَّزَامِ قَوَانِينِ الشَّرْعِ، فَيَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ
مَمْكِنٌ، إِذْ لَا اسْتِحَالَةَ لِذَلِكَ فِي الْعَقْلِ، بِأَوَّلِ الْبَدِيهَةِ، فَيَخَافُ عَلَيَّ
نَفْسِهِ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَفْرَعُ.

فَهَذَا خَاطِرُ الْفَرْعِ الَّذِي يُنَبِّهُ الْعَبْدَ وَيُلْزِمُهُ الْحُجَّةَ، وَيَقْطَعُ عَنْهُ
الْمُعْذِرَةَ، وَيُزْعِجُهُ إِلَى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، فَيَهْتَاجُ (٣) الْعَبْدُ عِنْدَ ذَلِكَ،
[ب/٣] وَيَقْلُقُ وَيَنْظُرُ فِي طَرِيقِ الْخَلَاصِ وَحُصُولِ الْأَمَانِ لَهُ مِمَّا وَقَعَ بِقَلْبِهِ /،
أَوْ سَمِعَ (بِأُذُنِهِ) (٤)، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ سَبِيلًا سِوَى النَّظَرِ بِعَقْلِهِ فِي
الدَّلَائِلِ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِالصَّنْعَةِ عَلَى الصَّانِعِ، لِيَحْصَلَ لَهُ الْعِلْمُ الْيَقِينُ
بِمَا هُوَ الْغَيْبُ، وَيَعْنَمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا كَلَّفَهُ وَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ.

= وقال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل، والبيهقي في الزهد
والحاكم في المستدرک من حديث ابن مسعود.

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٣) في الأصل: فنحتاج. والتصحيح من (هـ).

(٤) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

فَهَذِهِ أَوَّلُ عَقِبَةٍ اسْتَقْبَلَتْهُ فِي طَرِيقِ الْعِبَادَةِ، وَهِيَ عَقِبَةُ الْعِلْمِ عَقِبَاتِ طَرِيقِ
وَالْمَعْرِفَةِ، لِيَكُونَ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَيَأْخُذُ فِي قَطْعِهَا مِنْ غَيْرِ الْعِبَادَةِ
بُدًّا، بِحُسْنِ النَّظَرِ فِي الدَّلَائِلِ، وَوُفُورِ التَّأَمُّلِ وَالتَّعَلُّمِ، وَالسُّؤَالِ مِنْ
عُلَمَاءِ الْآخِرَةِ الَّذِينَ هُمْ أَدْلَاءُ الطَّرِيقِ، وَسُرُجُ الْأُمَّةِ، وَقَادَةُ الْأُمَّةِ،
وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْهُمْ، وَأَسْتِهْدَاءِ الدُّعَاءِ الصَّالِحِ مِنْهُمْ، لِلتَّوْفِيقِ وَالِإِعَانَةِ
إِلَى أَنْ يَقْطَعَهَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَيَحْصُلَ لَهُ الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ
بِالْغَيْبِ، وَهُوَ أَنَّ لَهُ إِلَهًا وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَأَنْعَمَ
عَلَيْهِ بِكُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ، وَأَنَّهُ كَلَّفَهُ بِشُكْرِهِ، وَأَمَرَهُ بِخِدْمَتِهِ وَطَاعَتِهِ،
بِظَاهِرِهِ وَبِاطِنِهِ، وَحَذَّرَهُ الْكُفْرَ وَضُرُوبَ الْمَعَاصِي، وَحَكَّمَ لَهُ بِالثَّوَابِ
الْخَالِدِ إِنْ أَطَاعَهُ، وَبِالْعِقَابِ الْخَالِدِ إِنْ عَصَاهُ وَتَوَلَّى عَنْهُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ
تَبَعْتُهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ وَالْيَقِينُ بِالْغَيْبِ عَلَى التَّشْمِيرِ لِلْخِدْمَةِ، وَالِإِقْبَالِ
عَلَى الْعِبَادَةِ لِهَذَا السَّيِّدِ الْمُنْعَمِ الَّذِي طَلَبَهُ فَوَجَدَهُ، وَعَرَفَهُ بَعْدَ مَا
جَهَلَهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَعْْبُدُهُ وَمَاذَا يَلْزِمُهُ مِنْ خِدْمَتِهِ بِظَاهِرِهِ
وَبِاطِنِهِ. فَبَعْدَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، (جَهْدٌ
حَتَّى يَتَعَلَّمَ) ^(١) مَا يَلْزِمُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ الشَّرْعِيَّةِ ظَاهِرًا وَبِاطِنًا.

فلما أُسْتَكْمَلَ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ بِالْفَرَائِضِ، انْبَعَثَ لِيَأْخُذَ فِي عَقِبَةِ التَّوْبَةِ
الْعِبَادَةِ، وَيَسْتَعْلِفَ بِهَا؛ فَضَرَّ فَإِذَا هُوَ صَاحِبُ جُنَايَاتٍ وَذُنُوبٍ، وَهَذَا
حَالُ الْأَكْثَرِ مِنَ النَّاسِ. فَيَقُولُ: كَيْفَ أَقْبِلُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَنَا مُصِرٌّ
عَلَى الْمَعْصِيَةِ مُتَلَطِّخٌ بِهَا؟ فَيَجِبُ أَوَّلًا أَنْ أَتُوبَ إِلَيْهِ، لِيَغْفَرَ لِي
ذُنُوبِي، وَيُخَلِّصَنِي مِنْ أَسْرِهَا، وَأَنْطَهَرَ مِنْ أَقْدَارِهَا، فَأَصْلِحَ لِلْخِدْمَةِ
وَبَسَاطَةِ الْقُرْبَةِ؛ فَتَسْتَقْبِلُهُ هُنَا عَقِبَةُ التَّوْبَةِ، فَيَحْتَاجُ لَا مَحَالَةَ إِلَى

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في (د) و(هـ)، ويقضيها سياق الكلام.

[٤/أ] قَطَعَهَا، لِيَصِلَ إِلَى مَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا، فَأَخَذَ فِي ذَلِكَ بِإِقَامَةِ /
التَّوْبَةِ فِي حُقُوقِهَا وَشَرَائِطِهَا إِلَى أَنْ قَطَعَهَا.

عقبة
العوائق حَنَّ إِلَى الْعِبَادَةِ، لِيَأْخُذَ فِيهَا، فَنَظَرَ فَإِذَا حَوْلَهُ عَوَائِقُ مُحَدِّقَةٌ بِهِ، كُلُّ
وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَعُوقُهُ عَمَّا قَصَدَ مِنَ الْعِبَادَةِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّغْوِيْقِ، فَتَأَمَّلْ
فَإِذَا هِيَ أَرْبَعٌ: الدُّنْيَا وَالْخَلْقُ وَالشَّيْطَانُ وَالنَّفْسُ، فَاحْتَاجَ لَا مَحَالَةَ
إِلَى دَفْعِ هَذِهِ الْعَوَائِقِ وَإِزَاحَتِهَا عَنْهُ، وَإِلَّا فَلَا يَتَأْتَى لَهُ أَمْرُهُ مِنَ
الْعِبَادَةِ؛ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هَهُنَا عَقْبَةُ الْعَوَائِقِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى قَطْعِهَا بِأَرْبَعَةِ
أُمُورٍ: التَّجَرُّدِ عَنِ الدُّنْيَا، وَالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ، وَالْمُحَارَبَةِ مَعَ الشَّيْطَانِ،
وَمُضَادَّةِ النَّفْسِ.

فَأَمَّا النَّفْسُ فَأَشَدُّهَا، إِذْ لَا يُمَكِّنُهُ التَّجَرُّدُ عَنْهَا وَلَا أَنْ يَفْهَرَهَا
بِمَرَّةٍ وَيَسْمَعَهَا كَالشَّيْطَانِ؛ إِذْ هِيَ الْمَطِيئَةُ وَالْآلَةُ، وَلَا مَطْمَعٌ أَيْضًا فِي
مُؤَافَقَتِهَا عَلَى مَا يَقْصِدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، إِذْ هِيَ
مَجْبُولَةٌ عَلَى ضِدِّ الْخَيْرِ كَالهَوَى وَاتِّبَاعِهَا لَهُ، فَاحْتَاجَ إِذَا إِلَى أَنْ
يُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى، لِيَتَبَقَى لَهُ فَلَا تَنْقَطِعَ، وَتَتَقَادَ لَهُ فَلَا تَطْغَى،
فَيَسْتَعْمِلُهَا فِي الْمَصَالِحِ وَالْمَرَائِدِ، وَيَمْنَعُهَا عَنِ الْمَهَالِكِ وَالْمَفَاسِدِ،
فَيَأْخُذُ إِذَا فِي قَطْعِ هَذِهِ الْعَقْبَةِ، وَيَسْتَعِينُ بِاللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَى ذَلِكَ.

عقبة
العوارض فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قَطْعِهَا، رَجَعَ إِلَى قَصْدِ الْعِبَادَةِ، فَإِذَا عَوَارِضُ
تَعْتَرِضُهُ، فَتَشْغَلُهُ عَنِ الْإِقْبَالِ عَلَى مَقْصُودِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ
التَّفَرُّغِ لِذَلِكَ كَمَا يَنْبَغِي؛ فَتَأَمَّلْ فَإِذَا هِيَ أَرْبَعَةٌ:

(الأول): الرِّزْقُ. تُطَالِبُهُ النَّفْسُ بِهِ وَتَقُولُ: لَا بُدَّ لِي مِنْ رِزْقِ

وَقَوَامٍ، وَقَدْ تَجَرَّدْتُ مِنَ الدُّنْيَا، وَتَفَرَّدْتُ أَيْضًا عَنِ الْخَلْقِ، فَمِنْ أَيْنَ
يَكُونُ قَوَامِي وَرِزْقِي؟.

(وَالثَّانِي): الْأَخْطَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ أَوْ تُرِيدُهُ أَوْ
تَكْرَهُهُ، وَلَا تَذَرِي صَلَاحَهُ فِي ذَلِكَ أَوْ فَسَادَهُ، فَإِنَّ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ
مُبْهَمَةٌ، فَيَسْتَعِزُّ قَلْبُهُ بِهَا، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَقَعُ فِي فَسَادٍ أَوْ مَهْلَكَةٍ.

(وَالثَّلَاثُ): الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ، تُنْصَبُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،
لَا سِيَّمَا وَقَدْ انْتَصَبَ لِمُخَالَفَةِ الْخَلْقِ وَمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَمُضَادَّةِ
النَّفْسِ، فَكَمْ/ مِنْ غُصَّةٍ يَتَجَرَّعُهَا، وَكَمْ سِدَّةٍ تَسْتَقْبِلُهُ، وَكَمْ هَمٍّ [٤/ب]
وَحَزْنٍ يَعْتَرِضُهُ، وَكَمْ مُصِيبَةٍ تَلْقَاهُ؟

(وَالرَّابِعُ): أَنْوَاعُ الْقَضَاءِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بِالْحُلُوِّ
وَالْمُرِّ، تَرِدُ عَلَيْهِ حَالًا فَحَالًا، وَالنَّفْسُ تُسَارِعُ إِلَى السُّخْطِ، وَتُبَادِرُ
إِلَى الْفِتْنَةِ؛ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هُنَا عَقَبَةُ الْعَوَارِضِ الْأَرْبَعَةِ، فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا
بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي مَوْضِعِ الرِّزْقِ، وَالتَّقْوِيضَ
إِلَى اللَّهِ فِي مَوَاضِعِ الْخَضِرِ. وَالصَّبْرَ عِنْدَ نَزْوِلِ الشَّدَائِدِ، وَالرِّضَا عِنْدَ
نَزْوِلِ الْقَضَاءِ. فَأَخَذَ فِي قَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَسْدِيدِهِ
وَحُسْنِ تَأْيِيدِهِ.

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قَطْعِهَا وَعَادَ إِلَى قَصْدِ الْعِبَادَةِ، نَظَرَ فَإِذَا النَّفْسُ عَقِبَةُ
فَاتِرَةٌ كَسَلَى، لَا تَنْشَطُ وَلَا تَتَّبِعُ لِحَيْرٍ كَمَا يَحِقُّ وَيَنْبَغِي، وَإِنَّمَا
مِيلُهَا أَبَدًا إِلَى غَفْلَةٍ وَدَعْوَةٍ وَرَاحَةٍ وَبَطَالَةٍ، بَلْ إِلَى شَرٍّ وَفُضُولٍ وَبَلِيَّةٍ
وَجَهَالَةٍ، فَاحْتَاجَ مَعَهَا إِلَى سَائِقٍ يَسُوقُهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ،
وَيُنْشِطُهَا فِيهِ، وَزَاجِرٍ يَزْجُرُهَا عَنِ الشَّرِّ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَفْتَرُّهَا عَنْهُ، وَهُمَا:
الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ. فَالرَّجَاءُ فِي عَظِيمِ ثَوَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحُسْنِ

مَا وَعَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكِرَامَةِ، وَتَذَكَّرَ ذَلِكَ، سَائِقٌ يَسُوقُهَا فَيَبْعَثُهَا عَلَى الطَّاعَةِ، وَيُحَرِّكُهَا لِذَلِكَ وَيُنْشِطُهَا. وَالْخَوْفُ مِنَ أَلِيمِ عِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصُعُوبَةِ مَا أُوْعِدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ وَالْإِهَانَةِ هُنَا زَاجِرٌ يَزْجُرُهَا عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَيُجَنِّبُهَا وَيَفْتَرُهَا عَنِ ذَلِكَ. فَهَذِهِ عَقَبَةُ الْبَوَاعِثِ اسْتَقْبَلَتْهُ هُنَا، فَاحْتِاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِهِذَيْنِ الذِّكْرَيْنِ، فَأَخَذَ فِيهَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَطَعَهَا.

عقبة القوادح
فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا، رَجَعَ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ، فَلَمْ يَرَ عَائِقًا وَلَا شَاغِلًا، وَوَجَدَ بَاعِثًا وَدَاعِيًا؛ فَنَشِطَ فِي الْعِبَادَةِ فَأَقَامَهَا، وَعَانَقَهَا بِتَمَامِ الشَّوْقِ وَالرَّغْبَةِ فَأَدَامَهَا، فَنَظَرَ فَإِذَا تَبَدُّوا لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَحْتَمَلَ فِيهَا كُلُّ ذَلِكَ أَفْتَانِ عَظِيمَتَانِ وَهُمَا الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ، تَارَةً [٥/أ] يُرَائِي بِطَاعَتِهِ النَّاسَ فَيُفْسِدُهَا، / وَأُخْرَى يَمْتَنِعُ عَنِ ذَلِكَ وَيَلُومُ نَفْسَهُ، فَيَعْجَبُ بِنَفْسِهِ فَيُحْبِطُ الْعِبَادَةَ عَلَيْهِ وَيَتْلَفُهَا. فَاسْتَقْبَلَتْهُ هُنَا عَقَبَةُ الْقَوَادِحِ، فَاحْتِاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِالْإِخْلَاصِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ وَنَحْوِهَا، لِيَسْلَمَ لَهُ مَا يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ؛ فَأَخَذَ فِي قَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بِجِدِّ وَاحْتِيَاظٍ، وَتَيَقُّظٍ بِحُسْنِ عِصْمَةِ الْجَبَّارِ وَتَأْيِيدِهِ.

عقبة الحمد والشكر
فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، حَصَلَتْ لَهُ الْعِبَادَةُ كَمَا يَحِقُّ وَيَنْبَغِي، وَسَلِمَتْ مِنْ كُلِّ آفَةٍ؛ وَلَكِنَّهُ نَظَرَ، فَإِذَا هُوَ غَرِيقٌ فِي بُحُورِ مَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَيَادِيهِ، مِنْ كَثْرَةِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ إِمْدَادِ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ، وَأَنْوَاعِ التَّأْيِيدِ وَالْحِرَاسَةِ، وَخَافَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ إِغْفَالٌ لِلشُّكْرِ، فَيَقَعُ فِي الْكُفْرَانِ، فَيَنْحَطُّ عَنِ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ، الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةُ الْخَدَمِ الْخَالِصِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَزُولُ عَنْهُ تِلْكَ النِّعَمُ الْكَرِيمَةُ مِنْ ضُرُوبِ الطَّافِ اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنِ نَظَرِهِ إِلَيْهِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ هُنَا عَقَبَةُ

الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ فَأَخَذَ فِي قَطْعِهَا بِمَا أَمَكَّنَهُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ
عَلَى كَثِيرِ نِعَمِهِ.

ثمرة
العبادة
فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ هَذِهِ الْعَقَبَةِ وَنَزَلَ فَإِذَا هُوَ بِمَقْصُودِهِ وَمُبْتَغَاهُ بَيْنَ
يَدَيْهِ، فَلَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى وَقَعَ فِي سَهْلِ الْفَضْلِ وَصَحْرَاءِ الشُّوقِ
وَعَرَصَاتِ الْمَحَبَّةِ.

ثُمَّ يَفْعُ فِي رِيَاضِ الرِّضْوَانِ، وَبَسَاتِينِ الْأَنْسِ إِلَى بَسَاطِ
الْإِنْبَسَاطِ، وَمَرْتَبَةِ التَّقْرِبِ، وَمَجْلِسِ الْمُنَاجَاةِ، وَنَيْلِ الْخَلْعِ
وَالْكَرَامَاتِ، فَهُوَ يَتَنَعَّمُ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ^(١)، وَيَتَقَلَّبُ فِي طَيْبِهَا أَيَّامَ
بَقَائِهِ وَبَقِيَّةِ عُمْرِهِ، بِشَخْصٍ فِي الدُّنْيَا وَقَلْبٍ فِي الْعُقْبَى، يَنْتَظِرُ الْمَزِيدَ
يَوْمًا فَيَوْمًا، وَسَاعَةً فَسَاعَةً، حَتَّى يَمَلَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ، وَيَسْتَقْدِرَ الدُّنْيَا
وَيَحِنَّ إِلَى الْمَوْتِ. وَاسْتَكْمَلَ الشُّوقَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَإِذَا هُوَ
بِرُسُلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ، يَرِدُونَ عَلَيْهِ، بِالرُّوحِ وَالرِّيحَانِ، وَبِالْبُشْرَى
وَالرِّضْوَانِ، مِنْ عِنْدِ رَبِّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَيَتَقَلَّبُونَ فِي طَيْبَةِ النَّفْسِ
وَتَمَامِ الْبُشْرِ وَالْأَنْسِ، مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ الْمُفْتِنَةِ، إِلَى الْحَضْرَةِ
الْإِلَهِيَّةِ، وَمُسْتَقَرِّ رِيَاضِ الْجَنَّةِ/، فَيَرَى لِنَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ نَعِيمًا [٥/ب]
وَمُلْكًا كَبِيرًا، وَيَلْقَى هُنَاكَ مِنْ سَيِّدِهِ الرَّحِيمِ الْمُفْضِلِ الْكَرِيمِ، جَلَّ
ذِكْرُهُ، مِنْ اللَّطْفِ وَالْعَطْفِ، وَالتَّرْحِيبِ وَالتَّقْرِبِ، وَالْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ،
مَا لَا يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ، وَلَا نَعْتُ النَّاعِتِينَ؛ فَهُوَ كُلَّ يَوْمٍ
فِي زِيَادَةٍ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ، فَيَالِهَا مِنْ سَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ، وَيَا لَهَا مِنْ دَوْلَةٍ
عَالِيَةٍ، وَيَا لَهُ مِنْ عَبْدٍ مَسْعُودٍ، وَآمِرٍ مَغْبُوطٍ وَشَأْنٍ مَحْمُودٍ،

(١) فِي الْأَصْلِ، بِالْمَفْرَدِ، وَالتَّصْحِيحِ مِنْ (رَد) وَ(هـ).

فَطُوبَى لَهُ وَحُسْنُ مَأْبٍ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ سُبْحَانَهُ، أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ
الْعَظِيمَةِ وَالْمِنَّةِ الْجَسِيمَةِ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَنَا مِنَ
الَّذِينَ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا وَصْفٌ وَسَمَاعٌ وَتَمَنُّ بِلَا انْتِفَاعٍ،
وَأَنْ لَا يَجْعَلَ مَا تَعَلَّمْنَا مِنَ الْعِلْمِ حُجَّةً عَلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنْ يُوفِّقَنَا
جَمِيعاً لِلْعَمَلِ بِذَلِكَ وَالْقِيَامِ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ.

فَهَذَا هُوَ التَّرْتِيبُ الَّذِي أَلْهَمَنِي مَوْلَايَ فِي طَرِيقِ الْعِبَادَةِ.

وَاعْلَمِ الْآنَ، أَنَّ الْحَاصِلَ مِنَ الْجُمْلَةِ سَبْعُ عَقَبَاتٍ: الْأُولَى
عَقْبَةُ الْعِلْمِ، الثَّانِيَةُ عَقْبَةُ التَّوْبَةِ، الثَّلَاثَةُ عَقْبَةُ الْعَوَائِقِ، الرَّابِعَةُ عَقْبَةُ
الْعَوَارِضِ، الْخَامِسَةُ^(١) عَقْبَةُ الْبَوَاعِثِ، السَّادِسَةُ عَقْبَةُ الْقَوَادِحِ،
السَّابِعَةُ عَقْبَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَبِتَمَامِهَا يَتِمُّ كِتَابٌ مِنْهَاجُ الْعَابِدِينَ إِلَى
جَنَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَنَحْنُ الْآنَ نَتَّبِعُ هَذِهِ الْعَقَبَاتِ، بِشَرْحٍ مُوجَزٍ اللَّفْظِ، مُشْتَمِلٍ
عَلَى النُّكْتِ الْمَقْصُودَةِ مِنْ هَذَا الشَّانِ، كُلُّ مِنْهَا فِي بَابٍ مَفْرَدٍ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالتَّسْهِيدِ بِمَنِّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: الْخَامِسُ، وَالتَّصْحِيحُ مِنْ بَاقِي النُّسخِ.

العقبة الأولى وهي عقبة العلم

أقول وبالله التوفيق:

يا طالب الخلاص والعبادة عليك أولاً، وفقك الله، بالعلم
فإنه القطب وعليه المدار.

واعلم أن العلم والعبادة جوهريان لأجلهما كان كل ما ترى
وتسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين/ ووعظ الواعظين [٦/١]
ونظر الناظرين، بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، بل
لأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهما من الخلق. فتأمل
آيتين في كتاب الله عز وجل:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن
ينزل الأمز بينهن للعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء
علماً﴾ [١٢: الطلاق] وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم،
لا سيما علم التوحيد.

والآية الثانية قوله جل من قائل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا
ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. وكفى بهذه الآية دليلاً على
شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها، فأعظم بأمرين هما المقصود من

خَلَقَ الدَّارَيْنِ، فَحَقَّ لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَشْتَغَلَ إِلَّا بِهِمَا، وَلَا يَتَعَبَ إِلَّا لهُمَا، وَلَا يَنْظُرَ إِلَّا فِيهِمَا، فَاعْلَمْ أَنَّ مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْأُمُورِ بَاطِلٌ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلَعَوْ لَا حَاصِلَ لَهُ.

فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الْجَوْهَرَيْنِ وَأَفْضَلُهُمَا، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي»^(١). وَقَالَ ﷺ: «نَظْرَةٌ إِلَى الْعَالِمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةِ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»^(٢). وَقَالَ ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَشْرَفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟

(١) — ورد هذا الحديث في الإحياء (٦/١) بلفظ: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي).

— وفي سنن ابن ماجه (٨٠/١) باب فضل العلماء، ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل عن أبي الدرداء وفيه: (...). وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.. (الحديث رقم ٢٢٣).

— وفي كشف الخفاء (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم). (١١١/٢) الحديث رقم ١٨٢٨، وقال في تخريجه: رواه الترمذي وحسنه عن أبي أمامة مرفوعاً. ونقل النجم عن الترمذي أنه صحيح.

(٢) — جاء في كشف الخفاء (٤٢١/٢) في التعليق على الحديث رقم ٢٨١١ ونصه: (نظرة في وجه العالم أحب إلى الله من عبادة ستين سنة صياماً وقياماً).

قال: أورده الديلمي بلا سند عن أنس مرفوعاً بلفظ: (النظر إلى وجه العالم عبادة، وكذا في الجلوس معه والأكل والكلام) ولا يصح شيء من ذلك كله. — وورد في ضعيف الجامع الصغير وزياداته (١٤/٦):

(نظر الرجل إلى أخيه على شوق، خير من اعتكاف سنة في مسجدي هذا) (الحديث رقم ٥٩٧١) وفيه أنه ضعيف. وقد ورد في كتب لأحاديث الضعيفة تحت رقم ٤٦٩٠.

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: هُمْ عُلَمَاءُ أُمَّتِي^(١).

فَبَانَ لَكَ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ جَوْهَرًا مِنَ الْعِبَادَةِ، وَلَكِنَّ لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنَ الْعِلْمِ
الْعِبَادَةِ مَعَ الْعِلْمِ، وَإِلَّا كَانَ عِلْمُهُ هَبَاءً مَثُورًا. فَإِنَّ الْعِلْمَ بِمَنْزِلَةِ
شجرة والعبادة
ثمرتها
الشَّجَرَةِ، وَالْعِبَادَةَ بِمَنْزِلَةِ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِهَا؛ فَالشَّرَفُ لِلشَّجَرَةِ إِذْ هِيَ
الأصلُ، وَلَكِنَّ الْإِنْتِفَاعَ إِنَّمَا يَخْصُلُ بِثَمَرَتِهَا. فَإِذَا لَا بَدَّ مِنَ الْعِبَادَةِ لَيْسَلَمَ
شَرَفُ الْعِلْمِ، وَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ كِلَا الْأَمْرَيْنِ حَظٌّ وَنَصِيبٌ.
وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ: أَطْلُبُوا هَذَا الْعِلْمَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ
بِالْعِبَادَةِ، وَاطْلُبُوا هَذِهِ الْعِبَادَةَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ بِالْعِلْمِ.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهُمَا جَمِيعًا، فَالْعِلْمُ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ

(١) — قال الكديري: (١/٧٤٠) وأورد الفسني: (العلماء أهل الجنة، خلفاء الأنبياء). ومن مراجعة كتب الحديث المتوفرة لدينا صحيحه وضعيفه لم نعثر على هذا الحديث، ولا على ما يقاربه، ولعل الغزالي جمع في هذا الحديث عدة معانٍ وردت في أحاديث مختلفة منها:

(العلماء ورثة الأنبياء) حديث صحيح عن أبي الدرداء وحديث (العلماء يحشرون مع الأنبياء) حديث موضوع (انظر كشف الخفاء ٨٤/٢، الحديث رقم ١٧٤٧). وحديث (من قرأ القرآن وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته، كلهم قد استوجب النار). (نظر سنن ابن ماجه ٧٨/١، الحديث رقم ٢١٦).

(٢) هو الحسن بن يسار البصري، مولى زيد بن ثابت، وقيل مولى حمل بن قطبة، من سبي ميسان، أعتقه بنت النضر. ولد الحسن زمن عمر بن الخطاب، وسمع عثمان بن عفان وشهد الدار ابن إحدى عشرة سنة.

كان كبير الشأن رفيع الذكر. رأساً في العلم. توفي سنة ١١٠ هـ. (سير أعلام النبلاء نذهي ٥٦٣/٤).

[٦/ب] لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ وَالذَّلِيلُ/ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ»^(١).

وَإِنَّمَا صَارَ الْعِلْمُ أَصْلًا مَتَّبُوعًا، يَلْزِمُكَ تَقْدِيمُهُ عَلَى الْعِبَادَةِ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِتَحْصُلَ لَكَ الْعِبَادَةُ وَتَسَلَّمَ، فَإِنَّكَ أَوْلَى بِجِبِّ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ الْمَعْبُودَ ثُمَّ تَعْبُدَهُ، وَكَيْفَ تَعْبُدُ مَنْ لَا تَعْرِفُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِ ذَاتِهِ، وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَسْتَحِيلُ فِي نَعْتِهِ، فَرَبِّمَا تَعْتَقِدُ فِيهِ وَفِي صِفَاتِهِ شَيْئًا، وَالْعِبَادَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِمَّا يُخَالِفُ الْحَقَّ، فَتَكُونُ عِبَادَتِكَ هَبَاءً مَنثورًا.

وَقَدْ شَرَحْنَا مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ فِي بَيَانِ مَعْنَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ مِنْ كِتَابِ الْخَوْفِ مِنْ جُمْلَةِ كُتُبِ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ».

ثُمَّ يَجِبُ أَنْ تَعَلَّمَ مَا يَلْزِمُكَ فِعْلُهُ مِنَ الْوَأَجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الْعِلْمِ الْعِلْمِ بِالْوَأَجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ مَا أُمِرْتَ بِهِ لِتَفْعَلَ ذَلِكَ وَمَا يَلْزِمُكَ تَرْكُهُ مِنَ الْمَنَاهِي لِتَتْرَكَ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَكَيْفَ تَقُومُ بِطَاعَاتٍ لَا تَعْرِفُ مَا هِيَ، وَكَيْفَ هِيَ، وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تُفْعَلَ، أَمْ كَيْفَ تَجْتَنِبُ مَعَاصِيَ لَا تَعَلَّمُ أَنَّهَا مَعَاصٍ، حَتَّى لَا تُوقِعَ نَفْسَكَ فِيهَا، فَالْعِبَادَاتُ الشَّرْعِيَّةُ، كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ

(١) - وتعام هذا الحديث: (يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء).

- قال الكديري في سراج الطالبين (١/٧٧):

هكذا رواه أبو نعيم في الحلية، وأبو طالب المكي في فوت القلوب، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن القيم وغيرهم موقوفاً، كما رواه أبو نعيم في المعجم. وابن عبد البر مرفوعاً، وقال في آخره: حديث حسن ولكن ليس له إسناده قوي.

وَعَبْرَتِهَا، يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهَا بِأَحْكَامِهَا وَشَرَائِطِهَا، حَتَّى تُقِيمَهَا. فَرُبَّمَا
 أَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى شَيْءٍ سِنِينَ وَأَزْمَانًا، مِمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ طَهَارَتَكَ
 وَصَلَوَاتِكَ أَوْ تُخْرِجُهَا عَنْ كَوْنِهَامَا وَقَعْتَيْنِ عَلَى وَفَاقِ السَّنَةِ، وَأَنْتَ
 لَا تَشْعُرُ بِذَلِكَ، وَرُبَّمَا يَعْتَرِضُ لَكَ مُشْكِلٌ، وَلَا تَجِدُ مَنْ تَسْأَلُهُ عَنْ
 ذَلِكَ وَأَنْتَ مَا تَعْلَمْتَهُ.

نُمَّ مَدَارُ هَذَا الشَّأْنِ أَيْضًا عَلَى الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي هِيَ الْعِبَادَاتُ
 مَسَاعِي الْقَلْبِ، يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهَا مِنَ التَّوَكُّلِ وَالتَّفْوِيزِ وَالرِّضَا
 وَالصَّبْرِ وَالتَّوْبَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 تَعَالَى.

وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ مَنَاهِيهَا الَّتِي هِيَ أَضْدَادُ هَذِهِ الْأُمُورِ: كَالشُّخْطِ
 وَالْأَمَلِ وَالرِّيَاءِ وَالْكِبْرِ لِتَجْتَنِبَ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ فَرَائِضُ نَصِّ اللَّهِ تَعَالَى
 عَلَى الْأَمْرِ بِهَا، وَالتَّهْيِ عَنْ أَضْدَادِهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَعَلَى لِسَانِ
 نَبِيِّهِ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١/٧]
 [المائدة: ٢٣] ﴿وَأَسْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]
 ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ
 تَبَتُّلًا﴾ [المزمل: ٨] أَيْ أَخْلِصْ إِلَيْهِ إِخْلَاصًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ
 الْآيَاتِ. كَمَا نَصَّ عَلَى الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ؛ فَمَا لَكَ أَقْبَلْتَ عَلَى
 الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ، وَتَرَكْتَ هَذِهِ الْفَرَائِضَ، وَالْأَمْرَ بِهَا مِنْ رَبِّ وَاحِدٍ
 فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ؟ بَلْ غَفَلْتَ عَنْهَا وَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنْهَا، أَعْرَكَ فَتَوَى
 مَنْ أَصْبَحَ بِعَاجِلِ حَظِّهِ مَشْغُوفًا، حَتَّى صَيَّرَ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ
 مَعْرُوفًا، وَمَنْ أَهْمَلَ الْعُلُومَ الَّتِي سَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ نُورًا
 وَحِكْمَةً وَهُدًى، وَأَقْبَلَ عَلَى مَا بِهِ يَكْتَسِبُ الْحَرَامَ وَيَكُونُ مَصِيدَةً

لِلخَطَامِ؟ أَمَا تَخَافُ أَيُّهَا الْمُسْتَرَشِدُ أَنْ تَكُونَ مُضَيِّعًا لَشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ
الْوَاجِبَاتِ بَلْ لَأَكْثَرَهَا، وَتَسْتَنْغِلُ بِصَلَاةِ التَّطَوُّعِ وَصَوْمِ النَّفْلِ فَتَكُونُ فِي
لَا شَيْءٍ، وَرُبَّمَا أَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَاصِي الَّتِي
تَسْتَوْجِبُ بِهَا النَّارَ، وَتَتْرُكُ مُبَاحًا مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ نَوْمٍ، تَبْتَغِي
بِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَكُونُ فِي لَا شَيْءٍ؛ وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ
أَنَّكَ تَكُونُ فِي أَمْنِ الْأَمَلِ، وَالْأَمَلُ مَعْصِيَةٌ مَخْضَةٌ، فَتَظُنُّهُ نِيَّةً خَيْرٍ
بِالْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَتَقَارِبُهُمَا فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ.

وَكَذَلِكَ تَكُونُ فِي جَزَعٍ وَسُخْطٍ وَتَظُنُّهُ تَضَرُّعًا وَابْتِهَالًا إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى، وَتَكُونُ فِي رِيَاءٍ مَخْضٍ وَتَحْسَبُهُ حَمْدًا لِلَّهِ تَعَالَى، أَوْ دَعْوَةً
لِلنَّاسِ إِلَى الْخَيْرِ فَتَأْخُذُ تَعُدُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمَعَاصِي بِالطَّاعَاتِ،
وَتَحْتَسِبُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ فِي مَوَاضِعِ الْعُقُوبَاتِ، فَتَكُونُ فِي غُرُورٍ
عَظِيمٍ وَغَفْلَةٍ قَبِيحَةٍ، وَهَذِهِ وَاللَّهِ مُصِيبَةٌ فِطِيعةٌ لِلْعَامِلِينَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ.

ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ إِنْ لِلْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ عِلَاقَةٌ مِنَ الْمَسَاعِي الْبَاطِنَةِ
تُضْلِحُّهَا وَتُفْسِدُهَا: كَالْإِخْلَاصِ وَالرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ وَذِكْرِ الْمَنَّةِ وَغَيْرِهِ،
فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ هَذِهِ الْمَسَاعِي الْبَاطِنَةَ، وَوُجُوهُ تَأْثِيرِهَا فِي الْعِبَادَاتِ
الظَّاهِرَةِ وَكَيْفِيَّةِ الْإِحْتِرَازِ مِنْهَا وَحِفْظِ الْعَمَلِ عَنْهَا، / فَقَلَّمَا يَسْلَمُ لَهُ
[٧/ب] عَمَلُ الظَّاهِرِ أَيْضًا، فَتَفُوتُهُ طَاعَاتُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَلَا يَبْقَى فِي يَدِهِ
غَيْرُ الشَّقَاءِ وَالْكَدِّ، وَهَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ. وَلِهَذَا قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ نَوْمًا عَلَى عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ عَلَى جَهْلٍ، فَإِنَّ
الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ»^(١). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي

(١) - رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٥/٤) بلفظ: (نوم على علم خير من صلاة على =

الْعِلْمُ «إِنَّهُ يُلْهِمُهُ السُّعْدَاءَ، وَيُخْرِمُهُ الْأَشْقِيَاءَ»^(١) فَالْمَعْنَى، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَنَّ إِحْدَى شِقْوَتَيْهِ أَنْ لَا يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ، ثُمَّ يَشْقَى وَيَتَّعَبُ فِي الْعِبَادَةِ عَلَى خَبْطٍ؛ فَمَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَعَمَلٍ لَا يُرْفَعُ، وَلِهَذَا عَظَمَتْ عِنَايَةُ الْعُلَمَاءِ الزُّهَادِ الْعَامِلِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بِالْعِلْمِ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنَّ مَدَارَ أَمْرِ الْعُبُودِيَّةِ، وَمِلَاكِ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْعِلْمِ، وَهَكَذَا يَكُونُ نَظْرُ أُولِي الْأَبْصَارِ وَأَهْلِ التَّأْيِيدِ وَالتَّوْفِيقِ.

فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ الطَّاعَةَ لَا تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ، وَلَا تَسْلُمُ لَهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ، فَيَلْزَمُ إِذَا تَقَدِّمَتْ فِي شَأْنِ الْعِبَادَةِ.

= (جهل) وقال كذا رواه الأعمش عن أبي البخترى، وأرسله أبو البخترى عن سلمان أيضاً.

— وذكره الجلال السيوطي في (اللباب) بلفظ: (نوم العالم أفضل من عبادة الجاهل) (الكديري ٨٩/١).

— وذكره السيوطي أيضاً في الجامع الصغير (٥٨٥/٢) (الحديث رقم ٩٢٩٤) برواية الحلبي عن سلمان، وأشار إلى ضعفه. وقال المناوي في (فيض القدير ٣٩١/٦): ذكره الذهبي في الضعفاء.

— وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (رقم ٥٩٨٥) وأشار إلى ضعفه، وأنه مروى في الأحاديث الضعيفة برقم ٤٦٩٧.

(١) — هذا جزء من حديث أوله: (العلم إمام والعمل تابعه) وقد سبق تخريجه. انظر الحديث ص ٦٨ حاشية (١).

الْخِصْلَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي تُوجِبُ تَقْدِيمَ الْعِلْمِ ^(١): إِنَّ الْعِلْمَ النَّافِعَ يُثْمِرُ خَشْيَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَهَابَتَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَهَبْهُ حَقَّ مَهَابَتِهِ، وَلَمْ يُعَظِّمُهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ وَحُرْمَتِهِ، فَصَارَ الْعِلْمُ يُثْمِرُ الطَّاعَةَ كُلَّهَا وَيَحْجُزُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ كُلِّهَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَيْنِ مَقْصِدٌ لِلْعَبْدِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ، أَرْشَدَكَ اللَّهُ، يَا سَالِكَ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

وَلَعَلَّكَ أَنْ تَقُولَ: قَدْ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْحِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ أَنَّهُ قَالَ: «طَلَبَ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» ^(٢). فَمَا الْعِلْمُ الَّذِي ظَنَبُهُ فَرِيضٌ لَازِمٌ؟ وَمَا الْحَدُّ الَّذِي لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ تَحْصِيلِهِ فِي أَمْرِ الْعِبَادَةِ؟

(١) ذكر المؤلف فيما سبق أنه يلزم تقديم العلم على العبادة لأمرين: أحدهما:

لتحصل لك العبادة وتسسم، والأمر الثاني هو هذه الخصلة الثانية.

(٢) سقط هذا الحديث من لأصل ومن (ج).

— رواه ابن ماجه عن نس بن مالك في باب: فضل العلماء ونحث عسى طلب العلم (٨١/١)، (الحديث رقم ٢٢٤).

— وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٩٧/٢ - ٩٨) برويت عدة وأسانيد متنوعة وقد صححه (حديث رقم / ٥٢٦٤ وما بعده).

— وذكر العراقي في تخريجه لهذا الحديث (إحياء ٢١) أن أحمد بن حنبل والبيهقي وغيرهما ضعفه.

— وتتبع الإمام السخوي أسانيد هذا الحديث تتبعاً وافياً وذكر أقوال العلماء فيه كقول البيهقي: (منته مشهور وإسناده ضعيف، وقد روي من توجه كلها ضعيفة).

وقول الحافظ النيسابوري: «إنه لم يصح عن النبي ﷺ فيه إسناد».

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي طَلَبَهَا/ فَرَضَ فِي الْجُمْلَةِ ثَلَاثَةٌ: عِلْمُ [1/8]
التَّوْحِيدِ، وَعِلْمُ السَّرِّ، أَعْنِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ وَمَسَاعِيهِ، وَعِلْمُ العلوم
المفروضة الشَّرِيعَةِ.

١ - وَأَمَّا حَدُّ مَا يَجِبُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، فَالَّذِي يَتَّعَيْنُ
فَرَضُهُ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ، مِقْدَارُ مَا تَعْرِفُ بِهِ أَصُولَ الدِّينِ، وَهُوَ أَنَّ علم
التوحيد لكِ الْهَاءِ عَالِمًا قَادِرًا حَيًّا مُرِيدًا مُتَكَلِّمًا سَمِيعًا بَصِيرًا وَاحِدًا لَا شَرِيكَ
لَهُ، مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، مُنْزَهًا عَنِ دَلَالَاتِ الْحُدُوثِ ^(١) مُنْفَرِدًا
بِالْقَدَمِ عَنْ كُلِّ مُحَدِّثٍ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الصَّادِقُ فِيمَا
جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَفِيمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ. ثُمَّ
مَسَائِلُ فِي شَعَائِرِ الشَّنَةِ تَجِبُ مَعْرِفَتُهَا؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَبْتَدِعَ فِي دِينِ اللَّهِ
تَعَالَى، مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلَا أَثَرٌ، فَتَكُونَ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى
أَعْظَمِ خَطَرٍ.

وَجَمِيعُ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ مَوْجُودٌ أَصْلُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ
ذَكَرَهَا شَيْوْخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي صَنَّفُوهَا فِي أُصُولِ
الدِّيَانَاتِ.

وَعَلَى الْجُمْلَةِ: كُلُّ مَا لَا تَأْمَنُ الْهَلَاكَ مَعَ جَهْلِهِ فَطَلَبُ عِلْمِهِ
فَرَضٌ لَا يَسُوعُ لَكَ تَرْكُهُ، فَهَذِهِ هَذِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

٢ - وَأَمَّا الَّذِي يَتَّعَيْنُ فَرَضُهُ مِنْ عِلْمِ السَّرِّ فَمَعْرِفَةُ مَوَاجِبِهِ علم السرِّ
وَمَنَاهِيهِ؛ حَتَّى يَحْصُلَ لَكَ تَعْظِيمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالْإِخْلَاصُ لَهُ وَالنِّيَّةُ

(١) في الأصل الحدث، والتصحيح من باقي النسخ.

وَسَلَامَةُ الْعَمَلِ. وَعَامَّةُ ذَلِكَ يَأْتِي فِي أَثْنَاءِ كِتَابِنَا هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى.

٣ - وَأَمَّا (مَا يَتَّعَيْنُ)^(١) مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ. فَكُلُّ مَا تَعَيَّنَ عَلَيْكَ
علم الشريعة أَمَّا الْحُجُّ وَالْجِهَادُ وَالزَّكَاةُ، إِنْ تَعَيَّنَ عَلَيْكَ، وَجَبَ عَلَيْكَ عِلْمُهَا لِتَوْدِيحِهَا
وَالْأَفَلَا. فَهَذَا حَدُّ مَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ تَحْصِيلُهُ مِنَ الْعِلْمِ لَا مَحَالَةَ، وَيَتَّعَيْنُ
فَرَضُهُ بِحَيْثُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ.

مَا يَتَّعَيْنُ فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلْ يُفْتَرَضُ عَلَيَّ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ مَا أَنْقَضَ
معرفة من به جميع ملل الكفر وألزمهم حجة الإسلام، وأنقض به جميع البدع
هذه العلوم وألزمهم حجة السنة؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا فَرَضٌ عَنَى الْكِفَايَةِ، وَإِنَّمَا يَتَّعَيْنُ عَلَيْكَ مَا
[٨/ب] تَصَحَّحَ بِهِ أَعْتِقَادَكَ/ فِي أَصُولِ الدِّينِ لَا غَيْرَ.

وَكَذَلِكَ لَا يَتَّعَيْنُ عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ فُرُوعِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ وَدَقَائِقِهِ،
وَالْإِثْبَانُ عَلَى جَمِيعِ مَسَائِلِهِ، نَعَمْ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْكَ شُبُهَةٌ فِي أَصُولِ
الدِّينِ، تَخَافُ أَنْ تَقْدَحَ فِي أَعْتِقَادِكَ، فَيَتَّعَيْنُ عَلَيْكَ حَلُّ تِلْكَ الشُّبُهَةِ
بِمَا أَمَكَّنَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُفْنَعِ. وَإِيَّاكَ وَالْمُمَارَاةَ وَالْمُجَادَلَةَ، فَإِنَّهَا دَاءٌ
مَحْضٌ لَا دَوَاءَ لَهُ، فَاحْتَرِزْ مِنْهُ جَهْدَكَ، فَإِنَّ مِنْ أَرْتَدَاهُ لَمْ يُفْلِحِ إِلَّا
أَنْ يَتَّعَمِدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَلُطْفِهِ.

ثُمَّ أَعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي كُلِّ قَطْرِ دَاعٍ مِنْ دُعَاةِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَحُلُّ
الشُّبُهَةَ، وَيَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ، وَيَسْتَعْلِفُ بِهَذَا الْعِلْمِ، وَيُصَفِّي قُلُوبَ
أَهْلِ الْحَقِّ عَنِ وَسَاوِسِ الْمُبْتَدِعَةِ، فَقَدْ سَقَطَ الْفَرَضُ عَمَّنْ سِوَاهُ.

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَكَذَلِكَ لَا يَلْزَمُكَ مِنْ مَعْرِفَةِ دَقَائِقِ عِلْمِ السَّرِّ، وَجَمِيعِ شَرْحِ
عَجَائِبِ الْقَلْبِ، إِلَّا مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبَادَتَكَ؛ فَتَجِبُ مَعْرِفَتَهُ لِتَجْتَنِبَهُ.

وَمَا يَلْزَمُكَ فِعْلُهُ، كَالِإِخْلَاصِ وَالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَنَحْوِ
ذَلِكَ، فَيَلْزَمُكَ مَعْرِفَتُهُ لِتُوَدِّيَهُ، وَأَمَّا مَا سِوَاهُ فَلَا.

وَكَذَلِكَ لَا يَلْزَمُكَ مَعْرِفَةُ سَائِرِ أَبْوَابِ الْفِقْهِ، مِنَ الْبُيُوعِ
وَالْإِجَارَاتِ وَالتَّكَاحِ وَالتَّلَاقِ وَالجِنَايَاتِ، وَإِنَّمَا كُلُّ ذَلِكَ فَرَضٌ عَلَى
الْكَفَايَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا الْقَدْرُ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ، هَلْ يَحْصُلُ بِنَظَرِ
الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ مُعَلِّمٍ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْأُسْتَاذَ فَاتِحَ وَمُسَهِّلَ، وَالتَّحْصِيلَ مَعَهُ أَسْهَلُ وَأَرْوَحُ،
وَاللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَكُونُ هُوَ مُعَلِّمَهُمْ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ أَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْعَقَبَةَ الَّتِي هِيَ عَقَبَةُ الْعِلْمِ، عَقَبَةٌ كَوُودٌ،
وَلَكِنْ بِهَا يُنَالُ الْمَطْلُوبُ وَالمَقْصُودُ، وَنَفْعُهَا كَثِيرٌ، وَقَطْعُهَا شَدِيدٌ،
وَخَطَرُهَا عَظِيمٌ؛ كَمَنْ مِنْ عَدَلٍ عَنْهَا فَضَلَّ، وَكَمَنْ مِنْ سَلَكَهَا فَزَلَّ،
وَكَمَنْ مِنْ تَأَنَّى فِيهَا مُتَحَيِّرٌ، وَكَمَنْ مِنْ حَائِرٍ مُنْقَطِعٍ، وَكَمَنْ مِنْ سَالِكٍ
قَطَعَهَا فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ، وَآخَرَ مُتَرَدِّدٌ فِيهَا سَبْعِينَ سَنَةً، وَالأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِ
اللَّهِ.

أَمَّا نَفْعُهُ فَعَلَى / مَا ذَكَرْنَا مِنْ شِدَّةِ الْحَاجَةِ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ، وَبِنَاءِ أَمْرِ [أ/٩]
الْعِبَادَةِ كُلِّهِ عَلَيْهِ، لَا سِيَّمَا عِلْمِ التَّوْحِيدِ وَعِلْمِ السَّرِّ.

فَلَقَدْ رُوي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا

العلم
النافع

دَاوُدُ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ النَّافِعَ. قَالَ: إِلَهِي، وَمَا الْعِلْمُ النَّافِعُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْرِفَ
جَلَالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَانِي وَكَمَالَ قُدْرَتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ
الَّذِي يُقَرِّبُكَ إِلَيَّ.

الغاية من
طلب
العلم

وَعَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا يُسْرِنِي أَنْ لَوْ مِتُّ طِفْلاً
وَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ وَلَمْ أَكْبِرْ فَأَعْرِفَ رَبِّي، فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ
لَهُ خَشْيَةً، وَأَكْثَرُهُمْ عِبَادَةً، وَأَحْسَنُهُمْ فِي اللَّهِ نَصِيحَةً.

وَأَمَّا شِدَّتُهَا^(١)، فَأَبْذُلُ نَفْسِكَ فِي الْإِخْلَاصِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ،
وَلْيَكُنِ الطَّلَبُ طَلَبَ دِرَايَةٍ لَا طَلَبَ رِوَايَةٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَرَ عَظِيمٌ فِي
طَلَبِ الْعِلْمِ، فَمَنْ طَلَبَهُ لِيَصْرِفَ بِهِ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَيُجَالِسَ بِهِ
الْأُمَرَاءَ، وَيُبَاهِي بِهِ النُّظَرَاءَ، أَوْ يَتَّصِدَّ بِهِ الْحُطَّامَ فَتِجَارَتُهُ بَائِرَةٌ
وَصَفْقَتُهُ خَاسِرَةٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُفَاخِرَ بِهِ
الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ،
أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٢).

(١) شدتها: تعود إلى شدة الحاجة إلى العلم.

(٢) — رواه ابن ماجه عن ابن عمر، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٩٣/١) بلفظ:
(من طلب العلم ليمدري به السفهاء أو ليباهي به العلماء...) (الحديث رقم
٢٥٣).

— وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٥٣٦/٢) عن الترمذي بروايته عن
كعب بن مالك وأشار إلى أنه حسن.

— وذكر المناوي في فيض القدير (١٧٦/٦) في شرحه وتتبعه لهذا الحديث:
وفيه إسحاق بن يحيى بن طلحة، قال الذهبي في الكباثر: (واه) وقال غيره:
مُتَكَلِّمٌ فِيهِ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ.

قَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبُسْطَامِيُّ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: عَمِلْتُ فِي الْمُجَاهَدَةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا وَجَدْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْعِلْمِ وَخَطَرِهِ. وَإِيَّاكَ أَنْ يُزَيَّنَ لَكَ الشَّيْطَانُ فَيَقُولَ لَكَ: إِذَا كَانَ قَدْ وَرَدَ هَذَا الْخَطَرُ الْعَظِيمُ فِي الْعِلْمِ فَتَرْكُهُ أَوْلَى. فَلَا تَظُنَّنَّ ذَلِكَ؛ فَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُطْلِعْتُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ عَلَى النَّارِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ الْمَالِ؟ قَالَ: لَا، مِنْ الْعِلْمِ»^(٢)؛ فَمَنْ لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ لَا تَتَأْتِي لَهُ أَحْكَامُ الْعِبَادَةِ وَالْقِيَامُ بِحُقُوقِهَا. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَبَدَ اللَّهَ عِبَادَةَ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَسَمَّرُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِالْبَحْثِ وَالتَّلَقُّينِ وَالتَّدْرِيسِ، وَاجْتِنِبِ الْكَسَلَ وَالْمَالَ، وَإِلَّا فَانَّتْ فِي خَطَرِ الضَّلَالِ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ جُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ فِي دَلَائِلِ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى، أَصُولُ الْعَقِيدَةِ

(١) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، نسبة إلى بسطام، بلد بطريق نيسابور كان جده مجوسياً فأسلم، سنن العارفين وأحد الزهاد المشهورين. ويحكي عنه في الشطح أشياء، منها ما لا يصح، أو يكون مقولاً عليه. وتوفي البسطامي عن ثلاث وسبعين سنة، وذلك في عام إحدى وستين ومائتين. سير أعلام النبلاء ١٣/٨٦.

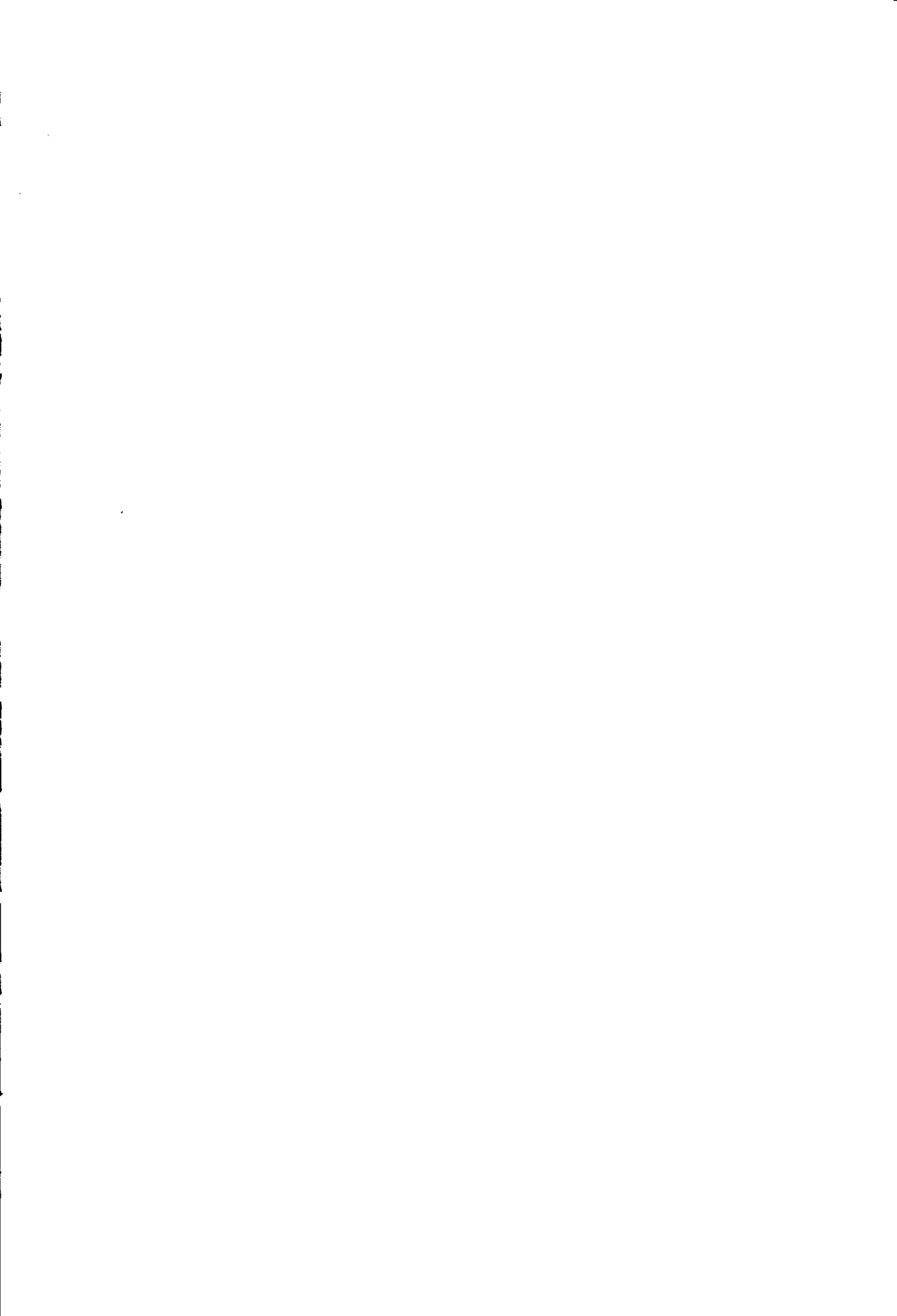
(٢) سقط هذا الحديث من الأصل ومن (ج). ولم يرد هذا الحديث ولا معناه أيضاً في صحيح مسلم عن أهل النار وصفاتهم (٢١٨٦/٤) ولا في البخاري أيضاً (١٤٢/٤)، وقد ورد فيه عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء). وكذلك ورد في صحيح مسلم (٢٠٩٦، ٤) في (كتاب الرقاق). والملاحظ أن الحديث نذي ذكره الغزالي يشير إلى فقراء العلم وليس إلى فقراء المال. ولهذا ظهر الالتبس. وكذلك لم يرد هذا الحديث في إحياء علوم الدين، ولم يخرج الكديري في سراج الطالبين. ولم نجد له أصلاً بنبيه، والله أعلم.

[ب/٩] وَأَمَعْنَتِ النَّظَرَ، عَلِمْتَ أَنَّ لَهَا إِلَهًا قَادِرًا عَالِمًا حَيًّا مُرِيدًا سَمِيعًا
بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا، مُزَّهَاً عَنِ حُدُوثِ الْكَلَامِ / وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ، مُقَدَّسًا
عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَآفَةٍ، لَا يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا
يَجُوزُ عَلَى الْمُحْدُودِينَ^(١) وَلَا يُشْبَهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يُشْبَهُهُ شَيْءٌ،
وَلَا تَتَضَمَّنُهُ الْأَمَاكِنُ وَالْجِهَاتُ، وَلَا تَحُلُّهُ الْحَوَادِثُ وَالْآفَاتُ.

وَنَظَرْتَ فِي مُعْجَزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ، فَعَلِمْتَ أَنَّهُ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَمَا كَانَ السَّلْفُ يَعْتَقِدُونَهُ، مِنْ
أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ مَوْجُودٌ وَلَيْسَ فِي جِهَةٍ مَحْدُودَةٍ
وَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ. وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَيْسَ
بِحُرُوفٍ مُقَطَّعَةٍ، وَلَا أَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ، لَكَانَ مِنْ
جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ فَلْتُهُ خَاطِرٍ،
وَلَا لَفْتُهُ نَاطِرٍ، إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَمِنْهُ
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَالنَّفْعُ وَالضَّرُّ، وَالْإِيمَانُ وَالْكَفْرُ. وَأَنَّهُ لَا وَاجِبَ عَلَى
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ مَنْ أَثَابَهُ فَبِفَضْلِهِ وَمَنْ عَاقَبَهُ فَبِعَدْلِهِ.
وَمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ الشَّرْعِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ مِنْ
أُمُورِ الْآخِرَةِ، كَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ،
وَالْمِيزَانِ وَالصَّرَاطِ، فَهَذِهِ أُصُولُ دَرَجِ السَّلْفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى
اعْتِقَادِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِهَا، وَوَقَعَ عَلَيْهَا الْإِجْمَاعُ قَبْلَ تَنْوُعِ الْبِدَعِ وَظُهُورِ
الْأَهْوَاءِ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْإِبْتِدَاعِ فِي الدِّينِ وَأَتَّبَاعِ الْهَوَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ.
ثُمَّ نَظَرْتَ فِي أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَالْمَوَاجِبِ الْبَاطِنَةِ، وَالْمَنَاهِي التِّي

(١) أي: المخلوقين كما في النسخ الأخرى.

تَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ، لِيَحْضَلَ لَكَ عِلْمُهُ، ثُمَّ تَعْرِفَ جُمْلَةَ مَا تَحْتَاجُ
إِلَى اسْتِعْمَالِهِ، كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَنَحْوِهِ؛ فَإِذَا فَعَلْتَ، فَقَدْ
أَدَيْتَ فَرَضَ اللَّهِ عَلَيْكَ الَّذِي تَعَبَّدُكَ بِهِ فِي بَابِ الْعِلْمِ، وَلَقَدْ صِرْتَ
مِنْ عُلَمَاءِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، إِنْ عَمِلْتَ بِعِلْمِكَ،
وَأَقْبَلْتَ عَلَى عِمَارَةِ مَعَادِكَ، وَكُنْتَ عَبْدًا عَالِمًا عَامِلًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى
بَصِيرَةٍ غَيْرِ جَاهِلٍ، وَلَا مُقَلِّدٍ وَلَا غَافِلٍ، وَلَكَ الشَّرْفُ الْعَظِيمُ،
وَلِعِلْمِكَ الْقِيَمَةُ الْكَثِيرَةُ وَالنَّوَابِغُ الْجَزِيلُ، وَكُنْتَ قَدْ قَطَعْتَ / هَذِهِ [١٠/أ]
الْعُقْبَةَ، وَخَلَفْتَهَا وَرَاءَكَ، وَقَضَيْتَ حَقَّهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يُمَدِّكَ وَإِيَانًا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.



العقبة الثانية وهي عقبة التوبة

ثم عليك يا طالب العبادَةِ - وفَّقك اللهُ لطاعته - بِالتَّوْبَةِ، وَذَلِكَ
لِأَمْرَيْنِ:

وجوب
التوبة

أَحَدُهُمَا: لِيَحْضَلَ لَكَ تَوْفِيقُ الطَّاعَةِ، فَإِنَّ سُؤْمَ الذُّنُوبِ يُورِثُ
الْحَرَمَانَ، وَيُعْقِبُ الْخِذْلَانَ، وَإِنَّ قَيْدَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ مِنَ الْمَشِيِّ إِلَى
طَاعَةِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى خِدْمَتِهِ، وَإِنَّ ثِقَلَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ
مِنَ الْخِفَّةِ لِلْخَيْرَاتِ، وَالنَّشَاطِ إِلَى الطَّاعَاتِ، وَإِنَّ الْأَصْرَارَ عَلَى
الذُّنُوبِ يُسَوِّدُ الْقُلُوبَ، فَتَجِدُهَا فِي ظُلْمَةٍ وَقَسَاوَةٍ وَلَا خُلُوصَ فِيهَا
وَلَا صَفَاوَةَ، وَلَا لَذَّةَ لَطَاعَةٍ وَلَا حَلَاوَةَ، وَإِنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ
فَسَتُجْرُ صَاحِبَهَا إِلَى الْكُفْرِ وَالشَّقَاوَةِ.

فِيَا عَجَبًا، كَيْفَ يُوفَّقُ لِلطَّاعَةِ مَنْ هُوَ فِي سُؤْمٍ وَقَسَاوَةٍ؟ وَكَيْفَ
يُدْعَى إِلَى الْخِدْمَةِ مَنْ هُوَ مُصْرٌّ عَلَى الْأَمْعِيَةِ وَالْجَفْوَةِ؟ وَكَيْفَ يُقْرَبُ
لِلْمَنَاجَاةِ مَنْ هُوَ مُتَلَطِّحٌ بِالْأَقْدَارِ وَالنَّجَاسَاتِ؟ فَفِي الْخَبَرِ عَنِ الصَّادِقِ
الْمُصَدِّقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَنَحَّى عَنْهُ
الْمَلَكَانِ مِنْ نَتْنِ مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ»^(١) فَكَيْفَ يَصْلُحُ هَذَا اللِّسَانُ لِذِكْرِ
اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ؟.

(١) - أخرجه أبو نعيم في الحنية (١٩٧/٨) عن ابن عمر بلفظ: (إذا كذب العبد =

فَلَا جَرَمَ لَا يَكَادُ يَجِدُ الْمُصِرُّ عَلَى الْعِصْيَانِ تَوْفِيقًا، وَلَا تَخِفُ
 أَرْكَانُهُ لِلْعِبَادَةِ، وَإِنْ أَتَفَقَ، فَيَكْدُ لَا حَلَاوَةَ مَعَهُ وَلَا صَفْوَةَ، وَكُلُّ
 ذَلِكَ لِسُؤْمِ الدُّنُوبِ وَتَرْكِ التَّوْبَةِ. وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ^(١): إِذَا لَمْ تَقْوِ
 عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَكْبُورٌ وَقَدْ كَبَلْتَكَ
 خَطِيئَتِكَ. فَهَذِهِ هَذِهِ.

وَالثَّانِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ: إِنَّمَا تَلْزُمُكَ التَّوْبَةُ لِتُقْبَلَ عِبَادَتُكَ، فَإِنَّ
 رَبَّ الدِّينِ لَا يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَذَلِكَ أَنَّ التَّوْبَةَ عَنِ الْمَعَاصِي وَإِرْضَاءَ
 الْخُصُومِ فَرَضٌ لِأَزْمِ، وَعَامَّةُ الْعِبَادَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا نَفْلٌ، فَكَيْفَ يُقْبَلُ
 تَبَرُّعَكَ وَالذِّينُ عَلَيْكَ حَالٌ لَمْ تَقْضِهِ؟ أَمْ كَيْفَ تَتْرُكُ لِأَجَلِهِ الْحَلَالَ
 [١٠/ب] وَالْمُبَاحَ/ وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى فِعْلِ الْمَحْظُورِ وَالْحَرَامِ؟ وَكَيْفَ تُتَاجِهِي
 وَتَدْعُوهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ، وَهُوَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - عَلَيْكَ غَضَبَانُ؟ فَهَذَا ظَاهِرُ
 حَالِ الْعَصَاةِ الْمُصِرِّينَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَمَا حَدُّهَا؟ وَمَا يَنْبَغِي
 لِلْعَبْدِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الدُّنُوبِ كُلِّهَا؟ فَأَقُولُ:

= كذبة تباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به).

وقال: غريب من حديث عبد العزيز عن نافع، تفرد به عبد الرحيم.

- وأخرجه الترمذي في الزهد وقال: جيد غريب. تفرد به عبد الرحيم بن هرون.
 وقال الدارقطني في عبد الرحيم: متروك الحديث يكذب، وذكر له ابن عدي
 مناكير. وقد رمز السيوطي لحسنه تبعاً لتجويد الترمذي له.

(انظر الجامع الصغير ١/١١٠، الحديث رقم ٨٤٠، وراجع شرح هذا الحديث
 وتعليق المناوي عليه في فيض القدير ١/٤٣٤ - ٤٣٥).

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (٨/٩٦) من حديث محمد بن علي عن الفضيل قوله:
 «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبل كبتك
 خطيئتك».

أَمَّا التَّوْبَةُ فَإِنَّهَا سَعْيٌ مِنْ مَسَاعِي الْقَلْبِ، وَهِيَ عِنْدَ التَّحْصِيلِ معنى فِي قَوْلِ الْعُلَمَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: تَنْزِيهِ الْقَلْبِ عَنِ الذَّنْبِ. قَالَ التَّوْبَةُ التوبة شَيْخُنَا^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَدِّ التَّوْبَةِ: إِنَّهُ تَرَكَ اخْتِيَارَ ذَنْبٍ سَبَقَ مِثْلُهُ عَنْهُ، مَنْزِلَةً لَا صُورَةَ، تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى وَحَذَرًا مِنْ سَخَطِهِ. وَلَهَا إِذَا أَرْبَعُ شَرَائِطَ:

إِحْدَاهَا: تَرَكَ اخْتِيَارَ الذَّنْبِ، وَهُوَ أَنْ يُوطَّنَ قَلْبُهُ وَيُجَرِّدَ عَزْمَهُ شروط عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ الْبَيِّنَةِ؛ فَأَمَّا إِنْ تَرَكَ الذَّنْبَ وَفِي نَفْسِهِ أَنَّهُ التوبة رُبَّمَا يَعُودُ إِلَيْهِ، أَوْ لَا يَعْزُمُ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ يَتَرَدَّدُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَقَعُ لَهُ الْعُودُ، فَإِنَّهُ مُمْتَنِعٌ عَنِ الذَّنْبِ غَيْرُ تَائِبٍ عَنْهُ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَتُوبَ عَنْ ذَنْبٍ قَدْ سَبَقَ عَنْهُ مِثْلُهُ، إِذْ لَوْ لَمْ يَسْبِقْ عَنْهُ مِثْلُهُ لَكَانَ مُتَّقِيًا غَيْرَ تَائِبٍ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مُتَّقِيًا عَنِ الْكُفْرِ، وَلَا يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كَانَ تَائِبًا عَنِ الْكُفْرِ، إِذْ

(١) هو أبو بكر الطرطوشي كما في سراج السالكين ص ١٤٨.

وهو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي الزاهد المعروف بابن أبي رندقة، من أهل طرطوشة وهي مدينة بالأندلس على ساحل البحر.

رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ، وحج ودخل بغداد والبصرة ومصر وفلسطين ولبنان وأقام مدة في الشام، كان إماماً عالمياً عاملاً زاهداً ورعاً دَيِّناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً عنها باليسير.

من كتبه: كتاب كبير عارض به إحياء علوم الدين للغزالي. وله من التصانيف «سراج الملوك» و«كتاب البر الوالدين» و«كتاب الفتن» وغير ذلك.

وُلِدَ سَنَةَ ٤٥١ هـ وَتُوفِيَ سَنَةَ ٥٢٠ هـ بِشَغْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ.

انظر ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان ٢٦٢/٤ - ٢٦٥. الديباج المذهب

٢٧٦، نفع الطيب ١/٣٦٧.

لَمْ يَسْبِقْ مِنْهُ كُفْرٌ بِحَالٍ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ تَائِباً عَنِ الْكُفْرِ
لَمَا سَبَقَ عَنْهُ ذَلِكَ.

وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ الَّذِي سَبَقَ، يَكُونُ مِثْلَ مَا يَتْرُكُ اخْتِيَارَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ
وَالدَّرَجَةِ، لَا فِي الصُّورَةِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّيْخَ الْهَرَمَ الْفَانِيَّ، الَّذِي
سَبَقَ مِنْهُ الزَّنَا وَقَطَعَ الطَّرِيقَ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ عَنِ ذَلِكَ، تُمْكِنُهُ
التَّوْبَةُ لَا مَحَالَةَ، إِذْ لَمْ يُعْلَقْ عَنْهُ بِأُيُوبِهَا، وَلَا يُمْكِنُهُ تَرْكُ اخْتِيَارِ الزَّنَا
وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، إِذْ هُوَ لَا يَقْدِرُ الْآنَ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى
تَرْكِ اخْتِيَارِهِ، فَلَا يَصِحُّ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ تَارِكٌ لَهُ، مُمْتَنِعٌ عَنْهُ، وَهُوَ عَاجِزٌ
عَنْهُ، غَيْرٌ / مُتَمَكِّنٌ، لِكِنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى مَا هُوَ مِثْلُ الزَّنَا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ،
فِي الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ (كَالْكَذِبِ) ^(١) وَالْقَذْفِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، إِذْ
جَمِيعُ ذَلِكَ مَعَاصِرٌ وَإِنْ كَانَ الْإِثْمُ يَتَفَاوَتْ فِي حَقِّ الْآدَمِيِّ، فِي كُلِّ
وَاحِدَةٍ بِقَدْرِهَا.

وَلَكِنْ جَمِيعُ هَذِهِ الْمَعَاصِي الْفَرَعِيَّةِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ
دُونَ مَنْزِلَةِ الْبِدْعَةِ، وَمَنْزِلَةُ الْبِدْعَةِ دُونَ (مَنْزِلَةِ) ^(٢) الْكُفْرِ، فَلِذَلِكَ صَحَّ
مِنْهُ التَّوْبَةُ عَنِ الزَّنَا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَسَائِرِ مَا مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي
هُوَ عَاجِزٌ عَنْ أَمْثَالِهَا الْيَوْمَ فِي الصُّورَةِ.

وَالرَّابِعَةُ: أَنَّ يَكُونُ تَرْكُ اخْتِيَارِهِ ذَلِكَ، تَعْظِيماً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى، وَحَذْراً مِنْ سَخَطِهِ وَالْإِلِيمِ عِقَابِهِ، مُجَرِّداً لَا لِرَغْبَةِ دُنْيَوِيَّةٍ، أَوْ
رَهْبَةٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ طَلَبِ ثَنَاءٍ أَوْ صِيْتٍ، أَوْ جَاهٍ أَوْ ضَعْفٍ فِي

(١) زيادة من (د) و (هـ).

(٢) زيادة من (د) و (هـ).

النَّفْسِ أَوْ فَقْرٍ أَوْ هَوَانٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. فَهَذِهِ شَرَائِطُ التَّوْبَةِ وَأَرْكَانُهَا،
فَإِذَا حَصَلَتْ وَأَسْتَكْمَلَتْ، فَهِيَ تَوْبَةٌ حَقِيقَةٌ صَادِقَةٌ.

مقدمات
التوبة

وَأَمَّا مُقَدِّمَاتُ التَّوْبَةِ فَثَلَاثٌ:

إِحْدَاهَا: ذِكْرُ غَايَةِ قُبْحِ الذَّنْبِ.

وَالثَّانِيَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِمِّ سَخَطِهِ وَغَضَبِهِ
الَّذِي لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ.

وَالثَّلَاثَةُ: ذِكْرُ ضَعْفِكَ وَقِلَّةِ حِيلَتِكَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ مَنْ لَا
يَحْتَمِلُ حَرَّ شَمْسٍ وَلَطْمَةَ شُرْطِيٍّ وَقَرَصَ نَمَلَةٍ، كَيْفَ يَحْتَمِلُ حَرَّ نَارِ
جَهَنَّمَ، وَضَرْبَ مَقَامِعِ^(١) الزَّبَانِيَةِ، وَلَسَعَ حَيَاتٍ كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ^(٢)،
وَعَقَارِبِ كَالْبِغَالِ، خُلِقَتْ مِنَ النَّارِ فِي دَارِ الْغَضَبِ وَالْبُورِ، نَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ.

فَإِذَا وَاطَبَّتْ عَلَى هَذِهِ الْأَذْكَارِ، وَعَاوَدْتَهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ
النَّهَارِ، فَإِنَّهَا سَتَحْمِلُكَ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاللَّهُ
الْمُوفِّقُ بِفَضْلِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَيْسَرَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «التَّوْبَةُ تَوْبَةٌ»^(٣) وَلَمْ يَذْكُرْ
مِمَّا ذَكَرْتُمْ مِنْ شَرَائِطِهَا وَشَدَدَتِمْ شَيْئًا؟ يُعَالَى لَهُ:

(١) المقامع: جمع مِقْمَعَةٍ. وهي سياط من حديد رؤوسها معوجّة. والزبانية:
الملائكة الغلاظ الشداد.

(٢) البخت: نوع من الإبل ضول الأعناق.

(٣) — رواه ابن ماجه في سننه. كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (١٤٢٠/٢) الحديث
رقم ٤٢٥٢.

أَعْلَمَ أَوْلَا أَنْ النَّدَمَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَقَعُ النَّدَامَةُ
 [١١/ب] عَنْ أُمُورٍ فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لَا يَكُونَ ذَلِكَ، وَالتَّوْبَةُ مَقْدُورَةٌ/
 الهدف من للعبد مأمورٌ بها؟ ثمَّ إنا قد علمنا أنه لو ندم على الذنوب لما ذهب
 الندم بذلك جاهه عند الناس أو ماله في الثقة فيها، فإن ذلك لا يكون
 توبةً بلا ريب، فعلمت بذلك أن في الخبر معنى لم تفهمه من
 ظاهره، وهو أن الندم لتعظيم الله سبحانه، وخوف عقابه، مما يبعث
 على التوبة التصوح، فإن ذلك من صفات التائبين وحالهم، فإنه إذا
 ذكر الأذكار الثلاثة التي هي مقدمات التوبة يندم. فحملته الندامة
 على ترك اختيار الذنب، وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل تحمله
 على الإبتغال والتضرع. فلما كان ذلك من أسباب التوبة، وصفات
 التائب، سماه باسم التوبة، فافهم ذلك موافقاً إن شاء الله تعالى
 بفضله.

فَإِنْ قُلْتَ كَيْفَ يُمَكِّنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَصِيرَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مِنْهُ ذَنْبٌ
 الْبَتَّةَ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ؟ كَيْفَ وَأَنْبِيَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ
 الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، قَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ: هَلْ نَالُوا
 هَذِهِ الدَّرَجَةَ أَمْ لَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مُمَكِّنٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ ثُمَّ هُوَ هَيِّنٌ، وَاللَّهُ
 يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ.

= — كذلك رواه الحاكم النيسابوري في مستدرکه (٢٤٣/٤) وقال: صحيح الإسناد
 ولم يُخرجاه بهذه اللفظة. وقد وافقه الذهبي على صحته. وراوي الحديث هو
 عبد الله بن مسعود، وكذلك رواه أنس بن مالك.

ثُمَّ مِنْ شَرْطِ التَّوْبَةِ أَنْ لَا يَتَعَمَّدَ ذَنْبًا، فَأَمَّا إِنْ وَقَعَ مِنْهُ بِسُهُوٍ أَوْ
خَطَاٍ فَهُوَ مَغْفُورٌ عَنْهُ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هَيِّنٌ عَلَى مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ
تَعَالَى.

فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّوْبَةِ أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي أَنِّي
أَعُودُ إِلَى الذَّنْبِ وَلَا أُبْتُ عَلَى التَّوْبَةِ فَلَا فَائِدَةَ فِي ذَلِكَ، فَأَعْلَمُ أَنَّ
هَذَا مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ. وَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْعِلْمُ؟ فَعَسَى أَنْ تَمُوتَ
تَائِبًا قَبْلَ أَنْ تَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ.

وَأَمَّا الْخَوْفُ مِنَ الْعُودِ، فَعَلَيْكَ الْعَزْمُ وَالصَّدْقُ فِي ذَلِكَ،
وَعَلَيْهِ الْإِتْمَامُ، فَإِنْ أَتَمَّ فَذَاكَ (مِنْ فَضْلِهِ)^(١) وَإِنْ لَمْ يُتَمَّ، فَقَدْ غُفِرَتْ
ذُنُوبُكَ السَّالِفَةُ كُلُّهَا، وَتَخَلَّصْتَ مِنْهَا، وَتَطَهَّرْتَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا
هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي أَحَدْتَهُ الْآنَ وَهَذَا هُوَ الرَّيْحُ الْعَظِيمُ وَالْفَائِدَةُ
الْكَبِيرَةُ وَلَا يَمْنَعُكَ خَوْفُ الْعُودَةِ عَنِ التَّوْبَةِ، فَإِنَّكَ مِنَ التَّوْبَةِ أَبَدًا بَيْنَ
إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ/ وَاللَّهُ وَبِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ. فَهَذِهِ هَذِهِ.

[١٢/أ]

وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالتَّخَلُّصُ مِنْهَا، فَأَعْنَهُ أَنَّ الذُّنُوبَ أَقْسَامَ
الذُّنُوبِ فِي الْجُمْلَةِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: تَرْكُ وَاجِبَاتِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ، مِنْ صَلَاةٍ أَوْ صِيَامٍ أَوْ
زَكَاةٍ أَوْ كَفَّارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، فَتَنْضِي مَا أَمَّكَكَ مِنْهَا.

وَالثَّانِي: ذُنُوبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَشُرْبِ الْخَمْرِ
وَصَرْبِ الْمَرَامِيرِ وَأَكْلِ الرَّبَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتَنْدُمُ عَلَى ذَلِكَ، وَتُوطِّنُ
قَلْبَكَ عَلَى تَرْكِ الْعُودِ إِلَى مِثْلِهَا أَبَدًا.

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَالثَّالِثُ: ذُنُوبُ بَيْنِكَ وَبَيْنَ الْعِبَادِ، فَهَذَا أَشْكَلُ وَأَصْعَبُ، وَهِيَ أَقْسَامٌ، قَدْ تَكُونُ فِي الْمَالِ أَوْ فِي النَّفْسِ أَوْ فِي الْعَرَضِ، أَوْ فِي الْحُرْمَةِ، أَوْ فِي الدِّينِ.

الذنوب التي بين العباد
فَمَا كَانَ فِي الْمَالِ فَيَجِبُ أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيْهِ إِنْ أَمَكَّنَكَ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذَلِكَ، لِعَدَمِ، وَفَقْرٍ فَتَسْتَحِلُّ مِنْهُ، وَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذَلِكَ لِغَيْبَةِ الرَّجُلِ أَوْ مَوْتِهِ، وَأَمَكَّنَ التَّصَدُّقَ عَنْهُ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ يُمَكِّنْ، فَعَلَيْكَ بِتَكْثِيرِ حَسَنَاتِكَ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّضَرُّعِ وَالِإِتِّهَالِ إِلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَأَمَّا مَا كَانَ فِي النَّفْسِ، فَتَمَكَّنُهُ مِنَ الْقِصَاصِ أَوْ أَوْلِيَاءَهُ، حَتَّى يَقْتَصَّ مِنْكَ أَوْ تُجْعَلَ فِي حِلٍّ، فَإِنْ عَجَزْتَ، فَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالِإِتِّهَالُ إِلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَأَمَّا الْعَرَضُ فَإِنْ أَعْتَبْتَهُ أَوْ بَهْتَهُ (١) أَوْ شَتَمْتَهُ، فَحَقُّكَ أَنْ تُكَذِّبَ نَفْسَكَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ عِنْدَهُ، وَأَنْ تَسْتَحِلَّ مِنْ صَاحِبِهِ إِنْ أَمَكَّنَكَ، هَذَا إِنْ لَمْ تَخْشَ زِيَادَةَ غَيْظِ وَهَيْجِ فِتْنَةٍ فِي إِظْهَارِ ذَلِكَ وَتَجْدِيدِهِ، فَإِنْ خَشِيتَ ذَلِكَ فَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ وَالِاسْتِغْفَارُ الْكَثِيرُ لِصَاحِبِهِ.

وَأَمَّا الْحُرْمَةُ بِأَنْ حُتَّتْ فِي أَهْلِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ نَحْوِهِ، فَلَا وَجْهَ لِلِاسْتِحْلَالِ وَالِإِظْهَارِ، لِأَنَّهُ يُؤَلِّدُ فِتْنَةً وَغَيْظًا، بَلْ تَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ، وَيَجْعَلَ لَهُ خَيْرًا كَثِيرًا فِي مُقَابَلَتِهِ، فَإِنْ أَمِنْتَ الْفِتْنَةَ وَالْهَيْجَ، وَهُوَ نَادِرٌ، فَتَسْتَحِلُّ مِنْهُ.

(١) بهته: قذفه وافتريت عليه بالكذب.

وَأَمَّا فِي الدِّينِ بَانَ كَفَرْتَهُ أَوْ بَدَعْتَهُ أَوْ ضَلَلْتَهُ، فَهُوَ أَصْعَبُ
 الْأُمُورِ^(١)، فَتَحْتَاجُ إِلَى تَكْذِيبِ / نَفْسِكَ عِنْدَ مَنْ قُلْتَ لَهُ ذَلِكَ، وَأَنْ [١٢/ب]
 تَسْتَحِلَّ مِنْ صَاحِبِكَ إِنْ أَمَكَنَّكَ، وَإِلَّا فَلَا يَنْتَهَالُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى جِدًّا،
 وَالتَّنَدُّمُ عَلَى ذَلِكَ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ.

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ فَمَا أَمَكَنَّكَ مِنْ إِرْضَاءِ الْخُصُومِ عَمِلْتَ، وَمَا لَمْ
 يُمَكِّنْكَ رَاجَعْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالتَّضَرُّعِ وَالصَّدْقِ، لِيُرْضِيَهُ
 عَنْكَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالرَّجَاءُ مِنْهُ
 بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ وَإِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ، أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الصَّدَقَ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ
 فَإِنَّهُ يُرْضِي خُصَمَاءَهُ مِنْ خِزَانَةِ فَضْلِهِ، وَلَا حَكْمَ، فَاعْلَمْ هَذِهِ حَقَّهَا
 رَاشِدًا. فَهَذِهِ هَذِهِ.

فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَ مَا وَصَفْنَاهُ، وَبَرَّاتَ الْقَلْبَ عَنِ اخْتِيَارِ مِثْلِهَا
 فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، وَإِنْ حَصَلَتْ مِنْكَ
 تَبَرُّةُ الْقَلْبِ، وَلَمْ يَخْضُلْ مِنْكَ قَضَاءُ الْفَوَائِتِ، وَإِرْضَاءُ الْخُصُومِ،
 فَالتَّبَعَاتُ لِأَزْمَةٍ وَسَائِرِ الذُّنُوبِ مَغْفُورَةٌ.

وَلِهَذَا الْبَابِ شَرْحٌ يَطُولُ فَلَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ، وَأَنْظُرْ
 كِتَابَ التَّوْبَةِ مِنْ كُتُبِ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» أَوَّلًا، وَ «كِتَابِ الْقُرْبَةِ
 إِلَى اللَّهِ» ثَانِيًا. وَ «كِتَابِ الْغَايَةِ الْقُصُوى» ثَالثًا. تَجِدُ فَوَائِدَ كَثِيرَةً
 وَشَرْحًا جَمًّا، وَالَّذِي ذَكَرْنَاهُ هَا هُنَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ وَبِاللَّهِ
 التَّوْفِيقُ.

(فصل) ثُمَّ أَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ هَذِهِ الْعَقَبَةَ، عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ، أَمْرُهَا مِنْهُمْ

(١) فِي الْأَصْلِ: الْأَمْرُ، وَالتَّصْحِيحُ مِنْ بَاقِي النِّسْخِ.

صعوبة وَضَرَرُهَا عَظِيمٌ. فَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي إِسْحَقَ الْإِسْفَرَايِنِيِّ (١) اجْتِيازَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، الْعَامِلِينَ، أَنَّهُ قَالَ: عَقِبَةُ التَّوْبَةِ دَعَوْتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَنْ يَرْزُقَنِي تَوْبَةً نَصُوحًا، ثُمَّ تَعَجَّبْتُ فِي نَفْسِي وَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، حَاجَةٌ دَعَوْتُ اللَّهَ فِيهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً فَمَا قُضِيَتْ إِلَيَّ الْآنَ، فَرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ، كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لِي: أَتَتَعَجَّبُ مِنْ ذَلِكَ؟ أَتَدْرِي مَاذَا تَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ إِنَّمَا تَسْأَلُ اللَّهَ عِزًّا وَجَلًّا أَنْ يُحِبَّكَ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أَفَهَذِهِ حَاجَةٌ هَيْئَةً؟ فَانظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةِ، وَأَهْتِمَامِهِمْ وَمُواظَمَتِهِمْ عَلَى صَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّرَوُّدِ لِمَعَادِهِمْ.

وَأَمَّا الضَّرَرُ/ الْمُخَوَّفُ (في تأخير التوبة) (٢) فَإِنَّ أَوَّلَ الذَّنْبِ قَسْوَةٌ، وَآخِرُهُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى شُوْمٌ وَشِقْوَةٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَنْسَى أَمْرَ إبْلِيسَ وَبَلْعَامَ بْنِ بَاعُورَاءَ (٣)، كَانَ مَبْدَأُ أَمْرِهِمَا ذَنْبًا وَآخِرُهُ كُفْرًا فَهَلَكَا مَعَ الْهَالِكِينَ أَبَدَ الْأَبْدِينَ. فَعَلَيْكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ بِالتَّيَقُّظِ وَالْجُهْدِ، عَسَى أَنْ تَقْلَعَ مِنْ قَلْبِكَ عِرْقَ هَذَا الْإِضْرَارِ، وَتُخَلِّصَ رَقَبَتَكَ مِنْ هَذِهِ الْأَوْزَارِ،

[١/١٣]
الضرر في
تأخير
التوبة

(١) الإمام العلامة الأوحى الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الفقيه العارف المتكلم الأصولي الشافعي، صاحب التصانيف الجليلة، واحد المجتهدين في عصره، ارتحل في طلب الحديث، وقد حدث عنه البيهقي والقشيري وأبو الطيب الطبري وبنيت له بنيسابور مدرسة مشهورة، وقد توفي بنيسابور سنة ثمانى عشرة وأربعمائة هـ. سير أعلام النبلاء ١٧/٣٥٣.

(٢) زيادة يقتضيها سياق المعنى.

(٣) من علماء بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ (سورة الأعراف الآية ١٧٥).

وكان مستجاب الدعوة عند الله.

وَلَا تَأْمَنُ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ، وَتَأْمَلُ حَالَكَ؛ فَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: إِنَّ
سَوَادَ الْقَلْبِ مِنَ الذُّنُوبِ^(١).

وَعَلَامَةٌ سَوَادِ الْقَلْبِ أَنْ لَا تَجِدَ مِنَ الذُّنُوبِ مَفْزَعًا، وَلَا لِلطَّاعَةِ
مَوْعِعًا، وَلَا لِلْمَوْعِظَةِ مَنْجِعًا، وَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ شَيْئًا
فَتَحْسِبَ نَفْسَكَ تَائِبًا وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى الْكِبَائِرِ.

وانظر في ما قاله الشاعر: [الكامل]:

لا تحقِرَنَّ من الذنوب أقلها إن القليل مع السدوم كثير

فَلَقَدْ بَلَغْنَا عَنْ كَهْمَسٍ^(٢) بْنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: أَذْنِبْتُ ذَنْبًا أَنَا أَبْيَ
عَلَيْهِ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قِيلَ مَا هُوَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: زَارَنِي أَخٌ لِي
فِي اللَّهِ، فَاشْتَرَيْتُ لَهُ سَمَكًا، فَأَكَلْتُ، ثُمَّ قُمْتُ إِلَى حَائِطِ جَارِي،
فَأَخَذْتُ مِنْهُ قِطْعَةً طِينٍ فَعَسَلَ بِهَا يَدَهُ. فَنَاقَشَ نَفْسَكَ وَحَاسِبَهَا،
وَسَارِعَ إِلَى التَّوْبَةِ، وَبَادِرًا، فَإِنَّ الْأَجَلَ مَكْتُومٌ، وَالذُّنُوبُ غُرُورٌ.

(١) مصداق هذا القول ما جاء في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن
المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صُفِّلَ
قلبه، فإن زاد زادت» روى بن ماجه ١٤١٨/٢ الحديث رقم ٤٢٤٤.

وأبو هريرة هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، أسلم عام خيبر وشهدا مع رسول الله ﷺ،
ثم لازمه الملازمة التامة رغبة في العلم، وكان يدور معه حيثما دار. كان أحفظ
الصحابة رضي الله عنهم حديث رسول الله ﷺ. توفي في المدينة عام ٥٩ هـ
ودفن بالبقيع. سير أعلام النبلاء ٥٧٨/٢.

(٢) هو كهمس بن الحسن التميمي البصري، الحنفي العابد، من كبار الثقات. حدث
عن أبي الطفيل وعبد الله بن شقيق والحسن البصري وجماعة. وحدث عنه ابن
المبرك ووكيع وخلق كثير وذكره أحمد بن حنبل فقال ثقة وزيادة. وقد توفي في
سنة تسع وأربعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٣١٦/٦.

وَتَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَابْتِهَلْ، وَادْكُرْ حَالَ أَبِيْنَا آدَمَ عَلَيْهِ
السَّلَامَ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَحَمَلَهُ
إِلَى جَنَّتِهِ عَلَى أَعْنَاقِ الْمَلَائِكَةِ، لَمْ يُذْنِبْ إِلَّا ذَنْبًا وَاحِدًا، نَزَلَ بِهِ مَا
نَزَلَ حَتَّى يُرَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُ: يَا آدَمُ أَيُّ جَارٍ كُنْتَ لَكَ، قَالَ
نِعْمَ الْجَارُ يَا رَبِّ، قَالَ يَا آدَمُ أَخْرُجْ مِنْ جَوَارِي، وَضَعْ عَنْ رَأْسِكَ
تَاجَ كَرَامَتِي، فَإِنَّهُ لَا يُجَاوِرُنِي مَنْ عَصَانِي.

حَتَّى أَنَّهُ فِيمَا رُوِيَ، بَكَى عَلَى ذَنْبِهِ مِائَتِي سَنَةٍ، حَتَّى قَبِلَ تَوْبَتَهُ
وَغَفَرَ ذَنْبَهُ الْوَاحِدَ.

هَذَا حَالُهُ مَعَ نَبِيِّهِ وَصَفِيهِ فِي ذَنْبٍ وَاحِدٍ، فَكَيْفَ حَالُ الْغَيْرِ فِي
ذُنُوبٍ لَا تُحْصَى؟ وَهَذَا تَضَرُّعُ التَّائِبِ وَابْتِهَالُهُ، فَكَيْفَ بِالْمُصِرِّ
الْمُتَعَسِّفِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ: [المتقارب]:

يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ

[١٣/ب] / فَإِنْ ثُبَّتْ ثُمَّ نَقَضَتْ (التوبة) (١) وَعُدَّتْ إِلَى الذَّنْبِ ثَانِيًا، فَعُدَّ
إِلَى التَّوْبَةِ مُبَادِرًا، وَقُلْ لِنَفْسِكَ: لَعَلِّي أَمُوتُ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ
هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَكَذَلِكَ ثَالِثًا وَرَابِعًا. وَكَمَا اتَّخَذَتْ الذَّنْبَ وَالْعُودَ إِلَيْهِ
حِرْفَةً، فَاتَّخِذِ التَّوْبَةَ وَالْعُودَ إِلَيْهَا حِرْفَةً؛ فَلَا تَكُنْ فِي التَّوْبَةِ أَعْجَزَ
مِنْكَ فِي الذَّنْبِ، وَلَا تَيَأَسْ، وَلَا يَمْنَعَكَ الشَّيْطَانُ مِنَ التَّوْبَةِ بِسَبَبِ
ذَلِكَ، فَإِنَّهُ دِلَالَةٌ الْخَيْرِ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ ﷺ: «خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتِنٍ

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

تَوَابٍ»^(١) أَي كَبِيرُ الْإِبْتِلَاءِ بِالذَّنْبِ، كَثِيرُ التَّوْبَةِ مِنْهُ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنَّدَامَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ وَتَذَكَّرَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. فَهَذِهِ هَذِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(فصل) وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا ابْتَدَأْتَ فَبَرَأْتَ قَلْبَكَ عَنِ الذُّنُوبِ إِجْرَاءاتِ كُلِّهَا، بَأَنَّ تُوَطَّنَهُ عَلَى أَنْ لَا تَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ أَبَدًا أَبَتَّةً، فليكن مَا التوبة كَانَ مِنْكَ عَلَى وَجْهِ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، صِدْقَ عَزْمِكَ مِنْ قَلْبٍ نَقِيٍّ، وَتُرْضِي الْخُصُومَ بِمَا أَمَكَنَّكَ، وَتَقْضِي الْفَوَائِتَ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَتَرْجِعَ فِي الْبَاقِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ لِيَكْفِيكَ ذَلِكَ.

ثُمَّ تَذْهَبَ فَتَغْتَسِلَ، وَتَغْسِلَ ثِيَابَكَ، وَتُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ كَمَا يَجِبُ، وَتَضَعُ وَجْهَكَ بِالْأَرْضِ فِي مَكَانٍ خَالٍ حَيْثُ لَا يَرَاكَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ تَجْعَلُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِكَ، وَتُمْرِّغَ وَجْهَكَ، الَّذِي هُوَ أَعَزُّ أَعْضَائِكَ، فِي التُّرَابِ بِدَمْعٍ جَارٍ وَقَلْبٍ حَزِينٍ وَصَوْتٍ عَالٍ وَنداءٍ

(١) رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب بلفظ: (قال رسول الله ﷺ: إن لله يحب العبد المؤمن الموقن التواب) (١/٨٠، ١٠٣).
— وقال العراقي: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف عن علي كرم الله وجهه (الإحياء ٣٩/٤، بيان أسماء عباد في دوام التوبة).

— وورد هذا الحديث في جامع الصغير (١/٥٤٢) بلفظ: (خياركم كل مؤمنين تواب) عن البيهقي برواية عبي بن أبي طالب وقد رمز إليه بيشارة (صح) (انظر: الحديث رقم ٣٩٩٦).

— وفي ضعيف الجامع الصحيح للألباني (٣/١٣١) أنه حديث ضعيف، وأنه ورد في كتب الأحاديث الضعيفة برقم ٢٢٣٩ (انظر الحديث رقم ٢٨٧٢).

خفي، وتذكر ذنوبك واحداً واحداً، ما أمكنك، وتلوم نفسك العاصية على فعلها، وتوبخها وتقول: يا نفس، أما تستحي، أما أن لك أن تتوبي وترجعي؟ ألك طاقة بعذاب الله سبحانه؟ ألك حاجة [١٤/أ] بسخط الله سبحانه؟ وتذكر من هذا/ كثيراً وتبكي.

ثم ترفع يديك إلى الرب الرحيم سبحانه وتعالى وتقول: إلهي عبدك الأبق رجع إلى بابك، عبدك العاصي رجع إلى الصلح، عبدك المذنب أتاك بالعدر فأغف عني بجدك وتقبلني بفضلك، وأنظر إلي برحمتك، اللهم اغفر لي ما سلف من الذنوب، وأعصمني فيما بقي من الأجل، فإن الخير كله بيدك، وأنت بنا رؤوف رحيم.

ثم تدعو دعاء الشدة وهو: يا مجلي عظام الأمور يا منتهى هممة المهومين، يا من إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون؛ أحاطت بنا ذنوبنا أنت المذخور لها يا مذخور لكل شدة، كنت أدخرك لهذه الساعة، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم.

ثم أكثر من البكاء والتذلل وقل: يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا تغلظه المسائل، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك، (برحمتك يا أرحم الراحمين)^(١) إنك على كل شيء قدير.

ثم تصلي على النبي ﷺ، وتستغفر لجميع المؤمنين

(١) زيادة من (ج) و (و) و (هـ).

وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَتَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَتَكُونُ قَدْ تُبِتَ تَوْبَةً
نُصُوحًا، وَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ طَاهِرًا كَيَوْمِ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ،
وَأَحَبَّكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَعَلَيْكَ مِنَ الْبَرَكَاتِ
وَالرَّحْمَةِ، مَا لَا يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ، وَحَصَلَ لَكَ الْأَمْنُ
وَالْخَلَاصُ وَنَجَوْتَ مِنْ غُصَّةِ الْمَعَاصِي وَبَلِيَّتِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
وَكُنْتَ قَدْ قَطَعْتَ هَذِهِ الْعَقَبَةَ، بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ
وَالتَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا هُوَ أَهْلُهُ.



العقبة الثالثة وهي عقبة العوائق

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ - وَفَقَكَ اللَّهُ - بِدَفْعِ الْعَوَائِقِ، حَتَّى تَسْتَقِيمَ عِبَادَتُكَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْعَوَائِقَ أَرْبَعَةٌ:

أَحَدُهَا: الدُّنْيَا: وَدَفَعُهَا بِالتَّجَرُّدِ عَنْهَا وَالرُّهْدِ فِيهَا، وَإِنَّمَا لَزِمَكَ هَذَا التَّجَرُّدُ وَالرُّهْدُ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِتَسْتَقِيمَ لَكَ الْعِبَادَةُ/ وَتَكْثُرَ، فَإِنَّ الرِّغْبَةَ فِي الدُّنْيَا [١٤/ب] تَشْغَلُكَ (ظَاهِرًا وَبَاطِنًا)^(١)؛ أَمَّا ظَاهِرُكَ فَبِالطَّلَبِ، وَأَمَّا بَاطِنُكَ فَبِالْإِرَادَةِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ، وَكِلَاهُمَا يَمْنَعُ عَنِ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ النَّفْسَ وَاحِدَةً، وَالْقَلْبَ وَاحِدًا، فَإِذَا اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ انْقَطَعَ عَنْ ضِدِّهِ. وَإِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَثَلِ الضَّرَّتَيْنِ، إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسَخَطْتَ الْأُخْرَى؛ وَأَنْهُمَا كَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، بِقَدْرِ مَا تَمِيلُ إِلَى أَحَدِهِمَا، أَعْرَضْتَ عَنِ الْآخَرِ.

(١) زيادة من (ج) يقتضيها السياق.

وَأَمَّا شَغْلُهَا فِي الظَّاهِرِ فَقَدَّرَ وَنَاعَنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
أَنَّهُ قَالَ: حَاوَلْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّجَارَةِ فَلَمْ يَجْتَمِعَا، فَأَقْبَلْتُ
عَلَى الْعِبَادَةِ وَتَرَكْتُ التَّجَارَةَ.

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كَانَتَا مُجْتَمِعَيْنِ لِأَحَدٍ
غَيْرِي لَأَجْتَمَعَتَا لِي لِمَا أَعْطَانِي اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقُوَّةِ وَاللَّيْنِ» وَإِذَا كَانَ
الْحَدِيثُ كَذَلِكَ فَالضَّرُّ بِالفَانِيَةِ أَوْلَى، وَالسَّلَامُ.

وَأَمَّا شَغْلُهَا لِلْقَلْبِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لِمَكَانِ الْإِرَادَةِ، فَلَمَّا رُوِيَ عَنْ
النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَّ بِدُنْيَاهُ؛
فَاتَرَوْا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» ^(٢) فَبَانَ لَكَ أَنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ ظَاهِرُكَ
بِالدُّنْيَا، وَبَاطِنُكَ بِإِرَادَتِهَا، فَلَا تَتَسَيَّرُ لَكَ الْعِبَادَةُ بِحَقِّهَا، وَأَمَّا إِذَا

(١) الإمام القدوة، قاضي دمشق وصاحب رسول الله أبو الدرداء، واسمه عويمر،
وقيل عامر بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري روى عنه ابن عمر وابن عباس
وأنس وغيرهم وكثير من التابعين. كان فقيهاً حكيماً زاهداً، شهد ما بعد أحد من
المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفي عام ٣١ هـ أو ٣٢ هـ وقبره بدمشق. سير
أعلام النبلاء ٢/٣٣٥.

(٢) - رواه الإمام أحمد (٤/٤١٢)، والحاكم في المستدرک (٤/٣٠٨) عن أبي
موسى الأشعري وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وذكر أن فيه
انقطاعاً.

- ورواه السيوطي في الجامع الصغير (٢/٤٧٨)، الحديث برقم (٨٣١٣) وذكر أنه
حديث صحيح.

- وأضاف العراقي أن من رواه أيضاً: البرار والطبراني وابن حبان (إحياء
٢٠٢/٣).

زَهَدَتْ فِيهَا، فَتَفَرَّغَتْ بِظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ، فَتَيَسَّرُ لَكَ الْعِبَادَةُ، بَلْ تَعَاوَنُكَ أَعْضَاؤُكَ.

وَلَقَدْ رُوِيَ عَنِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَنَارَ قَلْبُهُ بِالْحِكْمَةِ، وَتَعَاوَنَتْ أَعْضَاؤُهُ فِي الْعِبَادَةِ». فَهَذِهِ هِدْيَةٌ.

وَالثَّانِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ: أَنَّهُ يُكثِرُ قِيَمَةَ عَمَلِكَ، وَيُعْظِمُ قَدْرَهُ وَشَرَفَهُ؛ فَلَقَدْ قَالَ ﷺ: «رَكَعَتَانِ مِنْ رَجُلٍ زَاهِدٍ قَلْبُهُ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادَةِ الْمُتَعَبِّدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، أَبَدًا سَرْمَدًا»^(٢).

(١) أبو عبد الله سلمان الخير، مولى رسول الله ﷺ، سُئِلَ عَنْ نَسَبِهِ فَقَالَ: أَنَا سَلْمَانُ ابْنُ الْإِسْلَامِ. وَقَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ وَخَدَمَهُ وَحَدَّثَ عَنْهُ، كَانَ مِنْ فَضْلَاءِ الصَّحَابَةِ وَزُهَادِهِمْ وَعِلْمَانِهِمْ وَذَوِي الْقُرْبِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِحُفْرِ الْخَنْدَقِ حِينَ جَاءَتْ الْأَحْزَابُ (مَعْرَكَةُ الْخَنْدَقِ أَوْ الْأَحْزَابِ). تُوُفِيَ سَنَةَ ٣٦ هـ. سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ١/ ٥٠٥.

(٢) — رَوَى السِّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٦٠٠/١) مَا نَصَّهُ: (رَكَعَةٌ مِنْ عَالَمٍ بِاللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ مِنْ مُتَجَاهِلٍ بِاللَّهِ) (الْحَدِيثُ ٤٤٦٤) عَنِ الشَّيْزَوِيِّ فِي الْأَلْقَابِ عَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. وَذَكَرَ السِّيُوطِيُّ أَنَّهُ ضَعِيفٌ. وَلَكِنْ الْأَيْبَانِيُّ لَمْ يَذْكُرْهُ فِي الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ.

— وَرَوَى السِّيُوطِيُّ أَيْضًا (٦٠٢/١): (رَكَعَتَانِ مِنْ عَالَمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكَعَةً مِنْ غَيْرِ عَالَمٍ) (الْحَدِيثُ رَقْمٌ ٤٤٧٦) عَنِ ابْنِ النَّجَّارِ عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ مَرْسَلًا. وَذَكَرَ السِّيُوطِيُّ أَنَّهُ حَسَنٌ.

— وَذَكَرَ السِّيُوطِيُّ أَيْضًا عَنِ الدَّيْلَمِيِّ فِي مَسْنَدِ الْفَرْدَوْسِ مَا رَوَاهُ أَنَسٌ بِلَفْظٍ: (رَكَعَتَانِ مِنْ رَجُلٍ وَرَعَ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفٍ رَكَعَةً مِنْ مَخْلُطٍ) وَقَالَ: ضَعِيفٌ (رَاجِعِ الْحَدِيثِ رَقْمٌ ٤٤٧٥ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ).

فَإِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ تَشْرُفُ وَتَكْتُرُ بِذَلِكَ، فَحَقٌّ لِمَنْ طَلَبَ الْعِبَادَةَ
أَنْ يَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا وَيَتَجَرَّدَ عَنْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى الزُّهْدِ وَمَا حَقِيقَتُهُ؟

[أ/١٥] فاعلم أولاً/ أن الزُّهْدَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى زُهْدَانٌ:
معنى الزهد زُهْدٌ مَقْدُورٌ لِلْعَبْدِ، وَزُهْدٌ غَيْرٌ مَقْدُورٌ، فَالَّذِي هُوَ مَقْدُورٌ ثَلَاثَةٌ
الزهد زهدان أشياء:

زهد مقذور
وزهد غير
مقذور
(١) تَرَكَ طَلَبَ الْمَقْدُودِ مِنَ الدُّنْيَا، (٢) وَتَفْرِيقُ الْمَجْمُوعِ
مِنْهَا، (٣) وَتَرَكَ إِرَادَتَهَا وَأَخْتِيَارَهَا.

وَأَمَّا الزُّهْدُ الَّذِي هُوَ غَيْرٌ مَقْدُورٌ لِلْعَبْدِ، فَهُوَ بُرُودَةٌ الشَّيْءِ عَلَى
قَلْبِ الزَّاهِدِ.

ثُمَّ الزُّهْدُ الَّذِي هُوَ مَقْدُورٌ، مُقَدَّمَاتٌ لِلزُّهْدِ الَّذِي هُوَ غَيْرٌ
مَقْدُورٌ؛ فَإِذَا أَتَى بِهِ الْعَبْدُ بِأَنْ لَا يَطْلُبَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنْ
يُفَرِّقَ مَا عِنْدَهُ مِنْهَا، وَيَتَرَكَ بِالْقَلْبِ إِرَادَتَهَا وَأَخْتِيَارَهَا لِأَجْلِ اللَّهِ
وَعَظِيمِ ثَوَابِهِ بِتَذَكُّرِهِ لِآفَاتِهَا، أَوْرَثَتْهُ هَذِهِ بُرُودَةُ الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِهِ.
وَهَذَا عِنْدِي هُوَ الزُّهْدُ الْحَقِيقِيُّ.

تَرَكَ إِرَادَةَ
الدنيا
ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ أَضْعَبَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةَ إِنَّمَا هُوَ تَرَكَ الْإِرَادَةَ بِالْقَلْبِ،
إِذْ كَمْ تَارِكٌ لَهَا بِظَاهِرِهِ، مُحِبٌّ مُرِيدٌ لَهَا بِبَاطِنِهِ، فَهُوَ فِي مُكَافَحَةٍ
وَمُقَاسَاةٍ مِنْ نَفْسِهِ شَدِيدَةٍ، وَالشَّأْنُ كُلُّهُ فِي هَذَا. أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ الْأَنْدَارُ الْأَخْرَىٰ جَعَلْنَا لِدِينِكُمْ لِئَلَّا يَرِيدُونَ عَلَوًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا ﴾
[القصص: ٨٣] عَلَقَ الْحُكْمَ بِنَفْسِي الْإِرَادَةَ دُونَ الطَّلَبِ وَالْفِعْلِ
لِلْمُرَادِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ، مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ [الشورى :
 ٢٠] وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾
 [الإسراء : ١٨] وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [الإسراء :
 ١٩] أَمَا تَرَى الإِشَارَاتِ كُلَّهَا إِلَى الإِرَادَةِ، فَأَمْرُهَا هُوَ الْمُهِمُّ إِذَنْ؛
 لِكِنَّ العَبْدَ إِذَا وَاظَبَ وَاسْتَقَامَ عَلَى الأَوَّلَيْنِ، أَعْنِي التَّرْكَ وَالتَّفْرِيقَ،
 فَمَأْمُورٌ مِنْ فَضْلِ اللّهِ سُبْحَانَهُ، أَنْ يُوقَفَهُ لِذَفْعِ هَذِهِ الإِرَادَةِ وَالاخْتِيَارِ
 عَنْ قَلْبِهِ، فَإِنَّهُ الْمُفْضِلُ الكَرِيمُ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى التَّرْكِ وَالتَّفْرِيقِ، وَيَهْوُونَ عَلَيْكَ ذَلِكَ، ذِكْرُ
 آفَاتِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ، فَمِنْهُ فِي قَوْلِ
 بَعْضِهِمْ^(١) : « تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِقَلَّةِ غَنَائِهَا وَكَثْرَةِ عَنَائِهَا، وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا
 وَخِسَّةِ شُرَكَائِهَا ».

[١٥/ب]

قَالَ شَيْخِي / الإِمَامُ رَحِمَهُ اللّهُ :

لَكِنَّ يَجِيءُ مِنْ هَذَا رَائِحَةُ الرِّغْبَةِ^(٢)، لِأَنَّ مَنْ شَكَأَ فِرَاقَ أَحَدٍ
 أَحَبَّ وَصَالَهُ، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِمَكَانِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ أَحَبَّ لَوْ أَنْفَرَدَ بِهِ.
 فَالْقَوْلُ البَلُغُ فِيهِ، مَا قَالَهُ شَيْخُنَا^(٣) رَحِمَهُ اللّهُ : « إِنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةٌ لِلّهِ

(١) وهو قول يحيى بن معاذ الرازي، كما قاله ابن علوي الحداد في رسالته. (راجع

سراج السالكين، ص ٢٠٢).

ويحيى بن معاذ هو أبو زكريا الواعظ، أحد رجال الطريقة. له لسان في الرجاء
 خصوصاً، وكلام في المعرفة. خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور،
 ومات بها سنة ٢٥٨ هـ. سير أعلام النبلاء ١٥/١٣.

(٢) أي يجيء من قول بعضهم هذا. وهو ما سبق ذكره.

(٣) هو أبو بكر الوراق، كما في سراج السالكين ص ٢٠٣.

عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مُحِبُّهُ، وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا أَبْغَضَ عَدُوَّهُ». قَالَ: وَلِأَنَّهَا فِي أَصْلِهَا وَسِخَةٌ جِيفَةٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةٌ، آخِرُ أَمْرِهَا إِلَى الْقَدَرِ وَالْفَسَادِ، وَالتَّلَاشِي وَالِاضْمِحْلَالِ؟ لِكَيْهَا جِيفَةٌ ضُمَّخَتْ بِطِيبٍ وَطُلِيَتْ بِزِينَةٍ، فَاعْتَرَّ بِظَاهِرِهَا الْغَافِلُونَ، وَزَهَدَ فِيهَا الْعَاقِلُونَ؟.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا حُكْمُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، أَهُوَ فَرَضٌ أَمْ نَفْلٌ؟

فَاعْلَمْ: أَنَّ الزُّهْدَ يَقَعُ عِنْدَنَا فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَهُوَ فِي الْحَرَامِ فَرَضٌ، وَفِي الْحَلَالِ نَفْلٌ.

حكم
الزهد في
الدنيا

ثُمَّ مَنْزِلَةٌ هَذَا الْحَرَامِ لِمُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ، بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ الْمُسْتَقْدَرَةِ، لَا يَقْدُمُ عَلَيْهَا إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ بِمِقْدَارِ دَفْعِ الضَّرُورَةِ.

وَأَمَّا الزُّهْدُ فِي الْحَلَالِ فَإِنَّمَا يَكُونُ لِلْأَبْدَالِ^(١)، يَكُونُ عِنْدَهُمْ فِي الْحَلَالِ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ، لَا يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا إِلَّا قَدْرًا لَا بُدَّ مِنْهُ.

= وهو: محمد بن عمر الحكيم، أصله من ترمذ وأقام ببلخ. لقي أحمد بن خضرويه وصحبه وصحب محمد بن سعد بن إبراهيم الزاهد. له الكتب المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب. وقد أسند الحديث. انظر ترجمته وأخباره في طبقات الصوفية ص ٢٢١، صفة الصوفية (١٦٥/٤)، حلية الأولياء (٢٣٥/١٠).

(١) الأبدال: قوم يقيم الله بهم الأرض، لا يموت أحدهم إلا قام مقامه آخر من الناس قال ابن دريد: الواحد بديل. راجع ما روي عن الأبدال في مسند الإمام أحمد بن حنبل: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون» (ج ٥ ص ٣٢٢)، وحديث «الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً» (١/١١٢).

وقال أبو الدرداء: (إعلم أن الله عبادةً يقال لهم الأبدال، خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد ﷺ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حلية، ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم إبتغاء مرضاة الله، بصبر من غير =

وَالْحَرَامُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ، لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ قَصْدُ تَنَاوُلِهَا بِحَالٍ، فَهَذَا مَعْنَى الْبُرُودَةِ عَلَى الْقَلْبِ بِأَنْ تَقْطَعَ هِمَّتُهُ عَنْهَا وَيَسْتَفْذِرَهَا وَيَسْتَنْكَرَهَا جِدًّا، فَلَا يَبْقَى لَهَا فِي قَلْبِهِ اخْتِيَارٌ وَلَا إِرَادَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَصِيرَ الدُّنْيَا فِي شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا مَثَلُ الدُّنْيَا الْعَجَبِيَّةِ الْمَطْلُوبَةِ عِنْدَ إِنْسَانٍ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ أَوْ بِمَنْزِلَةِ الْجِيفَةِ الْمُسْتَحِيلَةِ، وَالْبَيْتَةُ بِنَيْتِنَا، وَالطَّبْعُ طَبْعُنَا^(١)؟

فَاعْلَمْ: أَنَّ مَنْ وُفِّقَ التَّوْفِيقَ الْخَاصَّ، وَعَلِمَ آفَاتِهَا وَقَدْرَهَا فِي أَصْلِهَا، تَصِيرُ عِنْدَهُ كَذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الرَّاعِبُونَ الْعُمِّيَّانُ عَنْ عَيْبِ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا، الْمُغْتَرُّونَ بِظَاهِرِهَا وَزَيَّتِهَا، وَسَاضِرِبُ لَكَ مَثَلًا لِذَلِكَ:

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا يُمَثَّلُ بِإِنْسَانٍ صَنَعَ خَيْصًا^(٢) بِشَرَائِطِهِ مِنَ السُّكَّرِ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ طَرَحَ فِيهِ قِطْعَةً سُمِّ قَاتِلٍ، فَأَبْصَرَ ذَلِكَ رَجُلٌ، وَلَمْ يُبْصِرْهُ آخَرٌ، وَوَضَعَ/ الْخَيْصَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا مُزِينًا مُزْخَرَفًا، فَالرَّجُلُ الَّذِي [أ/١٦] أَبْصَرَ مَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ السُّمِّ يَكُونُ زَاهِدًا فِي ذَلِكَ الْخَيْصِ، لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْهُ بِحَالِ الْبَيْتَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ، بَلْ

= تَجِبْنَ، وَتَوَاضَعُ مِنْ غَيْرِ مَذَلَّةٍ، وَهِيَ قَوْمٌ اصْطَفَاهُمْ اللَّهُ وَاسْتَخْلَصَهُمْ لِنَفْسِهِ. (سراج السالكين ص ٢٥٩). وقد أورد الترمذي حديث الأبدال في نوادر الأصول من قول أبي الدرداء، كما روي حديث الأبدال عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً.

(١) البَيْتَةُ بِنَيْتِنَا: أَي أَنَّا خَلَقْنَا ضِعْفَاءَ وَالْبَيْتَةُ هِيَ الْفِطْرَةُ.

وَالطَّبْعُ طَبْعُنَا: أَي أَنَّ مِنْ طَبْعِنَا شِدَّةَ الْحَرَصِ عَلَى الدُّنْيَا وَمَلذَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا.

(٢) الْخَيْصُ: نَوْعٌ مِنَ الْحَلْوَى تَعْمَلُهُ الْعَرَبُ مِنَ التَّمْرِ وَالسَّمْنِ وَالْأُرْزِ وَاللِّبْسِ، وَهُوَ مَاخُودٌ مِنَ الْخَبْصِ بِمَعْنَى الْخَلْطِ.

أَصْعَبُ؛ لِمَكَانِ مَا يَعْلَمُ مِنْ آفَتِهِ، وَلَا يَغْتَرُّ بِظَاهِرِهِ وَزِينَتِهِ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الْآخِرُ الَّذِي لَمْ يُبْصِرْ مَا جُعِلَ فِيهِ، أَعْتَرَّ بِظَاهِرِهِ الْمُزْخَرَفِ، وَحَرَصَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَضِرْ عَنْهُ، وَأَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ صَاحِبِهِ الرَّاهِدِ فِيهِ، وَرَبِّمَا يُسْفَهُهُ فِي ذَلِكَ.

فَهَذَا مِثْلُ حَرَامِ الدُّنْيَا مَعَ الْبُصْرَاءِ الْمُسْتَقِيمِينَ، وَالْجُهَّالِ الرَّاعِبِينَ.

وأما حلال الدنيا، وإن لم يطرح فيه السَّم، لكن بصق فيه أو امتخط، ثم ضمخه وزينته؛ فالرجل الذي شاهد منه ذلك الفعل، يكون مستقذراً لذلك الخبيص، نافراً عنه لا يكاد يقدم عليه إلا عند الضرورة وشدة الحاجة، والذي لم يشاهد ذلك فهو جاهل بما فيه، معتز بظاهره، حريص عليه، مكبٌ معجبٌ محبٌ. فهذا مثل حلال الدنيا مع الفريقين: أهل البصيرة والاستقامة، وأهل الرغبة والغفلة. وإنما اختلف حال الرجلين مع تساويهما في الطبع والبنية لموضع النظر، ببصارة وعلم كان لأحدهما، وجهل وغفلة وجفاء كان للآخر، فلو علم الراجب، وأبصر ما علمه الزاهد، لكان زاهداً مثله، ولو جهل الزاهد، وعمي عما عمي عنه الراجب، لكان راجباً مثله؛ فعلمت بذلك أن هذا التمييز لمكان البصائر دون الطبائع، وهذا أصل مفيد وكلام بين سديد، اعترف به من عقل وأنصف، والله تعالى ولي الهداية والتوفيق بفضله.

فإن قيل: فلا بد من قدر من الدنيا ليكون قواماً لنا، فكيف

نزهة فيها؟

فاعلم أن الزهد في الفضول مما لا يحتاج إليه في قوام البنية،

القدر
المطلوب
من الدنيا

فَالْمَقْصُودُ الْقَوَامُ وَالْقُوَّةُ حَتَّى تَعْبُدَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، لَا الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ
وَالتَّلَذُّدُ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِنْ شَاءَ أَقَامَهَا/ بِشْيءٍ وَسَبَبٍ، وَإِنْ شَاءَ أَقَامَهَا [ب/١٦]
بِعَيْرِ سَبَبٍ كَالْمَلَائِكَةِ. ثُمَّ إِنْ كَانَ بِشْيءٍ (١) فَإِنْ شَاءَ فَبِشْيءٍ حَاصِلٍ
عِنْدَكَ، أَوْ بِطَلْبِكَ وَكَسْبِكَ، وَإِنْ شَاءَ فَبِشْيءٍ غَيْرِهِ يُسَبِّهُ لَكَ مِنْ
حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ، مِنْ غَيْرِ طَلْبٍ مِنْكَ وَلَا كَسْبٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢] فَإِذَا
لَا تَحْتَاجُ بِحَالٍ إِلَى طَلْبٍ وَإِرَادَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَقْوِ عَلَى ذَلِكَ وَطَلَبْتَ
وَأَرَدْتَ، فَأَتُوْ بِذَلِكَ الْعُدَّةَ وَالْقُوَّةَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ الشَّهْوَةِ
وَاللَّذَّةِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا نَوَيْتَ ذَلِكَ، كَانَ الطَّلْبُ وَالْإِرَادَةُ مِنْكَ خَيْرًا وَطَلْبًا
لِلْآخِرَةِ بِالْحَقِيقَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلَا يَقْدَحُ فِي زُهْدِكَ وَتَجَرُّدِكَ؛ فَاعْلَمْ هَذِهِ
الْجُمْلَةَ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

العائِقُ الثَّانِي: الخَلْقُ:

ثُمَّ عَلَيْكَ، وَفَقَكَ اللَّهُ - وَإِيَّانَا لِبَطَاعَتِهِ، بِالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ وَذَلِكَ
لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ يَشْغَلُونَكَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى مَا حُكِيَ
عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: مَرَرْتُ بِجَمَاعَةٍ يَتَرَامُونَ (٢) وَوَاحِدٌ جَالِسٌ بَعِيدًا
مِنْهُمْ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكَلِّمَهُ فَقَالَ: ذَكَرُ اللَّهُ تَعَالَى أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ
كَلَامِكَ، فَقُلْتُ أَنْتَ وَحَدِّكْ؟ قَالَ مَعِيَ رَبِّي وَمَلَكَايَ، فَقُلْتُ: مَنْ
سَبَقَ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: مَنْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ الطَّرِيقُ؟ فَأَشَارَ

(١) إِنْ كَانَ بِشْيءٍ: أَيِ إِنْ كَانَ أَقَامَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِشْيءٍ.

(٢) يَتَرَامُونَ: أَيِ يَرْمُونَ السَّهْمَ وَيَتَسَابِقُونَ فِيهَا.

بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَامَ وَتَرَكَنِي وَقَالَ: أَكْثَرُ خَلْقِكَ عَنْكَ شَاغِلٌ.
فَالْخَلْقُ إِذَا يَشْغَلُونَكَ عَنِ الْعِبَادَةِ بَلْ يَمْنَعُونَكَ مِنْهَا، بَلْ يُوقِعُونَكَ فِي
الشَّرِّ وَالْهَلَاكِ عَلَى مَا قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِ^(١) رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

طَلَبْتُ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ فَلَمْ أَجِدْهَا: طَلَبْتُ مِنْهُمْ
الطَّاعَةَ وَالزَّهَادَةَ فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَقُلْتُ: أَعِينُونِي عَلَيْهِمَا إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَقُلْتُ: ارْضُوا عَنِّي إِنْ فَعَلْتُ فَلَمْ يَفْعَلُوا؛ فَقُلْتُ: لَا
تَمْنَعُونِي عَنْهُمَا إِذَا، فَمَنْعُونِي؛ فَقُلْتُ: لَا تَدْعُونِي إِلَى مَا لَا
يُرْضِي اللَّهَ الْعَظِيمَ، وَلَا تُعَادُونِي عَلَيْهَا إِنْ لَمْ أَتَابِعْكُمْ، فَلَمْ يَفْعَلُوا؛
فَتَرَكْتُهُمْ وَاشْتَعَلْتُ بِخَاصَّةِ نَفْسِي / [١٧/أ]

ثُمَّ أَعْلَمَ أَيُّهَا الْأَخُ فِي الدِّينِ، أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَصَفَ
زَمَانَ الْعُزْلَةِ، وَبَيَّنَّ نَعْتَهُ وَنَعْتَ أَهْلِهِ، وَأَمَرَ فِيهِ بِالتَّقَرُّدِ، وَكَانَ لَا
مَحَالَهَ أَعْلَمَ بِالمَصَالِحِ، وَأَنْصَحَ لَنَا مِنَّا لِأَنْفُسِنَا؛ فَإِنْ وَجَدْتَ زَمَانَكَ
عَلَى مَا وَصَفَ وَبَيَّنَّ فَاثْمَثِلْ أَمْرَهُ ﷺ، وَأَقْبَلْ نَصِيحَتَهُ، وَلَا تَشْكُ؛
فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ أَعْرَفَ بِمَا يَصْلُحُ لَكَ فِي زَمَانِكَ، وَلَا تَتَعَلَّلْ، بِالْعِلَلِ
الْكَاذِبَةِ، وَلَا تَخَادِعْ نَفْسَكَ، وَإِلَّا فَأَنْتَ هَالِكٌ وَلَا عُذْرَ لَكَ.

وَالْوَصْفُ الَّذِي ذَكَرْنَا هُوَ فِي الْخَيْرِ الْمَشْهُورِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ

(١) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان الأصم، ويقال حاتم بن يوسف، من أكابر
مشايخ خراسان. له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم. كان يقال له:
لقمان هذه الأمة. وقد توفي حاتم سنة سبع وثلاثين ومئتين. سير أعلام النبلاء
٤٨٤/١١.

(٢) الإمام الحبير العابد صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه أبو محمد، وقيل أبو
عبد الرحمن. وقد أسلم قبل أبيه.

رسول الله ﷺ، إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ، فَقَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قُلْتُ: مَا أَصْنَعُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: إِنْزَمَ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»^(١).

وذكر في خبر آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ذَكَ أَيْامَ الْهَرَجِ؟ قِيلَ: وَمَا أَيْامُ الْهَرَجِ؟ قَالَ: حِينَ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ»^(٢).

- = كان كثير العلم، مجتهداً في العبادة وتلاوة القرآن، وكان أكثر الناس أخذاً للحديث والعلم عن رسول الله ﷺ. شهد مع أبيه فتح الشام وتوفي سنة ٦٣ هـ حسب بعض الروايات. سير أعلام النبلاء ٧٩/٣.
- (١) - أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، بروايتين عن عبد الله بن عمرو بن العاص (٥١٣/٤ و ٥١٤) الحديث رقم ٤٣٤٢ والحديث رقم ٤٣٤٣.
- وأخرجه ابن ماجه (كتاب الفتن ١٣٠٧/٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أيضاً مع خلاف بسيط في بعض الألفاظ (الحديث رقم ٣٩٥٧).
- كذلك رواه السيوطي في الجامع الصغير (٨٢/١) عن ابن عمرو بن العاص (الحديث رقم ٦٢٦).
- وقد وهم الكديري في سراج الطالبين (٢١٨/١) فيما نقله عن ابن عبد الحق، عندما ذكر أن هذا الحديث رواه الحاكم، فرواية الحاكم هي لحديث آخر في ذكر أيام الهرج عن ابن مسعود. انظر الحديث التالي، حاشية رقم (٢) في هذه الصفحة.
- وذكره الغزالي في الإحياء (٢٣٢/٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
- وقال العراقي: أخرجه أبو داود والنسائي في (اليوم واللييلة) بإسناد حسن.
- (٢) - رواه الحاكم في المستدرک (٤٢٧/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه. ووافقه الذهبي على صحته في تلخيص المستدرک.
- وهذا الحديث رواه ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تكون فتنة النائم فيها خير من المضطجع، والمضطجع فيها خير من القاعد،... قلت يا =

وَذَكَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ^(١) فِي خَبَرٍ آخَرَ لِلْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ^(٢)، أَنَّهُ قَالَ: «إِنْ يُدْفَعُ عَنْ عُمْرِكَ، فَسَيَأْتِي عَلَيْكَ زَمَانٌ كَثِيرٌ خُطْبَاؤُهُ، قَلِيلٌ عُلَمَاؤُهُ، كَثِيرٌ سُؤَالُهُ، قَلِيلٌ مُعْطَوُهُ، الْهَوَى فِيهِ قَائِدُ الْعِلْمِ، قَالَ: وَمَتَى ذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَا أُمِيتَتِ الصَّلَاةُ، وَقُبِلَتِ الرَّشَا، وَيُبَاعَ الدِّينُ بِعَرَضٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَالْتَّجَاءَ وَيَحْكُ ثُمَّ التَّجَاءَ»^(٣).

= رسول الله: ومتى ذلك؟ قال: ذلك أيام الهرج، حين لا يأمن الرجل جليسه. قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: اكفف نفسك ويدك وادخل دارك. قال: قلت: يا رسول الله: أرايت إن دخل عليّ داري؟ قال: فادخل بيتك. قال: قلت: أفرأيت إن دخل علي بيتي، قال: فادخل مسجدك واصنع هكذا - وقبض يمينه على الكوع - وقل: رَبِّيَ اللهُ، حتى تموت على ذلك».

— وذكر الغزالي هذا الحديث في الإحياء (الفائدة الثالثة من فوائد العزلة ٢/٢٣٣) قال العراقي: أخرجه أبو داود مختصراً، والخطابي في العزلة بتمامه، وفي إسناده عند الخطابي انقطاع، ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يُحتاج إلى معرفته.

(١) أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود بن غافل، من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدميهم في القرآن والفقه والفتوى. كان من السابقين الأولين. ومن النجباء العالمين شهد بدرًا وهاجر الهجرة، ومناقبه غزيرة، وروى علماً كثيراً. توفي سنة ٣٢ وقيل ٣٣ هـ في الكوفة. سير أعلام النبلاء ١/٤٦١.

(٢) ولد على عهد رسول الله ﷺ، وروى عن عمر وابن مسعود أحاديث، توفي سنة ٧٠ هـ.

(٣) — رواه ابن حنبل (١٥٥/٥) عن أبي ذر بلفظ آخر، وفيه: (سيأتي على الناس زمان يقلّ علماؤه ويكثر خطباؤه).

— وانظر سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم (٤/٤٥٤) (الحديث رقم ٤٢٥٥).

— وانظر أيضاً الجامع الصغير للسيوطي (٢/٢٨) الحديث رقم ٤٧٣٥، وفيض القدير (٤/١١٧).

قُلْتُ: وَجَمِيعُ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ تَرَاهُ بِعَيْنِكَ فِي زَمَانِكَ
وَأَهْلِهِ، فَاَنْظُرْ لِنَفْسِكَ.

ثُمَّ إِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَجْمَعُوا عَلَى التَّحْذِيرِ
مِنْ زَمَانِهِمْ وَأَهْلِهِ، وَأَثَرُوا الْعُزْلَةَ، وَأَمَرُوا بِذَلِكَ وَتَوَاصَوْا بِهِ، وَلَا
شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا أَبْصَرَ وَأَنْصَحَ، وَأَنَّ الزَّمَانَ لَمْ يَصِرْ/ بَعْدَهُمْ خَيْرًا مِمَّا [١٧/ب]
كَانَ بَلَّ أَشْرًا وَأَمْرًا، وَهُوَ مَا ذَكَرَ عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ
أَنَّهُ قَالَ:

سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ^(٢) يَقُولُ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَقَدْ حَلَّتِ
الْعُزْلَةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ.

قُلْتُ أَنَا: وَلَكِنْ حَتَّ فِي زَمَانِهِ، فَفِي زَمَانِكَ هَذَا وَجَبَتْ
وَأَفْتَرِضْتُ.

وَعَنْ سُفْيَانَ أَيْضًا^(٣) كَتَبَ إِلَى عَبَادِ الْخَوَاصِ^٣ رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

(١) أحد الزهاد، من سادات مشيخ، له مواعظ وحكم. وقد روى عن الثوري وغيره. وقد نزل الثغور مريضاً، وثقه ابن معين. وقد أبو حاتم: لا يحتج به. سير أعلام النبلاء ١٦٩/٩.

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، كان مماً في علم الحديث وغيره من العلوم، وهو من تابعي التابعين. أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين، ولد سنة ٩٧ هـ. توفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ. سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧.

(٣) عبادة بن الخواص، أبو عبيدة. من الزهاد، المعروفين بكثرة نكبة خشية وورعاً. روى عن الأوزاعي حديثاً. كان شديد الحب لله تعالى يتشوق إلى لقائه ويطلب ذلك.

انظر ترجمته وأخباره في:

صفة الصفوة ٤/٢٧٥ (تر ٨٠٠)، وحلية الأولياء ٨/٢٨٢.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ فِي زَمَانٍ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ يَتَعَوَّدُونَ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكُوهُ، فِيمَا بَلَّغْنَا، وَلَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ لَنَا، فَكَيْفَ بِنَا حِينَ أَدْرَكْنَاهُ عَلَى قِلَّةِ عِلْمٍ، وَقِلَّةِ صَبْرٍ، وَقِلَّةِ أَعْوَانٍ عَلَى خَيْرٍ، وَكَدْرٍ مِنَ الدُّنْيَا وَفَسَادٍ مِنَ النَّاسِ؟ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «فِي الْعِزَّةِ رَاحَةٌ مِنْ خُلُطَاءِ الشُّؤْمِ».

وَفِي مِثْلِ هَذَا قِيلَ: [البسيط]:

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نَحَازِرُهُ فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ
 دَهْرِيهِ الْحَقُّ مَرْدُودٌ بِأَجْمَعِهِ وَالظُّلْمُ وَالْبَغْيُ فِيهِ غَيْرُ مَرْدُودٍ
 (أَعْمَى أَصَمُّ مِنَ الْأَزْمَانِ مُلْتَبِسٌ فِيهِ لِابْلِيسَ تَصْوِيبٌ وَتَضْعِيدٌ)^(١)
 إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يَحْدَثْ لَهُ حَدَثٌ لَمْ يُبْكِ مَيِّتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودٍ

وَلَقَدْ وَجَدْتُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٢) أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِلشُّورِيِّ
 أَوْصِنِي، فَقَالَ: أَقَلُّ مِنَ مَعْرِفَةِ النَّاسِ، قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، أَلَيْسَ
 قَدْ جَاءَ فِي الْخَيْرِ: «أَكْثَرُوا مِنَ مَعْرِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ
 شَفَاعَةً»^(٣) قَالَ: لَا أَحْسِبُكَ رَأَيْتَ قَطُّ مَا تَكْرَهُ إِلَّا مِمَّنْ تَعْرِفُ، قُلْتُ:

(١) ساقط من الأصل، مثبت في باقي النسخ.

(٢) الإمام الكبير وشيخ الإسلام أبو محمد سفیان بن عیینة الهلالي الكوفي ثم المكي، من تابعي التابعين. وقد اتفق العلماء على جلالته وعظم مرتبته. ولد سنة ١٠٧ هـ وطلب الحديث وهو حدث، ولقي الكبار وحمل عنهم علماً جماً وأتقن وجود، وجمع وصنّف، وعمّر دهوراً وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علو الإسناد وقد مات سنة ثمان وتسعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٤٠٠/٨.

(٣) - أخرج الحاكم في تاريخه عن أنس (أكثروا من المعارف من المؤمنين، فإن لكل مؤمن شفاعاة عند الله يوم القيامة) عن (سراج الطالبين ١/٢٢٥).

- وأحاديث الشفاعاة كثيرة في كتب الحديث، منها ما رواه ابن حنبل (٣/٢٠)، =

أَجَلَ. ثُمَّ مَاتَ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الْمَنَامِ بِحُجَجٍ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَوْصِنِي، فَقَالَ: «أَقِلُّ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ مَا أَسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْمُخْلِصَ مِنْهُمْ شَدِيدٌ»^(١).

وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى هَذَا الْخَبَرِ: [الطويل]:

وَمَا زِلْتُ مُذْ لَاحَ الْمَشِيبِ بِمَفْرَقِي أُفْتَشُ عَنِ هَذَا الْوَرَى وَأُكْشِفُ
فَمَا أَنْ عَرَفْتُ النَّاسَ إِلَّا دَمَمْتُهُمْ جَزَى اللَّهُ خَيْرًا كُلَّ مَنْ لَسْتُ أَعْرِفُ
وَمَا لِي ذَنْبٌ أَسْتَحِقُّ بِهِ الْجَفَا سِوَى أَنِّي أَحْبَبْتُ مَنْ لَيْسَ يُنْصَفُ

قَالَ^(٢): وَقِيلَ كَتَبَ عَلَيَّ بَابِهِ^(٣): جَزَى اللَّهُ مَنْ لَا يَعْرِفُنَا خَيْرًا، وَلَا جَزَى بِذَلِكَ أَصْدِقَاءَنَا، فَمَا أُودِينَا قَطُّ إِلَّا مِنْهُمْ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ: [الطويل]:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا الْخَيْرَ مَنْ لَيْسَ بَيْنَنَا وَلَا بَيْنَهُ وَدُّ وَلَا نَتَعَارَفُ
فَمَا صَابَنَا هَمٌّ وَلَا نَأَلْنَا أَدَى مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَنْ نَوَدُّ وَنَعْرِفُ
وَقَالَ الْفُضَيْلُ^(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا زَمَانٌ أَحْفَظُ فِيهِ لِسَانَكَ، وَأَخْفِ

= ٦٣، ٤٦٩) كقوله ﷺ: (....) وإن الرجل ليشفع للفتام من الناس فيدخلون الجنة، وإن الرجل ليشفع لثقبيلة، وإن الرجل ليشفع للعصبة، وإن الرجل ليشفع للثلاثة وللرجلين وللرجل.

— وانظر الدارمي (٣٢٧/٢) باب في الشفاعة، وابن ماجه (١٤٤٠/٢).

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية (٧. ٢٨٩).

(٢) أي سفيان بن عيينة.

(٣) بابه: أي باب دار سفيان الثوري.

(٤) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي الزاهد، ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد. وكتب الحديث بالكوفة، ثم تحوّل إلى مكة، فاستوطنها، حتى توفي سنة ١٨٧ هـ. وقد أجمع العلماء، على توثيقه =

مَكَانَكَ، وَعَالِجَ قَلْبِكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ [١٨/أ] رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا زَمَانُ الشُّكُوتِ وَلُزُومِ الْبُيُوتِ وَالرِّضَا بِالْقُوتِ/ إِلَى أَنْ تَمُوتَ.

وَعَنْ دَاوُدَ الطَّائِي^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: صُمَّ عَنِ الدُّنْيَا، وَاجْعَلْ فِطْرَكَ
الْآخِرَةَ، وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ.

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ^(٢): مَا رَأَيْتُ حَكِيمًا قَطُّ إِلَّا قَالَ فِي عَقِبِ
كَلَامِهِ: إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ لَا تُعْرِفَ، فَأَنْتَ مِنَ اللَّهِ عَلَى بَالٍ.

وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْبَابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَمِلَهُ هَذَا الْكِتَابُ؛ وَقَدْ
صَنَّفْنَا فِيهِ كِتَابًا مُفْرَدًا سَمَّيْنَاهُ: «كِتَابَ أَخْلَاقِ الْأَبْرَارِ وَالتَّجَاةِ مِنْ

= والاحتجاج به وصلاحه وزهده وورعه. وكان الفضيل شاذراً يقطع الطريق ثم
تاب. سير أعلام النبلاء ٣٧٢/٨.

(١) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي.
الإمام الفقيه القدوة زاهد، أحد الأولياء، ولد بعد المائة بسنوات. كان من
كبار أئمة الفقه والرأي. برع في النعم بأبي حنيفة، ثم أُقْبِرَ عِى شَأْنِهِ وَلِزِمَ
الصمت وَفَرَّ بِدِينِهِ. وكان الثوري يُعْظِمُهُ ويقول: أبصر دود أمره. مات سنة
الثنتين وستين ومئة. وقيل سنة خمس وستين. سير أعلام النبلاء ٤٣٢/٧.

(٢) الإمام الحافظ المجتهد ذو الفنون، أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، وهو
معدود فيمن أخذوا نفعه عن الشافعي. وكان إماماً بارعاً في علوم كثيرة منها
التفسير والقراءة ونحوها والفقه ونسبته والنحو والتاريخ. توفي بمكة سنة
٢٢٢ هـ، وقد عاش ٦٧ سنة.

وقيل عنه: كان أبو عبيد فاضلاً في دينه وفي علمه. مفتناً في أصناف علومه
الإسلام من القرآن ونسبته والعربية والأخبار حسن الرواية. صحيح النقل لم يظعن
عليه أحد شيء من أمره ودينه. سير أعلام النبلاء ٤٩٠/١٠.

الْأَشْرَارِ» فَقِفْ عَلَيْهِ تَرَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ، وَالْعَاقِلُ تَكْفِيهِ إِشَارَةً،
وَأَلَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ، وَالْهِدَايَةُ بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ^(١) الَّتِي تَقْتَضِي التَّفَرُّدَ عَنِ النَّاسِ فِي هَذَا
الشَّانِ: فَإِنَّ النَّاسَ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا يَحْصُلُ لَكَ مِنَ الْعِبَادَةِ، إِنْ لَمْ
يَعْصِمِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِسَبَبِ مَا يَعْضُضُ مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ دَوَاعِي
الرِّيَاءِ وَالتَّرْتُّبِ. وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ حَيْثُ قَالَ: «رُؤْيَةُ النَّاسِ
بِسَاطِ الرِّيَاءِ». وَهَؤُلَاءِ الرَّهَاطُ قَدْ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى
حَتَّى تَرَكَوا الْمُلَاقَاةَ وَالتَّرَاوَرَ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ عَنْ هَرَمِ بْنِ حَيَّانَ^(٢) أَنَّهُ قَالَ لِأُوَيْسِ الْقُرْنِيِّ^(٣)
رَحِمَهُمَا اللَّهُ: يَا أُوَيْسُ، صَلُّنَا بِالزِّيَارَةِ وَاللِّقَاءِ، فَقَالَ أُوَيْسٌ قَدْ
وَصَلَّتْكَ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْهُمَا، وَهُوَ الدُّعَاءُ عَلَى ظَهْرِ الْعَيْبِ، لِأَنَّ
الزِّيَارَةَ وَاللِّقَاءَ يَعْضُضُ فِيهِمَا التَّرْتُّبُ وَالرِّيَاءُ.

وَقِيلَ لِسَلِيمَانَ الْخَوَاصِ^(٤): قَدِمَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَمَ^(٥) أَفَلَا تَأْتِيهِ؟

(١) وردت الخصلة الأولى ص ١٠٥.

(٢) أحد الأولياء المشهورين، وأحد العبدین، حدث عن عمر وروى عنه الحسن
البصري وغيره. ولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ببلاد فارس. قال ابن
سعد: كان عاملاً لعمر. وكان ثقة، له فض وعيادة. سير أعلام النبلاء ٨٤/٤.
(٣) هو أويس بن عامر القرني (محرّكة) روى أنه مسلم قصة مختصرة في آخر
صحيحه. وهو سيد التابعين: قتل بصفين. وكان يسكن الكوفة. سير أعلام
النبلاء ١٩/٤.

(٤) من زهاد القرن الثاني للهجرة، كان مشغولاً بالعبادة، وهو من العابدين الكبار
بالشام. سكن بيروت. وكان مجلس الإمام الأوزاعي يضمه هو ومحمد بن
يوسف وسعيد بن عبد العزيز. سير أعلام النبلاء ١٥٩/٨.

(٥) إبراهيم بن آدم بن منصور. من كورة بلخ، الفتوة الإمام العرف، سيّد الزهاد. =

فَقَالَ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مَارِدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِقَائِهِ، فَاسْتَنْكَرُوا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ، فَقَالَ: إِنِّي إِذَا لَقَيْتُهُ أَخَافُ أَنْ أَتَزَيَّنَ، وَإِذَا لَقَيْتُ الشَّيْطَانَ أَمْتَنَعُ مِنْهُ.

وَلَقَدْ لَقِيَ شَيْخِي الْإِمَامُ^(١) بَعْضَ الْعَارِفِينَ، فَتَذَاكَّرَا مَلِيًّا ثُمَّ دَعَا فِي آخِرِ حَدِيثِهِمَا، فَقَالَ شَيْخِي لِلْعَارِفِ: مَا أَظُنُّنِي جَلَسْتُ مَجْلِسًا أَنَا لَهُ أَرْجَى مِنْ مَجْلِسِي هَذَا، فَقَالَ لَهُ الْعَارِفُ: لَكِنِّي مَا جَلَسْتُ مَجْلِسًا أَنَا لَهُ أَخَوْفُ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا، أَلَسْتَ تَعْمُدُ إِلَى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ وَعُلُومِكَ فَتَحَدِّثُنِي بِهَا وَتُظْهِرُهَا بَيْنَ يَدَيَّ؟ وَأَنَا كَذَلِكَ، فَقَدْ وَقَعَ الرِّيَاءُ وَالتَّزَيَّنَ؛ فَبَكَى شَيْخِي الْإِمَامُ مَلِيًّا، ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ. وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ: [السريع]:

يَا وَيْلَتَا مَنْ مَوْقِفٍ مَا بِهِ أَخَوْفُ مَنْ أَنْ يَعْدِلَ الْحَاكِمُ
أُبَارِزُ اللَّهَ بِعِضْيَانِهِ وَلَيْسَ لِي مِنْ دُونِهِ رَاحِمُ
يَا رَبِّ عَفِّوْا مِنْكَ عَنِ مُذْنِبِ أَسْرَفَ إِلَّا أَنَّهُ نَادِمُ
(يَقُولُ فِي اللَّيْلِ إِذَا مَا دَجَى آهَ الذَّنْبِ سَتَرَ الْعَالِمُ)^(٢)

فَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالرِّيَاضَةِ فِي مُلَاقَاتِهِمْ، فَكَيْفَ حَالُ أَهْلِ الرِّغْبَةِ وَالْبَطَالَةِ، بَلْ حَالُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْجَهَالَةِ؟
وَأَعْلَمُ أَنَّ الزَّمَانَ قَدْ أَصْبَحَ فِي فَسَادٍ عَظِيمٍ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي

= كان ورعاً، وهو من رجال الصوفية الأوائل، صحب سفيان الثوري، والفضيل بن عياض بعد أن ترك الدنيا وزينتها ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع. وتوفي سنة اثنتين وستين ومئة. سير أعلام النبلاء ٣٨٧/٧.

(١) هو أبو بكر الوراق.

(٢) زيادة من (د) و (هـ).

ضُرٌّ كَثِيرٌ، فَإِنَّهُمْ يُشْغَلُونَكَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى لَا يَكَادُ
يَخْضُلُ لَكَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ ثُمَّ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا حَصَلَ لَكَ، حَتَّى لَا
يَكَادُ يَسْلَمَ لَكَ مِنْهَا شَيْءٌ. فَلَزِمْتَكَ الْعُزْلَةَ وَالتَّفَرُّدَ عَنِ النَّاسِ،
وَالإِسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْحَافِظُ
بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ عَنِ النَّاسِ؟ فَبَيَّنَّا لَنَا، حَكْمَ
يُرْحَمُكَ اللَّهُ، حَالَ طَبَقَاتِ الْخَلْقِ فِيهَا، وَالْحَدَّ الَّذِي يَجِبُ مِنْهَا. الْعُزْلَةُ

فَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ وَإِنَّا أَنْ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ رَجُلَانِ:

— رَجُلٌ لَا حَاجَةَ بِالْخَلْقِ إِلَيْهِ فِي عِلْمٍ وَبَيَانِ حُكْمٍ، فَالْأَوْلَى
بِهَذَا الرَّجُلِ التَّفَرُّدُ عَنِ النَّاسِ، فَلَا يُخَالِطُهُمْ إِلَّا فِي جُمُعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ
أَوْ عِيدٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ مَجْلِسٍ عِنَّمَا بِالسَّنَةِ، أَوْ حَاجَةٍ فِي مَعِيشَةٍ لَا بُدَّ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا يُعْرِفُ، وَإِلَّا فَيُؤَارِي شَخْصَهُ، وَيَلْزِمُ مَسْكَنَهُ، لَا يَعْرِفُ وَلَا
يُعْرِفُ. فَأَمَّا إِنْ أَحَبَّ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ، فَلَا يُخَالِطُهُمْ
فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ الْبَتَّةَ، مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا وَجَمَاعَةٍ وَجُمُعَةٍ وَغَيْرِهَا، لِمَا
يَرَى لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ وَفَرَاغِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسَعُهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَحَدِ
أَمْرَيْنِ:

— إِمَّا أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَوْضِعٍ لَا يَلْزِمُهُ هُنَالِكَ هَذِهِ الْفُرَائِضُ،
كَرُءُوسِ الْجِبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَنَحْوِهَا؛ وَلَعَلَّ هَذَا أَحَدُ الْوُجُوهِ الَّتِي
دَعَتِ الْعُبَادَ إِلَى تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الْبَعِيدَةِ عَنِ النَّاسِ.

— وَإِمَّا أَنْ يَتَيَقَّنَ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّ الضَّرَرَ الَّذِي يَلْحَقُهُ فِي مُخَالَطَةِ
النَّاسِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْفُرُوضِ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِهَا؛ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ لَهُ عُذْرٌ
فِي ذَلِكَ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا بِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى / بَعْضَ الْمَشَايخِ
 الْمُتَفَرِّدِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ لَا يَخْضُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فِي
 الْجَمَاعَةِ، مَعَ قُرْبِهِ مِنْهُ وَسَلَامَةِ حَالِهِ، فَحَاوَرْتُهُ فِي ذَلِكَ يَوْمًا فِي
 حَالِ تَرَدُّدِي إِلَيْهِ فَذَكَرَ مِنْ عُذْرِهِ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّ مَا يَجِدُهُ مِنَ
 الثُّوَابِ لَا يَبْقَى بِمَا يُلْحَقُهُ مِنَ الْآثَامِ وَالتَّبَعَاتِ فِي الْخُرُوجِ إِلَى
 الْمَسْجِدِ وَلِقَاءِ النَّاسِ.

قُلْتُ أَنَا: وَجُمْلَةُ الْأُمُورِ فَلَا عُتْبَ عَلَى الْمَعْذُورِ، وَاللَّهُ تَعَالَى
 أَوْلَى بِالْعُذْرِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وَلَكِنَّ الطَّرِيقَ الْعَدْلَ فِيهِ هُوَ
 الْأَوَّلُ؛ بِأَنَّ يُشَارِكَ النَّاسَ فِي الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ وَضُرُوبِ
 الْخَيْرَاتِ، وَيُبَيِّنُهُمْ فِي مَا سِوَى ذَلِكَ.

فَإِنَّ أَحَبَّ الطَّرِيقَ الثَّانِي، بِأَنَّ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ بِمَرَّةٍ، فَسَبِيلُهُ
 الْخُرُوجُ إِلَى مَوَاضِعَ لَا تَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْفُرُوضُ فِيهَا.

ثُمَّ إِنَّ الطَّرِيقَ الثَّلَاثَ أَنْ يَكُونَ مَعَ النَّاسِ فِي مِصْرٍ وَاحِدٍ، وَلَا
 يَخْضُرُ جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً، لِعُذْرِ يَرَاهُ فِي ذَلِكَ، مِنْ وِزْرِ أَوْ تَبَعَةٍ
 عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ دَقِيقٍ وَعَوَارِضَ عَظِيمَةٍ، حَتَّى يَسْقُطَ ذَلِكَ
 عَنْهُ، وَفِيهِ خَطَرٌ مِنَ الْغَلَطِ، فَالْأَوْلَى أَنْ أَسْلَمَ وَأَحْفَظُ لَهُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الثَّانِي: فَرَجُلٌ يَكُونُ قُدُوءَ فِي الْعِلْمِ، بِحَيْثُ يَحْتَاجُ
 النَّاسُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ، لِبَيَانِ حَقِّ أَوْ رَدِّ عَلَى مُبْتَدِعٍ، أَوْ دَعْوَةٍ إِلَى
 خَيْرٍ بِفِعْلٍ أَوْ بِقَوْلٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَلَا يَسَعُ هَذَا الرَّجُلَ الْإِعْتِزَالَ عَنِ
 النَّاسِ بَلْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ بَيْنَهُمْ، نَاصِحًا لِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، ذَابًا عَنِ

دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، مُبَيَّنًا لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ وَسَكَتَ الْعَالِمُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ»^(١) هَذَا إِذَا
كَانَ بَيْنَهُمْ، وَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَيْضًا الْإِعْتِزَالُ^(٢).

فَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْأُسْتَاذَ أَبَا بَكْرٍ بْنَ فُورِكَ^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ، قَصَدَ أَنْ
يَتَفَرَّدَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْخَلْقِ، فَبَيَّنَّمَا هُوَ فِي بَعْضِ الْجِبَالِ، إِذْ
سَمِعَ صَوْتًا يُنَادِي: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِذْ صِرْتَ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ،
تَرَكْتَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى؟! فَرَجَعَ. وَكَانَ هَذَا سَبَبَ صُحْبَتِهِ لِلْخَلْقِ.

وَذَكَرَ لِي مَأْمُونُ بْنُ أَحْمَدَ^(٤) أَنَّ الْأُسْتَاذَ أَبَا إِسْحَاقَ [ب/١٩]

(١) ورد هذا الحديث في جامع الصغير للسيوطي (٩٩/١) (الحديث رقم ٧٥١)
بلفظ: (إذا ظهرت البدع، ونعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم
فليشره، فإن كاتم نعمه يومئذ ككاته ما أنزل الله على محمد) قال السيوطي:
رواه ابن عساکر عن معاذ، وذكر أنه حديث ضعيف، وذكره الألباني في ضعيف
الجامع الصغير (٢٠٥/١) (رقم الحديث ٦٨٨) وأشار إلى أن رقمه في الأحاديث
الضعيفة هو (١٥٠٦).

— ورواه أيضاً اللديني عن ابن عساکر بلفظ: (إذا ظهرت البدع في أمتي وشتم
أصحابي فليظهر العالم عمه، فإن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله).

— وراجع المناوي، فيض التقدير (٤٠٢/١) في شرح الحديث رقم ٧٥١.

(٢) في الأصل، ذلك، والتصحيح في باقي النسخ.

(٣) الإمام العلامة الصالح، شيخ المتكلمين أبو بكر، محمد بن الحسن بن فورك
الأصبهاني الأصولي، والأديب النحوي الواعظ. بلغت مصنفته في أصول الفقه
والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنف. وكانت وفاته سنة ٤٠٦ هـ ودفن
بالحيرة. سير أعلام النبلاء ٢١٤/١٧.

(٤) لم نعثر على ترجمته.

رَحِمَهُمَا اللَّهُ قَالَ لِعِبَادِ جَبَلِ لُبْنَانَ: يَا أَكَلَةَ الْحَشِيشِ، تَرَكْتُمْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَيْدِي الْمُبْتَدِعَةِ وَاشْتَعَلْتُمْ هَا هُنَا بِأَكْلِ الْحَشِيشِ؟ قَالُوا لَهُ:

لَا نَقْوَى عَلَى صُحْبَةِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ قُوَّةً فَلَزِمَكَ ذَلِكَ. فَصَنَّفَ بَعْدَ ذَلِكَ كِتَابَهُ: «الْجَامِعُ لِلْجَلْبِيِّ وَالْخَفِيِّ». وَكَانَ لَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعَ غَزَارَةِ الْعِلْمِ، الْعَمَلُ الْجَمُّ، وَالنَّظَرُ الدَّقِيقُ فِي سُلُوكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي طَرَقِ بَابِ الدِّينِ، يَحْتَاجُ فِي صُحْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى أَمْرَيْنِ شَدِيدَيْنِ: أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ طَوِيلٌ وَحِلْمٌ عَظِيمٌ وَنَظَرٌ لَطِيفٌ وَأَسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ تَعَالَى دَائِمَةٌ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُنْفَرِدًا عَنْهُمْ وَإِنْ كَانَ بِالشَّخْصِ مَعَهُمْ^(١)، فَإِنْ كَلَّمُوهُ كَلَّمَهُمْ، وَإِنْ زَارُوهُ عَظَّمَهُمْ عَلَى قَدْرِهِمْ وَشَكَرَهُمْ، وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ أَسْتَعْنَمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي حَقِّ وَخَيْرٍ سَاعَدَهُمْ، وَإِنْ صَارُوا إِلَى لَعْنٍ وَشَرٍّ خَالَفَهُمْ وَهَجَرَهُمْ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ وَهَجَرَهُمْ إِنْ رَجَا قَبُولَهُمْ؛ ثُمَّ يَقُومُ بِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ مِنَ الزِّيَارَاتِ وَالْعِيَادَاتِ وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ، الَّتِي تَرْفَعُ إِلَيْهِ، مَا أَمَكْنَهُ، وَلَا يُطَالِبُهُمْ بِالْمُكَافَأَاتِ، وَلَا يَرْجُو ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَا يُرِيهِمْ مِنْ نَفْسِهِ اسْتِيحَاشًا لِذَلِكَ، وَيُبَاسِطُهُمْ بِالْبَدَلِ إِذَا قَدَرَ، وَيَنْقَبِضُ عَنْهُمْ فِي الْأَخْذِ إِنْ أُعْطِيَ، وَيَتَحَمَّلُ مِنْهُمْ الْأَذَى، وَيُظْهِرُ لَهُمُ الْبِشْرَ،

(١) أي منفرداً بقلبه عن الناس وإن كان بالجسد معهم.

وَيَجْمَلُ لَهُمْ بَظَاهِرِهِ، وَيَكْتُمُ حَاجَاتِهِ عَنْهُمْ، فَيَقَاسِيهَا بِنَفْسِهِ، وَيُعَالِجُهَا فِي سِرِّهِ وَبَاطِنِهِ؛ ثُمَّ يَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً، فَيَجْعَلَ لَهَا حَظًّا مِنَ الْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ نِمْتُ اللَّيْلَ لِأُضِيعَنَ نَفْسِي، وَإِنْ نِمْتُ النَّهَارَ لِأُضِيعَنَ الرَّعِيَّةَ، فَكَيْفَ لِي بِالنَّوْمِ بَيْنَ هَاتَيْنِ؟».

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى عُرِضَ لِي آيَاتٌ مِنَ الشُّعْرِ، وَهِيَ:

[الطويل]:

فَوَطَّنَ عَلَيَّ أَنْ تَرْتَكِيكَ الْوَقَائِعُ ^(١)	فَإِنْ كُنْتُ فِي هَدْيِ الْأَيْمَةِ رَاغِبًا
وَقَلْبٍ صَبُورٍ وَهُوَ فِي الصَّدْرِ مَائِعُ / [٢٠/أ]	بِنَفْسٍ وَقُورٍ عِنْدَ كُلِّ كَرِيهَةٍ
وَسِرِّكَ مَكْتُومٍ لَدَى الرَّبِّ ذَائِعُ	لِسَانِكَ مَخْزُونٌ وَطَرْفُكَ مُلْجَمٌ
وَتَغْرُكَ بَسَامٌ، وَبَطْنُكَ جَائِعُ	وَذِكْرُكَ مَغْمُورٌ وَبَابُكَ مُغْلَقٌ
وَفَضْلُكَ مَدْفُونٌ وَطَعْنُكَ شَائِعُ	وَقَلْبُكَ مَجْرُوحٌ وَسُوقُكَ كَاسِدٌ
مِنَ الدَّهْرِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَلْبُ طَائِعُ	وَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ جَارِعٌ غُصَّةٍ
وَلَيْلُكَ شَوْقٌ غَابَ عَنْهُ الطَّلَائِعُ	نَهَارُكَ شَغْلُ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ مَنَّةٍ
لِيَوْمِ عُبُوسٍ عَزَّ فِيهِ الدَّرَائِعُ	فَدُونُكَ هَذَا اللَّيْلُ خُذُهُ ذَرِيعَةً

نَعَمْ، يَكُونُ بِالنَّفْسِ مَعَهُمْ، وَبِالْقَلْبِ مَا أَبْعَدَهُ عَنْهُمْ! وَذَلِكَ لِعَمْرِي أَمْرٌ شَدِيدٌ وَعَيْشٌ نَكِدٌ، وَفِيهِ يَقُولُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي وَصِيَّتِهِ:

يَا بُنَيَّ، عِشْ فِي أَهْلِ زَمَانِكَ وَلَا تَقْتَدِ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَشَدَّ هَذَا الْعَيْشَ مَعَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَقْتَدَاءِ بِالْأَمْوَاتِ.

(١) أي: همزة نفسك واستعدت لاستقبال المصائب والمصاعب.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَالَطَ النَّاسَ وَزَايَلَهُمْ وَدِينُكَ لَا تَكْلُمَنَّهُ»^(١)، فَهَذِهِ نُكْتَةٌ مُفْنَعَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

حكم العزلة ثم أقول: إِذَا مَاجَ الْفِتْنُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَتَرَاجَعَ الْأَمْرُ، وَوَلَّى النَّاسُ عَنِ أَمْرِ الدِّينِ مُدْبِرِينَ، لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، وَلَا يَطْلُبُونَ عَالِمًا، وَلَا يَرْمُقُونَ مُفِيدًا، وَلَا يَعْنِيهِمْ أَمْرُ دِينِهِمْ أَلْبَتَّةَ، وَتَرَى الْفِتْنَةَ قَائِمَةً تَعُمُّ الْعَامَّةَ، وَتَدْبُثُ إِلَى الْخَاصَّةِ، فَلِلْعَالِمِ الْعُذْرُ فِي الْعُزْلَةِ وَالتَّقَرُّدِ وَدَفْنِ الْعِلْمِ، وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ الزَّمَانُ النَّكِدُ الصَّعْبُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ، فَهَذَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّقَرُّدِ عَنِ النَّاسِ، فَافْهَمَهُ، فَإِنَّ الْغُلَطَ فِيهِ عَظِيمٌ، وَضَرَرُهُ كَثِيرٌ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

مناقشة فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ»، فَإِنَّ هَذَا الْحُكْمَ يَدَّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ^(٢)، «وَإِنَّ الشَّيْطَانَ ذُنْبُ الْإِنْسَانِ، يَأْخُذُ الشَّاذَّةَ

(١) أي خالط الناس دون أن يحصل في دينك خلل من ذلك. وهذا الأثر رواه الطبراني في الكبير بلفظ: «خالطوا الناس وصافوهم بما يشتهون، ودينكم فلا يكلمنهم».

(٢) — ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٦٥٥/٢) عن ابن عباس بلفظ: (يد الله مع الجماعة) (الحديث رقم ١٠٠٠٤) وذكر المناوي في فيض القدير (٤٥٩/٦) أنه في رواية أخرى (مع الجماعة). وكلام المصنف (أي السيوطي) أن هذا هو الحديث بتمامه، والأمر بخلافه، بل بقية عند مخرجه الترمذي (من شدَّ شدَّ إلى النار).

— ورواه الطبراني بلفظ: (يد الله مع الجماعة، والشيطان مع من خالف يركض) — ورجاله كما قال الهيثمي ثقات.

— ورواه الترمذي في الفتن عن ابن عباس وقال: غريب لا نعرفه عن ابن عباس =

وَالْفَاذَةَ، وَالنَّاحِيَةَ وَالْقَاصِيَةَ^(١) وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفَدَى، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ»^(٢).

= إلا من هذا الوجه، وقد رمز المصنف لحسنه، قال ابن حجر: لكن له شواهد كثيرة منها موقوف صحيح.

(١) رواه أحمد بن حنبل (٢٣٢/٥) عن معاذ بن جبل بلفظ: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة، القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامّة، والمسجد).

— وأورده السيوطي في الجامع الصغير (٢٧١/١) وحسنه (الحديث رقم ٢٠٢٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣٥٠/٢) بلفظه، ونقل عن الحافظ العراقي أن رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعاً. وأضاف المناوي: وبينه تلميذه الهيثمي فقال: العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ، والرجال ثقات.

والجدير بالذكر هنا أن ابن حنبل لم يذكر أن العلاء بن زياد سمعه من معاذ، بل من رجل حدّثه به ولم يذكر اسمه.

— قال العراقي (إحياء ٢٢٤/٢) أخرجه أحمد والطبراني، ورجالهم ثقات إلا أن فيه إنقطاعاً.

(٢) — رواه ابن حنبل (١٨/١، ٢٦) عن عمر بن الخطاب وهو جزء من حديث وتماه:

(استوصوا بأصحابي خيراً، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفسو الكذب، حتى أن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يُسألها، فمن أراد منكم بحجة الجنة فليلتزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنین أبعد، لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) ورواه أيضاً ابن حنبل عن عبد الله بن عامر عن أبيه برواية مختلفة أولها: (من مات وليست عليه طاعة مات ميتة جاهلية) وفيها: (إن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنین أبعد) (ابن حنبل ٤٤٦/٣).

— وفي مستدرک الحاكم (٥٥٥/٤) عن عبد الله بن مسعود: (الزموا هذه الطاعة والجماعة... وإن ما تكرمون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة...). وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

فَاعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ وَرَدَتْ، وَوَرَدَ أَيْضاً «الزَّم بَيْتَكَ، وَعَلَيْكَ/
بِالْخَاصَّةِ وَدَعِ أَمْرَ الْعَامَّةِ»^(١) وَأَمَرَ بِالْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ فِي الزَّمَانِ الشُّؤْمِ.
وَلَا تَنَاقُضَ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ
الْخَبَرَيْنِ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ.

فَأَقُولُ: قَوْلُهُ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ» يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:

معنى
الجماعة

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَعْنِي بِهِ فِي الدِّينِ وَالْحُكْمِ، إِذْ لَا تَجْتَمِعُ هَذِهِ
الْأُمَّةُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَخَرَقَ الْإِجْمَاعَ وَالْحُكْمَ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ جُمْهُورُ
الْأُمَّةِ، وَالشُّذُودُ عَنْهُمْ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ؛ وَإِنَّمَا أَنْ يَعْتَزِلَ عَنْهُمْ لِصَلَاحِ
فِي دِينِهِ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ.

وَالثَّانِي: عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، يَعْنِي بِأَلَّا تَنْقَطِعُوا عَنْهُمْ فِي جُمُعِهِمْ
وَجَمَاعَاتِهِمْ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ فِيهَا قُوَّةَ الدِّينِ وَجَمَالَ الْإِسْلَامِ، وَغَيْظَ
الْكَفَّارِ وَالْمُلْحِدِينَ؛ وَلَا يَخْلُو ذَلِكَ مِنْ بَرَكَاتٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَنَظَرَ مِنْهُ بِالرَّحْمَةِ؛ وَكَذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ حَقَّ الْمُتَفَرِّدِ أَنْ يُشَارِكَ النَّاسَ
فِي الْجُمُوعِ الْعَامَّةِ فِي الْخَيْرِ، وَأَنْ يُجَانِبَهُمْ فِي الصُّحْبَةِ وَالْمُزَاحِمَةِ
فِي سَائِرِ الْأُمُورِ، لِمَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْآفَاتِ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ زَمَانِ الْفِتْنَةِ لِلرَّجُلِ الضَّعِيفِ فِي أَمْرِ
الدِّينِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْبَصِيرُ الْقَوِيُّ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذَا رَأَى زَمَانَ
الْفِتْنَةِ الَّذِي حَذَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْأُمَّةَ مِنْهُ وَأَمَرَهُمْ بِالْعُزْلَةِ فِيهِ، فَالْعُزْلَةُ
أَوْلَى، لِمَا فِي الْخُلُطَةِ مِنَ الْفُسَادِ وَالْآفَةِ؛ وَلَا يَنْقَطِعُ مِنْ جُمُوعِ

(١) - هذا جزء من حديث ورد سابقاً (راجع ص ١٠٧ حاشية (١)).

الإسلام وَالْخَيْرَاتِ الْعَامَّةِ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ النَّاسِ بِمَرَّةٍ ،
فَلْيَسْكُنْ بِشَاهِقِ جَبَلٍ، أَوْ بطنِ فَلَآةٍ، لِصَلَاحِ يَرَاهُ فِي دِينِهِ.

ثُمَّ قُلْتُ: وَلَا أَرَى مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ أَيُّنَمَا كَانَ، إِلَّا وَيُمْكِنُهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعَاتِ وَسَائِرِ جُمُوعِ الْإِسْلَامِ،
فِيحْضُرُ لَيْثًا يَقُوتُهُ الْحَطُّ مِنْهَا أَيْضًا، فَإِنَّ جُمُوعَ الْإِسْلَامِ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ، وَإِنْ تَعَيَّرَ النَّاسُ وَفَسَدُوا.

كَذَا سَمِعْنَا مِنْ حَالِ الْأَبْدَالِ^(١)، أَنَّهُمْ يَحْضُرُونَ جُمُوعَ الْإِسْلَامِ
أَيُّنَمَا كَانَتْ، وَيَسِيرُونَ مِنَ الْأَرْضِ حَيْثُ شَاءُوا، وَأَنَّ الْأَرْضَ لَهُمْ قَدَمٌ
وَاحِدٌ يَأْذَنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِي الْأَخْبَارِ أَنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى لَهُمْ، وَيُنَادُونَ بِالتَّحِيَّاتِ
وَيُتْحَفُونَ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ/ وَانْكَرَامَاتِ، فَهَنِيئًا لَهُمْ بِمَا ظَفَرُوا بِهِ، [٢١/أ]
وَأَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاءً مَنْ غَفَرَ عَنِ النَّظَرِ فِي خَلَاصِ نَفْسِهِ، وَأَعَانَ
الطَّالِبَ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَيَّ الْمَقْصُودَ كَأَمْثَالِنَا. وَلَقَدْ عُرِضَ لِي فِي
صِفَةِ حَالِي آيَاتٌ مِنَ الشُّعْرِ. وَهِيَ: [الخفيف]:

ظَفَرَ الطَّالِبُونَ وَأَتَّصَلَ الْوَصْدُ لُ وَفَازَ الْأَجَابُ بِالْأَجَابِ
وَبَقِينَا مُذْبَذِبِينَ حَبَرَى بَيْنَ حَدِّ الْوِصَالِ وَالْاجْتِنَابِ

(١) (الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً
يسقى بهم الغيث، ويتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم
العذاب).

— روى ابن حنبل في مسنده (١/١١٢ و ٥/٣٢٢) وقد أورد الترمذي حديث
الأبدال في نواذر الأصول من قول أبي الدرداء عن جماعة من الصحابة مرفوعاً
وموقوفاً.

نَرْتَجِي الْقُرْبَ بِالْبَعَادِ وَهَذَا
فَأَسْقِنَا مِنْكَ شَرْبَةَ تُذْهِبُ الْغَمَّ
يَا طَيِّبَ السَّقَامِ يَا مَرْهَمَ الْجَزْرِ
لَسْتُ أَذْرِي بِمَا أَدَاوِي سِقَامِي
نَفْسُ حَالِ الْمُحَالِ لِلْأَبَابِ
مَ وَتَهْدِي إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ
ح وَيَا مُنْقِذِي مِنَ الْأَوْصَابِ
أَوْبِمَاذَا أَفُوزُ يَوْمَ الْحِسَابِ
وَلتَقْبِضِ الْآنَ عِنَانَ الْبَنَانِ، وَتَرْجِعِ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ شَأْنِ
الْعُزْلَةِ فَقَدْ خَرَجْنَا عَنْ شَرْطِ الْبَابِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجُلُوسُ فِي
الْمَسَاجِدِ»^(١) وَفِيهِ زَجْرٌ عَنِ التَّفَرُّدِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ زَمَنِ الْفِتْنَةِ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَأَيْضاً فَإِنَّهُ
يَجْلِسُ فِي الْمَسْجِدِ وَلَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يُدَاخِلُهُمْ، فَيَكُونُ
بِالشَّخْصِ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَعْنَى مُنْفَرِداً عَنْهُمْ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى فِي
التَّفَرُّدِ وَالْعُزْلَةِ الَّذِي نَحْنُ فِي شَرْحِهِ، لَا التَّفَرُّدُ بِالشَّخْصِ وَالْمَكَانِ،
فَافْهَمْ ذَلِكَ رَحِمَكَ اللَّهُ، وَفِيهِ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنْ
وَاحِداً جَامِعِيّاً، وَمِنْ رَبِّكَ ذَا أَنْسٍ، وَمِنْ النَّاسِ وَحْشِيّاً»^(٢).

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ فِي مَدَارِسِ عُلَمَاءِ الْآخِرَةِ، وَرِبَاطَاتِ
الصُّوفِيَّةِ، سَالِكِي طَرِيقِ الْآخِرَةِ وَالْكُونِ فِيهَا؟

الرباطات

(١) – ورد في الإحياء (٣٧١/٤) بلفظ: (رهبانية أمتي القعود في المساجد).
وقال العراقي: لم أجد له أصلاً.

– وورد هذا الحديث في كتاب كشف الخفاء (٥٢٦/١) وذكر أنه لم يوجد، أي
لا يوجد له أصل (الحديث رقم ١٤٠٦).

(٢) واحداً جامعياً: أي واحداً بالقلب، جامعياً بالنفس، نفسك مع الجماعة وقلبك
مع الله وحده.

فَاعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَى فِي هَذَا الشَّانِ لِعَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ
 وَالاجْتِهَادِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا جَمَعَتِ الْمَعْنَيْنِ وَالْفَائِدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا:
 الْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ، وَالتَّفَرُّدُ عَنْهُمْ بِالصُّحْبَةِ وَالْمُخَالَطَةَ وَالْمُزَاحِمَةَ فِي
 أُمُورِهِمْ. وَالثَّانِيَةُ: الْمُشَارَكَةُ مَعَهُمْ فِي جُمُعِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَتَكْثِيرِ
 شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، فَتَحْصُلُ السَّلَامَةُ الَّتِي هِيَ لِلْمُنْفَرِدِينَ، وَالْخَيْرُ
 الْكَثِيرُ/ الَّذِي هُوَ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ مَا لِلنَّاسِ فِيهِمْ مِنَ الْعِدَّةِ [٢١/ب]
 وَالْبَرَكَةِ وَالنَّصِيحَةِ، فَصَارَ الْكَوْنُ فِيهَا أَعْدَلَ طَرِيقًا، وَأَحْسَنَ حَالًا،
 وَأَسْلَمَ سَبِيلًا، وَلِهَذَا الشَّانِ أَقَامَ أَكْثَرُ الْعَارِفِينَ بَيْنَ النَّاسِ لِنَفْعِهِمْ
 لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَابِ الدِّينِ، وَقَلَّةٌ أَذَاهُمْ، وَمُشَاهَدَةَ الْخَلْقِ
 لِأَدَابِهِمْ وَحُسْنِ رُسُومِهِمْ. نَبْتَدُوا بِهِمْ، فَإِنَّ لِسَانَ الْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ
 لِسَانِ الْمَقَالِ، فَصَارَ ذَلِكَ حُسْنًا تَذْيِيرًا فِي أَمْرِ الدِّينِ نُبْعًا وَالْعِبَادَةِ
 وَأَحْكَمَ رَأْيًا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حَاشَى تَمْرِيدِ مَعَ الْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُرْتَاضِينَ، مَخَالِطَةُ
 الْمُرِيدِ
 أَيْضَحَبُهُمْ أَمْ يَعْتَرِلُهُمْ؟

لِلْمُجْتَهِدِينَ

فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا ثَابِتِينَ عَلَى رُسُومِهِمْ الْأَوَّلَى. وَسِيرَتِهِمْ
 الْمَوْزُونَةَ عَنِ أَسْلَافِهِمْ. فَهُمْ أَجَلُ إِخْوَانٍ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَأَصْحَابِ
 وَأَعْوَانٍ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَشْغَلُنكَ عَنْهُمْ عُزْلَةٌ وَتَفَرُّدٌ، وَإِنَّمَا
 مَثَلُهُمْ مَثَلُ مَنْ تَسْمَعُ مِنْ زُهَادِ لُبَّانٍ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ مِنْهُمْ جَمَاعَاتٍ
 يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَيَتَوَاصُونَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، وَأَمَّا إِنْ
 تَعَيَّرُوا وَتَرَكَوا رُسُومَهُمْ وَأَخْلَوْا بِطَرَائِقِهِمْ الْمَوْزُونَةَ عَنِ أَسْلَافِهِمْ
 الصَّالِحِينَ، فَحُكْمُ هَذَا الْمُجْتَهِدِ الْمُرْتَاضِ مَعَهُمْ كَحُكْمِهِ مَعَ سَائِرِ
 النَّاسِ، يَنْزِمُ زَاوِيَتَهُ وَيَكْفُفُ لِسَانَهُ، وَيُشَارِكُهُمْ فِي خَيْرَاتِهِمْ، وَيُجَانِبُهُمْ

فِي سَائِرِ أحوَالِهِمْ وَأَفَاتِهِمْ، فَيَكُونُ هُوَ فِي عُزْلَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعُزْلَةِ مُتَفَرِّدًا
عَنِ الْمُتَفَرِّدِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنْ اخْتَارَ هَذَا الْمُتْرَاضُ الْمُجْتَهِدُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ
بَيْنِهِمْ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، لِصَلَاحِ يَرَاهُ فِي نَفْسِهِ، وَتَجَنُّبِ آفَةٍ تَدْخُلُ عَلَيْهِ
فِي صُحْبَتِهِمْ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِسَ وَالرِّبَاطَاتِ، بِمَنْزِلَةِ حِصْنِ
حَصِينٍ يَتَحَصَّنُ بِهَا الْمُجْتَهِدُونَ عَنِ الْقُطَاعِ وَالسَّرَاقِ، وَأَنَّ الْخَارِجَ
بِمَنْزِلَةِ الصَّحْرَاءِ، تَدُورُ فِيهِ فُرْسَانُ الشَّيَاطِينِ، عَسْكَرًا عَسْكَرًا، فَتَسْلُبُهُ
أَوْ تَسْتَأْسِرُهُ، فَكَيْفَ حَالُهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى الصَّحْرَاءِ، وَتَمَكَّنَ الْعَدُوُّ مِنْهُ
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، يَعْمَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ؟ فَاذًا لَيْسَ لِهَذَا الضَّعِيفِ إِلَّا لُزُومُ
الْحِصْنِ.

خروج
المريد
إلى
الناس

وَأَمَّا الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْبَصِيرُ الَّذِي لَا تَغْلِبُهُ الْأَعْدَاءُ، وَأَسْتَوَى
عِنْدَهُ الْحِصْنُ وَالصَّحْرَاءُ، فَلَا عَلَيْهِ إِذَا خَرَجَ؛ غَيْرَ أَنَّ / الْكُونَ فِي
الْحِصْنِ أَحْوِطٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِذْ لَا تُؤَمِّنُ الْآفَاتُ وَالْفَلَتَاتُ
وَالْإِتِّفَافَاتُ (مَعَ قُرْنَاءِ) ^(١) الشَّوْءِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ،
فَالْكَوْنُ مَعَ رِجَالِ اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَقَّةِ الصُّحْبَةِ أَوْلَى لِلْمُتْرَاضِ
وَطَالِبِ الْخَيْرِ بِكُلِّ حَالٍ، وَأَنَّ لَا مَانِعَ لِلْقَوِيِّ الْبَالِغِ مَبْلَغِ الْإِسْتِقَامَةِ
عَنِ التَّفَرُّدِ، فَاعْلَمْ هَذِهِ الْجُمْلَةَ وَتَأَمَّلْهَا تَعْنَمُ وَتَسَلِّمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى.

[٢٢/١]

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ فِي زِيَارَةِ الْإِخْوَانِ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَمُواصَلَةِ
الْإِخْوَانِ بِالْأَحْبَابِ بِالتَّلَاقِي وَالتَّدْكُرِ؟

زيادة
الإخوان

(١) ساقطة من الأصل، مشتقة في (د) و (ه).

فَاعْلَمْ أَنَّ زِيَارَةَ الْإِخْوَانِ فِي اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جَوَاهِرِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِيهَا الزَّلْفَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَعَ مَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْفَوَائِدِ وَصَلَاحِ الْقُلُوبِ، وَلَكِنْ بِشَرَطَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ لَا يَخْرُجَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْإِكْتَارِ وَالْإِفْرَاطِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «زُرْ غَبًا تَزِدُّ حُبًّا»^(١).

وَالثَّانِي: أَنْ تَحْفَظَ حَقَّ ذَلِكَ بِالتَّجَنُّبِ عَنِ الرِّيَاءِ وَالتَّزْيِينِ، وَقَوْلِ اللَّغْوِ وَالْغِيْبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَحْيِكَ الْوَبَالُ. فَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْفُضَيْلَ وَسُفْيَانَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَذَاكُرًا فَبَكِيًا، فَقَالَ سُفْيَانُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ أَرْجُو أَنَا مَا جَلَسْنَا مَجْلِسًا أَرْجَى لَنَا مِنْ هَذَا، فَقَالَ الْفُضَيْلُ: مَا جَلَسْتُ مَجْلِسًا أَخَوْفُ عَلَيَّ مِنْ هَذَا، قَالَ: وَكَيْفَ يَا أَبَا عَلِيٍّ؟ فَقَالَ: أَلَسْتُ تَعْمَدُ إِلَى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ فَتَحَدِّثُنِي بِهِ، وَأَنَا أَعْمَدُ إِلَى أَحْسَنِ مَا عِنْدِي، فَأَحَدُثَكَ بِهِ، فَتَرَيْنَتْ لِي، وَتَرَيْنَتْ لَكَ، فَبَكَى سُفْيَانُ.

(١) - رواه السيوطي في الجمع الصغير (٣/٢) الحديث رقم (٤٥٥) عن أبي هريرة في شُعب الإيمان لنبيهقي والمعجم الأوسط للطبراني. كما روى هذا الحديث عن ابن عمر وعن عائشة وعن ابن عمرو وعن حبيب بن مسلمة الفهري. وقد تتبع العلماء أسانيد ورجاله، ووجد البعض فيه ضعفاً، وقيل البعض الآخر. فالسيوطي مثلاً ذكر أنه حسن، والألباني لم يذكره في الأحاديث الضعيفة، وتابع الإمام السخاوي أسانيدَه في المقاصد الحسنة (ص ٢٣٢ - ٢٣٣) وأشار إلى كثرة رواته وطرقه وقال: (وبمجموعها يتقوى الحديث).

- وقد رواه أيضاً أبو نعيم في الحلية (٣/٣٢٢) عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن رباح عن أبي هريرة، وطلحة هذا هو سبب ضعف الحديث عند العلماء الذين ضعفوه، لأنه غير قوي على حد قول البیهقي في شعب الإيمان. وقد أورده الذهبي في الضعفاء.

فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُجَالِسَتَكَ لِلِإِخْوَانِ، وَمُلَاقَاتِهِمْ عَلَى مِقْدَارِ
قَصْدٍ فِي أَحْتِيَاطٍ وَنَظَرٍ لَطِيفٍ، فَلَا يَقْدَحُ ذَلِكَ حِينَئِذٍ فِي عِزَّتِكَ
وَتَفَرُّدِكَ عَنِ النَّاسِ، وَلَا يَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَخِيكَ بِضَرَرٍ وَأَفَةٍ، بَلْ
بِخَيْرٍ كَثِيرٍ وَنَفْعٍ عَظِيمٍ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

الباعث
على العزلة
عَلَيَّ ذَلِكَ؟
فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا يَبْعَثُنِي عَلَى الْعُزْلَةِ عَنِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّدِ وَيُهَوِّنُ

فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يُهَوِّنُ عَلَيْكَ ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: / أَسْتَفْرَاقُ أَوْقَاتِكَ فِي الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ فِي الْعِبَادَةِ شُغْلًا؛
وَأَنَّ الْاسْتِئْثَانَ بِالنَّاسِ مِنْ عِلَامَاتِ الْإِفْلَاسِ. فَإِذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ
تَتَطَلَّعُ إِلَى مُلَاقَاةِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ، فَاعْلَمْ
أَنَّ ذَلِكَ فَضُولٌ سَاقَهُ الْفَرَاغُ وَالْبَطَرُ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ فِي هَذَا
الْمَعْنَى: [الكامل].

إِنَّ الْفَرَاغَ إِلَى سَلَامِكَ قَادِنِي وَلَرُبَّمَا عَمِلَ الْفُضُولَ الْفَارِغُ^(١)

فَأَنْتَ إِذَا أَعْضَيْتَ الْعِبَادَةَ حَقَّهَا وَجَدْتَ حَلَاوَةَ الْمُنَاجَاةِ،
وَاسْتَأْنَسْتَ بِكِتَابِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا، وَاسْتَعَلَّتْ عَنِ الْخَلْقِ، وَاسْتَوْحَشْتَ
مِنْ صُحْبَتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ. وَفِي الْخَبَرِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ إِذَا
رَجَعَ عَنِ الْمُنَاجَاةِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ يَجْعَلُ إِضْبَعِيهِ فِي
أُذُنَيْهِ، لِئَلَّا يَسْمَعَ كَلَامَهُمْ، وَكَانَ كَلَامُهُمْ عِنْدَهُ فِي الثُّفُورِ وَالْوُخْشَةِ

(١) الفضول: العمل الذي لا حاجة لنا به، والفراغ: الإنسان التارك لعبادة الله
والواقع في الفراغ. أي: ربما عمل الإنسان الفراغ عن عبادة الله أعمالاً لا تعنيه
ولا حاجة له بها فهي لذلك من الفضول الذي لا ينبغي له.

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَأَصْوَاتِ الْحَمِيرِ، فَعَلَيْكَ بِمَا قَالَهُ شَيْخُنَا
رَحِمَهُ اللَّهُ: [الخفيف المجزوء]:

إِزْضَ بِاللَّهِ صَاحِبًا وَذَرِ النَّاسَ جَانِبًا^(١)
صَادِقَ الْوُدِّ شَاهِدًا كُنْتَ فِيهِمْ وَغَائِبًا
قَلْبِ النَّاسِ كَيْفَ شِئْتَ سَتَ تَجِدُهُمْ عَقَارِبًا

وَالثَّانِي: قَطَعَ الطَّمَعَ عَنْهُمْ بِمَرَّةٍ، فَيَهُونُ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ؛ لِأَنَّ مَنْ
لَا تَرَجُو نَفْعَهُ، وَلَا تَخَافُ ضَرَّهُ فَوْجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ.

وَالثَّلَاثُ: تُبْصِرُ آفَاتِهِمْ وَتَذْكُرُ ذَلِكَ وَتُكْرِرُهُ عَلَى قَلْبِكَ، لِأَنَّ
هَذِهِ الْأَذْكَارَ الثَّلَاثَةَ إِذَا لَزِمْتَهَا، طَرَحْتَ بِكَ عَنْ صُخْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى
بَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّفَرُّدِ لِعِبَادَتِهِ، وَحَبِيبَتِهِ إِلَيْكَ، وَالزَّمْتِكَ بَابَهُ، وَبِاللَّهِ
التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

الْعَائِقُ الثَّلَاثُ: الشَّيْطَانُ:

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَحِي بِمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَقَهْرِهِ، وَذَلِكَ لِخِصْلَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، لَا مَطْمَعَ فِيهِ بِمَصَالِحَةٍ وَاتِّقَاءِ
غِيَلَةٍ، بَلْ لَا يُقْنِعُهُ إِلَّا هَلَاكُكَ أَصْلًا، فَلَا وَجْهَ إِذَا لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ
هَذَا الْعَدُوِّ وَالْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَتَأَمَّلْ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، إِحْدَاهُمَا
قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَيْتِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ

(١) فِي الْأَصْلِ ذَكَرَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ فَقَطَّ كَالثَّلَاثِ: اتَّخَذَ اللَّهُ صَاحِبًا وَدَعَ النَّاسَ جَانِبًا. وَمَا
أَثْبَتْنَاهُ مِنْ (د) وَ (هـ).

مُيِّنٌ ﴿٦٠﴾ [يس: ٦٠]. وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وَهَذَا أَقْصَى التَّحْذِيرِ وَغَايَتُهُ.

وَالْخِصْلَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مَجْبُورٌ عَلَى عِدَاوَتِكَ، وَمُنْتَصِبٌ أَبَدًا لِمُحَارَبَتِكَ، فَهُوَ أَنَاءَ اللَّيْلِ / وَأَطْرَافَ النَّهَارِ يَرْمِيكَ بِسِهَامِهِ، وَأَنْتَ غَافِلٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْحَالُ؟ [٢٣/أ]

ثُمَّ وَقَعْتَ مَعَكَ نُكْتَةً أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى بَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِفِعْلِكَ وَقَوْلِكَ، وَهَذَا ضِدُّ صَنِيعِ الشَّيْطَانِ وَهَمَّتِهِ، وَمُرَادِهِ وَحِرْفَتِهِ؛ فَصِرْتَ كَأَنَّكَ قُمْتَ وَشَدَدْتَ وَسَطَكَ، لِتُغَايِظَ الشَّيْطَانَ وَتُكَايِدَهُ وَتُنَاقِضَهُ، فَهُوَ أَيْضًا يَشُدُّ وَسَطَهُ لِيُعَادِيكَ وَيُعَاتِلَكَ وَيُمَاكِرَكَ، حَتَّى يُفْسِدَ عَلَيْكَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ شَأْنُكَ، بَلْ حَتَّى يُهْلِكَكَ رَأْسًا، إِذْ لَا يَأْمَنُ مِنْ جَانِبِكَ بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسِيءُ وَيَقْصِدُ بِالْهَلَاكِ إِلَى مَنْ لَا يُغَايِظُهُ وَلَا يُنَاقِضُهُ، بَلْ يُصَادِقُهُ وَيُؤَافِقُهُ، كَالْكَفَّارِ وَأَهْلِ الضَّلَالِ وَأَهْلِ الرِّغْبَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ؛ فَكَيْفَ يُظَنُّ قَصْدُهُ لِمَنْ قَامَ يُغَايِظُهُ، وَتَجَرَّدَ لِمُنَاقِضَتِهِ؟ فَلَهُ إِذَنْ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ عِدَاوَةٌ عَامَّةٌ، وَمَعَكَ أَيُّهَا الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ عِدَاوَةٌ خَاصَّةٌ، وَإِنَّ أَمْرَكَ لَهُ لَمْهَمٌّ وَمَعَهُ عَلَيْكَ أَعْوَانٌ، أَشَدَّهَا عَلَيْكَ نَفْسُكَ وَهَوَاكَ، وَلَهُ أَسْبَابٌ وَمَدَاخِلٌ وَأَبْوَابٌ أَنْتَ عَنْهَا غَافِلٌ.

وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: «الشَّيْطَانُ فَارِغٌ وَأَنْتَ مَشْغُولٌ وَهُوَ يِرَاكُ وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ، وَأَنْتَ تَنْسَاهُ وَهُوَ لَا يَنْسَاكَ، وَمِنْ نَفْسِكَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْكَ عَوْنٌ». فَإِذَنْ لَا بُدَّ مِنْ مُحَارَبَتِهِ وَقَهْرِهِ، وَإِلَّا فَلَا تَأْمَنُ الْفَسَادَ وَالْهَلَاكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ أَحَارِبُ الشَّيْطَانَ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَقَهْرُهُ

وَأَدْفَعُهُ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ (١) فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ طَرِيقَيْنِ: محاربة

الشیطان

أَحَدُهُمَا مَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ التَّدْبِيرَ فِي دَفْعِ الشَّيْطَانِ الْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ لَا غَيْرُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَلَبٌ سَلَطَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ؛ إِنْ اشْتَغَلْتَ بِمُحَارَبَتِهِ وَمُعَالَجَتِهِ تَعَبْتَ، وَضَاعَ عَلَيْكَ وَقْتُكَ، وَرَبَّمَا يَظْفَرُ بِكَ فَيَعْقِرُكَ وَيَجْرَحُكَ، فَإِنَّ الرَّجُوعَ إِلَى رَبِّ الْكَلْبِ لِيَصْرِفَهُ عَنْكَ أَوْلَى.

وَالثَّانِي: مَا قَالَ آخَرُونَ: الطَّرِيقُ الْمُجَاهِدَةُ، وَالْقِيَامُ عَلَيْهِ بِالذَّفْعِ وَالرَّدِّ وَالْمُخَالَفَةِ.

قُلْتُ: وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ الطَّرِيقَ الْعَدْلَ / الْجَامِعَ فِي أَمْرِهِ، أَنَّ [٢٣/ب] تَجْمَعُ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ، فَتُسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ أَوَّلًا كَمَا أَمَرْنَا، وَهُوَ الْكَافِي شَرُّهُ؛ ثُمَّ إِنْ رَأَيْتَهُ يَتَغَلَّبُ عَلَيْنَا، عَلِمْنَا أَنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لِيَرَى صِدْقَ مُجَاهَدَتِنَا وَقُوَّتِنَا فِي أَمْرِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصَبْرِنَا، كَمَا أَنَّهُ سَلَطَ الْكُفَّارَ عَلَيْنَا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى كِفَايَةِ أَمْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ، لِيَكُونَ لَنَا حِطٌّ مِنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ وَالتَّمَحِيصِ وَالشَّهَادَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] فَكَذَلِكَ هُوَ.

ثُمَّ إِنْ مُحَارَبَتُهُ وَفَهَرَهُ، فِيمَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي طَرِيقِ
مُحَارَبَةِ
ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

الشیطان

أَحَدُهَا: أَنْ تَتَعَرَّفَ وَتَتَعَلَّمَ مَكَايِدَهُ وَحِيلَهُ، فَلَا يَتَجَاسَرُ حِينَئِذٍ عَلَيْكَ، كَاللَّصِّ إِذَا عَلِمَ أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ قَدْ أَحْسَسَ فِيهِ فَرًّا.

(١) أي لأهل التصوف.

وَالثَّانِي: أَنْ تَسْتَخَفَّ بِدَعْوَتِهِ فَلَا تُعَلِّقُ قَلْبَكَ بِذَلِكَ، وَتَتَّبِعُهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ النَّابِحِ، إِنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ وَلِعَ بِكَ وَلَجَّ، وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ سَكَتَ.

وَالثَّالِثُ: أَنْ تُدِيمَ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى بِلسَانِكَ وَقَلْبِكَ، فَلَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ فِي جَنْبِ الشَّيْطَانِ كَالْآكِلَةِ فِي جَنْبِ ابْنِ آدَمَ»^(١).
فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَعَلَّمُ مَكَائِدَهُ، وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ؟
فَاعْلَمْ (أمرين: الأول):^(٢) أَنْ لَهُ وَسَاوِسَ هِيَ بِمَنْزِلَةِ السَّهَامِ
الَّتِي يَزِمِيهَا؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَتَّبِعُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ الْخَوَاطِرِ وَأَقْسَامِهَا.
وَالثَّانِي: أَنْ لَهُ حِيَلًا بِمَنْزِلَةِ الشَّبَكَاتِ الَّتِي يَنْصِبُهَا (الصيد)^(٣)،

مكايد
الشیطان

(١) - قال الكديري: (٢٩٢/١) لم أقف عليه أصلاً، إلا أن معناه صحيح، فقد أخرج أبو يعلى في مسنده عن أبي بكر الصديق (عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء).

- وفي صحيح البخاري (١٥١/٤) باب بدء الخلق، قال النبي ﷺ: «تعوذ بالله من الشيطان» وفي رواية أخرى (١٥٣/٤) أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير... كانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي).

- وفي مسند ابن حنبل (٦٠/٤) رواية شبيهة برواية البخاري لفظاً ومعنى. وكذلك في موطأ مالك (١٦٤/١).

- وكذلك رواه ابن ماجه (١٢٧٢/٢) في كتاب الدعاء الحديث (٣٨٦٧).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) زيادة من (ج) يقتضيها سياق الكلام.

وَذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ الْمَكَائِدِ وَأَوْضَاعِهَا وَمَجَارِيهَا.

وَلَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاؤُنَا أَبُوَابًا فِي الْخَوَاطِرِ، وَقَدْ صَنَّفْنَا كِتَابًا سَمَّيْنَاهُ «تَلْبِيسَ إِبْلِيسَ»، وَكِتَابُنَا هَذَا لَا يَحْتَمِلُ الْإِكْتَارَ، وَلَكِنَّا نَذَكُرُ لَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَضْلاً كَافِياً إِذَا أَعْتَصَمْتَ بِهِ.

فَأَمَّا أَصْلُ الْخَوَاطِرِ: فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَكَلَّ بِقَلْبِ ابْنِ آدَمَ الْإِلَهَامَ مَلَكًا يَدْعُوهُ إِلَى الْخَيْرِ، يُقَالُ لَهُ الْمُلْهَمُ، وَلِدَعْوَتِهِ الْهَامُّ. وَسَلَّطَ فِي الْوَسْوَاسِ مُقَابَلَتَهُ شَيْطَانًا يَدْعُو الْعَبْدَ إِلَى الشَّرِّ، يُقَالُ لَهُ وَسْوَاسٌ، وَلِدَعْوَتِهِ وَسْوَاسَةٌ؛ فَالْمُلْهَمُ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى الْخَيْرِ، وَالْوَسْوَاسُ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى الشَّرِّ/ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ عُلَمَائِنَا.

وَقَدْ حُكِيَ عَنِ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ الشَّيْطَانَ رَبَّمَا يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَقَصْدُهُ فِي ذَلِكَ الشَّرِّ، بِأَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَفْضُولِ لِيَمْنَعَهُ عَنِ الْفَاضِلِ، أَوْ يَدْعُوهُ إِلَى خَيْرٍ، لِيَجُرَّهُ إِلَى ذَنْبٍ عَظِيمٍ، لَا يَبْقَى خَيْرُهُ بِذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ عُجْبٍ أَوْ غَيْرِهِ.

فَهَذَانِ دَاعِيَانِ قَائِمَانِ عَلَى قَلْبِهِ، يَدْعُوَانِهِ، وَهُوَ يَسْمَعُ قَلْبَهُ يُحِسُّ بِذَلِكَ، عَلَى مَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُ «إِذَا وُلِدَ لِابْنِ آدَمَ مَوْلُودٌ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مَلَكًا وَقَرَنَ الشَّيْطَانُ بِهِ شَيْطَانًا»^(١). فَالشَّيْطَانُ جَائِمٌ

(١) - هذا الحديث لم نجد له أصلاً بهذا اللفظ، لكن معناه صحيح.

فقد ورد في مسند ابن حنبل (٣٨٥/١) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق).

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس منكم من أحد =

عَلَى أُذُنِ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ الْيَسْرَى وَالْمَلَكُ جَائِمٌ عَلَى أُذُنِ قَلْبِهِ الْيَمْنَى،
فَهُمَا يَدْعُوَانِهِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ»^(١) يَعْنِي
نَزَلَةٌ بِالِدَّعْوَةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: لَمْ بِالْمَكَانِ وَالْمَمَّ بِهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ.

ثُمَّ رَكَّبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بِنْيَةِ الْإِنْسَانِ طَبِيعَةً مَائِلَةً إِلَى الشَّهَوَاتِ
وَنَيْلِ اللَّذَاتِ كَيْفَ كَانَتْ، مِنْ حُسْنٍ أَوْ قُبْحٍ، فَذَلِكَ هَوَى النَّفْسِ
الصَّارِفَةِ إِلَى الْآفَاتِ، فَهَذِهِ ثَلَاثُ دُعَاةٍ^(٢).

ثُمَّ أَعْلَمَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُقَدَّمَةِ، أَنَّ الْخَوَاطِرَ هِيَ آثَارُ تَحَدُّثٍ فِي
قَلْبِ الْعَبْدِ، تَبَعْتُهُ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالثَّرْوِكِ، وَتَدْعُوهُ إِلَيْهَا، وَسُمِّيَتْ
خَوَاطِرَ، لِإِضْطِرَابِهَا، مِنْ خَطَرَاتِ الرِّيحِ وَنَحْوِهِ، وَحُدُوثِهَا جَمِيعاً فِي
قَلْبِ الْعَبْدِ بِالْحَقِيقَةِ (مِنَ اللَّهِ)^(٣) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لِكِنَّهَا أَرْبَعَةٌ أَقْسَامٌ:

= إِنْ وَقَدَ وَكَلَّ بِهِ قَرِينَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ. قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ،
وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمْتُ (ابْنُ حَنْبَلٍ ٢٥٧/١).

(١) — قَالَ الْعِرَاقِيُّ (الإحياء ٢٧/٣): أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَالتَّسَائِي فِي السَّنَنِ
الْكَبْرَى مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ. (رَاجِعِ التِّرْمِذِي، كِتَابُ التَّفْسِيرِ، عِنْدَ ذِكْرِ تَفْسِيرِ
الآيَةِ ٣٥ مِنْ سُورَةِ آدِ عِمْرَانَ: ﴿... وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ، وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ
وَذَرِيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ فِي الْإِحْيَاءِ (٢٧/٣) بِهَذَا النَّصْرِ:

(فِي الْقَلْبِ لِمَتَانِ: لِمَةٌ مِنَ الْمَلِكِ، يُعَاذُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ
فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلِيُحَمِّدَ اللَّهَ، وَلِمَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ، يُعَاذُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُ
بِالْحَقِّ وَنَهْيٌ عَنِ الْخَيْرِ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ).

(٢) وَهُمُ: الْمَلِكُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، وَالشَّيْطَانُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الشَّرِّ، وَالنَّفْسُ
الْمَائِلَةُ إِلَى الشَّهَوَاتِ.

(٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ، مُثَبَّتَةٌ فِي بَاقِي النِّسْخِ.

● مِنْهَا مَا يُحَدِّثُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقَلْبِ ابْتِدَاءً، فَيُقَالُ لَهُ الْخَاطِرُ أَقْسَامِ
الخواطر فقط .

● وَقِسْمٌ يُحَدِّثُهُ مُوَافِقاً لَطَبْعِ الْإِنْسَانِ، فَيُقَالُ لَهُ هَوَى النَّفْسِ
وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ .

● وَقِسْمٌ يُحَدِّثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ الْمُلْهِمِ، فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ لَهُ
الْإِلْهَامُ .

● وَقِسْمٌ يُحَدِّثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ الشَّيْطَانِ، فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ لَهُ
الْوَسْوَسَةُ، وَتُنْسَبُ إِلَيْهِ بِأَنَّهَا خَوَاطِرٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي
الْحَقِيقَةِ حَادِثَةٌ عِنْدَ دَعْوَتِهِ، فَهِيَ كَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّهَا تُنْسَبُ
إِلَيْهِ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ مِنَ الْخَوَاطِرِ .

ثُمَّ أَعْلَمَ بَعْدَ هَذَا التَّفْسِيمِ، أَنَّ الْخَاطِرَ الَّذِي مِنْ قِبَلِ اللَّهِ أَنْوَاعِ
الخواطر ابْتِدَاءً قَدْ يَكُونُ بِخَيْرٍ إِكْرَاماً وَالزَّامِماً لِلْحُجَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ بِشَرٍّ أَمْتِحَاناً
وَتَغْلِيظاً لِلْمُحَنَةِ .

وَالْخَاطِرُ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الْمُلْهِمِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِخَيْرٍ إِذْ هُوَ
نَاصِحٌ مُرْشِدٌ لَمْ يُرْسَلْ إِلَّا لِذَلِكَ .

وَالْخَاطِرُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِشَرٍّ
إِغْوَاءً، وَاسْتِزْلالاً، / وَرُبَّمَا يَكُونُ بِالْخَيْرِ مَكْرَماً وَاسْتِدْرَاجاً .
[٢٤/ب]

وَالَّذِي يَكُونُ مِنْ قِبَلِ هَوَى النَّفْسِ يَكُونُ بِالشَّرِّ وَبِمَا لَا خَيْرَ فِيهِ
تَمْتَعاً وَتَعَسُفاً .

وَلَقَدْ وَجَدْتُ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ هَوَى النَّفْسِ أَيْضاً قَدْ يَدْعُو
إِلَى خَيْرٍ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ شَرٌّ، كَالشَّيْطَانِ، فَهَذِهِ أَنْوَاعُهَا .

خاطر الشر
وخاطر
الخير
ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ إِنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ ثَلَاثَةِ فُصُولٍ لَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا
الْبَتَّةَ وَفِيهَا الْمَقْصُودُ:

أَحَدُهَا: الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ الْخَيْرِ وَخَاطِرِ الشَّرِّ فِي الْجُمْلَةِ.

وَالثَّانِي: الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ شَرِّ أِبْتِدَائِيٍّ أَوْ هَوَائِيٍّ أَوْ شَيْطَانِيٍّ،
وَبِمَاذَا تَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا. فَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا دَفْعاً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ.

وَالثَّلَاثُ: الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ خَيْرٍ أِبْتِدَائِيٍّ أَمْ إِلْهَامِيٍّ، أَوْ شَيْطَانِيٍّ
(أَوْ هَوَائِيٍّ)^(١)، لِتَتَّبَعَ مَا يَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنَ الْمَلْهَمِ،
وَتَجْتَنِبَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَذَلِكَ الْهَوَائِيُّ عَلَى قَوْلٍ مِنْ يَقُولُ
بِهِ.

في التفريق
بين خاطر تعرف خاطر الخير من خاطر الشر، وتفرق بينهما، فإنه بأحد
الخير وخاطر الموازين الأربعة، يتبين لك حاله:

اعرض الأمر الذي خطر ببالك على الشرع، فإن وافق جنسه
فهو خير، وإن كان بالضد برخصة أو شبهة فهو شر.
الشر
موازين
الخواطر

فَإِنْ لَمْ يَسْتَبِينَ لَكَ بِهَذَا الْمِيزَانَ، فَأَعْرِضْهُ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ، فَإِنْ
كَانَ فِي فِعْلِهِ اِقْتِدَاءٌ بِالصَّالِحِينَ فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ بِالضَّدِّ اتِّبَاعاً
لِلطَّالِحِينَ فَهُوَ شَرٌّ.

وَإِنْ لَمْ يَسْتَبِينَ لَكَ بِهَذَا الْمِيزَانَ، فَأَعْرِضْهُ عَلَى النَّفْسِ وَالْهَوَى،
وَانظُرْ إِنْ كَانَ مِمَّا تَنْفِرُ النَّفْسُ عَنْهُ نَفْرَةً طَبِيعٍ، لَا نَفْرَةَ خَشْيَةٍ

(١) الخاطر الهوائي هو ما يكون من قبل هوى النفس. واللفظة زائدة من (ج) و (د).

وَتَرْهِيْبٍ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَمِيلُ النَّفْسُ إِلَيْهِ مِثْلَ طَبْعِ وَجِبَلَةٍ، لَا مِثْلَ رَجَاءٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْغِيْبٍ، فَهُوَ شَرٌّ؛ إِذِ النَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ لَا تَمِيلُ بِطَبْعِهَا إِلَى خَيْرٍ. فَبِأَحَدِ هَذِهِ الْمَوَازِينِ، إِذَا نَظَرْتَ وَانْعَمْتَ النَّظْرَ، يَسْتَبِينُ خَاطِرُ الْخَيْرِ مِنْ خَاطِرِ الشَّرِّ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهَدَايَةِ بِفَضْلِهِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّانِي: فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ فِي الدَّافِعِ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، وَبَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ مِنْ هَوَى النَّفْسِ، أَوْ مِنْ اللَّهِ إِلَى خَاطِرِ الشَّرِّ
تَعَالَى أَيْتِدَاءً فَانظُرْ فِيهِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ/:

[أ/٢٥]

أَحَدُهَا: إِنْ وَجَدْتَهُ مُصَمِّمًا رَاتِبًا عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ هَوَى النَّفْسِ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ مُتَرَدِّدًا، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَكَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: مِثْلُ هَوَى النَّفْسِ مِثْلُ النَّمْرِ إِذَا حَارَبَ لَا يَنْصَرِفُ إِلَّا بِقَمْعٍ بَالِغٍ وَقَهْرٍ ظَاهِرٍ؛ أَوْ مِثْلُ الْخَارِجِيِّ الَّذِي يُقَاتِلُ تَدْبِيًّا، لَا يَكَادُ يَرْجِعُ حَتَّى يُقْتَلَ. وَمِثْلُ الشَّيْطَانِ مِثْلُ الدَّبِّ، إِذَا طَرَدْتَهُ مِنْ جَانِبٍ دَخَلَ مِنْ جَانِبٍ.

وِثَانِيهَا: إِنْ وَجَدْتَهُ عَقِيبَ ذَنْبٍ أَحْدَثْتَهُ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، إِهَانَةً وَعُقُوبَةً بِشُؤْمِ ذَلِكَ الذَّنْبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المصنفين: ١٤].

قَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَكَذَا تُؤَدِّي الذُّنُوبُ إِلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ: أَوْلَاهَا خَاطِرٌ، ثُمَّ تُؤَدِّي إِلَى الْقَسْوَةِ وَالرَّيْنِ. وَإِنْ كَانَ هَذَا الْخَاطِرُ مُبْتَدَأً لَا عَقِيبَ ذَنْبٍ كَانَ مِنْكَ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ

مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، هَذَا فِي الْأَكْثَرِ، لِأَنَّهُ يَبْتَدِيءُ بِدَعْوَةِ الشَّرِّ وَيَطْلُبُ
الْإِغْوَاءَ بِكُلِّ حَالٍ.

وَنَالِئُهَا: إِنْ وَجَدْتَهُ لَا يَضْعُفُ وَلَا يَقِلُّ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا
يَزُولُ، فَهُوَ مِنَ الْهَوَى، وَإِنْ وَجَدْتَهُ يَضْعُفُ وَيَقِلُّ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى
فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ كَمَا ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] أَنَّ الشَّيْطَانَ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ: إِذَا
ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَنَسَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسَّوَسَ.

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّلَاثُ: فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرٍ خَيْرٍ يَكُونُ
إِلَى خَاطِرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ مِنَ الْمَلِكِ، فَانظُرْ فِي ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:
الخير

(أَحَدُهَا: أَنْ تَنْظُرَ)^(١) فَإِنْ كَانَ قَوِيًّا مُصَمِّمًا، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ مُتَرَدِّدًا، فَهُوَ مِنَ الْمَلِكِ؛ إِذْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ نَاصِحٍ
يَدْخُلُ مَعَكَ فِي كُلِّ جَانِبٍ وَوَجْهِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْكَ كُلَّ نُصْحٍ، رَجَاءً
إِجَابَتِكَ وَرَغْبَتِكَ فِي الْخَيْرِ.

وَالثَّانِي: إِنْ كَانَ عَقِيبَ اجْتِهَادٍ مِنْكَ وَطَاعَةٍ، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ
سُبْحَانِهِ وَتَعَالَى، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾
العنكبوت: ٦٩ ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وَإِنْ كَانَ
مُبْتَدَأً، فَهُوَ مِنَ الْمَلِكِ فِي الْأَغْلَبِ.

وَالثَّلَاثُ: إِنْ كَانَ فِي الْأَصُولِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وَإِنْ كَانَ فِي الْفُرُوعِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، فَهُوَ مِنَ

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

الْمَلَكِ فِي الْأَكْثَرِ؛ إِذِ الْمَلَكُ لَا سَبِيلَ لَهُ/ إِلَى مَعْرِفَةِ بَاطِنِ الْعَبْدِ فِي [٢٥/ب] قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ.

وَأَمَّا حَاطِرُ الْخَيْرِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ اسْتِدْرَاجًا إِلَى شَرِّ يَزِيْبِي عَلَيْهِ، فَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنْظُرْ إِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي خَطَرَ بِقَلْبِكَ، مَعَ نَشَاطٍ لَا مَعَ خَشْيَةٍ، وَمَعَ عَجَلَةٍ لَا مَعَ تَأَنٍّ، وَمَعَ أَمْنٍ لَا مَعَ خَوْفٍ، وَمَعَ عَمَى الْعَاقِبَةِ لَا مَعَ بَصِيرَةٍ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبْهُ؛ وَإِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ، مَعَ خَشْيَةٍ لَا مَعَ نَشَاطٍ، وَمَعَ تَأَنٍّ لَا مَعَ عَجَلَةٍ، وَمَعَ خَوْفٍ لَا مَعَ أَمْنٍ، وَمَعَ بَصَارَةٍ لِلْعَاقِبَةِ لَا مَعَ عَمَى، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنَ الْمَلَكِ.

قُلْتُ أَنَا: وَكَأَنَّ النَّشَاطَ خِفَّةً فِي الْإِنْسَانِ لِلْفِعْلِ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَذِكْرِ ثَوَابٍ يُنْشِطُهُ فِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا التَّائِي فَمَحْمُودٌ إِلَّا فِي مَوَاضِعَ مَعْدُودَةٍ؛ وَذَكَرَ فِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا فِي خَمْسٍ: فِي تَزْوِيجِ الْبِكْرِ إِذَا أُدْرِكَتْ، وَقَضَاءِ الدَّيْنِ إِذَا وَجِبَ، وَتَجْهِيْزِ الْمَيِّتِ إِذَا مَاتَ، وَقِرَى الضَّيْفِ إِذَا نَزَلَ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا أُذْنِبْتَ»^(١).

(١) - ورد هذا الحديث في الإحياء (٣/٣٣) بلفظ: (العجلة من الشيطان والتائي من الله تعالى) وذكر العراقي تخريجه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة. وقال حسن.

- وقد ذكره الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ١٥١) بلفظ: (التائي من الله والعجلة من الشيطان) وتتبع رواته ورواياته وذكر أنه مرفوع عن أنس وذكر =

وَأَمَّا الْخَوْفُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي إِتْمَامِهِ وَأَدَائِهِ عَلَى حَقِّهِ
وَوَجْهِهِ وَقَبُولِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ.

وَأَمَّا بَصَارَةُ الْعَاقِبَةِ فَبَأْنَ يَتَبَصَّرُ وَيَتَيَقَّنُ أَنَّهُ خَيْرٌ وَرُشْدٌ، وَيَحْتَمِلُ
أَنْ يَكُونَ لِرُؤْيِيهِ الثَّوَابِ فِي الْعُقْبَى وَرَجَائِهِ. فَاعْلَمْ ذَلِكَ مُوَفَّقًا.

فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْفُصُولِ الثَّلَاثَةِ، الَّتِي لَزِمْتِكَ مَعْرِفَتُهَا فِي فَضْلِ
الْخَوَاطِرِ، فَارْعَهَا وَأَمِعِنِ النَّظَرَ فِيهَا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّهَا مِنَ الْعُلُومِ
اللَّطِيفَةِ وَالْأَسْرَارِ الشَّرِيفَةِ فِي هَذَا الْبَابِ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا فَضْلُ الْحِيَلِ وَالْمُخَادَعَاتِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَمَجْرَى ذَلِكَ
الشيطان في ومثاله، أَنَّ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ مَعَ ابْنِ آدَمَ فِي الطَّاعَةِ فِي سَبْعَةِ أَوْجِهٍ:
مكاييد
الطاعة

١ - أَحَدَهَا: أَنْ يَنْهَاهُ عَنْهَا؛ فَإِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَدَّهُ، بِأَنْ
قَالَ: مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ جِدًّا، إِذْ لَا بُدَّ لِي مِنَ التَّرَوُّدِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا
الْفَانِيَةِ، لِلْآخِرَةِ الَّتِي لَا أَنْقِضَاءَ لَهَا.

٢ - ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالتَّسْوِيفِ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَرَدَّهُ، بِأَنْ
قَالَ: لَيْسَ أَجْلِي بِيَدِي، عَلَى أَنِّي إِنْ سَوَّفْتُ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ
فَعَمَلٌ غَدٍ مَتَى أَعْمَلُهُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلًا/ [أ/٢٦]

= رواية الغزالي عن حاتم الأصم وهي بلفظ: (العجلة من الشيطان إلا في خمسة
فإنها من سنة رسول الله ﷺ: إطعام الطعام، وتجهيز الميت، وتزويج البكر،
وقضاء الدين، والتوبة من الذنب).

- وكذلك فعل العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٥٠) الحديث رقم (٩٤٣).
ويلاحظ أن نص الحديث في المنهاج ورد باستبدال عبارة (وقرى الضيف إذا
نزل) بعبارة (وتزويج البكر).

٣ - ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالْعَجَلَةِ فَيَقُولُ لَهُ: عَجِّلْ عَجِّلْ لِتَفْرُغَ لِكَذَا
وَكَذَا، فَإِنَّ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: قَلِيلُ الْعَمَلِ مَعَ التَّمَامِ
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ مَعَ التَّقْصَانِ.

٤ - ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِإِتْمَامِ الْعَمَلِ مُرَاءَاةً لِلنَّاسِ، فَإِنَّ عَصَمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: مَا الَّذِي أَعْمَلُ بِمُرَاءَاةِ النَّاسِ؟ أَفَلَا تَكْفِينِي
رُؤْيَاةُ اللَّهِ تَعَالَى.

٥ - ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُوقِعَهُ فِي الْعُجْبِ، فَيَقُولُ: مَا أَعْظَمَكَ وَمَا
أَيَقْظَكَ وَمَا أَفْضَلَكَ! فَإِنَّ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: الْمِثْمَةُ لِلَّهِ
تَعَالَى فِي ذَلِكَ دُونِي، وَهُوَ الَّذِي خَصَّنِي بِتَوْفِيقِهِ، وَجَعَلَ لِعَمَلِي قِيمَةً
بِفَضْلِهِ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ فَمَاذَا كَانَ قِيمَةَ هَذَا الْعَمَلِ فِي جَنْبِ نِعْمَةِ اللَّهِ
عَلَيَّ وَجَنْبِ مَعْصِيَتِي لَهُ؟

٦ - ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهِ سَادِسٍ، وَهُوَ أَعْظَمُهَا، وَلَا يَقِفُ عَلَيْهِ
إِلَّا مُتَقِظًا، وَهُوَ: أَنْ يَقُولَ: أَجْتَهِدُ أَنْتَ فِي السَّرِّ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
سَيُظْهِرُهُ عَلَيْكَ وَيَلْبَسُ كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. وَأَرَادَ بِذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ الرِّيَاءِ،
فَإِنَّ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: يَا مَلْعُونُ، إِنِّي الْآنَ كُنْتُ
تَأْتِيَنِي مِنْ وَجْهِ إِفْسَادِ عَمِي، وَالْآنَ تَأْتِيَنِي مِنْ وَجْهِ إِصْلَاحِهِ لِتُقْسِدَهُ،
إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ تَعَالَى. وَهُوَ سَيُّدِي إِنْ شَاءَ أَظْهَرَ وَإِنْ شَاءَ أَخْفَى، وَإِنْ
شَاءَ جَعَلَنِي خَطِيرًا، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَنِي حَقِيرًا، وَذَلِكَ إِنِّيهِ. وَمَا أَبَالِي،
أَظْهَرَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ أَوْ لَمْ يُظْهِرْهُ، فَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ.

٧ - ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهِ سَابِعٍ وَيَقُولُ: لَا حَاجَةَ لَكَ إِلَيَّ هَذَا
الْعَمَلِ لِأَنَّكَ إِنْ خُلِقْتَ سَعِيدًا، لَمْ يَضُرَّكَ تَرْكُ الْعَمَلِ، وَإِنْ خُلِقْتَ
شَقِيًّا لَمْ يَنْفَعَكَ فِعْلُهُ، فَإِنَّ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا

عَبْدٌ، وَعَلَى الْعَبْدِ أَمْتَالُ الْأَمْرِ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَالرَّبُّ أَعْلَمُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ. وَلَآئِهٖ يَنْفَعِنِي الْعَمَلُ كَيْفَمَا كُنْتُ، لِأَنِّي إِنْ كُنْتُ سَعِيدًا أَحْتَجُّ إِلَيْهِ لِزِيَادَةِ الثَّوَابِ، وَإِنْ كُنْتُ شَقِيًّا، فَأَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ كَيْ لَا أَلُومَ نَفْسِي، وَعَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُعَاقِبُنِي عَلَى الطَّاعَةِ بِكُلِّ حَالٍ، وَلَا يَضُرُّنِي، وَعَلَى أَنِّي إِنْ أُدْخِلْتُ النَّارَ وَأَنَا مُطِيعٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُدْخِلَهَا وَأَنَا عَاصٍ، فَكَيْفَ وَوَعْدُهُ حَقٌّ وَقَوْلُهُ صَدُوقٌ؟ وَقَدْ وَعَدَ عَلَيَّ الطَّاعَاتِ بِالثَّوَابِ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى [ب/٢٦] / الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ الْبَتَّةَ، وَدَخَلَ الْجَنَّةَ لَا لِاسْتِحْقَاقِهِ بِعَمَلِهِ الْجَنَّةَ، وَلَكِنْ لِوَعْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ. وَلِهَذَا الْمَعْنَى أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ السَّعْدَاءِ، إِذْ قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَّهُ﴾ [الزمر: ٧٤]. فَتَيَقَّظَ رَحِمَكَ اللَّهُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا تَرَى وَتَسْمَعُ، وَقَسَّ عَلَيْهِ سَائِرَ الْأَفْعَالِ وَالْأَحْوَالِ وَاسْتَعِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَاسْتَعِذَّ بِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ وَمِنَهُ التَّوْفِيقُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

العائق الرابع: النفس:

ثُمَّ عَلَيْكَ، عَصَمَكَ اللَّهُ وَإِيَانًا، بِالْحَذَرِ مِنْ هَذِهِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ
 بِالسُّوءِ، فَإِنَّهَا أَضْرُّ الْأَعْدَاءِ، وَبِلَاؤُهَا أَضْعَبُ الْبَلَاءِ، وَعِلاجُهَا
 أصعب الأشياءِ، وَدَاوُهَا أَعْضَلُ الدَّاءِ، وَدَوَاؤُهَا أَشْكَلُ الدَّوَاءِ؛ وَإِنَّمَا
 ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ: صفات النفس الأمانة بالسوء

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا عَدُوٌّ مِنْ دَاخِلِ (الجسد) ^(١)، وَاللَّصُّ إِذَا كَانَ مِنْ

(١) زيادة من (ج).

دَاخِلِ الْبَيْتِ عَزَّتِ الْحِيلَةُ فِيهِ وَعَظُمَ الضَّرْرُ. وَصَدَقَ الْقَائِلُ: [الوافر]:

نَفْسِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي تَكْثِيرَ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
كَيْفَ أَحْتِيَالِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي

وَالثَّانِي: أَنَّهَا عَدُوٌّ مَحْبُوبٌ، وَالْإِنْسَانُ عَمٍ عَنْ عَيْبِ مَحْبُوبِهِ،
لَا يَكَادُ يُبْصِرُ عَيْبَهُ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: [الطويل]:

(وَلَسْتَ تَرَى عَيْبًا لِذِي الْوَدِّ وَالْإِخَا وَلَا بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتَ رَاضِيًا)^(١)
وَعَيْنُ الرِّضَاعِ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنْ عَيْنُ السُّخْطِ تُبْذِي الْمَسَاوِيَا

فَإِذَا يَسْتَحْسِنُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ قَبِيحٍ، وَلَا يَكَادُ يَطَّلِعُ عَلَى
عَيْبِ لَهَا، وَهِيَ فِي عَدَاوَتِهَا وَأَضْرَارِهَا، فَمَا أَوْشَكَ مَا تُوقِعُهُ فِي كُلِّ
فَضِيحَةٍ وَهَلَاكٍ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ إِلَّا أَنْ يَحْفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ،
وَيُعِينَهُ عَلَيْهَا بِرَحْمَتِهِ.

ثُمَّ أَقُولُ: تَأَمَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ نُكْتَةً وَاحِدَةً مُفْنَعَةً، وَهِيَ أَنَّكَ إِذَا
نَظَرْتَ وَجَدْتَ أَصْلَ كُلِّ فِتْنَةٍ وَفَضِيحَةٍ وَخِزْيٍ وَهَلَاكٍ وَذَنْبٍ وَآفَةٍ وَقَعَ فِتْنِ النَّفْسِ
فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ
النَّفْسِ، إِمَّا بِهَا وَحْدَهَا، أَوْ بِمَعَاوَنَتِهَا وَمُشَارَكَتِهَا وَمُسَاعَدَتِهَا.

فَأَوَّلُ الْمَعْصِيَةِ لِلَّهِ تَعَالَى كَانَ مِنْ إِبْلِيسَ، وَكَانَ سَبِيَّهُ بَعْدَ الْقَضَاءِ
السَّابِقِ هَوَى النَّفْسِ بِكِبْرِهِ وَحَسَدِهَا، أَلْقَتْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ ثَمَانِينَ أَلْفَ
سَنَةٍ، فِي مَا قِيلَ، فِي بَحْرِ الضَّلَالِ/ فَعَرِقَ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ، إِذْ لَمْ [٢٧/أ]

(١) زيادة من (د) و (هـ).

يَكُنْ هُنَالِكَ دُنْيَا وَلَا خَلْقٌ وَلَا شَيْطَانٌ، بَلْ كَانَتِ النَّفْسُ بِكِبْرِهَا
وَحَسَدِهَا، فَعَمِلَتْ بِهِ مَا عَمِلَتْ.

ثُمَّ ذَنْبَ آدَمَ وَحَوَاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، طَرَحَتْهُمَا شَهْوَةُ النَّفْسِ فِي
ذَلِكَ^(١)، وَحِرْصُهُمَا عَلَى الْبَقَاءِ وَالْحَيَاةِ^(٢)، حَتَّى أَغْتَرَا بِقَوْلِ إِبْلِيسَ،
فَكَانَ ذَلِكَ إِذَا بَعَوْنَ النَّفْسَ وَشِرْكَتِهَا، حَتَّى سَقَطَا بِذَلِكَ مِنْ
جَوَارِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَرَّارِ الْفِرْدَوْسِ، إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ النَّكَدَةِ
الْفَانِيَةِ الْمُهْلِكَةِ، وَلَقِيَا مَالِقِيَا، وَلَقِيَ أَوْلَادُهُمَا مَا لَقُوا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ
إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ.

ثُمَّ حَدِيثُ قَابِيلَ وَهَابِيلَ^(٣)، كَانَ السَّبَبَ (فِي أَمْرِهِمَا)^(٤)
الْحَسَدُ وَالشُّحُّ.

ثُمَّ حَدِيثُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ^(٥)، كَانَ السَّبَبَ (فِي شَأْنِهِمَا)^(٦)
الشَّهْوَةُ، ثُمَّ هَلَمَّ جَرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَلَا تَجِدُ فِي الْخَلْقِ فِتْنَةً وَلَا فَضِيحَةً وَلَا ضَلَالًا وَلَا مَعْصِيَةً،
إِلَّا وَأَصْلُهَا النَّفْسُ وَهَوَاهَا، وَإِلَّا كَانَ النَّاسُ فِي سَلَامَةٍ. وَإِذَا كَانَ

(١) في ذلك: أي في فعل المنهي عنه.

(٢) أي: إن شهوة النفس في الحرص على البقاء والحياة ألفتها في المعصية.

(٣) ابن آدم عليه السلام. راجع قصتهما في القرآن الكريم، سورة المائدة، الآيات

٢٧ - ٣١.

(٤) زيادة من (د) و (هـ).

(٥) ملكان ذكر الله تعالى قصتهما في كتابه العزيز، سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٦) زيادة من (د) و (هـ).

عَدُوٌّ بِهَذَا الضَّرَرِ كُلُّهُ فَحَقَّ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ
الْهُدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْحِيلَةُ لَنَا إِذَا فِي هَذَا الْعَدُوِّ، وَمَا التَّدْبِيرُ فِي كَيْفِيَةِ لِحْمِ
النَّفْسِ أَمْرِهِ؟ فَبَيِّنْ لَنَا ذَلِكَ.

فَاعْلَمْ أَنَّا ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ، أَنَّ أَمْرَهَا عَسِيرٌ وَصَعْبٌ، إِذَا لَا
يُمْكِنُ قَهْرُهَا بِمَرَّةٍ كَسَائِرِ الْأَعْدَاءِ، إِذْ هِيَ الْمَطِيَّةُ وَالْآلَةُ، - قِيلَ إِنَّ
أَعْرَابِيًّا دَعَا لِإِنْسَانٍ بِخَيْرٍ، فَقَالَ: كَبَتَ اللَّهُ كُلَّ عَدُوِّ لَكَ إِلَّا نَفْسَكَ -
وَلَا يُمْكِنُ إِهْمَالُهَا بِمَرَّةٍ، لِمَكَانِ ضَرَرِهَا، فَتَحْتَاجُ إِلَى طَرِيقٍ بَيْنَ
طَرِيقَيْنِ: تُرَبِّبُهَا وَتُقَوِّبُهَا بِقَدْرِ مَا تَحْتَمِلُ فِعْلَ خَيْرٍ، وَتُضْعِفُهَا
وَتُحْبِسُهَا عَلَى حَدٍّ لَا تَتَمَادَى. فَأَنْتَ مِنْ أَمْرِهَا فِي عِلَاجٍ شَدِيدٍ وَنَظَرٍ
لَطِيفٍ.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرْنَا فِي أَمْرِهَا أَنَّ تُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى وَالْوَرَعِ،
لِتُحْصَلَ الْفَائِدَتَيْنِ جَمِيعًا.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ دَابَّةٌ جُمُوحٌ وَبَهِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَكِسَةٌ لَا تَنْقَادُ
لِللِّجَامِ، فَمَا الْحِيلَةُ فِيهَا حَتَّى تُمَكِّنَنَا مِنْهَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّكَ فِيهَا لَصَدِيقٌ، وَالْحِيلَةُ تَذْنِيلُهَا حَتَّى تَنْقَادَ لِللِّجَامِ. طُرُقُ
تَذْنِيلِ
النَّفْسِ
قَالَ عَلَمًاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّمَا تُذَلَّلُ النَّفْسُ وَتُكْسِرُ هَوَاهَا
بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ.

أَحَدُهَا: مَنَعُ الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّ الدَّابَّةَ الْحَرُونَ تَلِينُ إِذَا نُقِصَ مِنْ
عَلْفِهَا.

وَالثَّانِي: حَمَلُ أَثْقَالِ الْعِبَادَاتِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الْحِمَارَ إِذَا زِيدَ فِي حَمَلِهِ مَعَ التَّفْصَانِ مِنْ عِلْفِهِ تَذَلَّلَ وَأَنْقَادًا. [ب/٢٧]

وَالثَّلَاثُ: الْإِسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ، بِأَنْ يُعِينَكَ، وَإِلَّا فَلَا مَخْلَصَ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

فَإِذَا وَاطَبَتَ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، أَنْقَادَتَ لَكَ النَّفْسُ الْجَمُوحُ، بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَحِينَئِذٍ تُبَادِرُ إِلَى أَنْ تَمْلِكَهَا وَتُلْجِمَهَا وَتَأْمَنَ مِنْ شَرِّهَا^(١).

فَإِنْ قُلْتَ: فَبَيِّنِ الْآنَ مَا هُوَ التَّقْوَى^(٢) حَتَّى نَعْلَمَهُ؟

ماهية
التقوى

فَاعْلَمْ أَوْلَى أَنَّ التَّقْوَى كَنْزٌ عَزِيزٌ، فَلَمَّا ظَفِرْتَ بِهِ، فَكَمْ تَجِدُ فِيهِ مِنْ جَوْهَرٍ شَرِيفٍ، وَعَلَقٍ نَفِيسٍ، وَخَيْرٍ كَثِيرٍ، وَرِزْقٍ كَرِيمٍ، وَفَوْزٍ كَبِيرٍ، وَغَنَمٍ جَسِيمٍ، وَمُلْكٍ عَظِيمٍ، وَكَأَنَّ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جُمِعَتْ فَجُعِلَتْ تَحْتَ هَذِهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى؛ فَتَأَمَّلْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِهَا، كَمَا عَلَّقَ بِهَا مِنْ خَيْرٍ، وَكَمَا وَعَدَ عَلَيْهَا مِنْ ثَوَابٍ وَأَجْرٍ، وَكَمَا أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ سَعَادَةٍ، وَأَنَا أَعِدُّ لَكَ مِنْ جُمْلَتِهَا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ خَصْلَةً:

(١) هذا الرأي الذي يورده الغزالي، كما يذكره غيره من رجال الصوفية، والمتعلق بقهر النفس وتذليلها، وتشبيهها بالدابة الجموح، التي لا يمكن لحمها إلا بنقص علفها، يعارضه العلماء الذين انتقدوا مسالك الصوفية وطريقة تعاملهم مع النفس. انظر بهذا الخصوص رأي ابن الجوزي في كتابه «تبيين إبليس» ونقده لمسالك الصوفية في طعامهم وشرابهم. (ص ٢٠٦ - ٢١٨).

(٢) أي ما هو حدُّ التقوى حتى نعلمه.

أُولَئِكَ مِنَ الْعَمَلِينَ وَالشَّاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ خِصَالَ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].
التقوى

وَالثَّانِي: الْحِفْظُ وَالْحِرَاسَةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ
تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وَالثَّلَاثُ: التَّايِيدُ وَالتُّصْرَةُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وَقَالَ تَعَالَى:
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وَالرَّابِعُ: التَّجَاةُ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالرِّزْقُ مِنَ الْحَلَالِ. قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾
[الطلاق: ٢ - ٣].

وَالخَامِسُ: إِصْلَاحُ الْعَمَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

وَالسَّادِسُ: غُفْرَانُ الذُّنُوبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وَالسَّابِعُ: مَحَبَّةُ اللَّهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
[التوبة: ٤].

وَالثَّامِنُ: الْقَبُولُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وَالتَّاسِعُ: الْإِكْرَامُ وَالْإِعْزَازُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ [الحجرات: ١٣].

وَالْعَاسِرُ: الْبِشَارَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣].

وَالْحَادِي عَشَرَ: النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُحْيِي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴿١٣٨﴾ [مريم: ٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الليل: ١٧].

وَالثَّانِي عَشَرَ: الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]. / فَهَذَا بَيَانٌ كُلُّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ فِي الدَّارَيْنِ تَحْتَ هَذِهِ التَّقْوَى، فَلَا تَنْسَ نَصِيكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْهَا.

ثُمَّ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَذَا الشَّانِ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادَةِ ثَلَاثَةٌ أُصُولٌ: مَا يَخْتَصُّ بِالْمُتَّقِينَ أَحَدُهَا: التَّوْفِيقُ وَالتَّأْيِيدُ أَوَّلًا، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٤].

وَالثَّانِي: إِصْلَاحُ الْعَمَلِ وَإِتْمَامُ التَّقْصِيرِ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

وَالثَّلَاثُ: قَبُولُ الْعَمَلِ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

وَمَدَارُ الْعِبَادَةِ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: التَّوْفِيقُ أَوَّلًا حَتَّى يَعْمَلَ، ثُمَّ الْإِصْلَاحُ لِلتَّقْصِيرِ حَتَّى يَتِمَّ، ثُمَّ الْقَبُولُ إِذَا تَمَّ؛ وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَتَضَرَّعُ فِيهَا الْعَابِدُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَسْأَلُونَ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَفَقْنَا لِبَطَاعَتِكَ، وَأَتَمَّمْنَا تَقْصِيرَنَا، وَتَقَبَّلْ مِنَّا؛ وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى التَّقْوَى، وَأَكْرَمَ بِهَا الْمُتَّقِيَ، سَأَلَ أَوْ لَمْ

يَسْأَلُ. فَعَلَيْكَ بِهَذِهِ التَّقْوَى، إِنْ أَرَدْتَ عِبَادَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ أَرَدْتَ
سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْأَعْقَبَى. وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ: [السريع]:

مَنْ أَتَقَى اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي سِيَقَ إِلَيْهِ الْمُنْجَرُّ الرَّابِحُ
لَا يَتَّبِعُ الْمَرْءَ إِلَى قَبْرِهِ إِلَّا التَّقَى وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ

والقائل: [السريع]:

مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ فَذَاكَ الشَّقِي
مَا ضَرَّ ذَا الطَّاعَةِ مَا نَالَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَا ذَا لَقِي
مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بَعِزُّ الْغِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي

وَكَتَبَ عَلَى بَعْضِ الْقُبُورِ: [الخفيف المجزوء]:

لَيْسَ زَادٌ سِوَى التَّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْ دَعِي

ثُمَّ تَأَمَّلْ أَضْلاً وَاحِداً، وَهُوَ هَبْ أَنْكَ تَعِبْتَ جَمِيعَ عُمْرِكَ فِي
الْعِبَادَةِ، وَجَاهَدْتَ وَكَابَدْتَ، حَتَّى حَصَلَ لَكَ مَا تَمَنَيْتَ، أَلَيْسَ الشَّانُ
كُلُّهُ فِي الْقَبُولِ؟ وَقَدْ عِنَمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ
الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فَرَجَعَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَى التَّقْوَى. وَلِذَلِكَ
رَوَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا أَعْجَبَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا أَعْجَبَهُ أَحَدٌ إِلَّا ذُو تَقَى»^(١).

وَعَنْ قَتَادَةَ^(٢) أَنَّهُ قَالَ: / مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: «يَا ابْنَ آدَمَ [٢٨/ب]

(١) هكذا نقله العلامة ابن عنوي الحداد، ولم يذكر إسناده (سراج السالكين ص ٣٣٧). لم يذكر الغزالي هذا الحديث في الإحياء، كذلك لم نجده فيما بين أيدينا من الكتب الحديثية.

(٢) قتادة بن دعامة السدوسي: من التابعين. كان عالماً كبيراً، سمع أنس بن مالك =

اتَّقِ اللَّهَ، وَنَمَّ حَيْثُ شِئْتَ». وَبَلَغَنِي عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ (١) أَنَّهُ
بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ، ثُمَّ يَأْوِي إِلَى
فِرَاشِهِ فَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: يَا مَأْوَى كُلِّ شَرٍّ، وَاللَّهِ مَا رَضِيتُكَ لِلَّهِ طَرْفَةَ
عَيْنٍ. (وَبَكَى يَوْمًا) (٢)، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا
يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

أهمية التقوى
ثُمَّ تَأَمَّلْ نُكْتَةً أُخْرَى، وَهِيَ أَصْلٌ مِنَ الْأُصُولِ، وَهِيَ مَا ذُكِرَ أَنَّ
بَعْضَ الصَّالِحِينَ قَالَ لِبَعْضِ أَشْيَاحِهِ: أَوْصِنِي، قَالَ: أَوْصِيكَ
بِوَصِيَّةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ
وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

قُلْتُ أَنَا: أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ؟ أَوْ
لَيْسَ هُوَ أَنْصَحُ لَهُ وَأَرْحَمُ وَأَزَافُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ؟ وَلَوْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ
خَصْلَةٌ هِيَ أَصْلَحُ لِلْعَبْدِ، وَأَجْمَعُ لِلْخَيْرِ، وَأَعْظَمُ لِلْأَجْرِ، وَأَجَلُّ فِي
الْعُبُودِيَّةِ، وَأَعْظَمُ فِي الْقَدْرِ، وَأَوْلَى بِالْحَالِ (٣)، وَأَنْجَحُ لِلْأَمَالِ مِنْ
هَذِهِ الْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى، لَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِهَا عِبَادَهُ وَأَوْصَى

= وابن المسيب وابن سيرين وغيرهم من التابعين، وروى عنه جماعة من التابعين
ومن أتباع التابعين وأجمعوا على توثيقه وحفظه وإتقانه وفضله.

توفي سنة ١١٨ هـ وهو ابن ست وخمسين سنة. سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥.

(١) ابن أبي موسى الأشعري، عامر بن عبد الله بن قيس الأشعري، أبو بردة. من
سادات التابعين، كان أبوه صاحب رسول الله ﷺ. وكان عامر قاضياً على
الكوفة، وله مكارم ومآثر مشهورة.

توفي سنة (١٠٤ هـ): سير أعلام النبلاء ٣٤٣/٤.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٣) في الأصل: بالحلال، والتصحيح من باقي النسخ.

خَوَاصُّهُ بِذَلِكَ، لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ، فَلَمَّا أَوْصَى بِهَذِهِ
 الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي ذَلِكَ،
 وَافْتَصَرَ عَلَيْهَا، عَلِمْتَ أَنَّهَا الْغَايَةُ الَّتِي لَا مُتَجَاوِزَ عَنْهَا، وَلَا مَقْتَصِرَ
 دُونَهَا، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ جَمَعَ كُلَّ نُصْحٍ وَدَلَالَةٍ وَإِزْشَادٍ وَتَنْبِيهِ وَتَأْدِيبٍ،
 وَتَعْلِيمٍ وَتَهْدِيدٍ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْوَاحِدَةِ، كَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ
 وَرَحْمَتِهِ، وَعَلِمْتَ أَنَّ هَذِهِ الْخَصْلَةَ، الَّتِي هِيَ التَّقْوَى، هِيَ الْجَامِعَةُ
 لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الْكَافِيَةُ لِجَمِيعِ الْمُهْمَّاتِ، الْمُبَلَّغَةُ إِلَى أَعْلَى
 الدَّرَجَاتِ فِي الْعُبُودِيَّةِ.

وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ^(١): [الطويل]:

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمُ وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الدُّلُّ وَالْعَدَمُ
 (وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِي نَقِيصَةٌ إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ)^(٢)

وَهَذَا أَضَلُّ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ أَبْصَرَ الثُّورَ
 وَأَهْتَدَى، وَعَمِلَ بِذَلِكَ وَأَسْتغْنَى، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

(١) هو أبو العتاهية: (ت ٢١١ هـ):

إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي، مولاهم، الكوفي، نزيل بغداد
 لُقِّبَ بأبي العتاهية لاضطراب فيه، وقيل: كان يحب الخلاعة. فيكون مأخوذ من
 العتو.

سار شعره لجودته وحسنه وعدم تقعره. وقد تنسك في آخر أيامه وقال في
 المواعظ والزهد فأجاد. سير أعلام النبلاء ١٠/١٩٥.

انظر ترجمته وأخباره في:

الشعر والشعراء: ٤٩٧ - ٥٠١، طبقات ابن المعتز: ٢٢٨. الأغاني ١/٤ -
 ١١٢، تاريخ بغداد ٦/٢٥٠ - ٢٦٠، وفيات الأعيان ١/٢١٩ - ٢٢٦.

(٢) زيادة من (د) و (هـ).

المجاهدة
في طلب الحاجة إلى معرفتها، فلا بُدَّ الآن من تفصيلها.
التقوى

فَاعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، فَحَقَّ لَهَا أَنْ يَجَلَّ قَدْرُهَا وَيَلْزَمَ طَلِبُهَا
وَتَمَسَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَعْرِفَتِهَا. وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ خَطِيرٍ
وَكَبِيرٍ يُحْتَاجُ فِي اجْتِلَابِهِ إِلَى طَلَبٍ كَثِيرٍ، وَتَعَبٍ كَبِيرٍ، وَهِمَّةٍ
عَالِيَةٍ/ [٢٩/أ] وَجُهْدٍ شَدِيدٍ، فَإِذَا، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْخَصْلَةَ خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ
كَبِيرَةٌ، فَالْمُجَاهِدَةُ فِي طَلِبِهَا، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهَا، وَالْعِنَايَةُ فِي تَحْصِيلِهَا
أَيْضًا، لَفَعْلٌ كَبِيرٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ، فَإِنَّ الْمَكَارِمَ عَلَى حَسَبِ الْمَكَارِهِ،
وَإِنَّ اللَّذَاتِ عَلَى حَسَبِ الْمُؤَنَاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].
وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ الَّذِي بِيَدِهِ تَيْسِيرُ كُلِّ عَسِيرٍ،
فَاسْتَمِعْ وَتَنَبَّهْ، وَتَفَهَّمْ جِدًّا بَيَانَ هَذِهِ الْخَصْلَةِ حَتَّى تَعْلَمَهَا، ثُمَّ تَشَمَّرْ
لِلْقِيَامِ بِهَا وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى تَعْمَلَ بِمَا تَعْلَمُ، فَإِنَّ الشَّأْنَ كُلَّهُ
فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْهَدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

فَنَقُولُ: أَعْلَمُ أَوْلًا: أَنَّ التَّقْوَى فِي قَوْلِ شَيْخِنَا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

هي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله، حتى يجعل
العبد من قوة العزم على تركها وقاية بينه وبين المعاصي؛ هكذا قال
شيخنا^(١) رحمه الله؛ وذلك أن أصل لفظة التقوى في اللغة هو
الوقوف بالواو، وهو مصدر الوقاية؛ يقال: وقى بغي وقاية ووقوى،
فأبدلت عن الواو ناء، كما هو في الوكلان والثكلان ونحوهما، فقيل

(١) هو أبو بكر الوراق كما في سراج السالكين (ص ٣٤٢).

تَقْوَى؛ فَإِذَا لَمَّا حَصَلَتْ وَقَايَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْمَعَاصِي، مِنْ قُوَّةِ عَزْمِهِ عَلَى تَرْكِهَا، وَتَوْطِينِ قَلْبِهِ عَلَى ذَلِكَ، فَيُوصَفُ حِينَئِذٍ بِأَنَّهُ مُتَّقٍ، وَيُقَالُ لِذَلِكَ التَّنْزِيهِ وَالْعَزْمَ وَالتَّوْطِينِ تَقْوَى.

معاني
التقوى

وَالْتَقْوَى فِي الْقُرْآنِ تُطْلَقُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: بِمَعْنَى الْخَشْيَةِ وَالْهَيْبَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَتَّقُوا اللَّهَ فَآتَقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وَالثَّانِي: بِمَعْنَى الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّيِبُوا لِدِينِ مَا آمَنُوا أَتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَطِيعُوا اللَّهَ حَقَّ طَاعَتِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ^(١): هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ.

وَالثَّلَاثُ: بِمَعْنَى التَّنْزِيهِ لِلْقَلْبِ عَنِ الذُّنُوبِ، فَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ التَّقْوَى دُونَ الْأَوَّلَيْنِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَسَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِرُونَ﴾ [النور: ٥٢]. ذَكَرَ الطَّاعَةَ وَالْخَشْيَةَ، / ثُمَّ ذَكَرَ التَّقْوَى، فَعَلِمْتَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّقْوَى مَعْنَى [٢٩/ب]

(١) المكي المخزومي، وهو تابعي، إمام، متفق على جلالته وإمامته. سمع ابن عمر وابن عباس وأبا سعيد وأبا هريرة وعائشة وغيرهم من الصحابة، وسمع من التابعين طاووساً وابن أبي ليلي وآخرين. وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير. توفي سنة ١٠١ هـ وهو ابن ثلاث وثمانين سنة. سير أعلام النبلاء ٥٤٩/٤.

سَوَى الطَّاعَةِ وَالْخَشْيَةِ^(١)، وَهِيَ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنِ الذُّنُوبِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ.

منازل التقوى
نُتِمَ قَالُوا: مَنَازِلُ التَّقْوَى ثَلَاثَةٌ: تَقْوَى عَنِ الشَّرْكِ، وَتَقْوَى عَنِ
الْبِدْعَةِ، وَتَقْوَى عَنِ الْمَعَاصِي الْفُرْعِيَّةِ. وَلَقَدْ ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي
آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ثُمَّ اتَّقَوْا
وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا ثُمَّ اتَّقَوْا وَمَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مِنْ مَاءٍ يَشْرَبُونَ﴾ [المائدة: ٩٣].

التَّقْوَى الْأُولَى: تَقْوَى عَنِ الشَّرْكِ، وَالْإِيمَانَ فِي مُقَابَلَتِهِ وَهُوَ
التَّوْحِيدُ.

وَالْتَّقْوَى الثَّانِيَّةُ: عَنِ الْبِدْعَةِ، وَالْإِيمَانَ الَّذِي ذَكَرَ مَعَهَا، إِفْرَازًا
بِالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَالْتَّقْوَى الثَّلَاثَةُ: عَنِ الْمَعَاصِي الْفُرْعِيَّةِ، وَلَا إِفْرَازَ فِي هَذِهِ
الْمَنْزِلَةِ، فَقَابِلَهَا بِالْإِحْسَانِ، وَهُوَ الطَّاعَةُ وَالْإِسْتِقَامَةُ عَلَيْهَا؛ فَتَكُونُ
مَنْزِلَةً مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ^(٢). وَالْآيَةُ جَمَعَتْ ذِكْرَ الْمَنَازِلِ الثَّلَاثِ: مَنْزِلَةَ
الْإِيمَانِ، وَمَنْزِلَةَ السُّنَّةِ، وَمَنْزِلَةَ الْإِسْتِقَامَةِ فِي الطَّاعَةِ؛ وَهَذَا مَا قَالَهُ
الْعُلَمَاءُ فِي بَيَانِ مَعْنَى التَّقْوَى.

قُلْتُ أَنَا: وَجَدْتُ التَّقْوَى بِمَعْنَى اجْتِنَابِ فُضُولِ الْحَلَالِ، وَهُوَ
مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ

(١) أي أن معنى التقوى في الحقيقة هو غير الطاعة والخشية.

(٢) أن تكون التقوى الثالثة منزلة مستقيمي الطاعة.

الْمُتَّقُونَ مُتَّقِينَ، لِتَرْكِهِمْ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذْرًا عَمَّا بِهِ بَأْسٌ»^(١).
فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ مَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَبَيْنَ مَا
جَاءَ فِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَكُونُ حَذْرًا جَامِعًا وَمَعْنَى بِالِغَا.

فَأَقُولُ: التَّقْوَى هُوَ اجْتِنَابُ كُلِّ مَا تَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا فِي دِينِكَ. التقوى
أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ لِلْمَرِيضِ الْمُحْتَمِي إِنْهُ يَتَّقِي إِذَا اجْتَنَبَ كُلَّ شَيْءٍ عند
يَضُرُّهُ فِي بَدَنِهِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ فَاكِهَةٍ أَوْ غَيْرِهَا. الصوفية

ثُمَّ الَّذِي يُخَافُ مِنْهُ الضَّرَرُ فِي أَمْرِ الدِّينِ قِسْمَانِ: مَحْضُ
الْحَرَامِ وَمَحْضُ الْمَعْصِيَةِ، وَفُضُولُ الْحَلَالِ؛ لِأَنَّ الْإِسْتِغَالَ بِفُضُولِ
الْحَلَالِ وَالْإِنْهَمَاكَ فِيهِ يَسْتَجِرُّ صَاحِبُهُ إِلَى الْحَرَامِ وَمَحْضِ الْعِصْيَانِ،
وَذَلِكَ لِشَرِّهِ النَّفْسِ وَضَعْفِهَا، وَتَمَرُّدِ الْهَوَى وَعِصْيَانِهِ؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ
يَأْمَنَ الضَّرَرَ فِي أَمْرِ دِينِهِ، اجْتَنَبَ الْخَطَرَ، فَاُمْتَنَعَ عَنِ فُضُولِ الْحَلَالِ،
حَذْرًا أَنْ يَجُرَّهُ إِلَى مَحْضِ الْحَرَامِ، عَلَى مَا قَالَهُ ﷺ / لِتَرْكِهِمْ مَا لَا [٣٠/أ]
بَأْسَ بِهِ حَذْرًا عَمَّا بِهِ بَأْسٌ»، يَعْنِي تَرْكِهِمْ فُضُولَ الْحَلَالِ حَذْرًا عَنِ

(١) — رواه ابن ماجه (١٤٠٩/٢) في باب النورع والتقوى بلفظ: قال رسول الله ﷺ:
(لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً لما به بأس).
(الحديث رقم ٤٢١٥).

— رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

— ورواه الحاكم في المستدرک (٣١٩/٤) عن عطية بن سعد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الرجل لا يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس) قال: هذا حديث صحيح الإسناد، لم يُخرجاه. ووافقه الذهبي على صحته.

— وفي مسند ابن حنبل (٦٠/٤) رواية شبيهة برواية البخاري لفظاً ومعنى وكذلك
مرضاً مالك (١٦٤/١).

— وكذلت رواه ابن ماجه (١٢٧٢/٢) في كتاب الدعاء الحديث (٣٨٦٧).

الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ، فَالتَّقْوَى الْبَالِغَةُ الْجَامِعَةُ اجْتِنَابُ كُلِّ مَا فِيهِ ضَرَرٌ
لَأَمْرِ الدِّينِ، وَهُوَ الْمَعْصِيَةُ وَالْفُضُولُ؛ هَذَا تَفْصِيلُهَا^(١).

التقوى
شرعاً

وَأَمَّا إِذَا أَرَدْنَا تَحْدِيدَهَا عَلَى مَوْضُوعِ عِلْمِ الشَّرْعِ، فَتَقُولُ:
حَدُّ التَّقْوَى الْجَامِعِ تَنْزِيهِ الْقَلْبِ عَنِ شَرِّ لَمْ يَسْبِقْ عَنْكَ مِثْلُهُ،
بِقُوَّةِ الْعَزْمِ عَلَى تَرْكِهِ، حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ وَقَايَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ كُلِّ شَرٍّ.

ثُمَّ الشُّرُورُ ضَرْبَانِ: شَرٌّ أَصْلِيٌّ، وَهُوَ مَا نُهِيَ عَنْهُ كَالْمَعْاصِي
الْمَخْضَةِ، وَشَرٌّ غَيْرٌ أَصْلِيٌّ، وَهُوَ مَا نُهِيَ عَنْهُ تَأْدِيباً، وَهُوَ فَضُولُ
الْحَلَالِ، كَالْمُبَاحَاتِ الْمَأْخُودَةِ بِالشَّهَوَاتِ. فَالْأُولَى: تَقْوَى فَرَضِ،
يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا عَذَابُ النَّارِ، وَالثَّانِيَةُ: تَقْوَى خَيْرٍ وَأَدَبٍ، يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا
الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَالتَّعْيِيرُ وَاللُّومُ؛ فَمَنْ أَتَى بِالْأُولَى، فَهُوَ فِي
الدَّرَجَةِ الْأُولَى مِنَ التَّقْوَى، وَهِيَ مَنْزِلَةٌ مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ، وَمَنْ أَتَى
بِالْآخَرَى، فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنَ التَّقْوَى، وَذَلِكَ مَنْزِلَةٌ مُسْتَقِيمِي
(تَرْكِ)^(٢) الْمُبَاحِ؛ وَإِذَا جَمَعَ الْعَبْدُ بَيْنَهُمَا، أَعْنَى اجْتِنَابَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ
وَفُضُولِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ مَعْنَى التَّقْوَى، وَقَامَ بِحَقِّهَا، وَجَمَعَ كُلَّ خَيْرٍ
فِيهَا؛ وَهَذَا هُوَ الْوَرَعُ الْكَامِلُ الَّذِي هُوَ مِلَاكُ أَمْرِ الدِّينِ، وَذَلِكَ مَنْزِلَةٌ
الْأَدَبِ عَلَى بَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَهَذَا مَعْنَى التَّقْوَى وَبَيَانُهَا فِي الْجُمْلَةِ،
فَأَفْهَمُهُ مُوَفَّقاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

نوعاً
التقوى

فَإِنْ قُلْتَ: فَفَصِّلْ لَنَا الْآنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ وَأَسْتَعْمَالِهِ

(١) أي هذا الذي ذكرناه هو تفصيل التقوى.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في (ب) و (د) و (هـ).

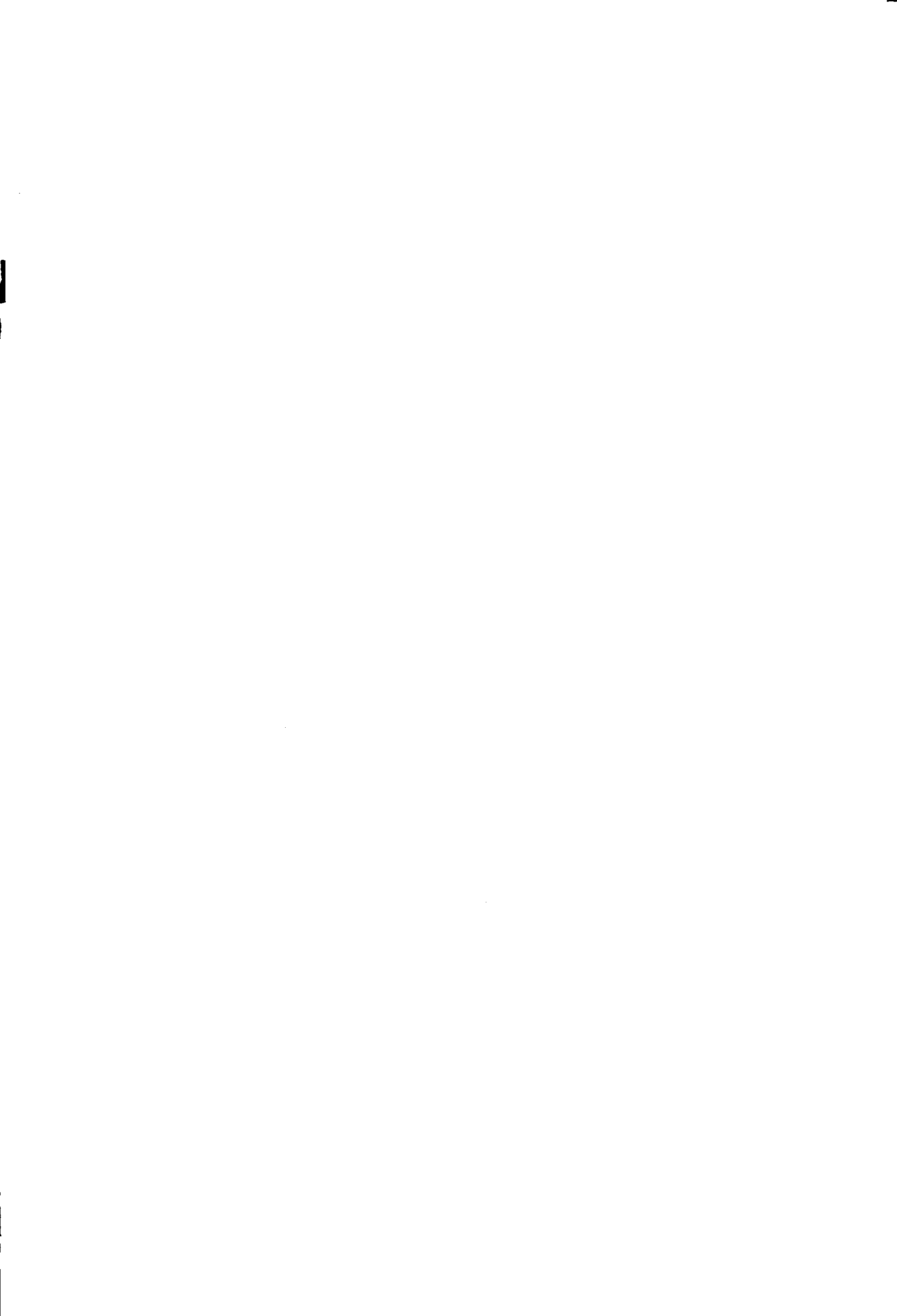
فِيهَا، فَإِنَّ الْحَاجَةَ جَاءَتْ مِنْ هُنَاكَ، لِنَعْلَمَ كَيْفَ نُلْجِمُ هَذِهِ النَّفْسَ
بِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي فَصَّلْتَ مِنْ حَقِيقَةِ التَّقْوَى.

فَأَقُولُ: أَجَلٌ إِنَّمَا تَفْصِيلُهُ فِي أَمْرِ هَذِهِ النَّفْسِ، أَنْ تَقُومَ عَلَيْهَا
بِقُوَّةِ الْعَزْمِ، فَتَمْنَعَهَا عَنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَتَصُونَهَا عَنْ كُلِّ فُضُولٍ.

فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، كُنْتَ قَدْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى فِي عَيْنِكَ وَأُذُنِكَ
وَلِسَانِكَ وَقَلْبِكَ وَبَطْنِكَ وَرِجْلِكَ وَفَرْجِكَ وَجَمِيعِ أَرْكَانِكَ، وَالْجَمْتَهَا
بِلِجَامِ التَّقْوَى، وَلِهَذَا الْبَابِ شَرَحُ يَطُولُ، وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي كِتَابِنَا:
«أَحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ».

وَأَمَّا الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ هَهُنَا، فَإِنَّ نَقُولَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ
تَعَالَى فَلْيُرَاعِ الْأَعْضَاءَ الْخَمْسَةَ، فَإِنَّهُنَّ الْأُصُولُ، وَهِيَ: الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ
وَاللِّسَانُ وَالْقَلْبُ وَالْبَطْنُ؛ فَيَحْرِصُ عَلَيْهَا بِالصِّيَانَةِ لَهَا/ عَنْ كُلِّ مَا
يَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا فِي أَمْرِ الدِّينِ، مِنْ مَعْصِيَةٍ وَحَرَامٍ وَفُضُولٍ وَإِسْرَافٍ
مِنْ حَلَالٍ. وَإِذَا حَصَلَ صِيَانَةُ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ، فَمَرَجُوحٌ أَنْ يَكْفِيَ ضَرَرَ
سَائِرِ الْأَعْضَاءِ، وَيَكُونُ قَدْ قَامَ بِالتَّقْوَى الْجَامِعَةِ بِجَمِيعِ بَدَنِهِ لِلَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ، فَدَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ خَمْسَةِ فُضُولٍ نَهْدَهُ الْأَعْضَاءِ،
وَتَفْصِيلِ مَا يَحْرُمُ فِي حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، عَلَى قَدْرِ مَا يَلِيْقُ بِهِذَا
الْكِتَابِ.

التقوى
والأعضاء
الخمس
[ب/٣٠]



تقوى الأعضاء الخمسة الفصل الأول: العين

عَلَيْكَ وَفَقَّكَ اللَّهُ وَإِنَّا لَطَاعَتِهِ بِحِفْظِ الْعَيْنِ، فَإِنَّهَا سَبَبُ كُلِّ
فِتْنَةٍ وَآفَةٍ. وَأَذْكَرُ فِي أَمْرِهَا ثَلَاثَةٌ أُصُولٌ كَافِيَةٌ.

أَحَدُهَا: مَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ
وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].
وَأَعْلَمَ أَنِّي تَأَمَّلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فَوَجَدْتُ فِيهَا مَعَ قِصَرِهَا ثَلَاثَةَ مَعَانٍ
عَزِيزَةٍ: تَأْدِيبٌ وَتَنْبِيهُ وَتَهْدِيدٌ.

فَأَمَّا التَّأْدِيبُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾
[النور: ٣٠]. وَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ أَمْتِثَالِ أَمْرِ السَّيِّدِ وَالتَّأْدِيبِ بِأَدَبِهِ، وَإِلَّا
فَيَكُونُ سَيِّءَ الْأَدَبِ، فَيُحْجَبُ فَلَا يُؤَدَّنُ لَهُ فِي حُضُورِ الْمَجْلِسِ
وَالْمُثُولِ بِالْحَضْرَةِ؛ فَافْهَمْ هَذِهِ التُّكْتَةَ، وَتَأَمَّلْ مَا تَحْتَهَا، فَإِنَّ فِيهَا مَا
فِيهَا.

وَأَمَّا التَّنْبِيهُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وَيَنْطَلِقُ
عَلَى مَعْنَيَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أحدهما: أَنْ ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِهِمْ، وَالزَّكَاةُ الطَّهَارَةُ، وَالتَّرْكِيبَةُ:
التَّطْهِيرُ.

وَالثَّانِي: ذَلِكَ أَنْمَى لِحَيْرِهِمْ وَأَكْثَرُ؛ وَالزَّكَاةُ فِي الْأَصْلِ: الثَّمُؤُ، فَتَبَّهَ عَلَى أَنَّ فِي غَضِّ الْبَصْرِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ وَتَكْثِيرَ الطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَغُضَّ بَصْرَكَ، وَأَزْخَيْتَ عَيْنَهُ، تَنْظُرَ إِلَى مَا لَا يَعْينِكَ، فَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ تَقَعَ عَيْنُكَ عَلَى حَرَامٍ، فَإِنْ تَعَمَّدْتَ فَذَنْبٌ وَكَبِيرَةٌ، وَرُبَّمَا تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِذَلِكَ، فَتَهْلِكُ إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْعَبْدَ لَيَنْظُرُ النَّظْرَةَ يَنْغَلُ^(١) فِيهَا قَلْبُهُ كَمَا يَنْغَلُ الْأَدِيمُ فِي الدِّبَاغِ، لَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَبَدًا. وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا^(٢)، فَرُبَّمَا يَشْتَغِلُ قَلْبُكَ بِهِ، فَجَاءَكَ الْوَسَاوِسُ وَالْحَوَاطِرُ بِسَبَبِهِ، وَلَعَلَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ فَتَبْقَى مَشْغُولَ الْقَلْبِ مُنْقَطِعًا عَنِ الْخَيْرِ، وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَ ذَلِكَ، فَقَدْ كُنْتَ مُسْتَرِيحًا عَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى ذَكَرَ عَنْ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ، أَنَّهُ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِي الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ، وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً».

[٣١/أ]

وَقَالَ ذُو النُّونِ^(٣): نِعْمَ حَاجِبُ الشَّهَوَاتِ غَضُّ الْأَبْصَارِ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ: [الطويل]:

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أُنْعَبْتِكَ الْمَنَاطِرُ

(١) يَنْغَلُ: عَلَى وَزْنِ يَطْرُبُ أَي يَفْسُدُ.

(٢) أَي إِنْ كَانَ النَّظْرُ مُبَاحًا، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ وَقُوعَ النَّظْرِ عَلَى حَرَامٍ.

(٣) أَبُو الْفَيْضِ وَاسْمُهُ ثَوْبَانُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، وَقِيلَ: الْفَيْضُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَوْحَدُ وَقْتِهِ عَلِمًا وَوَرِعًا وَحَالًا وَأَدْبًا. كَانَ أَبُوهُ نَوْبِيًّا.

وَذُو النُّونِ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ رَوَى الْمَوْطَأَ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. سِير

أَعْلَامُ النَّبَلَاءِ ٥٣٢/١١.

انظُرْ تَرْجُمَتَهُ وَأَخْبَارَهُ فِي:

حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ ٣٣١/٩ - ٣٩١.

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كَلَّةَ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَا عَنَ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ
فِيَاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَوَسَّعَتْ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ الْمَصَادِرُ

فَإِذَنْ لِمَا كُنْتَ غَاضًّا الْبَصَرَ، حَافِظًا لِلْعَيْنِ، لَا تَنْظُرُ لِمَا لَا
يَعْنِيكَ وَلَا يَهْمُكَ، كُنْتَ نَقِيَّ الصَّدْرِ، فَارِغَ الْقَلْبِ، مُسْتَرِيحًا عَن
كَثِيرٍ مِنَ الْوَسْوَاسِ، سَالِمَ النَّفْسِ عَنِ الْآفَاتِ، مُتَزَايِدًا فِي الْخَيْرَاتِ،
فَتَنَّبَهُ لِهَذِهِ التُّكْتَةِ الْجَامِعَةِ، وَاللَّهُ الْمُوقِفُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

وَأَمَّا التَّهْدِيدُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:
٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:
١٩] وَكَفَى بِهِذَا تَحْذِيرًا لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ. فَهَذَا أَصْلٌ وَاحِدٌ مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

الأصل الثاني: مَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ النَّظَرَ
إِلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ تَرَكَهَا
أَذَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى طَعْمَ عِبَادَةِ تَسْرُوهٍ»^(١) وَإِنْ وَجَدَ أَنَّ حِلَاوَةَ الْعِبَادَةِ وَلَذَّةَ
الْمُنَاجَاةِ مِنَ الْعَابِدِينَ بِمَكَانٍ؛ وَهَذَا شَيْءٌ مُجْرَبٌ عَلَيْهِ وَتَحَقَّقَهُ مَنْ

(١) — قال العراقي (الإحياء ١/٢٣٤): أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث
حذيفة.

— وقد ورد هذا الحديث في الإحياء بلفظ: (النظرة سهم مسموم من سهام
إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه عز وجل إيماناً يجد حلاوته في
قلبه) (الإحياء ١/٢٣٤، ٣/١٠٢، ٤/٧٥).

— وقد ورد في مسند ابن حنبل (٥/٢٦٤) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من
مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة ثم يفيض بصره إلا أحدث الله له عبادة
يجد حلاوتها».

عَمِلَ بِهِ، أَنَّهُ إِذَا امْتَنَعَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَغْنِيهِ، يَجِدُ لَذَّةً لِلْعِبَادَةِ وَحَلَاوَةً، وَلِلْقَلْبِ صَفْوَةً لَمْ يَجِدْهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

غاية خلق الأعضاء
الأصل الثالث: أَنْ تَنْظُرَ إِلَى كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِكَ، يَصْلُحُ لِمَاذَا وَيُنْتَظَرُ لَهُ مَاذَا؟ فَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ تَصُونُهُ وَتَحْفَظُهُ؛ فَالرَّجُلُ لِلْمَشْيِ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَقُصُورِهَا، وَالْيَدُ لِكَأْسِ الشَّرَابِ وَتَنَاوُلِ الْأَثْمَارِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ، فَالْعَيْنُ إِنَّمَا لِلنَّظَرِ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ فِي الدَّارَيْنِ كَرَامَةٌ أَجْلٌ وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَحَقِيقُ لَشَيْءٍ يُنْتَظَرُ وَيُرْجَى لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْكِرَامَةِ، أَنْ يُصَانَ وَيُحْفَظَ وَيُعَزَّ وَيُكْرَمَ فَقَدْ قِيلَ: [الطويل]:

[٣١/ب] وكيف ترى لئلى بعين ترى بها سواها وما طهرتها بالمدامع
فهذه الأصول الثلاثة إذا أحسنت التأمل فيها، كفتك المؤونة في هذا الفصل، والله ولي التوفيق.

= - وفي سنن أبي داود (٦١١/٢) أن رسول الله ﷺ قال: (إن المرأة تقبل في صورة شيطان...) (الحديث رقم ٢١٥١).

- وقد ورد هذا الحديث كما رواه ابن حنبل عن ابن أمية في الجامع الصغير للسيوطي (٤٥١/٢) الحديث رقم ٨٠٩٥ مع اختلاف بسيط في بعض ألفاظه، وذكر أنه ضعيف وقد شرحه وخرجه المناوي (فيض القدير ٤٩٦/٥) وقال: ضعفه المنذري ولم يبين، وبين الهيثمي فقال: فيه علي بن زيد، وهو متروك.

- كذلك خرجه الألباني (ضعيف الجامع الصغير. ١٢٦/٥) وقال إنه ضعيف، وأورده في الأحاديث الضعيفة برقم ١٠٦٤، راجع تخريج هذا الحديث ورقمه ٥٢٢٥.

- وفي مستدرک الحاكم (٣١٤/٤) وعن حذيفة: (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيماناً يجد حلاوته في قلبه) (قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (أي مسلم والبخاري) وعلّق الذهبي عليه فقال: إسحاق وا، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفه، وذلك عند تتبعه رجال هذا الحديث.

الفصل الثاني : الأذن

فَعَلَيْكَ بِصِيَانَةِ سَمْعِكَ عَنِ الْخَنَا وَالْفُضُولِ^(١)، وَذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ :
أَحَدُهُمَا : لِمَا رُوِيَ أَنَّ الْمُسْتَمَعَ شَرِيكَ الْمُتَكَلِّمِ، وَفِي ذَلِكَ
يَقُولُ الْقَائِلُ : [المتقارب] :

تَخَيَّرَ مِنَ الطَّرِيقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدَّ عَنِ الْجَانِبِ الْمُشْتَبِهَ
وَسَمِعَكَ صُنْ عَنِ سَمَاعِ الْقَبِيحِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ التُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكَ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ

وَالثَّانِي : أَنَّهُ^(٢) يَهَيِّجُ الْخَوَاطِرَ وَالْوَسَاوِسَ فِي الْقَلْبِ، ثُمَّ مِنْ
ذَلِكَ يَبْدُو الْاِسْتِعَاثُ فِي الْبَدَنِ، فَمَا يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ (لِلْعِبَادَةِ)^(٣) شَيْءٌ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي يَقَعُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَسَمِعِهِ، بِمَنْزِلَةِ
الطَّعَامِ الَّذِي يَقَعُ فِي جَوْفِهِ، فَمِنْهُ الضَّارُّ وَمِنْهُ النَّافِعُ، وَمِنْهُ الْغِذَاءُ فِي الْقَلْبِ
وَمِنْهُ السُّمُّ الْقَاتِلُ، بَلْ إِنَّ بَقَاءَ الْكَلَامِ وَتَجَرُّعَهُ، أَكْثَرُ وَأَبْلَغُ مِنْ
الطَّعَامِ، فَإِنَّ الطَّعَامَ يَزُولُ عَنِ الْمَعِدَةِ بِنَوْمٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَرَبَّمَا يَبْقَى أَثَرُهُ

(١) الخنا: الفاحش من القول. والفضول: ما لا حاجة إلى سماعه.

(٢) أي: الكلام المسموع.

(٣) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

زَمَانًا، ثُمَّ يَزُولُ، وَلَهُ دَوَاءٌ يُزِيلُ أَثَرَهُ مِنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ، وَأَمَّا الْكَلَامُ
الَّذِي يَقَعُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ فَرُبَّمَا يَبْقَى مَعَهُ جَمِيعَ عُمُرِهِ وَلَا يَنْسَاهُ،
فَإِنْ كَانَ شَيْئًا رَدِيثًا، فَلَا يَزَالُ يُتَعَبُّهُ وَيُعِيبُهُ، وَتَرِدُ بِسَبَبِهِ خَوَاطِرُ فِي
الْقَلْبِ وَوَسَاوِسُ وَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُعْرِضَ عَنْهَا، وَيَعْدِلَ بِقَلْبِهِ عَنْ
تَذْكُرِهَا وَيَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَأْمَنُ مِنْ أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَى بَلِيَّةٍ
وَتُحَرِّكَهُ حَتَّى يَقَعَ آخِرَ الْأَمْرِ فِي آفَةٍ عَظِيمَةٍ بِسَبَبِ ذَلِكَ. وَلَوْ كُنْتَ
حَفِظْتَ سَمْعَكَ عَمَّا لَا يَغْنِيكَ، كُنْتَ عَنْ هَذِهِ الْمُؤْنِ مُسْتَرِيحًا،
فَلْيَنْظُرِ الْعَاقِلُ فِي ذَلِكَ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الفصل الثالث: اللسان

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ اللِّسَانِ وَضَبْطِهِ وَقَيْدِهِ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ الْأَعْضَاءِ
جَمَاحاً وَطُغْيَاناً، وَأَكْثَرُهَا فَسَاداً وَعُدْوَاناً.

وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(١) أَنَّهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟/ فَأَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ [أ/٣٢]
بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا»^(٢).....

(١) سفيان بن عبد الله بن ربيعة بن الحرث الثقفي الطائفي، صحابي نه سماع ورواية
كان عامل عمر الفاروق على الضائف. روى له مسلم والترمذي والنسائي وابن
ماجه.

انظر ترجمته وأخباره في:

الوافي بالوفيات ٢٨٥/١٥ (تر ٤٠٤) طبقات ابن سعد ٥/٥١٤، الإستيعاب
٦٣٠/٢ (تر ١٠٠٣).

(٢) هذا قسم من حديث رواه ابن حنبل من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي بأكثر من
لفظ وكلها في المعنى ذاته. (مسند ابن حنبل ٤١٣/٣) وتمامه: (عن سفيان بن
عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به. قال: قل ربي الله
ثم استقم، قال: قلت يا رسول الله: ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ
بلسان نفسه ثم قال: هذا).

— كذلك رواه ابن ماجه (١٣١٤/٢) عن سفيان بن عبد الله أيضاً (الحديث رقم
٣٩٧٢).

وَعَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي وَجَدْتُ نَفْسِي تَحْتَمِلُ مُؤَنَةَ الصَّوْمِ فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ بِالْبَصْرَةِ^(٢)، وَلَا تَحْتَمِلُ تَرْكَ كَلِمَةٍ لَا تَعْنِيهَا» فَعَلَيْكَ إِذْنٌ بِالتَّحْفُظِ جِدًّا وَبَدَلِ الْمَجْهُودِ.
وَنَذَكُرُ خَمْسَةَ أَصُولٍ:

أَحَدُهَا: مَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ^(٣): «أَنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا أَصْبَحَ بَكَرَتْ الْأَعْضَاءُ كُلُّهَا إِلَى اللِّسَانِ، وَقُلْنَ: نَشُدُّكَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَقِيمَ،

موجبات
حفظ
اللسان

= — ورواه أيضاً مسلم في صحيحه (٦٥/١) كتاب الإيمان، لكنه توقف عند القسم الأول من الحديث، وبرواية: (قل آمنت بالله ثم استقم) وهذه الرواية عن سفيان بن عبد الله الثقيفي أيضاً.
— وذكره السيوطي في انجم الصغير (٢١٦/٢) وصححه.

(١) يونس بن عبید الله، التابعي الجليل. اتفقوا على جلالته وتوثيقه. رأى ابن مالك، وحدث عن الحسن وابن سيرين وعطاء وعكرمة. وحدث عنه شعبة وسفيان وخلق كثير. قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث. سير أعلام النبلاء ٦/٢٨٨.

(٢) في سراج السالكين وردت لفظة البصرة بكسر الباء وقد أشار المؤلف (شارح منهاج العابدين) إلى أنها «بلد شرقي عن مصر القاهرة، كما حققه الزرقاوي في زيجته» وأظن هذا وهم وقع فيه الشرح، والمذكور في كتب التراجع ونسير أن يونس بن عبید الله كان في البصرة بالعراق وبها لقي العلماء والمحدثين. وقد ورد هذا الخبر في سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩٠/٦) على النحو التالي: «عرضت على نفسي ترك ذكر ناس إلا من خير، فوجدت الصوم في اليوم الحار يسرع عليها من ذلك» (راجع سراج لسالكين ١/٣٧٢).

(٣) الإمام المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي الخُدري، صحابي جليل، كثير الرواية عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما. وكان أحد الفقهاء المجتهدين، وقد حدث عنه خلق كثير منهم: ابن عمر وأنس وجابر، توفي سنة ٦٤ أو ٧٤ هـ ودفن بالمدينة. سير أعلام النبلاء ٣/١٦٨.

فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْرَجَجْتَ اعْرَجَجْنَا»^(١). قُلْتُ: وَالْمَعْنَى فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ نُطْقَ اللِّسَانِ يُؤَثِّرُ فِي أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ بِالتَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ، يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَى عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ قَسَاوَةً فِي قَلْبِكَ، وَوَهْنًا فِي بَدَنِكَ، وَحِرْمَانًا فِي رِزْقِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: حِفْظُ وَقْتِكَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَلَى الْأَقَلِّ يَكُونُ لُغَوًا يَضِيعُ بِهِ الْوَقْتُ. وَذُكِرَ أَنَّ حَسَانَ بْنَ أَبِي سِنَانٍ^(٢)، مَرَّ عَلَى غُرْفَةٍ بُنِيَتْ فَقَالَ:

(١) — ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٦١/١) برواية: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا) (الحديث رقم ٤٥٤).
— وشرح المناوي ألفاظ هذا الحديث وقال: رواه الترمذي في الزهد وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.
— قال العراقي: (إحياء: ١٠٩/٣): «ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعاً، وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رَفَعَهُ». ورواه الترمذي موقوفاً على عمدة بن زيد وقال: هذا أصح.
— وأضاف المناوي: ومع ذلك إسناد الرفع جيد، لكن الموقوف أجود والله أعلم (راجع فيض القدير ٢٨٦/١ - ٢٨٧، رقم الحديث ٤٥٤).
ولفظ الحديث في الإحياء: (إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا).

(٢) حسان بن سنان البصري، صدوق، عابد، من أتباع التابعين وأحد العباد الورعين. قال الإمام البخاري: كان من عباد أهل البصرة وكان يعمل في التجارة، ويتصدق بربحه بعد أن يأخذ قوته منه. انظر ترجمته وأخباره في: صفة الصفوة ٣/٣٣٦ - ٣٤١، حلية الأولياء ٣/١١٤ - ١٢٠.

مُنْذُ كَمْ بُنِيَتْ هَذِهِ؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَالَ يَا نَفْسِي الْغُرُورَةَ،
تَسْأَلِينَ عَمَّا لَا يَعْنِيكَ، وَعَاقِبَهَا بِصَوْمِ سَنَةٍ.

قُلْتُ: فَيَا طُوبَى لِلْمُهْتَمِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَيَا وَيْحَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ
خَلَعُوا الْعِذَارَ وَأَزْخَوْا الْعِنَانَ؛ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَأَحْسَنَ بِقَوْلِهِ: [الخفيف]:

إِغْتَنِمِ رَكَعَتَيْنِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لَ إِذَا كُنْتَ خَالِيًا مُسْتَرِيحًا
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِاللَّغْوِ فِي الْبَا طَلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحًا
فَلزُومِ الشُّكُوتِ خَيْرٌ مِنَ التُّط قِ وَإِنْ كُنْتَ فِي الْكَلَامِ فَصِيحًا

وَالْأَصْلُ الثَّلَاثُ: حِفْظُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَصُنْ
لِسَانَهُ، وَأَكْثَرَ الْكَلَامَ، يَقَعُ لَا مَحَالَةَ فِي غِيْبَةِ النَّاسِ، كَمَا قِيلَ: «مَنْ
كَثَرَ لَغَطُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ»^(١). وَالغِيْبَةُ هِيَ الصَّاعِقَةُ الْمُهْلِكَةُ لِلطَّاعَاتِ عَلَى

(١) أورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: (من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به) عن رواية الطبراني في المعجم الأوسط عن ابن عمر. ولم يذكر صفته (الحديث رقم ٨٩٩٠، ج ٢ ص ٥٥٢) وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٤٢٦) إن هذا الحديث رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والعسكري وغيرهم من حديث ابن عجلان وبعضهم من حديث يحيى بن أبي كثير كلاهما عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً. وقال العسكري: حسبه وهماً، وإن الصواب أنه عن عمر من قوله وساقه من جهة مالك بن دينار عن الأحنف قال: قال لي عمر: (يا أحنف: من كثر ضحكك قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه). وكذا أورده من جهة معاوية بن أبي سفيان، ويضيف المناوي (٢١٣/٦ - ٢١٤) في شرح هذا الحديث والتعليق عليه: قال الهيثمي: وفيه من =

مَا قِيلَ: إِنْ مَثَلَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ، مَثَلُ مَنْ نَصَبَ مَنْجِنِقًا، فَهُوَ
يَرْمِي بِهِ حَسَنَاتِهِ شَرْقًا وَعَرَبًا، يَمِينًا وَشِمَالًا.

وَبَلَّغْنَا عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنْ فَلَانًا أَغْتَابَكَ،
فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطَبَقٍ/ فِيهِ رُطْبٌ؛ وَقَالَ بَلَّغْنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِكَ،
فَأَخْبَيْتَ أَنْ أَكْفَيْتَكَ. [ب/٣٢]

وَذَكَرَتِ الْغَيْبَةُ عِنْدَ ابْنِ الْمُبَارِكِ^(١) فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ مُغْتَابًا
لَاغْتَبْتُ أُمَّي فَإِنَّهَا أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي. وَذَكَرَ أَنَّهُ فَاتَ حَاتِمًا الْأَصَمَّ لَيْلَةَ
الْقِيَامِ، فَعَيَّرَتْهُ زَوْجَتُهُ، فَقَالَ: إِنْ أَقْوَامًا صَلَّوْا بِاللَّيْلِ الْبَارِحَةَ، فَلَمَّا
أَصْبَحُوا نَالُوا مِنِّي، فَتَكُونُ صَلَاتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِيزَانِي.

وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ: السَّلَامَةُ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا، عَلَى مَا قَالَ سُفْيَانُ:
«لَا تَتَكَلَّمْ بِلِسَانِكَ مَا تَكْسِرُ بِهِ أَسْنَانَكَ. وَقَالَ آخَرُ: لَا تَبْسُطَنَّ لِسَانَكَ
فَيَفْسِدُ عَلَيْكَ شَأْنُكَ». وَأَنْشَدُوا: [الكامل]:

= لا أعرفهم، وأعادته في موضع آخر وقال: فيه جماعة ضعفاء وقد وثقوا، وفي
الميزان أنه خير ساقط.

— قال العراقي (الإحياء ٣: ١١١): أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن
عمر بسند ضعيف، وقد روه أبو حاتم بن حبان في روضة العقلاء والبيهقي في
الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب.

وقال أبو نعيم في الحلية عندما ذكر هذا الحديث ضمن ترجمة يحيى بن أبي كثير
(٣/٧٤): هذا حديث غريب من حديث يحيى ونافع مرفوعاً ومتصلاً.

(١) أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن الواضح الحنظلي، الإمام المجمع على
إمامته وجلالته في كل شيء. وهو من تابعي التابعين. كان ثقة، مأموناً، حجة،
كثير الحديث. توفي عام ١٨١ هـ وهو عائد من الغزو وهو ابن ثلاث وستين
سنة. وصنف التصانيف المدفعة الكثيرة. سير أعلام النبلاء ٨/٣٣٦.

إِنْ الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمُنْطِقِ إِحْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَقُولُ فُتِبْتَلَى

ولابن المبارك [المتقارب]:

سَرِيعٌ إِلَى الْمَرءِ فِي قَتْلِهِ أَلَّا أَحْفَظَ لِسَانَكَ إِنَّ اللِّسَانَ
يَدُلُّ الرَّجَالَ عَلَى عَقْلِهِ وَإِنَّ اللِّسَانَ دَلِيلُ الْفُؤَادِ

ولابن مطيع^(١) [الوافر]:

إِذَا حَلَّى عَلَيْهِ، لَهُ إِغَارَةٌ لِسَانَ الْمَرءِ لَيْسَتْ فِي كَمِينِ
يَكُنْ لَكَ مِنْ بَلِيَّاتِ سِتَارَةٍ فَضْنُهُ عَنِ الْخَنَا بِلِجَامِ صَمْتِ

وَفِي الْمَثَلِ السَّيْرِ: رَبُّ كَلِمَةٍ تَقُولُ لِصَاحِبِهَا: دَعْنِي.

الأصلُ الخَامِسُ: ذِكْرُ آفَاتِ الْآخِرَةِ وَعَاقِبَتِهَا، وَأَذْكَرُ فِيهِ نُكْتَةٌ
وَاحِدَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَحْلُو إِمَّا أَنْ تَقُولَ قَوْلًا مَحْظُورًا حَرَامًا، أَوْ قَوْلًا
مُبَاحًا مِنْ فُضُولٍ لَا يَغْنِيكَ، فَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا فَفِيهِ عَذَابُ اللَّهِ تَعَالَى
الَّذِي لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ، فَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْلَةٌ
أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ نَظَرْتُ فِي النَّارِ قَوْمًا يَأْكُلُونَ الْجِيفَ، قُلْتُ: يَا
جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ»^(٢).

(١) هو عبد الله بن مطيع بن الأسود بن حرثة، القرشي العدوي. نمدني. ولد في حياة النبي محمد ﷺ، ولأبيه صُحبه. كان من رجال قريش. وقد قتل مع ابن الزبير بمكة عام ٧٣ هـ وكان قد استعمله على الكوفة. فل تزبير عنه: كان عبد الله بن مطيع من جلة قريش شجعة وجلداً. انظر ترجمته وأخباره في:

الوافي بالوفيات ١٧/٦٢٠ (ت ٥٢٣)، تاريخ الإسلام ٣/١٨٥ - ١٨٦، أسد الغابة ٣/٢٦٢.

(٢) هناك اختلافات في رواية هذا الحديث وهو من المشاهد التي شاهده =

وَلَقَدْ قَالَ ﷺ لِمُعَاذٍ^(١): «إِقْطَعْ لِسَانَكَ عَنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ، وَلَا تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتَمَزَّقَكَ كِلَابُ النَّارِ»^(٢).
وَعَنْ أَبِي قَلَابَةَ^(٣) قَالَ: «إِنَّ فِي الْغَيْبَةِ خَرَابَ الْقَلْبِ مِنَ الْهُدَى». فَسَأَلَ اللَّهَ الْعِصْمَةَ مِنْ ذَلِكَ بِفَضْلِهِ.

موجبات
حفظ اللسان

هَذَا فِي الْكَلَامِ الْمَحْظُورِ، وَأَمَّا الْمُبَاحُ فَفِيهِ أَرْبَعَةٌ أُمُورٌ:

أَحَدُهَا: شَغْلُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، بِمَا لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا فَائِدَةَ، عَنِ الْكَلَامِ
وَحَقِّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْهُمَا فَلَا يُؤْذِيهِمَا؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا
يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

المباح
[أ/٣٣]

رسول الله ﷺ عندما عُرج به إلى السماء ورأى النار ومن فيها، وهذه الرواية في حديث ابن عباس رواها الإمام أحمد في مسنده ٢٥٧/١، وفي رواية أبي سعيد الخدري في كتاب دلائل النبوة للبيهقي: «... فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه فيقال له: كُلْ كما كنت تأكل من لحم أخيك! قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون». راجع تفسير ابن كثير (سورة الإسراء: آية ١).

(١) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي المدني، الفقيه الفاضل الصالح، أسلم وهو ابن ثماني عشرة وشهد بدرًا وأحدًا والخندق مع رسول الله ﷺ وأخى الرسول ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود. ومعاذ من الصحابة المشهورين وقد توفي بالطاعون عام ١٨ هـ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. سير أعلام النبلاء ٤٤٣/١.

(٢) - لم أجد له أصلاً.

- وقال الكديري في سراج الطالبين (٣٨٨/١): هذا الحديث رواه ابن المبارك عن خالد بن معدان.

(٣) عبد الله بن زيد البصري الجرّمي، كان رأساً في العلم والعمل، طُلب للقضاء فهرب إلى الشام وتوفي بها سنة ١٠٦ هـ. سير أعلام النبلاء ٤٦٨/٤.

وَالثَّانِي: إِزْسَالُ كِتَابِ إِلَهِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ اللَّغْوِ وَالْهَدْرِ، فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ وَلْيَخْشَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَذَكَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ يَتَكَلَّمُ بِالْخَنَا، فَقَالَ: يَا هَذَا، إِنَّمَا تُمْلِي كِتَابًا إِلَى رَبِّكَ فَانظُرْ مَا تُمْلِي؟

وَالثَّلَاثُ: قِرَاءَتُهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ^(١)، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، بَيْنَ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ وَأَنْتَ جَيْعَانَ عَطْشَانَ عُرْيَانَ، مُنْقَطِعًا عَنِ الْجَنَّةِ مَحْبُوسًا عَنِ النَّعْمَةِ.

وَالرَّابِعُ: اللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ بِمَاذَا قُلْتَ، وَأَنْقِطَاعُ الْحُجَّةِ، وَالْحَيَاءُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ، وَقَدْ قِيلَ: إِيَّاكَ وَالْفُضُولَ، فَإِنَّ حِسَابَهُ يَطُولُ.

وَكَفَى بِهَذِهِ الْأُصُولِ وَاِعْظَاءَ لِمَنْ اتَّعَظَ، وَقَدْ بَسَطْنَا فِي كِتَابِ «أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ» مَا فِيهِ مَقْنَعٌ، فَانظُرْ فِيهِ تَجِدِ الشِّفَاءَ.

(١) أي قراءة الإنسان كتابه الذي سجل فيه الملكان أعماله وأقوانه، وهذا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

الفصل الرابع : القلب

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ الْقَلْبِ وَإِصْلَاحِهِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ وَبَدَلِ
الْمَجْهُودِ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ خَطَرًا، وَأَكْثَرُهَا أَثَرًا، وَأَدْقُهَا أَمْرًا
وَأَشَقَّهَا إِصْلَاحًا، وَأَذْكَرُ فِيهِ خَمْسَةَ أَصُولٍ مُفْنِعَةٍ:

الأصل الأول^(١): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الْصُّدُورَ﴾ [غافر: ١٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾
[الأحزاب: ٥١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٧]
[المائدة: ٧]. كَمْ ذَكَرَهُ وَكَرَّرَ ذِكْرَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَكَفَى بِاطِّلَاعِ الْعَلِيمِ
الْخَبِيرِ تَحْذِيرًا وَتَهْدِيدًا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْعِبَادِ، لَأَنَّ الْمُعَامَلَةَ مَعَ عَلَامِ
الْغُيُوبِ خَطِيرَةٌ، فَانظُرْ مَاذَا يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِكَ.

الأصل الثاني: قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى
صُورِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢) فَالْقَلْبُ إِذَنْ

(١) في الأصل: أحدها، وبتصويب من (د) و (هـ) وهو ما يتفرع مع ما سيأتي.

(٢) — رواه مسلم عن أبي هريرة (١٩٨٧/٤) بروايتين الأولى: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم). والثانية: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (الحديث رقم

مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَا عَجَبًا مِمَّنْ يَهْتَمُّ بِوَجْهِهِ الَّذِي هُوَ
 مَوْضِعُ نَظَرِ الْخَلْقِ، فَيَغْسِلُهُ وَيُنَظِّفُهُ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَذْنَانِ، وَيَزِينُهُ بِمَا
 أَمَكَّنَهُ، لَيْلًا يَطَّلِعُ مَخْلُوقٌ فِيهِ عَلَى عَيْبٍ، وَلَا يَهْتَمُّ بِقَلْبِهِ الَّذِي هُوَ
 مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيُطَهِّرُهُ وَيَزِينُهُ وَيُطَيِّبُهُ، كَيْ لَا يَطَّلِعَ الرَّبُّ
 جَلًّا وَعَلَا عَلَى دَنَسٍ فِيهِ وَشَيْنٍ وَآفَةٍ وَعَيْبٍ، بَلْ يُهْمَلُهُ بِفَضَائِحِ
 وَأَقْدَارِ وَقَبَائِحِ، لَوْ أُطَّلِعَ الْخَلْقُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا، لَهَجَرُوهُ وَتَبَرَّؤُوا
 مِنْهُ وَطَرَدُوهُ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الأصل الثالث: أَنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ مَطَاعٌ وَرَبِّيسٌ مُتَّبِعٌ، فَالْأَعْضَاءُ
 [ب/٣٣] كُلُّهَا تَبِعَ لَهُ، فَإِذَا صَحَّ الْمَتَّبِعُ صَلَحَ التَّبِعُ/، وَإِذَا اسْتَقَامَ الْمَلِكُ
 اسْتَقَامَتِ الرَّعِيَّةُ. يَبِينُ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي
 الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ
 الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١) وَإِذَا كَانَ صَلَاحُ الْكُلِّ فِي ذَلِكَ،
 وَجَبَ صَرْفُ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ.

= — كذلك رواه ابن ماجه (١٣٨٨/٢) عن أبي هريرة أيضاً. والملاحظ أن لفظة
 أباشاركم غير موجودة فيما ذكرنا.

— وقال العراقي (إحياء ٤/٣٦٢): أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(١) — هذا هو الجزء الأخير من حديث مشهور رواه النعمان بن بشير عن
 رسول الله ﷺ وبدايته: (الحلال بين والحرام بين...).

— وقد رواه البخاري (٢٠/١) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.

— ورواه أيضاً مسلم في صحيحه (٣/١٢٢٠) كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال
 وترك الشبهات الحديث رقم ١٥٩٩.

— ورواه ابن حنبل في مسنده (٤/٢٧٠) بلفظ: (ألا وإن في الإنسان
 مضغة...).

=

الأصل الرابع: أَنَّ الْقَلْبَ خِزَانَةٌ كُلُّ جَوْهَرٍ لِلْعَبْدِ نَفِيسٌ، وَكُلٌّ مَعْنَى خَطِيرٌ^(١)، أَوْلَاهَا الْعَقْلُ، وَأَجَلُّهَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ سَبَبُ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، ثُمَّ الْبَصَائِرُ الَّتِي بِهَا التَّقَدُّمُ وَالْوَجَاهَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ النِّيَّةُ الْخَالِصَةُ فِي الطَّاعَاتِ، الَّتِي بِهَا يَتَعَلَّقُ ثَوَابُ الْأَبَدِ، ثُمَّ أَنْوَاعُ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ، الَّتِي هِيَ شَرَفُ الْعَبْدِ، وَسَائِرُ الْأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ وَالْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي بِهَا (يَحْصُلُ)^(٢) تَفَاضُلُ الرَّجَالِ، عَلَى مَا فَصَّلْنَا وَشَرَحْنَا فِي كِتَابِ «أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ». وَحَقٌّ لِمِثْلِ هَذِهِ الْخِزَانَةِ أَنْ تُحْفَظَ وَتُصَانَ عَنِ الْأَذْنَانِ وَالْآفَاتِ، وَتُحْرَسَ وَتُحْرَزَ مِنَ الشُّرَاقِ وَالتَّقْطَعِ. وَتُكْرَمَ وَتُجَلَّ بِضُرُوبِ الْكِرَامَاتِ، لِئَلَّا يَلْحَقَ تِلْكَ الْجَوَاهِرَ الْعَزِيزَةَ دَنَسٌ، وَلَا يَظْفَرَ بِهَا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ عَدُوٌّ.

الأصل الخامس: أَتَى تَأَمَّلْتُ حَالَهُ، فَوَجَدْتُ لَهُ خَمْسَةَ أَحْوَالٍ
لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَعْضَاءِ ابْنِ آدَمَ.

أحوال
القلب

أَحَدُهَا: أَنَّ الْعَدُوَّ قَصِدٌ إِلَيْهِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِغَوَائِثِهِ مُلَازِمٌ لَهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَهُوَ مَنزِلُ الْإِلَهَامِ وَالْوَسْوَسَةِ، يَفْرَعَانِهِ أَبَدًا بِالدَّعْوَتَيْنِ كِلَاهِمَا، الْمَلَكُ وَالشَّيْطَانُ.

= - ورواه ابن ماجه في سنه (١٣١٨/٢ - ١٣١٩) باب الوقوف عند الشبهات، في كتاب الفتن، رقم الحديث ٣٩٨٤.

- كذلك رواه الدارمي في سنه (٢٤٥/٢) من كتاب البيوع، باب في الحلال بين والحرام بين).

وكنهه روه عن النعمان بن بشير مع توافق في معظم ألفاظه.

(١) في الأصل: كل جوهر نعبد خطير، وكل معنى نفيس. والتصحيح من باقي النسخ.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الشَّغْلَ لَهُ أَكْثَرُ، فَإِنَّ الْهَوَى وَالْعَقْلَ كِلَاهُمَا فِيهِ، فَهُوَ مُعْتَرِكُ الْعَسْكَرَيْنِ: الْهَوَى وَجُنُودِهِ، وَالْعَقْلَ وَجُنُودِهِ، فَهُوَ أَبَدًا بَيْنَ مُحَارَبَتَيْهِمَا وَتَقَاتُلَيْهِمَا وَتَنَاقُضِهِمَا، وَحَقٌّ لِلشَّغْرِ أَنْ يُحْرَسَ وَيُحْصَنَ وَلَا يُعْفَلَ عَنْهُ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّ الْعَوَارِضَ لَهُ أَكْثَرُ، فَإِنَّ الْخَوَاطِرَ لَهُ كَالسَّهَامِ، لَا تَزَالُ تَقَعُ فِيهِ، وَكَالْمَطَرِ، لَا تَزَالُ تَمَطِّرُ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَا تَنْقَطِعُ وَلَا أَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى مَنَعِهَا فْتَمْتَنِعْ، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنِ الَّتِي بَيْنَ جَفْنَيْنِ، تُعْمَضُ وَتَسْتَرِيحُ، أَوْ تَكُونُ فِي مَوْضِعِ خَالٍ، أَوْ لَيْلٍ مُظْلِمٍ فَتُكْفَى رُؤْيُتُهَا، أَوْ اللِّسَانَ الَّذِي هُوَ وَرَاءَ الْحَجَابَيْنِ: الْأَسْنَانَ وَالشَّفَتَيْنِ، وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَنَعِهِ وَتَسْكِينِهِ، بَلِ الْقَلْبُ غَرَضٌ لِلْخَوَاطِرِ، لَا تَقْدِرُ عَلَى مَنَعِهَا وَالتَّحْفُظِ عَنْهَا بِحَالٍ، وَلَا هِيَ تَنْقَطِعُ عَنْكَ / بَوَقْتٍ؛ ثُمَّ النَّفْسُ مُسَارِعَةٌ إِلَى اتِّبَاعِهَا، وَالِامْتِنَاعُ عَنْ ذَلِكَ فِي مَجْهُودِ الطَّاقَةِ أَمْرٌ شَدِيدٌ وَمِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ.

وَالرَّابِعُ: أَنَّ عِلَاجَهُ عَلَيْكَ عَسِيرٌ، إِذْ هُوَ غَيْبٌ عَنْكَ، فَلَا تَكَادُ تَشْعُرُ حَتَّى تَدَبُّ فِيهِ آفَةٌ، وَتَحْدُثُ لَهُ حَالَةٌ، فَتَحْتَاجُ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَلِكَ أَتَمَّ الْبَحْثِ بِصُورِ الْجَهْدِ وَدَقِيقِ النَّظْرِ وَكَثْرَةِ الرِّيَاضَةِ.

وَالْخَامِسُ: أَنَّ الْآفَاتِ إِلَيْهِ أَسْرَعُ، فَهُوَ إِلَى الْإِنْقِلَابِ أَقْرَبُ؛ فَلَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْقَلْبَ أَسْرَعُ أَنْقِلَابًا مِنَ الْقَدْرِ فِي غَلَبَتَيْهَا؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ:
[البسيط]:

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ وَالرَّأْيُ يَضْرِبُ بِالْإِنْسَانِ أَطْوَارًا
ثُمَّ إِنْ زَلَّ الْقَلْبُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَزَلَّهُ عَظِيمٌ. وَوُقُوعُهُ أَصْعَبُ

وَأَفْطَحْ؛ أَذْنَاهُ قَسْوَةٌ وَمَيْلٌ إِلَىٰ غَيْرِ اللَّهِ، وَمُنْتَهَاهُ خْتَمٌ بِكُفْرِ بِاللَّهِ
تَعَالَىٰ.

أَمَّا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾
[البقرة: ٣٤]. فَكَانَ الْكِبْرُ بِقَلْبِهِ فَحَمَلَهُ عَلَىٰ الْإِبَاءِ، وَالْكَفْرُ بِظَاهِرِهِ،
أَمَّا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾
[الأعراف: ١٧٦] فَكَانَ الْمَيْلُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَىٰ بِقَلْبِهِ، فَحَمَلَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ
الدَّنْبِ الْمَشْتُومِ بِنَفْسِهِ. أَمَّا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ
وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰىٰ مَرَّةً وَنَدَّرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾
[الأنعام: ١١٠]. وَلِهَذَا الْمَعْنَى، أَيُّهَا الرَّجُلُ، خَافُ عِبَادُ اللَّهِ تَعَالَىٰ
الْحَوَاصُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَبَكَوْا عَلَيْهَا وَصَرَفُوا عِنَايَتَهُمْ إِلَيْهَا، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِمْ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَٰبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾
[النور: ٣٧].

جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُعْتَبَرِينَ بِالْعِبَرِ، الْمُهْتَمِّينَ بِمَوَاضِعِ
الْخَطْرِ، الْمَوْفِقِينَ لِإِصْلَاحِهَا بِحُسْنِ النَّظْرِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.
فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ أَمْرَ هَذَا الْقَلْبِ لَمُهُمْ جَدًّا، فَأَخْبِرْنَا عَنِ الْمَعَانِي
الَّتِي تُصْلِحُهَا، وَعَنِ الْآفَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُهَا فَتُفْسِدُهَا، عَسَىٰ أَنْ نُوفِّقَ
لِلْإِجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ بِذَلِكَ.

فَيُقَالُ لَهُ: أَعْلَمُ أَنَّ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْمَعَانِي طَوِيلٌ لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا
الْكِتَابُ، وَإِنَّمَا عُلَمَاءُ الْآخِرَةِ عُنُوا بِاسْتِخْرَاجِ ذَلِكَ وَتَصْنِيفِهِ فِي هَذِهِ
النُّكْتَةِ لَا غَيْرُ، وَقَدْ ذَكَرُوا فِيهَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ نَحْوُ تِسْعِينَ
خَصْلَةً مَحْمُودَةً، وَفِي أَضْدَادِهَا الْمَذْمُومَةُ، ثُمَّ مِنَ الْمَسَاعِي الْأَفْعَالِ
الْوَاجِبَةِ وَالْمَحْظُورَةِ نَحْوَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ تَفَاصِيلِهَا؛ وَلَعَمْرِي إِنَّ مَنْ

أَهَمُّ أَمْرٍ دِينِهِ، وَأَتْبَعَهُ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ وَنَظَرَ لِنَفْسِهِ، فَلَا يَكُونُ تَحْصِيلُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَالْعَمَلُ بِهِ عَلَيْهِ كَثِيراً إِذَا وَقَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ [ب/٣٤] ذَكَرْنَا/ نُبْدَةَ مِنْهَا فِي شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ مِنْ كِتَابِ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» وَأَتَيْنَا عَلَى شَرْحِ جَمِيعِهَا بِتَفَاصِيلِهَا وَكَيْفِيَةِ عِلَاجِهَا فِي كِتَابِ «أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ». وَهُوَ كِتَابٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ، عَظِيمُ الْفَائِدَةِ وَلَا يَنْتَفَعُ بِهِ إِلَّا فُحُولُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَمَوْضُوعُ هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفَعَ بِهِ الْمُبْتَدِي (وَالْمُنْتَهِي) ^(١) وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ.

آفات القلوب
وعلاجها

فَنَظَرْنَا فِي الْأُصُولِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا فِي عِلَاجِ الْقَلْبِ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهَا مَاسَّةٌ، وَلَا غُنْيَةَ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ فِي شَأْنِ الْعِبَادَةِ، فَوَجَدْنَاهَا أَرْبَعَةَ أُمُورٍ هِيَ مَدَاحِضُ الْعَابِدِينَ وَأَفَاتُ الْمُجْتَهِدِينَ، وَهِيَ فَتْنُ الْقُلُوبِ وَبَلِيَّاتُ النَّفْسِ، تَعَوُّقٌ وَتَشِينٌ، وَتَنْسِدٌ وَتَتْلُفٌ، وَأَرْبَعَةٌ فِي مُقَابَلَتِهَا فِيهَا قِيَامُ الْعِبَادِ، وَأَنْتِظَامُ الْعِبَادَةِ، وَإِصْلَاحُ الْقُلُوبِ.

فَالْآفَاتُ الْأَرْبَعُ: الْأَمَلُ وَالِاسْتِعْجَالُ وَالْحَسَدُ وَالْكَبْرُ. وَالْمَنَاقِبُ الْأَرْبَعُ: قِصْرُ الْأَمَلِ وَالتَّائِي فِي الْأُمُورِ وَالتَّصِيحَةُ لِلخَلْقِ وَالتَّوَاضُعُ وَالتَّخْشُوعُ. فَهَذِهِ هِيَ الْأُصُولُ فِي صِلَاحِ الْقُلُوبِ وَفَسَادِهَا، وَالتَّكْتَةُ الَّتِي عَلَيْهَا الْمَدَارُ، فَلْتَبَدَّلِ الْمَجْهُودَ فِي التَّحَرُّزِ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ وَالتَّحْصِيلِ لِهَذِهِ الْمَنَاقِبِ، تُكْفِ الْمُؤَنَ، وَتَنْظَرُ بِالْمَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَسَاخِرُكَ عَنْ هَذِهِ الْآفَاتِ بِكَلِمَاتٍ وَجِيزَةٍ مَقْنَعَةٍ.

١ - أَمَّا طُورُ الْأَمَلِ، فَإِنَّهُ الْعَاقِقُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَضَاعَةٌ، الْجَالِبُ لِكُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ، وَإِنَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي يُوقِعُ الخَلْقَ فِي أَنْوَاعِ الْبَلِيَّاتِ.

الآفة
الأولى:
طول
الأمل

(١) زيادة من (د) و (هـ).

عواقب
طول
الأمل

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا طَالَ أَمْلُكَ هَاجَ لَكَ مِنْهُ أَرْبَعَةٌ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: تَرْكُ الطَّاعَةِ وَالْكَسَلُ فِيهَا، تَقُولُ: سَوْفَ أَفْعَلُ وَالْأَيَّامُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَلَا يَقْوَتُنِي ذَلِكَ، وَلَقَدْ صَدَقَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: «مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ قَرُبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ، وَمَنْ طَالَ أَمْلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ»^(١). وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْأَمَلُ قَاطِعٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَالطَّمَعُ مَانِعٌ مِنْ كُلِّ حَقٍّ، وَالصَّبْرُ صَابِرٌ إِلَى كُلِّ ظَفِيرٍ، وَالتَّقْسُّ دَاعِيَةٌ إِلَى كُلِّ شَرٍّ».

وَالثَّانِي: تَرْكُ التَّوْبَةِ وَتَسْوِيفُهَا، تَقُولُ: سَوْفَ أَتُوبُ، وَفِي الْأَيَّامِ السَّعَةِ وَأَنَا شَابٌّ، وَسِنِّي قَلِيلٌ، وَالتَّوْبَةُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَأَنَا قَادِرٌ عَلَيْهَا مَتَى رُمْتُهَا، وَرُبَّمَا اغْتَالَهُ الْحِمَامُ عَلَى الْإِضْرَارِ، وَاخْتَطَفَهُ / الْأَجَلَ قَبْلَ إِصْلَاحِ الْعَمَلِ.

وَالثَّلَاثُ: الْحِرْصُ عَلَى الْجَمْعِ وَالِاسْتِغَالِ بِالدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ، وَيَقُولُ: أَحَافُ الْفَقْرِ فِي الْكِبَرِ، وَرُبَّمَا أضعُفُ عَنِ الْاِكْتِسَابِ، وَلَا بُدَّ لِي مِنْ شَيْءٍ فَاضِلٍ أَدْخِرُهُ لِمَرَضٍ أَوْ هَرَمٍ أَوْ فَقْرٍ، فَهَذَا أَوْ نَحْوُهُ يُحَرِّكُ إِلَى الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا وَالِاهْتِمَامِ بِالرِّزْقِ، تَقُولُ: أَيْشُ آكُلُ وَأَيْشُ أَشْرَبُ وَأَيْشُ أَلْبَسُ، وَهَذَا الشِّتَاءُ وَهَذَا الصَّيْفُ وَمَا لِي شَيْءٌ، وَلَعَلَّ الْعُمْرَ يَطُولُ فَأَحْتِاجُ، وَالْحَاجَةَ مَعَ الشَّيْبِ شَدِيدَةً، وَلَا بُدَّ مِنْ قُوَّةٍ وَغُنْيَةٍ عَنِ النَّاسِ. فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا تُحَرِّكُ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِيهَا، وَالْجَمْعِ لَهَا وَالْمَنَعِ لِمَا عِنْدَكَ مِنْهَا. وَأَقْلُ مَا فِي

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٥٧/٧) بلفظ: «من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال أمله ضعُف عمله».

البَابُ تُشْغِلُ قَلْبَكَ وَتُضِيعُ عَلَيْكَ وَقْتَكَ وَتُكْثِرُ هَمَّكَ وَغَمَّكَ بِلَا فَايِدَةٍ
وَلَا طَائِلٍ، عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «قَتَلَنِي
هَمُّ يَوْمٍ لَمْ أُدْرِكْهُ، قِيلَ وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبَا ذَرٍّ؟ قَالَ: إِنْ أَمَلِي جَاوَزَ
أَجَلِي».

وَالرَّابِعُ: الْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ وَالنَّسْيَانُ لِلْآخِرَةِ، لِأَنَّكَ إِذَا أَمَلْتَ
الْعَيْشَ الطَّوِيلَ، لَا تَذُكُرُ الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَثْنَانِ: طُولُ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعُ
الْهَوَى الْأَوَّلِ وَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ
الْحَقِّ»^(٢) فَإِذَا نَظَرَ بِفِكْرِكَ وَمُعْظَمُ قَلْبِكَ فِي حَدِيثِ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِ
الْعَيْشِ فِي صُحْبَةِ الْخَلْقِ وَنَحْوِهَا، فَيَقْسُو الْقَلْبُ مِنْ ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا رِقَّةُ
الْقَلْبِ وَصَفْوَتُهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَالْقَبْرِ، وَالشَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَحْوَالِ

(١) اسمه جُنْدُبُ (بضم الجيم وضم الدال وفتحها) بن جنادة، وكان أبو ذر رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، ومن الصحابة المشهورين. كان زاهداً متقللاً من الدنيا، وقد وصفه رسول الله ﷺ بأنه أصدق الناس لهجة أي كلاماً وهو أول من حيّا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام. وهي قوله: السلام عليكم. وقد توفي بالرَّبَذَةِ (موضع قرب المدينة) سنة ٣٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٤٦/٢.

(٢) - ذكر البخاري بعضاً من هذا الحديث لعلي بن أبي طالب في باب الرقاق (١١٠/٨).

- وقال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل. ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه، وكلاهما ضعيف (إحياء ٤/٤٥٣).

- وقال الكديري في سراج الطالبين (١/٤٢٧): هكذا بطوله ذكره الشريف الموسوي في نهج البلاغة (راجع نهج البلاغة ١/٧٢) شرح محمد عبده.

- ورواه الحاكم النيسابوري في التاريخ، والديلمي من حديث جابر. ورواه ابن النجار، وقال العقيلي فيه يحيى بن مسلمة بن قعنب، حدّث بالمشايخ، وقد رواه ابن عساکر في التاريخ من حديث عليّ موقوفاً.

الْآخِرَةِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِقَابِكَ رِقَّةٌ
وَصَفْوَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:
١٦]. فَإِذَنْ أَنْتَ إِذَا طَوَّلْتَ أَمَلَكَ، قَلَّتْ طَاعَتُكَ، وَتَأَخَّرَتْ تَوْبَتُكَ،
وَكَثُرَتْ مَعْصِيَتُكَ، وَأَشْتَدَّ حِرْصُكَ، وَقَسَا قَلْبُكَ، وَعَظُمَتْ عَفْلَتُكَ
عَنِ الْعَاقِبَةِ، فَذَهَبَتْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ إِنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهُ - آخِرَتُكَ، فَأَيُّ
حَالٍ أَسْوَأَ مِنْ هَذِهِ؟ وَأَيُّ آفَةٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ؟ وَكُلُّ هَذَا بِسَبَبِ طُولِ
الْأَمَلِ.

وَأَمَّا إِنْ قَصَّرْتَ مِنْ أَمَلِكَ وَقَرَّبْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَوْتَكَ، وَتَذَكَّرْتَ
حَالَ أَقْرَانِكَ وَإِخْوَانِكَ، الَّذِينَ غَافَصَهُمْ^(١) الْمَوْتُ فِي وَقْتٍ لَمْ
يَحْتَسِبُوهُ وَلَعَلَّ حَالَكَ مِثْلَ حَالِهِمْ، فَاحْذَرِي يَا نَفْسِي الْغُرُورَ،
وَأَذْكَرِي مَا قَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ^(٢): «كَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لَمْ
يَسْتَكْمِلْهُ، وَمُنْتَظِرٍ غَدًا لَمْ يُدْرِكْهُ، لَوْ رَأَيْتُمْ الْأَجَلَ وَمَسِيرَهُ لَأَبْغَضْتُمْ
الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ» أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ
أَيَّامٍ: أَمْسٍ قَدْ مَضَى مَا بِيَدِكَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَعَدَا لَا تَدْرِي أَتُدْرِكُهُ أَمْ
لَا، وَيَوْمٍ أَنْتَ فِيهِ فَاعْتَنِمَهُ».

ثُمَّ قَوْلَ أَبِي ذَرٍّ: الدُّنْيَا ثَلَاثُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ مَضَتْ، وَسَاعَةٌ

(١) غافصهم: أي فاجأهم.

(٢) ابن عتبة بن مسعود، الإمام نقذوة العابد أبو عبد الله الهذلي الكوفي أخو فقيه
المدينة عبيد الله.

حدَّثَ عَنْ أَبِيهِ وَأَخِيهِ وَبْنِ نَمِيبٍ وَابْنِ عَبَسٍ وَغَيْرِهِمْ. وَنَفَقَهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ، قَالَ
الْأَصْمَعِيُّ: كَانَ مِنْ أَدَبِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَفْقِهِمْ، كَانَ مَرَجًا ثُمَّ تَرَكَهُ تَوَفَى سَنَةَ
بِضْعِ عَشْرَةَ وَمِئَةً. سِيرَ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ١٠٣/٥.

أَنْتَ فِيهَا، وَسَاعَةٌ لَا تَذَرِي أَتَذْرِكُهَا أَمْ لَا؟؛ فَلَسْتَ تَمْلِكُ بِالْحَقِيقَةِ
إِلَّا سَاعَةً وَاحِدَةً، إِذِ الْمَوْتُ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ مُمْكِنٌ. ثُمَّ قَوْلُ
شَيْخِنَا^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَنْفَاسٍ: نَفْسٌ مَضَى عَمِلَتْ فِيهِ مَا
عَمِلَتْ، وَنَفْسٌ أَنْتَ فِيهِ، وَنَفْسٌ لَا تَذَرِي أَتَذْرِكُهَا أَمْ لَا؟؛ إِذْ كَمْ مِنْ
مُتَنَفِّسٍ نَفْسًا فَفَاجَأَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ النَّفْسِ الْآخِرِ؟ فَلَسْتَ تَمْلِكُ إِلَّا نَفْسًا
وَاحِدًا لَا يَوْمًا وَلَا سَاعَةً، فَبَادِرْ فِي هَذَا النَّفْسِ الْوَاحِدِ إِلَى الطَّاعَةِ
قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ، وَإِلَى التَّوْبَةِ فَلَعَلَّكَ فِي النَّفْسِ الثَّانِي تَمُوتُ، وَلَا
تَهْتَمِّي يَا نَفْسُ بِالرِّزْقِ، فَلَعَلَّكَ لَا تَبْقَيْنَ لِتَحْتَاجِي إِلَيْهِ فَيَكُونُ وَقْتُكَ
ضَائِعًا وَاللَّهُمَّ فَضْلًا، وَمَا عَسَى أَنْ يَهْتَمَّ الْإِنْسَانُ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ سَاعَةٍ
وَاحِدَةٍ أَوْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ؟ أَمَا تَذَكِّرِينَ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَمَا
تَعَجَّبُونَ مِنْ أُسَامَةَ^(٢) الْمُشْتَرِي الْوَلِيدَةَ بِصَبْرٍ شَهْرٍ، إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ
الْأَمَلِ، وَاللَّهُ مَا وَضَعْتُ قَدَمًا فَظَنَنْتُ أَنِّي أَرْفَعُهَا، وَلَا لُقْمَةَ فَظَنَنْتُ
أَنِّي أُسَيِّغُهَا حَتَّى يُذْرِكَنِي الْمَوْتُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ مَا تُوعَدُونَ
لَا تِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ»^(٣).

(١) هو أبو بكر الوراق.

(٢) مولى رسول الله ﷺ، ابن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرئ القيس.

حب رسول الله ﷺ وابن مولاه.

استعمله الرسول على جيش لغزو الشام، وفي الجيش عمر والكبار فلم يسر حتى
توفي رسول الله ﷺ.

كان شديد السواد، خفيف الروح، شاطرًا، شجاعًا، ربه النبي ﷺ وأحبه كثيرًا.
سير أعلام النبلاء ٤٩٦/٢.

(٣) - قال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل، والطبراني في مسند
الشافيين، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب، بسند ضعيف. (إحياء
٤٥٣/٤).

فَإِذَا أَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ تَذَكَّرْتَ هَذِهِ الْأَذْكَارَ، وَوَاظَبْتَ عَلَى ذَلِكَ فَضِلْ نَصْرَ
 بِالْإِعَادَةِ وَالتَّكْرَارِ، قَصَرَ أَمْلُكَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَحَيْثُ تَرَى نَفْسَكَ الْأَمَلِ
 تُبَادِرُ إِلَى الطَّاعَاتِ وَتُعَجِّلُ تَوْبَتَكَ، وَتَسْقُطُ عَنْكَ مَعْصِيَتُكَ، وَتَزْهَدُ
 فِي الدُّنْيَا وَطَلَبِهَا، فَيَخْفُ حِسَابُكَ وَتَبِعَتُكَ وَيَقَعُ قَلْبُكَ فِي تَذَكُّرِ
 الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا، وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ نَفْسٍ إِلَى نَفْسٍ تَصِيرُ إِلَيْهَا وَتُعَايِنُهَا
 وَاحِدًا فَوَاحِدًا، فَتَزُولُ عَنْكَ الْقَسْوَةُ وَتَبْدُو لَكَ الصَّفْوَةَ وَالرِّقَّةَ
 وَتَسْتَشْعِرُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْخَشْيَةَ، فَيَسْتَقِيمُ لَكَ أَمْرُ
 عِبَادَتِكَ، وَيَقْوَى الرَّجَاءُ فِي أَنْ تَسْعَدَ فِي عَاقِبَتِكَ، فَتَطْفَرُ بِالْمُرَادِ فِي
 آخِرَتِكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ بَعْدَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ هَذِهِ/ الْخِصْلَةِ الَّتِي [٣٦/أ]
 هِيَ قِصْرُ الْأَمَلِ.

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ زُرَّارَةَ بْنَ أَبِي أَوْفَى^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ، قِيلَ لَهُ فِي
 النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَبْلَغُ فِيمَا عِنْدَكُمْ؟ قَالَ: الرِّضَا وَقِصْرُ
 الْأَمَلِ.

فَانظُرْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا لَأَخُ، وَأَبْذُلِ الْمَجْهُودَ فِي هَذَا الْأَصْلِ الْكَبِيرِ
 فَإِنَّهُ الْأَهَمُّ وَالْأَعْظَمُ فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ
 التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

٢ - وَأَمَّا الْحَسَدُ فَإِنَّهُ الْمُفْسِدُ لِلطَّاعَاتِ الْبَاعِثُ عَلَى الْخَطِيئَاتِ،
 وَالْأَفَّةُ
 الثَّانِيَةُ:
 الْحَسَدُ
 وَإِنَّهُ الدَّاءُ الَّذِي يُبْتَلَى بِهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ، فَضَلًّا عَنِ الْعَامَّةِ

(١) العامري القرشي البصري. من التابعين، يكنى أبا الحاجب. من العباد، وثقه
 النسائي وابن حبان. قال ابن سعد: مات فجأة في الصلاة سنة ثلاث وتسعين
 بعد المائة. سير أعلام النبلاء ٥١٦/٤.

وَالْجُهَّالِ، حَتَّى أَهْلَكَهُمْ وَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ. أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِسِتَّةِ: الْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ، وَالْأَمْرَاءُ بِالْجَوْرِ، وَالْدَّهَاقِينُ^(١) بِالْكِبْرِ، وَالثُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ، وَأَهْلُ الرَّسَاتِيقِ^(٢) بِالْجَهْلِ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ»^(٣). وَإِنَّ بَلِيَّةَ بَلَغَ شُوْمُهَا أَنْ أُوْرِدَتِ الْعُلَمَاءَ النَّارَ لِحَقِيقِ أَنْ يُحْذَرَ مِنْهَا.

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْحَسَدَ يَهَيِّجُ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ:

أَحَدَهَا: إِفْسَادُ الطَّاعَاتِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(٤).

عواقب
الحسد

(١) الدهاقين: جمع دهقان، بكسر الدال، وهو رئيس القرية.

(٢) أهل الرساتيق: أي أصحاب القرى.

(٣) — قال العراقي (إحياء ١٨٨/٣) أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين.

(٤) — رواه أبو داود في سننّه، كتاب الأدب، باب في الحسد (٢٠٨/٥) عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وذكر المعلق على هذا الحديث في الحاشية أن أحد رواه وهو إبراهيم بن أبي أسيد ذكره البخاري في التاريخ الكبير وقال: لا يصح.

— ورواه أيضاً ابن ماجه في سننه (١٤٠٨/٢) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والصيام جنة من النار» وذكر في التعليق على هذا الحديث عن كتاب الزوائد أن إسناده حديث أنس بن مالك فيه عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف.

— وورد هذا الحديث في الجامع الصغير للسيوطي (٥١٨/١) برواية أنس بن =

وَالثَّانِي: فِعْلُ الْمَعَاصِي وَالشُّرُورِ عَلَى مَا قَالَ وَهَبُ بْنُ مَنبَةَ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: لِلْحَاسِدِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يَتَمَلَّقُ إِذَا شَهِدَ، وَيَغْتَابُ إِذَا غَابَ، وَيَشْمَتُ بِالْمُصِيبَةِ. قُلْتُ: وَحَسْبُكَ إِنْ اللَّهُ أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]. كَمَا أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَالسَّاحِرِ، فَانظُرْ كَمْ لَهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ حَتَّى أَنْزَلَهُ مَنزِلَةَ الشَّيْطَانِ وَالسَّاحِرِ، حَتَّى أَنْ لَا مُسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَلَا مُسْتَعَاذَ إِلَّا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَالثَّلَاثُ: التَّعَبُ وَالْهَمُّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، بَلْ مَعَ كُلِّ وَزْرٍ وَمَعْصِيَةٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ السَّمَاكِ^(٤): لَمْ أَرَ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِالْمَظْلُومِ مِنْ

= مالك، وذكر أنه حسن. (نحديث رقم ٣٨١٧) وكذلك ذكره المناوي في فيض القدير (٤١٣/٣).

— وقال الحافظ العراقي في تخريج هذا الحديث: قال البخاري لا يصح، وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن. (إحياء ٤٥/١) وقد ورد هذا الحديث في الإحياء ثلاث مرات (٤٥/١)، (٣٨٩/٣، ١٨٧/٣).

(١) تابعي جليل، من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية، سمع كثيراً من الصحابة، وروى عنه عمرو بن دينار والمغيرة بن حكيم وآخرون. اتفق العلماء على توثيقه. وقد ولي قضاء صنعاء. وكان زاهداً. توفي عام ١١٦ هـ أو ١١٤ أو ١١٠ على اختلاف الروايات. سير أعلام النبلاء ٥٤٤/٤.

(٢) هو الزاهد القدوة، سيد النُوَعَاظِ، أبو العباس محمد بن صبيح المعجلي الكوفي، مولى بني عجل، كان كبير القدر، دخل على الرشيد فوعظه وقال له: يا أمير المؤمنين: إن لك بين يدي الله مقاماً، وإن لك من مقامك مُنْصَرَفًا، فانظر إلى أين تكون. فبكى الرشيد كثيراً. توفي ابن السماك سنة ثلاث وثمانين ومئة. سير أعلام النبلاء ٢٩١/٨.

الْحَاسِدِ، نَفْسٌ ذَائِمٌ^(١) وَعَقْلٌ هَائِمٌ وَغَمٌّ لَازِمٌ.

وَالرَّابِعُ: عَمَى الْقَلْبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَفْهَمُ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ: عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ تَمْلِكِ الْوَرَعَ، وَلَا تَكُنْ حَرِيصًا عَلَى الدُّنْيَا تَكُنْ حَافِظًا، وَلَا تَكُنْ طَعَانًا تَنْجُ مِنَ أَلْسِنَةِ النَّاسِ، وَلَا تَكُنْ حَاسِدًا تَكُنْ سَرِيعَ الْفَهْمِ.

وَالخَامِسُ: الْحِرْمَانُ وَالْخِذْلَانُ، فَلَا/ يَكَادُ يَظْفَرُ بِمُرَادٍ وَيُنْصَرُ عَلَى عَدُوٍّ، كَمَا قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِّ: الطَّعَانُ غَيْرُ ذِي دِينٍ، وَالْعَائِبُ غَيْرُ عَابِدٍ، وَالنَّمَامُ غَيْرُ مَأْمُونٍ، وَالْحَسُودُ غَيْرُ مَنْصُورٍ. [٣٦/ب]

قُلْتُ: الْحَسُودُ كَيْفَ يَظْفَرُ بِمُرَادِهِ، وَمُرَادُهُ زَوَالُ نِعَمِ اللَّهِ عَنْ عِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَيْفَ يُنْصَرُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو يَعْقُوبَ^(٢) فِيمَا قَالَ: «اللَّهُمَّ صَبِّرْنَا عَلَى تَمَامِ النِّعَمِ عَلَى عِبَادِكَ وَحَسِّنْ أَحْوَالَهُمْ».

وَأَنَّهُ يُفْسِدُ عَلَيْكَ الضَّعَةَ، وَيُكْثِرُ شَرَّكَ وَمَعْصِيَتَكَ، وَيَمْنَعُكَ

= انظر أخباره وترجمته في:

المعرفة والتاريخ: ١٢ - ٦٧١، حنية الأولياء: ٢٠٣/٨ - ٢٠٧، وفيات الأعيان:

٣٠١/٤ - ٣٠٢.

(١) ذائم: أي حقيقير. ذامه يذؤمه إذا عبه وحقره وذمه.

(٢) الأستاذ العارف، أبو يعقوب إسحق بن محمد أنهر جوربي. صحب أبا عمرو

المكي وأبا يعقوب السوسي والجنيذ وغيرهم.

جاور مدة ومات بمكة، وقد توفي سنة ثلاثين وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء

٢٣٢/١٥.

رَاحَةَ النَّفْسِ وَفَهَمَ الْقَلْبِ، وَالتَّصَرَّةَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالظَّفَرَ بِالْمَطْلُوبِ،
فَأَيُّ دَاءٍ يَكُونُ أَدْوَأَ مِنْهُ، فَعَلَيْكَ بِمُعَالَجَةِ نَفْسِكَ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ وَلِيُّ
التَّوْفِيقِ.

٣ - وَأَمَّا الْإِسْتِعْجَالُ^(١) وَالتَّرَقُّقُ مَعَ سُوءِ الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ الْخَصْلَةُ
الْمُفَوِّتَةُ لِلْمَقَاصِدِ، الْمُوقَعَةُ فِي الْمَعَاصِي، وَإِنَّ مِنْهَا تَبْدُو آفَاتٌ أَرْبَعٌ:
الاستعجال
الثالثة:
الآفة
إِحْدَاهَا: أَنْ يَقْصِدَ الْعَابِدُ مَنزِلَةً فِي الْخَيْرِ وَالِإِسْتِقَامَةِ وَيَجْتَهِدَ،
قَرَبًا يَسْتَعْجِلُ فِي نَيْلِهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَقْتِهَا، فَأَمَّا أَنْ يَقْتَرِ وَيِنَاسَ فَيَتْرَكَ
الِاجْتِهَادَ فَيُحْرَمَ تِلْكَ الْمَنزِلَةَ، وَإِمَّا أَنْ يَغْلُو فِي الْجُهْدِ وَإِتْعَابِ النَّفْسِ
فَيَنْقَطِعَ عَنِ تِلْكَ الْمَنزِلَةِ فَهُوَ بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ، وَكِلَاهُمَا نَتِيجَةُ
الِإِسْتِعْجَالِ. وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ دِينَنَا هَذَا مَتِينٌ
فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، فَإِنَّ التَّمْتِيتَ لَا أَرْضَا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْتَى»^(٢) وَفِي
الْمَثَلِ السَّائِرِ: إِنْ لَمْ تَسْتَعْجِرْ تَصِلْ. وَقَوْلُ الْقَائِلِ: [البسيط]:

(١) من الملاحظ أن ترتيب هذه الآفة بين الآفات لأربعة جاء قبل الحسد. ولكن الغزالي
عندما ذكر تفاصيلها هنا وضعها بعد الحسد.

كذلك فإن التقسيم الأول لآفات الأربعة يشير إلى أن الاستعجال آفة. وهذا يجعلها
خصلة تنفرد عنها آفات أربع. وهذا يعني أن الغزالي لا يراعي حيناً الترتيب
وتقسيم المتسلسل ولا يحفظ على معنى واحد لمصطلح الذي يستعمله.

(٢) - روى ابن حنبل هذا حديث في قسمه الأول عن أنس بن مالك قال: قال
رسول الله ﷺ: «إن هذا دين متين فأوغلوا فيه برفق». وصححه السيوطي في
الحديث الصغير (٣٣٨/١)، الحديث رقم (٢٥٠٨). أما رواية البخاري في مسنده عن
جابر، وهي الرواية التي يذكرها الغزالي بلفظ (إن هذا الدين متين...) فقد
ضعفها السيوطي، كذلك قال المنذوب في تعليقه على هذا الحديث (فيض القدير =

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ لِلْعَابِدِ حَاجَةٌ فَيَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا وَيُكْثِرُ
الدُّعَاءَ، وَيَجِدُّ، وَرُبَّمَا يَسْتَعْجِلُ الْإِجَابَةَ قَبْلَ وَقْتِهَا، فَلَا يَجِدُهَا فَيَفْتُرُ
وَيَسْأَمُ وَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ فَيُحْرِمُ حَاجَتَهُ وَمَقْصُودَهُ.

وَالثَّالِثَةُ: أَنْ يَظْلِمَهُ إِنْسَانٌ، فَيَغِيظُهُ فَيَعَجَّلَ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِ،
فِيهِلِكَ مُسْلِمٌ بِسَبَبِهِ، وَرُبَّمَا يَتَجَاوَزُ عَنِ الْحَدِّ فَيَقَعُ فِي مَعْصِيَةٍ
وَهَلَاكِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

= ٢/٥٤٤، الحديث رقم (٢٥٠٧) قال الهيثمي: وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل
وهو كذاب.

— ورواه البيهقي في السنن من طرق وفيه اضطراب، روي موصولاً ومرسلاً
ومرفوعاً وموقوفاً، واضطرب في الصحابي أهو جابر أم عائشة أم عمر؟ ورجح
البخاري في التاريخ إرساله.

— ويورد الغزالي نصين لهذا الحديث: الأول ذكره بلفظ: (لا تُشَادُوا هذا الدين
فإنه متين، فمن يشأه غلبه. فلا تبغض إلى نفسك عبادة الله).

قال العراقي في تخريجه: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة (لن يشأ هذا
الدين أحداً إلا غلبه، فسددوا وقاربوا) ولليهقي من حديث جابر: (إن هذا الدين
متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله) ولا يصح إسناده (انظر
الإحياء ١/٣٤٤).

والثاني: ذكره بلفظ: (إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى
نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى).

وقال العراقي في تخريجه: أخرجه أحمد من حديث أنس، والبيهقي من حديث
جابر، (انظر الإحياء ٤/٧٩).

وَالرَّابِعَةُ: أَنَّ أَصْلَ الْعِبَادَةِ وَمِلَاكَهَا/ الْوَرَعُ. وَالْوَرَعُ أَصْلُهُ النَّظَرُ [٣٧/١]
 الْبَالِغُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْبَحْثُ التَّامُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ بِصَدَدِهِ، مِنْ
 أَكَلٍ وَشُرْبٍ وَلُبْسٍ وَكَلَامٍ وَفِعْلٍ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مُسْتَعْجَلًا فِي
 الْأُمُورِ غَيْرِ مُتَّانٍ وَلَا مُتَثَبِتٍ وَلَا مُتَبَيِّنٍ، لَمْ يَقَعْ مِنْهُ تَوْفُؤٌ وَنَظَرٌ فِي
 الْأُمُورِ كَمَا يَجِبُ، وَيَتَسَارَعُ إِلَى كُلِّ كَلَامٍ، فَيَقَعُ فِي الزَّلَلِ، وَإِلَى كُلِّ
 طَعَامٍ فَيَقَعُ فِي الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ، وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ فَيَقُوعُهُ الْوَرَعُ، وَأَيُّ
 خَيْرٍ فِي عِبَادَةِ بِلَا وَرَعٍ؟ وَإِذَا كَانَ فِي خِصْلَةِ الْانْقِطَاعِ عَنْ مَنَازِلِ
 الْخَيْرِ وَحِرْمَانِ الْحَاجَاتِ وَهَلَاكِ الْمُسْلِمِينَ وَهَلَاكِهِ، ثُمَّ خَطَرَ فَوْتِ
 الْوَرَعِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْمَدَى، فَحَقَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَهْتَمَّ لَهَا، بِالْإِزَالَةِ
 وَإِصْلَاحِ النَّفْسِ بَعْدَهَا، وَإِنَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

٤ - وَأَمَّا الْكِبْرُ فَإِنَّهُ الْخِصْلَةُ الْمُهْلِكَةُ رَأْسًا، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ الْآفَةُ
 تَعَالَى: ﴿أَبَى وَأَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وَلَيْسَتْ الرَّابِعَةُ:
 هَذِهِ الْخِصْلَةُ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ خِصَالِ الَّتِي تَقْدَحُ فِي عَمَلٍ، وَتَضُرُّ بِفَرْعٍ،
 وَإِنَّمَا تَضُرُّ بِالْأَصْلِ، وَتَقْدَحُ فِي الدِّينِ وَالْإِعْتِقَادِ، وَإِذَا فَوَيْتَ وَغَلَبَتْ
 فَلَا تُتَدَارَكُ، وَالْعِيَاذُ بِسَبِّهِ. ثُمَّ أَقَلُّ مَا يَهَيِّجُ مِنْهَا عَلَى صَاحِبِهَا أَرْبَعُ
 آفَاتٍ:

إِحْدَاهَا: حِرْمَانُ الْحَقِّ. وَعَمَى الْقَلْبِ عَنْ مَعْرِفَةِ آيَاتِ اللَّهِ
 تَعَالَى، وَفَهْمِ أَحْكَامِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنِ الْآيَاتِ الَّذِينَ
 يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا﴾ [غافر: ٣٥].

وَالثَّانِيَةُ: الْمَقْتُ وَالْبُغْضُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:
 ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] وَرُوِيَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامُ قَالَ: «يَا رَبِّ، مَنْ أَنْغَضَ خَلْقَكَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: مَنْ تَكَبَّرَ قَلْبُهُ، وَغَلِظَ لِسَانُهُ^(١)، وَصَفَّقَ عَيْنَهُ^(٢)، وَبَخِلَتْ يَدُهُ، وَسَاءَ خُلُقُهُ».

وَالثَّالِثَةُ: الْخِزْيُ وَالنِّكَالُ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ حَاتِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجْتَنِبُ الْمَوْتَ عَلَى ثَلَاثَةٍ: عَلَى الْكِبَرِ، وَالْحَرِصِ، وَالْخِيَلَاءِ^(٣)؛ فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ لَا يُخْرِجُهُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُرِيَهُ الْهَوَانَ مِنْ أُرْدَلِ أَهْلِهِ وَخُدَامِهِ؛ وَالْحَرِصُ لَا يُخْرِجُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُحَوِّجَهُ إِلَى كِسْرَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ، وَلَا يَجِدُ مَسَاغًا، وَالْمُخْتَالُ لَا يُخْرِجُهُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُمَرِّغَهُ اللَّهُ بِبَوْلِهِ وَقَدْرِهِ؛ وَقِيلَ: مَنْ تَكَبَّرَ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْرَثَهُ اللَّهُ ذُلًّا بِحَقٍّ.

وَالرَّابِعَةُ: النَّارُ وَالْعَذَابُ فِي الْعُقُوبِ، عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ نَارَ جَهَنَّمَ»^(٤).

وَالْمَعْنَى أَنَّ الْعِظْمَةَ وَالْكِبْرِيَاءَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِي،

(١) غلظ لسانه: أي أصبح كلامه فاحشاً.

(٢) صفَّق عينه: أغمضها عن رؤية الخيرات.

(٣) الخيلاء: بضم الخاء وقيل بالكسر، البطر والزهو، وهو حرام.

(٤) - رواه ابن حنبل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ وفيه: (ألقىته في النار) و (أدخلته جهنم) و (قدفته في النار) و (ألقىته في جهنم) (راجع مسند ابن حنبل ٢/٢٤٨، ٣٧٦، ٤٢٧، ٤١٤، ٤٤٣).

- كذلك رواه أبو داود في سننه (٣٥٠/٤) كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر. الحديث رقم ٤٠٩٠.

- ورواه أيضاً ابن ماجه (١٣٩٧/٢) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر (الحديث رقم ٤١٧٤، ٤١٧٥).

وَلَا تَتَّبِعِي لِأَحَدٍ غَيْرِي؛ كَمَا أَنَّ رِذَاءَ الْإِنْسَانِ وَإِزَارَهُ يُخْتَصُّ بِهِ، لَا يُشَارِكُ فِيهِ. وَإِنَّ خِصْلَةَ تَفَوُّتِكَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، وَفَهْمَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ، الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْأَمْرِ كُلِّهِ، ثُمَّ تُثْمِرُ لَكَ الْمَقْتَمَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّارَ فِي الْآخِرَةِ؛ لَا يَسْعُ الْعَاقِلُ أَنْ يَغْفَلَ عَنِ نَفْسِهِ، فَلَا يُضْلِحُهَا بِإِزَالَتِهَا بِالْحَذَرِ وَالتَّحَرُّزِ وَالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ وَلِيُّ الْعِصْمَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَلَطْفِهِ.

فَهَذَا بَعْضُ مَا حَضَرْنَا فِي هَذِهِ الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ مِنَ الْآفَاتِ، وَحَسْبُ الْعَاقِلِ وَاحِدَةً مِنْهَا، فَضْلاً عَنِ الْكُلِّ، إِذَا أَهَمَّهُ أَمْرٌ قَلْبِهِ وَحَامَى عَنْ أَمْرِ دِينِهِ، وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنْ آفَاتِ هَذِهِ الْخِصَالِ، وَلَزِمَ التَّحْفِظَ مِنْهَا، فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا وَحَدِّهَا، فَبَيْنَ لَنَا ذَلِكَ نَعْرِفَ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى التَّحْفِظِ عَنْهَا.

فَاعْلَمْ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَلِمَةً كَثِيرًا. وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْقَوْلَ حَقِيقَةَ فِيهِ فِي كِتَابِي الْإِحْيَاءِ وَالْأَسْرَارِ، وَنَحْنُ نَذَكُرُهَا هُنَا مَا لَا بُدَّ مِنَ الْآفَاتِ الْأَرْبَعِ ذِكْرِهِ، وَلَا يَقَعُ الْغِنَى عَنْهُ. فَتَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:

١ - أَمَّا الْأَمَلُ، فَقَالَ أَكْثَرُ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّهُ إِرَادَةُ الْحَيَاةِ لِلْوَقْتِ الْمُتَرَاخِي بِالْحُكْمِ. وَقَصْرُ الْأَمَلِ تَرْكُ الْحُكْمِ فِيهِ، بِأَنْ تَقْيِدَهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ فِي الذِّكْرِ، أَوْ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ فِي الْإِرَادَةِ، فَإِذَا زِدْنَا ذِكْرَ حَيَاتِكَ بِأَنِّي أَعِيشُ بَعْدَ نَفْسِ ثَانٍ أَوْ سَاعَةٍ ثَانِيَةٍ أَوْ يَوْمٍ ثَانٍ بِالْحُكْمِ وَالْقَطْعِ، فَأَنْتَ آمِلٌ، وَذَلِكَ مِنْكَ مَعْصِيَةٌ، إِذْ هُوَ حُكْمٌ عَلَى الْغَيْبِ، فَإِنْ قَيَّدْتَهُ بِالْمَشِيئَةِ وَالْعِلْمِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَتَقُولُ: أَعِيشُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَوْ إِنْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ أَعِيشُ، فَقَدْ خَرَجْتَ

عَنْ حُكْمِ الْأَمَلِ، (وَوُصِفَتْ بَتْرَكِ الْأَمَلِ) (١)، وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَدْتَ حَيَاتِكَ لِلْوَقْتِ الثَّانِي قِطْعًا فَانْتَ آمِلٌ، وَإِنْ قَيَّدْتَ إِرَادَتَكَ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ خَرَجْتَ عَنْ حُكْمِ الْأَمَلِ وَوُصِفَتْ بِقِصْرِ الْأَمَلِ، مِنْ حَيْثُ تَرَكْتَ الْحُكْمَ فِيهِ، فَعَلَيْكَ بَتْرَكِ الْحُكْمِ فِي ذِكْرِ الْبَقَاءِ وَإِرَادَتِهِ، وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ ذِكْرُ الْقَلْبِ، ثُمَّ الْمُرَادُ مِنْهُ التَّوْطِينُ عَلَى ذَلِكَ، وَالتَّثْبِيثُ/ لِلْقَلْبِ عَلَيْهِ، فَافْهَمْ ذَلِكَ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. [٣٨/أ]

ثُمَّ الْأَمَلُ ضَرْبَانِ: أَمَلُ الْعَامَّةِ وَأَمَلُ الْخَاصَّةِ.

فَأَمَلُ الْعَامَّةِ أَنْ تُرِيدَ الْحَيَاةَ وَالْبَقَاءَ لِجَمْعِ الدُّنْيَا وَالتَّمَتُّعِ بِهَا، وَهَذِهِ مَعْصِيَةٌ مَخْضَةٌ، وَضِدُّهَا قِصْرُ الْأَمَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وَأَمَلُ الْخَاصَّةِ أَنْ تُرِيدَ الْبَقَاءَ لِإِتْمَامِ عَمَلٍ خَيْرٍ فِيهِ خَطَرٌ، وَهُوَ مَا لَا يَسْتَيْقِنُ الصَّلَاحَ لَهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ خَيْرٌ مُعَيَّنٍ، لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ أَوْ فِي إِتْمَامِهِ صَلَاحٌ، بَأَنْ يَقَعَ بِسَبَبِهِ فِي آفَةٍ لَا يَقُومُ بِهَا هَذَا الْخَيْرُ؛ فَإِذَا نَسِيَ لِلْعَبْدِ إِذَا ابْتَدَأَ فِي صَلَاةٍ أَوْ صَوْمٍ أَوْ غَيْرِهِ أَنْ يَحْكُمَ بِأَنَّهُ يُتِمُّهُ إِذْ هُوَ غَيْبٌ، وَلَا أَنْ يَقْصِدَ ذَلِكَ قِطْعًا، لِأَنَّهُ رُبَّمَا لَا يَكُونُ لَهُ فِيهِ صَلَاحٌ، بَلْ يَقْيِدُ ذَلِكَ بِالِاسْتِثْنَاءِ وَشَرْطِ الصَّلَاحِ، لِيَخْلُصَ مِنْ عَيْبِ الْأَمَلِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنٍ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣].

وَضِدُّ هَذَا الْأَمَلِ فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ النَّيَّةُ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْإِتْسَاعِ، لِأَنَّ النَّاوِيَّ بِالنِّيَّةِ الْمَحْمُودَةِ يَكُونُ مُمْتَنِعًا مِنْ

(١) زيادة من (د) و (هـ).

الْأَمَلِ، فَهَذَا حُكْمُ الْأَمَلِ، وَالنِّيَّةُ الْمَحْمُودَةُ، إِذْ قَدْ مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا مَعَ أَنَّهَا الْأَصْلُ الْأَصِيلُ؛ قَالُوا رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي حَدِّهَا الْجَامِعِ التَّامِّ:

تعریف
النیة
الصحيحة
إِنَّ النِّيَّةَ الصَّحِيحَةَ الْمَحْمُودَةَ إِرَادَةٌ أَخَذَ عَمَلٍ مُبْتَدَأٍ بِهِ قَبْلَ سَائِرِ الْأَعْمَالِ بِالْحُكْمِ، مَعَ إِرَادَةِ إِتْمَامِهِ بِالتَّفْوِيضِ وَالِاسْتِثْنَاءِ^(١).

فَإِنْ قِيلَ: فَلَمْ جَازَ الْحُكْمُ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَوَجَبَ التَّفْوِيضُ وَالِاسْتِثْنَاءُ فِي الْإِتْمَامِ؟ يُقَالُ لَهُ: لِفَقْدِ الْخَطَرِ فِي الْإِبْتِدَاءِ، إِذْ هُوَ فِي حَالِ الْإِبْتِدَاءِ لَيْسَ بِشَيْءٍ مُتَرَاخٍ عَنكَ، وَلِثُبُوتِ الْخَطَرِ فِي الْإِتْمَامِ، إِذْ هُوَ يَقَعُ فِي وَقْتِ مُتَرَاخٍ، فَفِيهِ الْخَطَرَانِ: خَطَرُ الْوُضُولِ، لَا تَدْرِي هَلْ تَصِلُ إِلَى ذَلِكَ أَمْ لَا، وَخَطَرُ الْفَسَادِ، لَا تَدْرِي هَلْ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ أَمْ لَا؛ فَإِذَا وَجَبَ الْإِسْتِثْنَاءُ لِخَطَرِ الْوُضُولِ، وَالتَّفْوِيضُ لِخَطَرِ الْفَسَادِ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْإِرَادَةُ عَلَى هَذِهِ الشَّرُوطِ، تَكُونُ حِينِيذُ نِيَّةٍ مَحْمُودَةٍ، مَخْرِجَةٌ عَنِ حَدِّ الْأَمَلِ وَأَفْتِهِ، فَتَأْمَلُ جَدًّا، فَهَذِهِ هَذِهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ حِصْنَ قِصْرِ الْأَمَلِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَحِصْنُ / حِصْنِهِ ذِكْرُ فَجَاءَةِ الْمَوْتِ وَأَخْذُهُ عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ، وَهُوَ فِي غُرُورٍ وَفُتُورٍ، فَاحْتَفَظُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَحَصَّلَهَا مُوَفَّقًا، فَإِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا مَاسَّةٌ، وَدَعَّ عَنكَ تَضْيِيعَ الْوَقْتِ فِي الْقِيلِ وَالْقَالِ وَمُلَاحَاةِ الرَّجَالِ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ بِفَضْلِهِ.

٢ - وَأَمَّا الْحَسَدُ: فَهُوَ إِرَادَةُ زَوَالِ نِعَمِ اللَّهِ عَنِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ حَقِيقَةً مِمَّا لَهُ فِيهِ صَلَاحٌ؛ فَإِنْ لَمْ تُرِدْ زَوَالَهَا عَنْهُ، وَلَكِنْ تُرِيدُ لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا الْحَسَدِ

(١) إي إرادة إتمام عمل، مع تفويض ذلك إلى الله تعالى وإلى مشيئته.

فَهُوَ غِبْطَةٌ. وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ»^(١).
 كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ: أَيُّ لَا غِبْطَةَ إِلَّا فِي ذَلِكَ؛ فَعَبَّرَ عَنِ الْغِبْطَةِ
 بِالْحَسَدِ اتِّسَاعًا لِمُقَارَبَتِهِمَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا صَلَاحٌ، فَأَرَدَتْ زَوَالَهَا
 عَنْهُ، فَذَلِكَ غَيْرَةٌ^(٢)، فَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْخِصَالِ.

النصيحة
 وَأَمَّا ضِدُّ الْحَسَدِ فَالنَّصِيحَةُ: وَهِيَ إِرَادَةُ بَقَاءِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى
 عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ، مِمَّا لَهُ فِيهَا صَلَاحٌ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّ لَهُ فِيهَا صَلَاحًا أَوْ فَسَادًا لِنَنْصَحَهُ أَوْ
 نَحْسُدَهُ؟ فاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لَنَا غَالِبُ الظَّنِّ بِذَلِكَ، وَغَلْبَةُ الظَّنِّ مِنَّا
 تَجْرِي مَجْرَى الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ؛ ثُمَّ إِنْ أَشْتَبَهَ عَلَيْكَ، فَلَا
 تُرِيدَنَّ زَوَالَ نِعْمَةٍ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ بَقَاءَهَا، إِلَّا مُقَيَّدًا
 بِالتَّقْوِيضِ وَشَرْطِ الصَّلَاحِ، لَتَخْلُصَ مِنْ حُكْمِ الْحَسَدِ، وَيَحْصُلَ لَكَ
 فَائِدَةُ النَّصِيحَةِ.

ما يمنع
 الحسد
 وَأَمَّا حِصْنُ النَّصِيحَةِ الْمَانِعِ مِنَ الْحَسَدِ، فَهُوَ ذِكْرُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى مِنْ مُوَالَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَحِصْنُ هَذَا الْحِصْنِ، ذِكْرُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ

(١) — رواه البخاري (٢٨/١) كتاب العلم، باب الاعتباط في العلم والحكمة.

— ورواه ابن ماجه في سننه (١٤٠٧/٢) كتاب الزهد، باب الحسد، (الحديث
 رقم ٤٢٠٨).

— وكذلك رواه ابن حنبل (٩/٢): (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن
 فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في الحق آناء الليل
 والنهار). وله رواية أخرى مشابهة مع خلاف بسيط في اللفظ (٢ ٣٦).

(٢) الغيرة هنا تعني أن يغدر المسلم على أخيه وعلى مصالحه. فيحفظ له دينه أو
 ماله أو صحته، بطلب زوال ما ليس له فيه صلاح.

تَعَالَى مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ وَرَفَعَ مِنْ قَدْرِهِ، وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
الْكَرَامَاتِ الْعَظِيمَةِ فِي الْعُقْبَى، وَمَا لَكَ فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ فِي
الدُّنْيَا مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّظَاهِرِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُوعَاتِ، ثُمَّ مَا تَرْجُو مِنْ
شَفَاعَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهَذِهِ وَنَحْوَهَا مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى النَّصْحِ لِكُلِّ
مُسْلِمٍ، وَيَجَنِّبُكَ أَنْ تَحْسُدَهُ فِي نِعْمَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

٣ - وَأَمَّا الْعَجَلَةُ فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الرَّائِبُ فِي الْقَلْبِ، الْبَاعِثُ عَلَى حَقِيقَةِ
الْإِقْدَامِ عَلَى الْأَمْرِ بِأَوَّلِ خَاطِرٍ، دُونَ التَّوَقُّفِ فِيهِ وَالِاسْتِطْلَاعِ مِنْهُ، الْعَجَلَةُ
بَلَّ الْإِسْتِعْجَالَ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَضِدُّهَا الْأَنَاءَةُ، وَهِيَ الْمَعْنَى
الرَّائِبُ فِي الْقَلْبِ، الْبَاعِثُ عَلَى الْإِحْتِيَاطِ فِي الْأُمُورِ/ وَالنَّظَرَ فِيهَا [٣٩/أ]
وَالثَّانِي فِي اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا.

وَأَمَّا التَّوَقُّفُ فَضِدُّهُ التَّعَسُّفُ؛ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:
الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَقُّفِ وَالثَّانِي، أَنَّ التَّوَقُّفَ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي الْأَمْرِ حَتَّى
يَسْتَبِينَ لَهُ رُشْدُهُ، وَالثَّانِي بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ، حَتَّى يُؤَدِّيَ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ
حَقَّهُ.

ثُمَّ مُقَدِّمَاتُ الْأَنَاءَةِ، ذِكْرُ وُجُوهِ الْخَطَرِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَعَرَّضُ
لِلْإِنْسَانِ وَضُرُوبِ الْآفَاتِ الْمُخَوِّفَةِ فِيهَا، وَذِكْرُ مَا فِي النَّظَرِ وَالتَّثَبُّتِ
مِنَ السَّلَامَةِ، وَمَا فِي التَّعَسُّفِ وَالِاسْتِعْجَالِ مِنَ النَّدَامَةِ وَالْمَلَامَةِ.
فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا، مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى الثَّانِي وَالتَّوَقُّفِ فِي الْأُمُورِ، وَيَمْنَعُ مِنَ
الِاسْتِعْجَالِ وَالتَّعَسُّفِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْعِصْمَةِ بِرَحْمَتِهِ.

٤ - وَأَمَّا الْكِبْرُ فَعَلِمَ أَنَّهُ خَاطِرٌ فِي رَفْعِ النَّفْسِ وَاسْتِعْظَامِهَا^(١) حَقِيقَةُ الْكِبْرِ

(١) بالنظر إلى الغير بعين الإحتقار ونذل.

والتكبرُ اتِّباعُهُ، والتواضعُ خَاطِرٌ في وَضْعِ النَّفْسِ واستحقارها،
والتَّوَاضِعُ اتِّباعُهُ^(١). وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَامِّيٌّ وَخَاصِّيٌّ.

فالتَّوَاضِعُ العَامِّيُّ: هو الاكْتِفَاءُ بِالذُّوْنِ مِنَ الملبسِ وَالمسْكَنِ
والمَرْكَبِ، وَالتَّكْبَرُ فِي مُقَابَلَتِهِ التَّرْفُّعُ عَنِ ذَلِكَ.

والتَّوَاضِعُ الخَاصِّيُّ: هُوَ تَمَرِينُ النَّفْسِ عَلَى قَبُولِ الحَقِّ مِمَّنْ
كَانَ وَضِيعاً أَوْ شَرِيفاً، وَالتَّكْبَرُ فِي مُقَابَلَتِهِ التَّرْفُّعُ عَنِ ذَلِكَ، وَهُوَ
مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ وَخَطِيئَةٌ عَظِيمَةٌ

ثُمَّ حِصْنُ التَّوَاضِعِ العَامِّيِّ أَنْ تَذُكُرَ مَبْدَأَكَ وَمُتْتَهَاكَ وَمَا أَنْتَ
عَلَيْهِ فِي الحَالِ مِنْ ضُرُوبِ الآفَاتِ وَالأَقْدَارِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:
أُولَئِكَ نُطْفَةٌ مَدْرَةٌ، وَآخِرُكَ حَيْفَةٌ قَدْرَةٌ، وَأَنْتَ بَيْنَهُمَا حَامِلُ العَدْرَةِ.

وَحِصْنُ التَّوَاضِعِ الخَاصِّيِّ هُوَ ذِكْرُ عُقُوبَةِ العَادِلِ عَنِ الحَقِّ،
المُتَمَادِي فِي البَاطِلِ، فَهَذِهِ جُمْلَةٌ كَافِيَةٌ لِمَنْ اسْتَبَصَرَ.

(١) الفرق بين التواضع والضعة، أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه
منزله، والضعة وضع الإنسان نفسه بمحل يزري به.
والفرق بين التواضع والخشوع، أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة
والباطنة، والخشوع يعتبر بأفعال الجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب
خشعت الجوارح.

الفصل الخامس: البطن وحفظه

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ الْبَطْنِ وَإِصْلَاحِهِ، فَإِنَّهُ أَشَقُّ الْأَعْضَاءِ إِصْلَاحًا عَلَى الْمُجْتَهِدِ، وَأَكْثَرُهَا مَوْتَةً وَشُغْلًا، وَأَعْظَمُهَا أَثْرًا وَضَرَرًا؛ لِأَنَّهُ الْمَنْبُعُ وَالْمَعْدِنُ، وَمِنْهُ تَهَيُّجُ الْأُمُورِ فِي الْأَعْضَاءِ، مِنْ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ وَعِيفَةٍ وَجَمَاعٍ وَنَحْوِهِ؛ فَعَلَيْكَ إِذَا بِصِيَانَتِهِ عَنِ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ أَوْلَى، ثُمَّ عَنِ فُضُولِ الْحَلَالِ ثَانِيًا، إِنْ كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

موجبات
تجنب الحرام

أَمَّا الْحَرَامُ وَالشُّبْهَةُ، فَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ لِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: حَذْرًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتِنِ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ

سَعِيرًا ﴿١٠﴾ [النساء: ١٠]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ لَحْمٍ نَبَتْ مِنْ

سُحْتٍ فَالْتَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(١).

- (١) - رواه أبو نعيم في الحنية (٣١/١) من حديث أبي بكر بلفظ: (كل جسد).
- وذكره السيوطي في تجمع الصغير (٢٣٥/٢) عن الضبراني في المعجم الصغير والحلية بلفظ: (كل جسد) (الحديث رقم ٦٢٩٦).
- وذكر المتأوي (فيض القدير ١٨/٥) أن سنده ضعيف، ففيه عبد الواحد بن =

وَالثَّانِي: أَنَّ أَكْلَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ مَطْرُودٌ لَا يُوفَّقُ لِلْعِبَادَةِ، إِذْ لَا يَصْلُحُ لَخِدْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا كُلُّ طَاهِرٍ مُطَهَّرٍ. قُلْتُ أَنَا: أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ مَنَعَ الْجُنُبَ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بَيْتِهِ، وَالْمُحَدِّثَ عَنْ مَسِّ كِتَابِهِ؟ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [٧٩] [الواقعة: ٧٩] مَعَ أَنَّ الْجَنَابَةَ وَالْحَدِيثَ أَمْرٌ مُبَاحٌ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ مُنْعَمٌ فِي قَدْرِ الْحَرَامِ، وَنَجَاسَةِ السُّحْتِ وَالشُّبْهَةِ، مَتَى يُدْعَى إِلَى خِدْمَةِ اللَّهِ الْعَزِيزِ وَذِكْرِهِ الشَّرِيفِ سُبْحَانَهُ؟ كَلَّا فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيِّ: «الطَّاعَةُ مَخْرُونَةٌ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ، وَمِفْتَاحُهَا الدُّعَاءُ، وَأَسْنَانُهُ الْحَلَالُ»؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمِفْتَاحِ أَسْنَانٌ،

= واصل، أورده الذهبي في نضعفه. وضعفه الأزدي، وقال البخاري والنسائي: متروك.

— وورد هذا الحديث في الإحياء بلفظ: (كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به) (٦/٢، ٩٠).

— وقال العراقي: هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ: (سحت) وهو عند الترمذي، وحسنه. بلفظ: (لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به).

— وقال الكديري في سراج الطالبين (٤٨٢/١) ورواه أيضاً ابن عباس، كما في المعجم الصغير للطبراني.

— وفي سنن الدارمي (٣١٨/٢) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يب كعب بن عجرة، لن يدخل الجنة لحم نبت من سحت».

فَلَا يَنْفَتَحُ الْبَابُ؛ وَإِذَا لَمْ يَنْفَتَحْ بَابُ الْخِرَازَةِ، كَيْفَ يَصِلُ إِلَى مَا فِيهَا
مِنَ الطَّاعَةِ؟

وَالثَّلَاثُ: أَنْ آكَلَ الْحَرَامَ وَالشُّبُهَةَ مَحْرُومًا. وَإِنْ اتَّفَقَ لَهُ فِعْلُ
خَيْرٍ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ غَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْهُ؛ فَإِذَنْ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا
الْعَنَاءُ وَالْكَدُّ وَشَغْلُ الْوَقْتِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ
قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ، وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ
وَالظَّمَا»^(١). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ
امْرِئٍ فِي جَوْفِهِ حَرَامًا. فَهَذِهِ هَذِهِ.

وَأَمَّا فَضُولُ الْحَلَالِ، فَإِنَّهُ آفَةُ الْعِبَادِ وَبَلِيَّةُ أَهْلِ الاجْتِهَادِ؛ فَإِنِّي آفَاتُ فَضُولِ
تَأَمَّلْتُ فَوَجَدْتُ فِيهِ عَشْرَ آفَاتٍ هُنَّ أَصُولٌ فِي هَذَا الشَّانِ: الحلال

(١) - رواه ابن حنبل عن أبي هريرة بلفظ: (رُبَّ صَائِمٍ حَظَّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ
وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظَّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ) (٣٧٣/٢). وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لَهُ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا: (كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ
لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ) (٤٤١/٢).

- كَذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٥٣٩/١) (الْحَدِيثُ رَقْمُ ٦٩٠) وَذَكَرَ فِي تَخْرِيْجِهِ عَنِ
الزَّوَائِدِ أَنَّ إِسْنَادَهُ ضَعِيفٌ.

- كَذَلِكَ رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ (٣٠١/٢) بِلَفْظٍ: (كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا
الظَّمَا، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ).

- وَذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٥٩٣/١) بِرِوَايَتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ فِي الْأَلْفَاظِ،
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو، وَصَحَّحَهُ فِي الرِّوَايَتَيْنِ. (الْحَدِيثُ رَقْمُ ٤٤٠٤
وَ ٤٤٠٥).

- وَذَكَرَهُ الْمَنَاوِيُّ (١٦/٤) وَرَوَى عَنِ الْحَافِظِ الْعِرَاقِيِّ قَوْلَهُ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَقَالَ
الْهَيْثَمِيُّ: رَجَالُهُ مُوْتَقُونَ.

الأولى: أن في كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تُمِيتُوا الْقَلْبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ يَمُوتُ كَالزَّرْعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ»^(١) وَلَقَدْ شَبَّهَ ذَلِكَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ بِأَنَّ الْمِعْدَةَ كَالْقَدْرِ تَحْتَ الْقَلْبِ تَغْلِي، وَالْبُخَارُ يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ، فَكَثْرَةُ الْبُخَارِ تُكَدِّرُهُ وَتُسَخِّمُهُ.

والثانية: أن في كثرة الأكل فتنة الأعضاء وهيجهما وأنبعثهما [٤٠/أ] للفضول والفساد، فإن الرجل إذا كان شبعان بطراً اشتتت عينه النظر إلى ما لا يعنيه، من حرام أو فضول؛ والأذن الاستماع إليه؛ واللسان التكلم به، والفرج الشهوة، والرجل المشي إليه؛ وإن كان جائعاً، فتكون الأعضاء كئيباً ساكنة هادئة، لا تطمح إلى شيء منها ولا تنشط لها. ولقد قال الأستاذ أبو جعفر^(٢) رحمه الله: إن البطن عضو إن جاع هو شبع سائر لأعضاء، يعني تسكن فلا تضربك بشيء، وإن شبع هو، جاع سائر لأعضاء. وجملة الأمر، أن أفعل الرجل

(١) - قال العراقي (الإحياء ٣/ ٨١): له أقف له على أصل.

- وذكر الكديري في سراج النضيين (١/ ٤٨٥) حديثاً نرسون به بفتح بلفظ: (ثلاث تورث قسوة قلب: حب نوم، وحب الراحة، وحب لأك)؛ وقال: هكذا ذكره السيوطي في اللباب.

(٢) أبو جعفر الحداد كبير الصوفي. سافر ودخل دمشق، وهو من أقران الجنيد وزويم وأبي تراب النخشي، وهو أستاذ أبي جعفر الحداد لصغير، وكان شديد الاجتهاد معروفاً بالإيثار، من رؤساء الصوفية.

انظر ترجمته في:

طبقات الصوفية ص ٢٣٤، تاريخ بغداد ١٤/ ٤١٢، حبة الأولياء ١/ ٣٣٩ -

٣٤٠.

وَأَقْوَالُهُ، عَلَى حَسَبِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، إِنْ دَخَلَ الْحَرَامُ خَرَجَ الْحَرَامُ^(١)،
وَإِنْ دَخَلَ الْفُضُولُ خَرَجَ الْفُضُولُ، فَكَأَنَّ الطَّعَامَ بَدْرُ الْأَفْعَالِ، وَالْأَفْعَالُ
نَبْتُ تَبْدُو مِنْهُ.

وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ قَلَّةَ الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ، فَإِنَّ الْبُطْنَةَ
تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ. وَلَقَدْ صَدَقَ الدَّارَانِيُّ^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ:
«إِذَا أَرَدْتَ حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا تَأْكُلْ حَتَّى تَقْضِيَهَا،
فَإِنَّ الْأَكْلَ يُغَيِّرُ الْعَقْلَ، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ عِلْمُهُ لِمَنْ اخْتَبَرَهُ.

وَالرَّابِعَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ قَلَّةَ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْإِنْسَانَ
الْأَكْلَ ثَقُلَ بَدَنُهُ، وَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، وَفَتَرَتْ أَعْضَاؤُهُ؛ فَلَا يَجِيءُ مِنْهُ
شَيْءٌ - وَإِنْ اجْتَبَدَ - إِلَّا النَّوْمَ كَالْجِيفَةِ الْمُلْقَاةِ؛ وَلَقَدْ قِيلَ: إِذَا كُنْتُ
بَطْنًا فَعُدَّ نَفْسَكَ زَمَنًا.

وَلَقَدْ ذَكَرَ عَنْ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ إِبْلِيسَ بَدَأَ لَهُ وَعَيْنِهِ مَعَالِيقُ
فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: مَا هَذِهِ؟ فَقَالَ: الشَّهَوَاتُ الَّتِي أَصِيدُ بِهَا بَنِي آدَمَ،
قَالَ: هَلْ تَجِدُ لِي فِيهَا شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّكَ شَبِعْتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ
فَفَقَلْنَاكَ عَنِ الصَّلَاةِ، فَقَدْ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا جَرَمَ لِي لَا أَشْبَعُ
بَعْدَهَا أَبَدًا. فَقَالَ إِبْلِيسُ: لَا جَرَمَ لِي لَا أَنْصَحُ بَعْدَهُ أَحَدًا أَبَدًا.

(١) أي إذا دخل جوفه حرام كنت عماله وأقواله حراماً بحرام.

(٢) الإمام الكبير، زاهد العصر أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الداراني. أحد
رجال الطريقة، كان من جملة نسادات وأرباب الجد في المجاهدات توفي سنة
خمس عشرة ومئتين وفي رواية أخرى سنة خمس ومئتين. سير أعلام النبلاء
١٨٢/١٠.

(٣) البطن: عظيم البطن من كثرة الأكل. والزمن: صاحب المرض المزمن.

فَهَذِهِ فِيمَنْ لَمْ يَشْبَعْ فِي عُمُرِهِ إِلَّا لَيْلَةً وَاحِدَةً، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَجُوعُ فِي عُمُرِهِ لَيْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَطْمَعُ فِي الْعِبَادَةِ؟.

وَقَالَ سُفْيَانُ: الْعِبَادَةُ حِرْفَةٌ، وَحَانُوتُهَا الْخَلْوَةُ، وَاللَّهْيَا الْمَجَاعَةُ.

وَالْخَامِسَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ فَقْدَ حَلَاوَةِ الْعِبَادَةِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا شَبِعْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ لِأَجْدِ حَلَاوَةِ عِبَادَةِ رَبِّي، وَمَا رَوَيْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ اشْتِيَاقًا إِلَى لِقَاءِ رَبِّي». وَهَذِهِ صِفَاتُ الْمُكَاشِفِينَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُكَاشِفًا، وَإِلَيْهِ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ:

«مَا فَضَلَكُم أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ أَوْ صَلَاةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ بِشَيْءٍ وَقَرَّ فِي صَدْرِهِ»^(١) وَقَالَ الدَّارَانِيُّ: أَحْلَى مَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ إِذَا التَّرَقَّ بِطَنِي بِظَهْرِي.

وَالسَّادِسَةُ: أَنَّ فِيهِ خَطَرَ الْوُقُوعِ فِي الشُّبْهَةِ وَالْحَرَامِ؛ لِأَنَّ الْحَلَالَ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا. وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

(١) – ورد هذا الحديث في الإحياء (٢٣/١) بلفظ: (ما فضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام. ولكن بشيء وفر في صدره).

– وفي رواية أخرى أوردها الغزالي (الإحياء ١/١٠٠): (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسرّ وفر في صدره).

– قال العراقي: إحياء (٢٣/١): أخرجه الترمذي في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

«الْحَلَالُ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوْتًا، وَالْحَرَامُ يَأْتِيكَ جُزْفًا جُزْفًا»^(١).

وَالسَّابِعَةُ: أَنَّ فِيهِ شُغْلَ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ، بِتَحْصِيلِهِ أَوَّلًا، وَبِتَهْيِئَتِهِ ثَانِيًا، ثُمَّ بِأَكْلِهِ ثَالِثًا، ثُمَّ بِإِفْرَاقِهِ وَالتَّخْلِصِ عَنْهُ رَابِعًا، ثُمَّ بِالسَّلَامَةِ مِنْهُ خَامِسًا، بِأَنْ تَبْدُو مِنْهُ آفَةً فِي الْبَدَنِ بِلِ آفَاتٍ وَعِلَلٍ. وَلَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرْدَةُ، يَعْنِي التُّخْمَةَ، وَأَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ الْأَزْمَةُ، يَعْنِي الْحِمِيَّةَ»^(٢).

(١) - لم نجد له أصلًا في ما بين أيدينا من كتب الحديث.

وجزفًا: أي بكثرة دون تحديد.

(٢) - ورد في الإحياء (٨٧/٣) حديث: (البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء،

وعودوا كل بدن بما اعتاد) قال العراقي: لم أجد له أصلًا.

- وفي الجامع الصغير للسيوطي (١٤٠/١) ورد النصف الأول من الحديث

(أصل كل داء البردة) رواه الدارقطني في العلل عن أنس، وابن السني وأبو نعيم

في الطب النبوي عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وعن الزهري

مرسلًا. ولم يشر السيوطي إلى درجته من الصحة أو الضعف (راجع الحديث

رقم ١٠٨٧).

- وذكر المناوي في فيض القدير (٥٣٢/١) في الشرح والتعليق على هذا

الحديث أَنَّ مخرجه الدارقطني تعقبه بتضعيفه، فهو مروى من حديث محمد بن

جابر عن تمام بن نجيح عن الحسن البصري عن أنس بن مالك.

- وقال ابن الجوزي: قال ابن حبان: تمام مُنْكَرُ الحديث، يروي أشياء موضوعة

عن الثقات، كان يعتمدها. قال ابن عدي والعقيلي حديثه منكر، وعامة ما يرويه

لا يتابع عليه، وفي الميزان: محمد هذا - أي محمد بن جابر - لعل البلاء منه.

وفي الطب النبوي لابن السني وأبي نعيم والمستغفري كلهم روه عن علي بن

أبي طالب وفيه إسحاق بن نجيح الملطي كان يضع الحديث. وقال بعضهم: ولا

يصح شيء من طرقه، وقال ابن عدي: باطل بهذا الإسناد.

(راجع فيض القدير: الحديث رقم ١٠٨٧).

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: يَا هُوَلَاءِ لَقَدْ اخْتَلَفْتُ إِلَى
الْخَلَاءِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي (بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْأَكْلِ، فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ
جَعَلَ رِزْقِي فِي حَصَاةٍ أَمْصُهَا حَتَّى أَمُوتَ) (١).

ثُمَّ لَا بُدَّ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ (٢) مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا وَالطَّمَعِ فِي
النَّاسِ، وَتَضْيِيعِ الْوَقْتِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْأَكْلِ.

وَالثَّامِنَةُ: مَا يَنَالُهُ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ وَشِدَّةِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ؛
رَوَى فِي الْأَخْبَارِ: «أَنَّ شِدَّةَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ عَلَى قَدْرِ لَذَاتِ الْحَيَاةِ»،
فَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ أَكْثَرَ لَهُ مِنْ تِلْكَ.

وَالثَّاسِعَةُ: نُقْصَانُ الثَّرَابِ فِي الْعُقْبَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبْتُمْ
طَبِئَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ نُجْزُونَ عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠] فَإِنَّهُ بِقَدْرِ مَا تَأْخُذُ
مِنْ لَذَاتِ الدُّنْيَا يَنْقُصُ نِكَ مِنْ لَذَاتِ الْآخِرَةِ.

وَلِهَذَا الْمَعْنَى رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا عَرَضَ الدُّنْيَا عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ
قَالَ لَهُ: «وَلَا أَنْقُصُ مِنْ آخِرَتِكَ شَيْئاً» (٣)، خَصَّهُ بِذَلِكَ، فَذَكَرَ عَلَى أَنَّ
لِغَيْرِهِ النُّقْصَانَ، إِلَّا أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

(١) جملة ساقطة من الأصل مثبتة في (ج) و (د) و (هـ).

(٢) أي لتحقيق ما سبق من تحصيل الطعام وتهيئته.

(٣) - قال العراقي (إحياء ٢١٢/٣): أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورواه أحمد

والطبراني متصلًا من حديث أبي مويهبة في أثناء حديث فيه: (إني قد أعطيت

خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة...) وسنده صحيح.

- وفي مسند ابن حنبل (٤٨٩/٣) روي هذا الحديث عن أبي مويهبة مولى

رسول الله ﷺ بلفظ: (إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم =

وَلَقَدْ رُويَ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَصَافَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهَيَّأَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا لَنَا، فَمَا لِلْفُقَرَاءِ
الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَلَمْ يَشْبَعُوا مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ؟ قَالَ خَالِدٌ: لَهُمْ
الْجَنَّةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: لَنْ فَازُوا بِالْجَنَّةِ، وَكَانَ هَذَا [٤١/أ]

حَظَّنَا مِنَ الدُّنْيَا، فَقَدْ بَانُوا مِنَّا بَوْنًا عَظِيمًا.

وَرُويَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَطِشَ يَوْمًا، فَدَعَا بِمَاءٍ،
فَأَعْطَاهُ رَجُلٌ إِدَاوَةً فِيهَا مَاءٌ نُبَذَ فِيهِ تَمْرَاتٌ، فَلَمَّا قَرَّبَهَا عُمَرُ مِنْ فِيهِ
وَجَدَ الْمَاءَ بَارِدًا حُلُومًا، فَأَمْسَكَ وَقَالَ: أَوْه، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا
أَلْوَنُهُ^(١) حَلَاوَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَالَ عُمَرُ: ذَلِكَ الَّذِي مَنَعَنِي مِنْهُ، وَيَحْكُ،
لَوْلَا الْآخِرَةُ لَشَارَكْنَاكُمْ فِي عَيْشِكُمْ.

وَالْعَاشِرَةُ: الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ فِي تَرْكِ الْأَدَبِ
فِي أَخْذِ الْفُضُولِ^(٢) وَطَلَبِ الشَّهَوَاتِ، فَإِنَّ «الدُّنْيَا حَلَالُهَا حِسَابٌ،
وَحَرَامُهَا عِقَابٌ، وَزِينَتُهَا إِلَى تَبَابٍ»^(٣).

= الجنة، وُخِيْرَتِ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةِ قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ
وَأُمِّي فَخُذْ مِفْتَاحَ دُنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْبَةَ لَقَدْ
اخْتَرْتَ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ).

ويلاحظ أن القسم الذي يذكره الغزالي لم يرد في رواية أبي مويبة كما يذكرها
ابن حنبل.

— راجع أيضاً سراج الضَّالِّين (٤٩٦/١) للكديري ففيه تفصيل ذلك.

(١) ما أَلْوَنُهُ حَلَاوَةٌ: أَي مَا قَصَّرَتْ فِي تَحْلِيَّتِهِ.

(٢) أَي فَضُولِ الْحَلَالِ.

(٣) تَبَابٌ: خَسْرَانٌ وَهَلَاكٌ.

— ذُرُّ الْعِرَاقِي: أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ مِنْ طَرِيقِهِ مَوْقُوفًا =

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ الْعَشْرَةِ وَفِي إِحْدَاهَا كِفَايَةٌ لِمَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ؛ فَعَلَيْكَ
 أَيُّهَا الْمُجْتَهِدُ بِالِاخْتِيَاظِ الْبَالِغِ فِي الْقُوَّةِ كَيْ لَا تَقَعَ فِي حَرَامٍ أَوْ
 شُبْهَةٍ فَيَلْزَمَكَ الْعَذَابُ، ثُمَّ بِالِاقْتِصَارِ مِنَ الْحَلَالِ عَلَى مَا يَكُونُ عُدَّةً
 عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا تَقَعَ فِي شَرٍّ، فَتَبْقَى فِي الْحَبْسِ
 وَالْحِسَابِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ سُبْحَانَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبَيْنَ لَنَا أَوْلَا حُكْمَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ وَحَدَّهُمَا: فَأَقُولُ
 لَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَشْبَعْنَا فِيهِ فِي «أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ»، وَذَكَرْنَا لَهُ كِتَابًا
 مُفْرَدًا فِي كُتُبِ «الإِحْيَاءِ»، لَكِنَّا نُسِيرُ إِلَى كَلِمَاتٍ مُفْرَدَةٍ بِحَيْثُ تَصِلُ
 إِلَى فَهْمِ الضَّعِيفِ الْمُبْتَدِي، إِذْ مَقْصُودُ هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ
 الْمُبْتَدِي فِي الْعِبَادَةِ، وَيُعِينُ الطَّالِبَ.

الحرام والشبهة
 قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَا تَيَقَّنْتَ كَوْنَهُ مِلْكَاً لِلْغَيْرِ، مِنْهُيَّا عَنْهُ فِي
 الشَّرْعِ، فَهُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ. وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ يَقِينٌ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ
 يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ كَذَلِكَ، فَهُوَ شُبْهَةٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْحَرَامُ الْمَخْضُ مَا يَكُونُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَالِبٌ
 ظَنٌّ، لِأَنَّ غَلْبَةَ الظَّنِّ مِثْلًا تَجْرِي مَجْرَى الْعِلْمِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ؛
 فَأَمَّا إِذَا تَسَاوَتِ الْأَمَارَتَانِ، حَتَّى تَبْقَى شَاكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدِهِمَا تَرْجِيحٌ
 عِنْدَكَ، فَذَلِكَ شُبْهَةٌ، يُشْبَهُ أَنَّهُ حَلَالٌ وَيُشْبَهُ أَنَّهُ حَرَامٌ، فَاشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَيْكَ
 وَالتَّبَسَّ حَالُهُ.

= على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ، «وحرامها النار» ونم أجدّه مرفوعاً.
 (الإحْيَاءُ ٣/٢٢٠).

ثُمَّ الْامْتِنَاعُ عَنِ الَّذِي هُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ حَتْمٌ وَاجِبٌ، وَعَنِ الَّذِي هُوَ شُبْهَةٌ تَقْوَى وَوَرَعٌ، وَهَذَا أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدَنَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ فِي قَبُولِ جَوَائِزِ السَّلَاطِينِ^(١) فِي هَذَا [٤١/ب] الزَّمَانِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ قَوْمٌ: كُلُّ مَا لَا يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَكْمٌ حَرَامٌ فَلَهُ أَخْذُهُ.
وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يَحِلُّ أَنْ يَأْخُذَ مَا لَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ حَلَالٌ، لِأَنَّ السَّلَاطِينَ الْغَالِبَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى أَمْوَالِ السَّلَاطِينِ الْحَرَامِ، وَالْحَلَالُ فِي أَيْدِيهِمْ مَعْدُومٌ عَزِيزٌ.

وَقَالَ قَوْمٌ: إِنْ صَلَاتِ السَّلَاطِينِ تَحِلُّ لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ إِذَا لَمْ يَتَحَقَّقْ أَنَّهَا حَرَامٌ، وَإِنَّمَا التَّبَعَةُ عَلَى الْمُعْطِيِّ. قَالُوا: لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ هَدْيَةِ الْمُقَوْسِ مَلِكِ الْأَسْكَندَرِيَّةِ، وَاسْتَقْرَضَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ قَوْلِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَكْكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

قَالُوا: وَقَدْ أَدْرَكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيَّامَ الظَّلْمَةِ وَأَخَذُوا مِنْهُمْ، فَمِنْهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَأَبْنُ عَبَّاسٍ^(٢)، وَأَبْنُ عُمَرَ^(٣)، وَغَيْرُهُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ بِالْمَفْرَدِ. وَالتَّصْحِيحُ مِنْ بَاقِي النِّسْخِ.

(٢) حَبِيبُ الْأُمَّةِ وَفَقِيهُ الْعَصْرِ وَإِمَامُ التَّفْسِيرِ، أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ. وَنَدَّ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ. وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ دَعَا لَهُ فَقَالَ: «الْبُيُوتُ فَفَقِهَ فِي الدِّينِ وَعَلِمَهُ التَّأْوِيلَ». صَحِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَهْرًا. وَحَدَّثَ عَنْهُ وَعَنِ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمَعَاذٍ وَغَيْرِهِمْ. وَرَوَى عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ.
تَوَفَّى ابْنُ عَبَّاسٍ سَنَةَ ثَمَانٍ أَوْ سَبْعٍ وَسِتِّينَ، وَقَبْلَ: عَاشَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ سَنَةً. سِيرَ أَعْلَامُ النَّبِيَاءِ ٣/٣٣١.

(٣) ابْنُ الْخُضْبِ، الْإِمَامُ الْقُدْرَةُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيُّ الْعَدَوِيُّ الْمَكِّيُّ ثُمَّ =

وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يَحِلُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ لَا لِغِنَى وَلَا لِفَقِيرٍ، إِذْ هُمْ مَوْسُومُونَ بِالظُّلْمِ، وَالغَالِبُ مِنَ حَالِهِمُ السُّحْتُ وَالْحَرَامُ، وَالْحُكْمُ لِلغَالِبِ، فَيَلْزَمُ الاجْتِنَابُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَا لَا يَتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَهُوَ حَلَالٌ لِلْفَقِيرِ دُونَ الغِنَى، إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ الْفَقِيرُ أَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ الغَضَبِ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ إِلَّا لِزِدَّةٍ عَلَى مَالِكِهِ. وَلَا حَرَجَ عَلَى الْفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِ السَّلَاطِينِ، لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِلْكَ السُّلْطَانِ فَأَعْطَى الْفَقِيرَ فَلَهُ أَخْذُهُ بِلا رَيْبٍ؛ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فَيْءٍ أَمْ خَرَاجٍ أَوْ عَشْرِ، فَلِلْفَقِيرِ فِيهِ حَقٌّ، وَكَذَلِكَ لِأَهْلِ العِلْمِ؛ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ دَخَلَ الإِسْلَامَ طَائِعاً وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ظَاهِراً، فَلَهُ فِي بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ كُلِّ سَنَةٍ مائتا دِرْهَمٍ وَرُوي مائتا دِينَارٍ، إِنْ لَمْ يَأْخُذْهَا فِي الدُّنْيَا أَخْذَهَا فِي الآخِرَةِ». وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْفَقِيرُ وَالْعَالِمُ يَأْخُذَانِ مِنْ حَقِّهِمَا.

قَالُوا: وَإِذَا كَانَ الْمَالُ مُخْتَلِطاً بِمَالٍ مَغْضُوبٍ وَلَا يُمْكِنُ تَمْيِيزُهُ، أَوْ غَضَباً لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ عَلَى صَاحِبِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، فَلَا مَخْلَصَ لِلسُّلْطَانِ مِنْهُ إِلَّا بِأَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَأْمُرَهُ بِالصَّدَقَةِ عَلَى

= المدني أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وأول غزوة غزاها الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة.

روى علماء كثيراً نفعاً عن النبي ﷺ وعن أبيه وأبي بكر وعثمان وعلي وبلال وصهيب وغيرهم، كما روى عنه خلق كثير.

وقد توفي بمكة سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وثمانين سنة. سير أعلام النبلاء ٢٠٣/٣.

الْفَقِيرِ وَيَنْهَى الْفَقِيرَ عَنْ قُبُولِهَا، أَوْ يَأْذَنُ لِلْفَقِيرِ فِي الْقَبُولِ وَهُوَ عَلَيْهِ حَرَامٌ، فَأَذِنَ لِلْفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ، إِلَّا عَيْنَ الْغَضَبِ وَالْحَرَامِ، فَلَيْسَ لَهُ أَخْذُهُ. وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ لَا يُمْكِنُ الْفَتْوَى فِيهَا إِلَّا بِبَسْطِ وَتَشْقِيقِ، وَأَسْتِيعَابِ الْقَوْلِ فِيهَا يُخْرِجُ عَنِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْكِتَابِ / فَإِنْ أَرَدْتَ [٤٢/أ] مَعْرِفَتَهَا فَطَالِعْ كِتَابَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مِنْ كِتَابِ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» تَجِدُهُ مَشْرُوحًا مُبَيَّنًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُ فِي صَلَاتِ أَهْلِ الشُّوقِ وَغَيْرِهِمْ، هَلْ يَلْزَمُ رُدُّهَا وَالْبَحْثُ عَنْهَا وَقَدْ عَلِمْتَ مُجَازَفَتَهُمْ، وَقِلَّةَ نَظَرِهِمْ فِي صَلَاتِ مُعَامَلَاتِهِمْ، وَكَذَلِكَ صَلَاتِ الْإِخْوَانِ؟

صلات
أهل
السوق

فالجواب أنه إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر، فلا حرج عليك في قبول صلته وصدقته، ولا يلزم البحث بأن تقول قد فسد الزمان، فإن هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم، بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به.

ثُمَّ أَعْلَمَ مَا هُوَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ، وَهُوَ أَنَّ هَهُنَا شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا حُكْمُ الشَّرْعِ وَظَاهِرُهُ؛ وَالثَّانِي حُكْمُ الْوَرَعِ وَحَقُّهُ.

فَحُكْمُ الشَّرْعِ أَنْ تَأْخُذَ مَا أَتَاكَ مِنْ ظَاهِرِهِ صَلَاحٌ، وَلَا تَسْأَلُ حُكْمَ الشَّرْعِ إِلَّا أَنْ تَتَيَقَّنَ أَنَّهُ غَضَبٌ أَوْ حَرَامٌ بِعَيْنِهِ.

وحكم الورع

وَحُكْمُ الْوَرَعِ أَنْ لَا تَأْخُذَ شَيْئًا مِنْ أَحَدٍ حَتَّى تَبْحَثَ عَنْهُ غَايَةَ الْبَحْثِ وَتَسْتَقْصِي عَلَيْهِ غَايَةَ الْإِسْتِقْصَاءِ، فَتَسْتَيْقِنَ أَنَّهُ لَا شُبْهَةَ فِيهِ بِحَالٍ، وَإِلَّا فَتَرُدَّهُ.

فَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ غُلَامًا لَهُ

أَتَاهُ بِلَبَنِ فَشَرِبَهُ، فَقَالَ الْغُلَامُ: كُنْتُ إِذَا جِئْتُكَ بِشَيْءٍ تَسْأَلُنِي عَنْهُ وَلَمْ تَسْأَلْنِي عَنْ هَذَا اللَّبَنِ؟ فَقَالَ: وَمَا قَصَّتُهُ؟ قَالَ: رَقَيْتُ قَوْمًا رَقِيَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَعْطَوْنِي هَذَا، فَتَقِيًّا أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَذِهِ مَقْدِرَتِي، فَمَا بَقِيَ فِي الْعُرُوقِ فَأَنْتَ حَسْبُهُ، فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُوبِ الْبَحْثِ عَمَّا تَقْدُمُ عَلَيْهِ، إِنْ كَانَ لَكَ نَظَرٌ فِي الْوَرَعِ وَحَقِّهِ، فَهَذِهِ هَذِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَأَنَّ الْوَرَعَ يُخَالِفُ الشَّرْعَ وَحُكْمَهُ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرْعَ مَوْضُوعٌ عَلَى الْيُسْرِ وَالسَّمَاخَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(١) وَالْوَرَعُ مَوْضُوعٌ عَلَى التَّشْدِيدِ وَالِإِحْتِيَاظِ، كَمَا قِيلَ: الْأَمْرُ عَلَى الْمُتَّقِينَ أَضْيَقُ مِنْ عَقْدِ التَّسْعِينَ.

ثُمَّ الْوَرَعُ مِنَ الشَّرْعِ أَيْضًا، فَكِلَاهُمَا فِي الْأَصْلِ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ لِلشَّرْعِ حُكْمَانِ: حُكْمُ الْجَوَازِ، وَحُكْمُ الْأَفْضَلِ وَالْأَحْوَطِ. وَالْجَائِزُ يُقَالُ

(١) — قال العراقي (إحياء ١٥١/٤) أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. وله وللطبراني من حديث ابن عباس (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) وفيه محمد بن إسحاق رواه بالنعنة.

— وقد ورد هذا الحديث في الإحياء (١٥١/٤) بزيادة لفظة (السهلة) على آخره. وهي لم ترد في روايات هذا الحديث.

— وقد روى البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان) أنه ﷺ قال: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» (١٦/١).

— كذلك رواه ابن حنبل في مسنده بلفظ (الأديان) (٢٣٦/١).

— وله رواية أخرى بلفظ: (بعثت بالحنيفية السمحة) (٢٦٦/٥) وهذه الرواية تتفق مع رواية الغزالي للحديث الذي نحن بصدده.

— ويروي ابن حنبل أيضاً هذا الحديث بلفظ: (إني أرسنت بحنيفية سمحة) (٢٣٣ ١١٦/٦).

لَهُ: حُكْمُ الشَّرْعِ، وَالْأَفْضَلُ الْأَحْوَطُ يُقَالُ لَهُ: حُكْمُ الْوَرَعِ، فَهُمَا مَعَ تَمَيُّزِهِمَا وَاحِدٌ فِي الْأَصْلِ، فَافْتَهَمَ ذَلِكَ رَاشِدًا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا جَاَزَ الْبَحْثُ وَالِاسْتِقْصَاءُ عَن كُلِّ شَيْءٍ فَسَدَ عَلَيْنَا مَا نَأْخُذُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَتَعَذَّرَ الْأَمْرُ/ بِمَرَّةٍ عَلَى صَاحِبِ الْوَرَعِ، إِذْ [٤٢/ب] لَا بُدَّ لَهُ مِنْ بَلَاغٍ يُبَلِّغُهُ إِلَى الطَّاعَةِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ طَرِيقَ الْوَرَعِ شَدِيدٌ، وَأَنَّ مَنْ قَصَدَ سُلُوكَهُ فَشَرَطَهُ أَنْ يَوْطِنَ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ عَلَى احْتِمَالِ الشَّدَةِ وَإِلَّا فَلَا يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى صَارَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ وَالسَّابِقُونَ إِلَى جَبَلِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِ، فَاقْتَصَرُوا عَلَى أَكْلِ الْحَشِيشِ وَثَمَرَاتِ تَافِهَةٍ لَا شُبْهَةَ فِيهَا بِحَالٍ، فَمَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَى نَيْلِ مَنْزِلَةِ الْوَرَعِ الْأَعْلَى، فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْتَمِلَ الشَّدَائِدَ وَيَصْبِرَ عَلَيْهَا، وَيَسْلُكَ طَرِيقَ أَوْلِيكَ، لِيَنَالَ مَنْزِلَتَهُمْ؛ وَأَمَّا إِنْ أَقَامَ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَكَلَ مِمَّا يَتَنَاوَلُونَهُ فِي أَيْدِيهِمْ، فَلْيَكُنْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ لَا يَفْدُمُ عَلَيْهَا إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ، ثُمَّ لَا يَتَنَاوَلُ مِنْهَا إِلَّا مِقْدَارَ مَا يُبَلِّغُهُ إِلَى الطَّاعَةِ، فَيَكُونُ لَهُ عُذْرٌ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَضُرُّهُ إِنْ كَانَ فِي أَصْلِهِ شُبْهَةٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْلَى بِالْعُذْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَسَدَ السُّوقُ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُوْتِ^(١).

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَن وَهَبِ بْنِ الْوَرْدِ^(٢) أَنَّهُ كَانَ يُجَوِّعُ نَفْسَهُ يَوْمًا

(١) أي فسد السوق بمن فيه وما فيه بسبب كثرة الفساد والخيانة والبعد عن طاعة الله، لذا عليكم بما يقتت به المرء ليستطيع القيام بما عليه من واجبات، دون زيادة في ذلك.

(٢) ابن أبي الورد المخزومي. مولاهم، المكي، ويقال اسمه عبد الوهاب، ووهيب =

وَيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، ثُمَّ يَأْخُذُ رَغِيْفًا وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَقْوَى عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَخْشَى الضَّعْفَ وَالْأَلَمَ إِنْ لَمْ أَكُلْهُ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ خَبَثٍ أَوْ حَرَامٍ فَلَا تُؤَاخِذْنِي بِهِ، ثُمَّ يَبْلُ الرَّغِيْفَ فِي الْمَاءِ وَيَأْكُلُهُ.

قُلْتُ: فَهَذَانِ الطَّرِيقَانِ^(١) لِلطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ فِيمَا نَعَلَّمَهُ؛ وَأَمَّا مَنْ دُونَهُمْ فَلَهُمْ اِحْتِيَاطٌ وَبَحْثٌ عَلَى مِقْدَارٍ، وَلَهُمْ أَيْضاً نَصِيبٌ مِنَ الْوَرَعِ عَلَى مِقْدَارٍ، وَبِقَدْرِ مَا تَتَعَنَّى تَنَالُ مَا تَتَمَنَّى، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَذَا جَانِبُ الْحَرَامِ، فَأَخْبِرْنَا عَنْ جَانِبِ الْحَلَالِ، وَمَا حَدُّ الْفُضُولِ الَّذِي يَنْزُهُ مِنْهُ الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ، وَمَا الْمِقْدَارُ الَّذِي إِذَا أَخَذَهُ الْعَبْدُ يَكُونُ ذَنْبٌ أَدْبًا، وَلَا يَكُونُ فَضُولًا، وَلَا عَنَيْهِ فِيهِ حَبْسٌ وَلَا حِسَابٌ؟ يُقَالُ لَهُ:

فَاعْلَمْ أَنَّ أَحْوَالَ الْمُبَاحِ فِي الْجُمْلَةِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَأْخُذَهُ الْعَبْدُ مُفْخِرًا مُكَاثِرًا مُبَاهِيًا مُرَائِدًا، فَيَكُونُ الْأَخْذُ مِنْهُ فِعْلًا مُنْكَرًا، يَسْتَوْجِبُ عَنِّي ظَاهِرِ فِعْلِهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ

= نقب له، وكنيته أبو عثمان ويقال أبو مية. روى عند عبد الله بن المبارك وعمارة بن القعقاع. قال يحيى بن معين: هو ثقة، وقال أبو حاتم: كان من نعباد. وكانت له أحاديث ومواعظ وزهد. وكان سفيان الثوري إذا حدث نكس وفرغ قال: قوموا بنا إلى الطبيب يعني وهيب. وقد توفي عام ١٥٠ هـ. سير أعلام النبلاء ١٩٨/٧.

(١) أي احتمال الشدائد والصبر عليها.

وَاللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ، وَهُوَ/ مُنْكَرٌ وَشَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَى بَاطِنِ فِعْلِهِ - وَهُوَ [٤٣/أ]
التَّكَاثُرُ وَالتَّفَاخُرُ - عَذَابُ النَّارِ، وَذَلِكَ الْقَصْدُ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ وَذَنْبٌ،
لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَمَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَفِي الآخِرَةِ
عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا مَبَاهِيًا مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا
مُرَائِيًا لِقَبِي اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(١) فَالْوَعِيدُ عَلَى قَصْدِهِ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ.
وَالْقِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يَأْخُذَ الْحَلَالَ لِشَهْوَةِ نَفْسِهِ لَا غَيْرَ، فَذَلِكَ
مِنْهُ شَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ
يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. وَقَالَ ﷺ: «حَلَالُهَا
حِسَابٌ»^(٢).

(١) - ورد هذا الحديث في الإحياء بلفظ: (من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً
لقبي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء
يوم القيمة ووجهه كالقمر ليلة البدر) (إحياء ٢٢١/٣).

قال العراقي: أخرجه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث أبي
هريرة بسند ضعيف.

وقد رواه أبو نعيم في الحلية (٣/١١٠، ٨، ٢١٥) عن أبي هريرة من حديث مكحول
وقال أبو نعيم: غريب من حديث مكحول. لا أعلم له راوياً عنه إلا الحجاج.
ورواية منهاج العابدين تنفق مع رواية الحلية في جميع ألفاظ الحديث.

(٢) ورد هذا الحديث في إحياء بهذا اللفظ دون ذكر القسم الأخير منه (٣/٢٢٠)
وورد برواية أخرى بلفظ: (حرامها عذاب) (٤/٣٧١).

قال العراقي (إحياء ٣/٢٢٠) أخرجه أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب من طريقه
موقوف على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ: (وحرامها النار) ولم أجد
مرفوعاً.

- وذكره السخاوي في مقاصد الحسنة (ص ١٩٦) وأشار إلى انقطاع سنده. =

وَالْقِسْمُ الثَّلَاثُ: أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْحَلَالِ فِي حَالِ الْعُذْرِ، قَدْرًا
يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، فَذَلِكَ مِنْهُ خَيْرٌ
وَحَسَنَةٌ وَأَدَبٌ وَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عِقَابَ، بَلْ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ الْأَجْرَ
وَالْمِدْحَةَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠٢]،
وَقَالَ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا، أَسْتَعْفَافًا عَنِ الْمَسْئَلَةِ
وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ، وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ
كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»^(١)، وَذَلِكَ لِمَا قَصَدَ بِهِ هَذِهِ الْقُصُودَ الْمَحْمُودَةَ لِلَّهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَهَذِهِ هَذِهِ فَاعْلَمَهَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا شَرْطُ الْمُبَاحِ حَتَّى يَصِيرَ خَيْرًا وَحَسَنَةً كَمَا
ذَكَرْتُمْ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَخْتَاجُ لِكَوْنِهِ خَيْرًا فِي الْأَصْلِ إِلَى شَرْطَيْنِ: أَحَدُهُمَا:
الْحَالُ، وَالثَّانِي: الْقَصْدُ.

شَرْطُ الْمُبَاحِ
فَالْحَالُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي حَالِ عُذْرٍ، وَهُوَ بِحَيْثُ إِنْ لَمْ يَأْخُذْ
تُؤْخِذْ نَفْسُهُ؛ وَتَفْسِيرُهُ أَنْ يَكُونَ حَالُهُ إِنْ لَمْ يُؤْخِذْ ذَلِكَ الْمُبَاحُ يَنْقَطِعُ
بِسَبَبِهِ عَنِ فَرَضٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ نَفْلِ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَفْضَلَ مِنْ تَرْكِ الْمُبَاحِ،
فَإِنَّ تَرْكَ الْمُبَاحِ الدُّنْيَا فَضِيلَةٌ، فَإِذَا كَانَ الْحَالُ كَذَلِكَ فَهُوَ حَالُ الْعُذْرِ.

= وأضاف: وفي مسند الفردوس عن ابن عباس رفعه: يا ابن آدم ما تصنع بالدنيا؟
حللها حساب وحرامها عقاب.

وفي حاشية المقاصد ذكر أن محيي الدين بن العربي أسنده في المسامرات عن
أبي هريرة. ولعل الزيادة الأخيرة في هذا الحديث هي من عند الغزالي.
وانه أعلم.

(١) - راجع الحديث رقم ٥٩ الذي سبق ذكره وتخريجه ص ٢١٣، حاشية (١).

وَأَمَّا الْقَصْدُ، فَإِنْ يَفْضَدُ بِهِ الْعُدَّةَ وَالِاسْتِعَانَةَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ، وَهُوَ أَنْ يَذْكَرَ بِقَلْبِهِ، أَنَّهُ لَوْلَا مَا فِيهِ مِنَ التَّوَصُّلِ إِلَى
عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا أَخَذَ ذَلِكَ، فَهَذَا ذِكْرُ الْحُجَّةِ. فَلَمَّا حَصَلَ ذِكْرُ
الْحُجَّةِ فِي حَالِ الْعُذْرِ، صَارَ ذَلِكَ الْأَخْذُ مِنَ الدُّنْيَا الْحَلَالِ خَيْرًا
وَحَسَنَةً وَأَدَبًا. وَأَمَّا لَوْ كَانَ حَالُهُ حَالَ الْعُذْرِ/ وَلَا يَكُونُ لَهُ هَذَا [ب/٤٣]
الْقَصْدُ وَالذِّكْرُ، أَوْ يَكُونُ لَهُ هَذَا الذِّكْرُ، وَلَا يَكُونُ فِي حَالِ الْعُذْرِ
فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ الْأَخْذُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَيْرَاتِ.

ثُمَّ الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى حِفْظِ هَذَا الْأَدَبِ تَحْتَاجُ إِلَى بَصِيرَةٍ وَقَصْدٍ
مُجْمَلٍ بِأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ (مِنْ) ^(١) الدُّنْيَا بِحَالِهَا إِلَّا لِلْعُدَّةِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ
تَعَالَى، حَتَّى إِنَّهُ إِنْ سَهَا عَنْ ذِكْرِ الْحُجَّةِ فِي حَالِ، أَجْزَأَهُ ذَلِكَ
الْقَصْدُ الْمُجْمَلُ عَنْ تَجْدِيدِ ذِكْرِ الْحُجَّةِ. قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَصَارَتِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ مُعْتَبَرَةً فِيهِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ وَجْهِ؛ يَعْني
أَنَّ الذِّكْرَ وَالْحَالَ مُعْتَبَرَانِ فِي حُصُولِ كَوْنِهِ خَيْرًا أَصْلًا، وَالْقَصْدُ
الْمُجْمَلُ الْمُقْتَضِي عَنْ بَصِيرَةٍ مَنَزَلَةَ الْأَدَبِ، مُعْتَبَرٌ فِي الْإِسْتِقَامَةِ
عَلَيْهِ، فَافْهَمْ ذَلِكَ رَاشِدًا.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِنْ أَخَذَ الدُّنْيَا الْحَلَالَ لِشَهْوَةٍ، فَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ
مَعْصِيَةً، وَهَلْ يَلْزَمُ عَلَيْهِ عَدَابٌ، وَهَلِ الْأَخْذُ بِالْعُذْرِ فَرَضٌ أَمْ لَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ فَضِيحَةٌ وَتَسْمِيَةٌ خَيْرًا وَحَسَنَةً، وَالْأَمْرُ بِهِ أَمْرٌ أَخَذَ الْحَلَالَ
تَأْدِيبًا، وَالْأَخْذُ بِالشَّهْوَةِ أَخْذٌ شَرٌّ وَسَيِّئَةٌ، وَالتَّهْيِي عَنْهُ نَهْيٌ زَجْرٌ لِشَهْوَةٍ

(١) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَعْصِيَةٍ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ عَذَابُ النَّارِ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْحَبْسُ
وَالْحِسَابُ وَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا هَذَا الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ الَّذِي يَلْزِمُ الْعَبْدَ؟

الحبس والحساب
فَاعْلَمْ أَنَّ الْحِسَابَ أَنْ تُسْأَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّاذَا أَكْتَسَبْتَ،
وَفِيمَاذَا أَنْفَقْتَ، وَمَاذَا أَرَدْتَ بِذَلِكَ؟ وَالْحَبْسُ حَبْسٌ عَنِ الْجَنَّةِ مُدَّةَ
الْحِسَابِ بِذَلِكَ، فِي عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ، بَيْنَ أَهْوَالِهَا وَمَخَاوِفِهَا عُرْيَانَ
عَطْشَانَ وَكَفَى بِذَلِكَ بَلِيَّةً.

الأدب في
الحلال
فَإِنْ قِيلَ: فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحَلَّ لَنَا هَذَا الْحَلَالَ، فَاللَّوْمُ
وَالتَّعْيِيرُ فِي أَخْذِهِ لِمَاذَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ لِتَرْكِهِ الْأَدَبِ، كَمَنْ أُجْلِسَ عَلَى مَائِدَةٍ
الْمَلِكِ فَتَرَكَ الْأَدَبَ، فَإِنَّهُ يُعَيَّرُ بِذَلِكَ وَيُلَامُ، وَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ لَهُ
مُبَاحًا. وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَبْدَ لِعِبَادَتِهِ،
وَهُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَحَقُّ الْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
مِنْ كُلِّ وَجْهِ يُمَكِّنُهُ، وَيَجْعَلُ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا عِبَادَةً مِنْ أَيِّ وَجْهِ أَمَكَّنَهُ،
فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ، وَاشْتَغَلَ بِذَلِكَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ،
مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَعَدُّرٍ، وَالذَّارُ دَارُ خِدْمَةٍ وَعِبَادَةٍ، لَا دَارُ
تَنْعَمُ وَلَا دَارُ شَهْوَةٍ/ اسْتَحَقَّ اللَّوْمَ بِذَلِكَ وَالتَّعْيِيرَ مِنْ سَيِّدِهِ؛ فَتَأَمَّلْ
[٤٤/أ]

هَذَا الْأَصْلَ رَاشِدًا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي أَرَدْنَا بَيَانَهَا فِي إِصْلَاحِ النَّفْسِ وَالْجَامِهَا
بِلِجَامِ التَّقْوَى، فَأَرَعَهَا حَقَّهَا، وَاحْتَفِظَ بِهَا جِدًّا تَفَرُّدًا بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ فِي
الذَّارِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ بِفَضْلِهِ.

فصل في معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِي قَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ الْعَظِيمَةِ الطَّوِيلَةِ^(١) فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْعَقَبَاتِ شِدَّةً، وَأَكْثَرُهَا مُؤَنَةً، وَأَكْبَرُهَا آفَةً وَفِتْنَةً، فَإِنَّ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، إِنَّمَا انْقَطَعُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِمَّا بِسَبَبِ دُنْيَا أَوْ خَلْقٍ أَوْ شَيْطَانٍ أَوْ نَفْسٍ. وَلَقَدْ ذَكَرْنَا فِي كُتُبِنَا الْمُصَنَّفَةِ مِنْ كِتَابِ «الْأَسْرَارِ» وَ«الْإِحْيَاءِ» وَ«الْقُرْبَةِ»، مَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِذَلِكَ.

وَمَقْصُودُ هَذَا الْكِتَابِ أَنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُطَلِّعَنِي عَلَى سِرِّ مَعَالِجَةِ النَّفْسِ، وَأَنْ يُصَلِّحَنِي وَيُصْلِحَ بِي، فَاقْتَصَرْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ الشَّرِيفِ عَلَى نَكْتٍ وَجِيزَةٍ اللَّفْظِ غَزِيرَةِ الْمَعْنَى، تُفْنَعُ مَنْ تَأَمَّلَهَا، وَتَدْعُهُ عَلَى وَاضِحَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَهَذَا الْفَصْلُ بِنَكْتٍ فِي مَعَالِجَةِ الدُّنْيَا وَالْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ.

أَمَّا الدُّنْيَا: فَحَقٌّ لَكَ أَنْ تَحْذَرَهَا وَتَزْهَدَ فِيهَا، لِأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةٍ:

(١) وهي عقبة العوائق.

أنواع العباد
 — إِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ وَالْفِطَنِ، فَحَسْبُكَ أَنْ الدُّنْيَا قِيمَتُكَ.

— وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِي الْهَمَمِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالِاجْتِهَادِ، فَحَسْبُكَ أَنْ الدُّنْيَا بَلَغَ مِنْ شُؤْمِهَا مَا يَمْنَعُكَ مِنْ إِرَادَتِهَا، وَتَشْغَلُكَ الْفِكْرَةُ فِيهَا عَنِ الْعِبَادَةِ وَالْخَيْرِ، فَكَيْفَ نَفْسُهَا؟

— وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ لَا بَصِيرَةَ لَكَ تُبْصِرُ الْحَقَائِقَ، وَلَا هِمَّةَ لَكَ تَبْعُكَ عَلَى الْمَكَارِمِ؛ فَحَسْبُكَ أَنْ الدُّنْيَا لَا تَبْقَى: إِمَّا أَنْ تُفَارِقَهَا، وَإِمَّا أَنْ تُفَارِقَكَ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ بَقِيَتْ لَكَ الدُّنْيَا لَمْ تَبْقَ لَهَا، فَأَيُّ فَائِدَةٍ إِذَنْ فِي طَلِبِهَا، وَإِنْفَاقِ الْعُمْرِ [٤٤/ب] الْعَزِيزِ عَلَيْهَا، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ/ : [الوافر]:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقِ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ إِلَى زَوَالِ
 (فَمَا تَرْجُو بَعِيشَ نَيْسٍ يَبْقَى وَشَيْكَأَ قَدْ تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي) (١)
 وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلَ ضَلٍّ أَظْلَمَ لَكَ ثُمَّ أَذَنْ بَارَتْحَالِ
 فَلَا يَنْبَغِي لِنَعَاقِلٍ إِذَا أَنْ يُخْدَعَ بِهَا، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ:

[الكامل]:

أَضْعَاكَ نَوْمٌ أَوْ كَضَلٌّ زَائِلٌ إِنَّ اللَّيْسَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
 حَتَّى مَتَى تُسْقَى التُّنُوسُ بِكَأْسِهَا رَبِّ الْمُنُونِ وَأَنْتَ لَاهٍ تَرْتَعُ
 فَلَقَدْ رَضِيَتْ بِأَنْ تُعَلَّلَ بِالْمُنَى وَإِلَى الْمُنَى كُلِّ يَوْمٍ تُدْفَعُ
 فَتَزُودُنَ لِيَوْمِ فَقْرِكَ دَائِبًا وَأَجْمَعُ لِنَفْسِكَ لَا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ

(١) زيادة من (د) و (هـ).

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَحَسْبُكَ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:
﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٨﴾ ﴾
[المؤمنون: ٩٨] فَهَذَا خَيْرُ الْعَالَمِينَ وَأَعْلَمُهُمْ وَأَعْقَلُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، يَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ
الشَّيْطَانِ، فَكَيْفَ بِكَ مَعَ جَهْلِكَ وَنَقْصِكَ وَغَفْلَتِكَ؟

وَأَمَّا الْخَلْقُ: فَحَسْبُكَ مِنْهُمْ أَنْكَ لَوْ خَالَطْتَهُمْ وَوَافَقْتَهُمْ فِي
أَهْوَائِهِمْ أَثِمْتَ وَأَفْسَدْتَ أَمْرَ آخِرَتِكَ، وَإِنْ خَالَفْتَهُمْ تَعِبْتَ بِأَذْيَاتِهِمْ
وَجَفَوَاتِهِمْ، وَكَدَّرْتَ عَلَيْكَ أَمْرَ دُنْيَاكَ، ثُمَّ لَا تَأْمَنُ أَنْ يُلْجِئُوكَ إِلَى
مُعَادَاتِهِمْ وَمُنَاوَأَتِهِمْ فَتَقَعُ فِي شَرِّهِمْ؛ وَلَآئِهِمْ إِنْ مَدَّحُوكَ وَعَظَّمُوكَ
أَخَافُ عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ وَالْعُجْبَ، وَإِنْ ذَمُّوكَ وَحَقَّرُوكَ أَخَافُ عَلَيْكَ الْحُزْنَ
تَارَةً وَالْغَضَبَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى أُخْرَى، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ آفَةٌ مُهْلِكَةٌ.

ثُمَّ اذْكُرْ حَالَكَ مَعَهُمْ بَعْدَ مَا صِرْتَ إِلَى الْقَبْرِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَيْفَ
يَتْرُكُونَكَ وَيَهْجُرُونَكَ وَيَنْسَوْنَكَ، فَلَا يَكَادُونَ يَذْكُرُونَكَ، كَأَنَّكَ لَمْ
تَرْهَمْ يَوْمًا وَلَمْ يَرَوْكَ. فَهُوَ يَبْقَى هُنَالِكَ مَعَكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، أَفَلَا
يَكُونُ مِنَ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ أَنْ تُضَيِّعَ أَيَّامَكَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْخَلْقِ، مَعَ قِلَّةِ
الْوَفَاءِ مِنْهُمْ وَقِلَّةِ الْبَقَاءِ مَعَهُمْ، وَتَتْرُكَ خِدْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَرْجِعُ
إِلَيْهِ آخِرُ الْأَمْرِ وَحْدَهُ، وَلَا يَبْقَى لَكَ إِلَّا هُوَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ؛ وَالْحَاجَاتُ
كُلُّهَا إِلَيْهِ، وَالتُّكْلَانُ كُلُّهُ عِنْدَهُ، وَالْإِعْتِصَامُ كُلُّهُ فِي كُلِّ حَالٍ/ وَعِنْدَ [٤٥/أ]
كُلِّ شِدَّةٍ وَهَوْلِ بِهِ وَحُدَّةٍ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَتَأْمَلُ يَا مِسْكِينُ، لَعَلَّكَ
تُرْشِدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا النَّفْسُ: فَحَسْبُكَ مَا تُشَاهِدُ مِنْ حَالَاتِهَا وَرَدَاةِ إِرَادَتِهَا

وَسُوءِ اخْتِيَارِهَا، فَهِيَ فِي حَالِ الشَّهْوَةِ بَهِيمَةٌ، وَفِي حَالِ الْغَضَبِ سَبْعٌ، وَفِي حَالِ الْمُصِيبَةِ تَرَاهَا طِفْلاً صَغِيراً، وَفِي حَالِ النُّعْمَةِ تَرَاهَا فِرْعَوْنًا، وَفِي حَالِ الْجُوعِ تَرَاهَا مَجْنُونًا، وَفِي حَالِ الشُّبْحِ تَرَاهَا مُخْتَلًا، إِنْ أَشْبَعْتَهَا بَطَرَتْ وَمَرِحَتْ، وَإِنْ جَوَّعْتَهَا صَاحَتْ وَجَزَعَتْ، فَهِيَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: [مجزوء البسيط]:

كِحِمَارِ السُّوءِ إِنْ أَشْبَعْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ ^(١) وَإِنْ جَاعَ نَهَقَ

وَلَقَدْ صَدَقَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ حَيْثُ قَالَ: إِنْ رَدَاءَةَ هَذِهِ النَّفْسُ وَجَهَلَهَا بِحَيْثُ إِذَا هَمَّتْ بِمَعْصِيَةٍ أَوْ انْبَعَثَتْ لِشَهْوَةٍ، لَوْ تَشَفَّعَتْ إِلَيْهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ بِرَسُولِهِ وَبِجَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِجَمِيعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ عِبَادِهِ، وَتَعَرَّضَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَالْقَبْرُ وَالْقِيَامَةُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، لَا تُعْطِي الْإِنْقِيَادَ وَلَا تَتْرُكُ الشَّهْوَةَ؛ ثُمَّ إِنْ اسْتَقْبَلَتْهَا بِمَنْعٍ رَغِيفٍ، تَسْكُنُ وَتَتْرُكُ شَهْوَتَهَا، لِتَعْلَمَ حِسَّتَهَا وَجَهْلَهَا؛ فَإِيَّاكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنْ تَغْفَلَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ خَالِقُهَا الْعَالِمُ بِهَا جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] فَكَفَى بِهَذَا تَنْبِيهاً لِمَنْ عَقَلَ.

وَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ يُقَالُ لَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَرْقَمِ الْبَلْخِيِّ ^(٢) أَنَّهُ قَالَ: نَازَعْتَنِي نَفْسِي بِالْخُرُوجِ إِلَى الْغَزْوِ، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وَهَذِهِ تَأْمُرُنِي بِالْخَيْرِ، لَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا، وَلَكِنَّهَا اسْتَوْحَشَتْ فَتَرِيدُ لِقَاءَ النَّاسِ لِتَسْتَرْوِحَ إِلَيْهِمْ وَيَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهَا، فَيَسْتَقْبِلُونَهَا بِالتَّعْظِيمِ وَالْبِرِّ وَالْإِكْرَامِ؛ فَقُلْتُ لَهَا: لَا أُنْزِلُكَ الْعُمُرَانَ وَلَا أَنْزِلُ عَلَى

(١) رمح الناس: رفسهم برجليه.

(٢) أحد الصالحين. لم نثر على ترجمته.

مَعْرِفَةٍ، فَأَجَابَتْ، فَاسَأْتُ الظَّنَّ بِهَا، وَقُلْتُ: اللَّهُ تَعَالَى أَصْدَقُ. فَقُلْتُ لَهَا: أَقَاتِلِ العَدُوَّ حَاسِرًا فَتَكُونِينَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، فَأَجَابَتْ؛ وَعَدَّ أَشْيَاءَ مِمَّا أَرَادَهَا فَأَجَابَتْ إِلَيَّ كُلَّ ذَلِكَ، قَالَ فَقُلْتُ: يَا رَبِّ: نَبِّهْنِي لَهَا، فَإِنِّي مُتَّهِمٌ لَهَا مُصَدِّقٌ لَكَ؛ فَكُوشِفْتُ بِهَا كَأَنَّهَا تَقُولُ: يَا أَحْمَدُ أَنْتَ تَقْتُلُنِي كُلَّ يَوْمٍ بِمَنَعِكَ إِيَّايَ مِنْ شَهَوَاتِ مَرَّاتٍ، وَبِمُخَالَفَتِكَ^(١)، وَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ^(٢)، فَإِن قَاتَلْتَ قُتِلْتَ / مَرَّةً وَاحِدَةً فَجَحُوتُ مِنْكَ، وَيَسْمَاعُ النَّاسُ [٤٥/ب] فَيَقَالُ: أَسْتَشْهَدُ أَحْمَدًا، وَيَكُونُ لِي شَرَفٌ وَذِكْرٌ؛ قَالَ: فَقَعَدْتُ وَلَمْ أَخْرُجْ إِلَى الغَزْوِ فِي ذَلِكَ العَامِ. فَانظُرْ إِلَى خِدَاعِ النَّفْسِ وَغُرُورِهَا، تُرَائِي النَّاسَ بَعْدَ المَوْتِ بِعَمَلٍ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ.

وَلَقَدْ صَدَقَ القَائِلُ وَأَحْسَنَ [البسيط]:

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا فَالْنَفْسُ أَحَبُّ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا

فَتَنَّبَهُ رَحِمَكَ اللَّهُ نَهْدِهِ الخِدَاعَةَ الأَمَارَةَ بِالسُّوءِ، وَوَطَّنَ عَلَيَّ مُخَالَفَتِهَا قَلْبَكَ بِكُلِّ حَارٍ تُصِيبُ وَتَسْلَمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. ثُمَّ عَلَيَّكَ بِالْجَامِهَا بِالتَّقْوَى لَا حِينَةَ نَهَا سِوَاهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَهُنَا أَصْلًا أَصِيلًا وَهُوَ أَنَّ العِبَادَةَ شَطْرَانِ: شَطْرُ شَطْرِ الإِكْتِسَابِ، وَشَطْرُ الإِجْتِنَابِ؛ فَالْإِكْتِسَابُ: فِعْلُ الطَّاعَاتِ؛ العِبَادَةُ وَالإِجْتِنَابُ: الإِمْتِنَاعُ عَنِ المَعْصِيَةِ وَالسَّيِّئَاتِ وَهُوَ التَّقْوَى؛ وَأَنَّ شَطْرَ الإِجْتِنَابِ عَلَيَّ كُلِّ حَالٍ أَسْنَمٌ وَأَصْلَحٌ وَأَفْضَلُ وَأَشْرَفُ لِلْعَبْدِ مِنْ شَطْرِ

(١) أي: بمخالفتك أوامري.

(٢) أي: لا يشعر بمنعك إياي أحد.

الِاِكْتِسَابِ، وَلِذَلِكَ اِسْتَعْلَ الْمُتَبَدِّثُونَ مِنْ اَهْلِ الْعِبَادَةِ، الَّذِيْنَ هُمْ فِي
 اَوَّلِ دَرَجَةِ الْاِجْتِهَادِ بِشَطْرِ الْاِكْتِسَابِ، كُلُّ هِمَّتِهِمْ اَنْ يَصُومُوا نَهَارَهُمْ
 وَيَقُومُوا لَيْلَهُمْ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَيَسْتَعْلِ الْمُتَهْتُونَ اَوْلُو الْبَصَائِرِ مِنْ اَهْلِ
 الْعِبَادَةِ بِشَطْرِ الْاِجْتِنَابِ، اِنَّمَا هِمَّتُهُمْ اَنْ يَحْفَظُوا قُلُوبَهُمْ عَنِ الْمَيْلِ
 اِلَى غَيْرِ اللّٰهِ تَعَالَى، وَبُطُونَهُمْ عَنِ الْفُضُولِ، وَالسِّتِّهِمْ عَنِ اللَّغْوِ،
 وَاَعْيُنُهُمْ عَنِ النَّظْرِ اِلَى مَا لَا يَغْنِيهِمْ.

وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ الْعَابِدُ الثَّانِي مِنَ الْعُبَادِ السَّبْعَةِ لِيُونُسَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، يَا يُونُسُ: مِنَ النَّاسِ مَنْ حُبَّبَ اِلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ، فَلَا يُؤَثِّرُونَ
 عَلَيْهَا شَيْئًا، وَهِيَ عَمُودُ الْعِبَادَةِ لِلّٰهِ وَالصَّدَقِ وَالتَّضَرُّعِ وَالاِبْتِهَالِ،
 وَمِنْهُمْ مَنْ حُبَّبَ اِلَيْهِمُ الصَّوْمُ، فَلَا يُؤَثِّرُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا، يَا يُونُسُ وَاَنَا
 مُفَسِّرٌ لَكَ هَذِهِ الْخِصَالِ: اجْعَلْ صَوْمَكَ الصَّمْتَ عَنِ كُلِّ سُوءٍ،
 وَاجْعَلْ صِدْقَتَكَ كَفَّ الْاَذَى، فَاِنَّكَ لَا تَتَّصِدَّقُ بِشَيْءٍ اَفْضَلَ مِنْهُ، وَلَا
 تَصُومُ بِشَيْءٍ اَزْكَى مِنْهُ، فَاِذَا عَلِمْتَ اَنْ جَانِبَ الْاِجْتِنَابِ اَوْلَى بِالرَّعَايَةِ
 وَالاِجْتِهَادِ فِيهِ. فَاِنْ حَصَلَ لَكَ الشُّطْرَانِ جَمِيعًا، الْاِجْتِنَابُ
 وَالاِكْتِسَابُ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ اَمْرَكَ وَحَصَلَ مُرَادُكَ، وَقَدْ سَلِمْتَ
 وَغْنِمْتَ؛ فَاِنْ لَمْ تَبْلُغِ اِلَّا اِلَى اَحَدِهِمَا، فَلْيَكُنْ ذَلِكَ جَانِبَ
 الْاِجْتِنَابِ، فَتَسَلَّمَ اِنْ لَمْ تَغْنَمْ، وَاِلَّا خَسِرْتَ الشُّطْرَيْنِ جَمِيعًا، وَمَا
 يَنْفَعُكَ قِيَامُ لَيْلٍ وَتَعَبُهُ، ثُمَّ تُحْبِطُهُ بِارَادَةِ وَاِحْدَةٍ؟ وَمَا يَغْنِيكَ صِيَامُ
 نَهَارٍ طَوِيلٍ وَتُفْسِدُهُ بِكَلِمَةٍ وَاِحْدَةٍ؟

وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ اَنَّهُ قِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ
 فِي رَجُلَيْنِ اَحَدُهُمَا كَثِيرُ الْخَيْرِ كَثِيرُ الشَّرِّ؛ وَالاِخْرُ قَلِيلُ الْخَيْرِ قَلِيلُ
 الشَّرِّ؟ قَالَ: لَا اَعْدِلُ بِالسَّلَامَةِ شَيْئًا.

وَمِثَالُ مَا قُلْنَا^(١) حَالُ الْمَرِيضِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُعَالَجَةَ الْمَرِيضِ
نِصْفَانِ: نِصْفٌ هُوَ الدَّوَاءُ، وَنِصْفٌ هُوَ الْإِحْتِمَاءُ، فَإِنْ اجْتَمَعَا فَكَأَنَّكَ
بِالْمَرِيضِ قَدْ بَرِيَءَ وَصَحَّ، وَإِلَّا فَالْإِحْتِمَاءُ بِهِ أَوْلَى، إِذْ لَا يَنْفَعُ دَوَاءٌ
مَعَ تَرْكِ الْإِحْتِمَاءِ، وَقَدْ يَنْفَعُ الْإِحْتِمَاءُ مَعَ تَرْكِ الدَّوَاءِ.

وَلَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ الْحِمِيَّةُ»^(٢) وَالْمَعْنَى بِهَا وَاللَّهُ
أَعْلَمُ أَنَّهَا تُغْنِي عَنْ كُلِّ دَوَاءٍ، وَلِذَا يُقَالُ: إِنَّ أَهْلَ الْهِنْدِ جُلُّ
مُعَالَجَتِهِمُ الْحِمِيَّةُ، بِمَنْعِ الْمَرِيضِ عَنِ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْكَلَامِ عِدَّةَ
أَيَّامٍ، فَيَبْرَأُ وَيَصِحُّ بِذَلِكَ لَا غَيْرَ. فَتَبَيَّنَ لَكَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ التَّقْوَى
مِلَاكُ الْأَمْرِ وَجَوْهَرُهُ، وَأَهْلُهَا هُمُ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا مِنَ الْعِبَادِ، فَعَلَيْكَ
بِبَدْلِ الْمَجْهُودِ فِي ذَلِكَ وَصَرَفِ كُلِّ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيِّ
التَّوْفِيقِ.

(١) أي أن للعبادة شطرين.

(٢) — هذا جزء من حديث سبق ذكره (ص ٢٠٣) بلفظ: (...) وأصل كل دواء
الأزمة) أي الحمية. وقال العراقي: لم أجد له أصلاً. (راجع لتعبير على هذا
الحديث ص ٢٠٣ حاشية (٢).

— وأورد السخاوي في المقاصد الحسنة هذا الحديث بلفظ: (المعدة أصل الداء
والحمية رأس الدواء) وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ. بل هو من كلام
الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره. وهو عند ابن أبي الدنيا في الصمت من
جهة وهب بن منبه قال: أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية.
ثم قال السخاوي: لا يعرف هذا من كلام النبي ﷺ، إنما هو من كلام
عبد الملك بن سعيد بن أنجر.

وفي الحاشية: رواه العقيلي من طريق الحميدي عن سفيان عن عبد الرحمن بن
عبد الملك عن أبيه.

(انظر المقاصد الحسنة ص ٣٨٩، الحديث رقم ١٠٣٥).

فصل في رعاية الأعضاء الأربعة العين واللسان والبطن والقلب

مراعاة
أعضاء
البدن

ثُمَّ رَاعِ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي هِيَ الْأُصُولُ:
الأول: العَيْنُ وَحَسْبُكَ فِيهَا أَنْ مَدَارَ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى
 الْقَلْبِ، وَأَنَّ حَظَرَ الْقَلْبِ وَشَغْلَهُ وَفَسَادَهُ فِي الْأَكْثَرِ مِنَ الْعَيْنِ؛
 وَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يَمْلِكْ عَيْنَهُ فَلَيْسَ لِلْقَلْبِ
 عِنْدَهُ قِيَمَةٌ».

والثاني: اللِّسَانُ وَحَسْبُكَ أَنْ فِيهِ رِبْحُكَ وَغَنِيمَتُكَ وَثَمَرَةُ تَعَبِكَ
 وَاجْتِهَادِكَ كُلُّهُ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، وَأَنَّ حَظَرَ الْعِبَادَةِ وَإِحْبَاطَهَا وَإِفْسَادَهَا
 فِي الْأَكْثَرِ مِنْ قَبْلِ اللِّسَانِ، بِالتَّصْنَعِ وَالتَّرْزِينِ وَالْغِيْبَةِ وَنَحْوِهَا، يُتْلَفُ
 عَلَيْكَ بِلَفْظَةٍ فِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ مَا تَعَبْتَ فِيهِ سَنَةً بَلْ خَمْسًا وَعَشْرًا؛
 وَلِذَلِكَ: مَا شَيْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ السَّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ.

[٤٦/ب] وَفِيمَا رُوِيَ/ أَنَّ أَحَدَ الْعُبَادِ السَّبْعَةِ قَالَ لِيُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا
 يُونُسُ إِنَّ الْعُبَادَ إِذَا اجْتَهَدُوا فِي الْعِبَادَةِ لَمْ يَتَّقُوا عَلَى عِبَادَتِهِمْ بِشَيْءٍ
 أَفْضَلَ مِنَ الصَّبْرِ عَنِ الْكَلَامِ فِي فَضْلِ طَوِيلٍ؛ ثُمَّ عَادَ إِلَى ذَلِكَ

فَقَالَ: وَلَا يَكُونَنَّ عِنْدَكَ شَيْءٌ آثَرُ مِنْ حِفْظِ لِسَانِكَ، وَلَا تَكُونَنَّ
لِشَيْءٍ أَعْنَى بِهِ مِنْ سَلَامَةِ صَدْرِكَ، فَهَذِهِ هَذِهِ^(١).

ثُمَّ أَذْكَرِ النَّفْسَ الَّتِي تَكَلَّمَتْ فِيهَا بِفُضُولٍ، مَا كَانَ يَضُرُّكَ لَوْ قُلْتَ:
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فَرُبَّمَا يُوَافِقُ سَاعَةَ عَزِيزَةً فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ فَتَرْبِحُ رَاشِدًا،
أَوْ قُلْتَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَكُونُ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ وَالذُّخْرِ مَا لَا يُحِيطُ
بِهِ وَهَمُّكَ، أَوْ تَقُولَ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَرُبَّمَا يَتَّفِقُ حَسَنُ نَظَرٍ،
فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ تَعَالَى دَعْوَتَكَ، فَتَجُوزَ مِنْ بَلِيَّةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أَلَا
يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْعَظِيمِ وَالنَّغْبِ الْفَظِيعِ، أَنْ تُفَوِّتَ نَفْسَكَ كُلَّ هَذِهِ
الْفَوَائِدِ الْكَرِيمَةِ، وَتَجْعَلَ نَفْسَكَ وَوَقْتَكَ فِي فُضُولٍ، أَقْلُ مَا يَلْزُمُكَ
فِيهِ اللَّوْمُ وَالْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ: [المديد]:

إِغْتَنَمَ رَكَعَتَيْنِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِي إِذَا كُنْتَ فَارِعًا مُسْتَرِيحًا
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِالنُّطْقِ فِي الْبَا طَلٍ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحًا
فَاغْتَنَامُ السَّكُوتِ أَفْضَلُ مِنْ حَوِّضِ وَإِنْ كُنْتَ بِالْحَدِيثِ فَصِيحًا

وَالثَّلَاثُ: الْبَطْنُ؛ وَحَسْبُكَ أَنْ مَقْصُودَكَ الْعِبَادَةَ، وَأَنَّ الطَّعَامَ
بَذَرُ الْعَمَلِ وَمَاؤُهُ مِنْهُ يَبْدُو وَيَنْبُتُ، وَإِذَا خَبَثَ الْبَدْرُ لَا يَطِيبُ الزَّرْعُ؛
بَلْ فِيهِ خَطَرٌ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَرْضَكَ، فَلَا تُفْلِحُ أَبَدًا. وَمِنْ ذَلِكَ^(٢) مَا
بَلَّغْنَا عَنْ مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ^(٣) أَنَّهُ قَالَ: إِذَا صُمْتَ فَانظُرْ عَلَى أَيِّ

(١) أي هذه القضية الموصوفة بالأهمية والكمال.

(٢) أي من خطر الإفساد الذي لا فلاح بعده.

(٣) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز، الصالح المشهور، كان من المشايخ الكبار،
وكان مشهوراً بإجابة الدعاء. وهو أستاذ السري السقطي، وأخباره ومحاسنه أكثر
من أن تحصى. توفي ببغداد سنة ٢٠٠ هـ وقيل ٢٠١ هـ. سير أعلام النبلاء

شَيْءٍ تُفْطِرُ، وَعِنْدَ مَنْ تُفْطِرُ، وَطَعَامَ مَنْ تَأْكُلُ؟ فَكَمْ مَنْ يَأْكُلُ أَكْلَةَ
فَيَنْقَلِبُ قَلْبُهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، لَا يَعُودُ إِلَىٰ حَالِهِ أَبَدًا. وَكَمْ مِنْ أَكْلَةَ
حَرَمَتْ قِيَامَ لَيْلَةٍ، وَمِنْ نَظْرَةٍ مَنَعَتْ قِرَاءَةَ سُورَةٍ؛ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْكُلُ
فَيُحْرَمُ بِهَا قِيَامَ^(١) سَنَةٍ.

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِالنَّظَرِ الدَّقِيقِ وَالِإِحْتِيَاظِ الْبَالِغِ الشَّدِيدِ فِي
قُوَّتِكَ، إِنْ كَانَ لَكَ عِنَايَةٌ بِقَلْبِكَ، وَهَمَّةٌ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ. هَذَا فِي
أَصْلِ الْقُوَّةِ، حَتَّىٰ يَكُونَ مِنْ وَجْهِهِ^(٢). ثُمَّ عَلَيْكَ الْأَدَبُ فِيهِ،
وَالَا كُنْتَ حَمَلًا لِلطَّعَامِ، مُضِيْعًا لِلْأَيَّامِ؛ وَقَدْ عَلِمْنَا يَقِينًا، بَلْ رَأَيْنَا
عِينًا أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَجِيءُ مِنْهَا شَيْءٌ إِذَا امْتَلَأَ الْبَطْنُ؛ وَإِنْ أَكْرَهَتْ
النَّفْسَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَجَاهَدَتْ بِضُرُوبِ الْحِيلِ فَلَا يَكُونُ لِيَتْلِكَ الْعِبَادَةَ
لَذَّةً وَلَا حَلَاوَةً، وَلِذَلِكَ قِيلَ: لَا تَطْمَعْ بِحَلَاوَةٍ فِي الْعِبَادَةِ مَعَ كَثْرَةِ
الْأَكْلِ؛ وَأَيُّ نُورٍ فِي نَفْسٍ بِلَا عِبَادَةٍ وَفِي عِبَادَةٍ بِلَا لَذَّةٍ وَلَا حَلَاوَةٍ؟
وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ: صَحِبْتُ أَكْثَرَ
رِجَالِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي جَبَلِ بُنْدَانَ فَكَانُوا يُوصُونَنِي: إِذَا رَجَعْتَ إِلَىٰ أَبْنَاءِ
الدُّنْيَا فَعِظْهُمْ بِأَرْبَعِ خِصَصٍ: قُلْ لَهُمْ (١) مَنْ يُكْثِرُ الْأَكْلَ لَا يَجِدُ لَذَّةَ
الْعِبَادَةِ، (٢) وَمَنْ يَتَمَّ كَثِيرًا لَا يَجِدُ فِي عُمُرِهِ بَرَكَةً، (٣) وَمَنْ طَلَبَ
إِرْضَاءَ النَّاسِ فَلَا يَنْتَظِرُ رِضَاءَ اللَّهِ، (٤) وَمَنْ يُكْثِرُ الْكَلَامَ بِفُضُولِ
وَعَيْبِهِ فَلَا يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ.

وَعَنْ سَهْلِ^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: جَمَاعُ الْخَيْرِ كُلُّهُ فِي هَذِهِ

(١) فِي لأصل: صِيَامٍ، وَعَنْ الْأَصْحَبِ مِنْ ثُبْنَانِهِ، وَهُوَ مَا وَرَدَ فِي بَابِ النِّسْبِ.

(٢) أَيُّ مِنْ وَجْهِ الْحَلَالِ.

(٣) سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ، شَيْخٌ نَعْرَفِينِ وَأَحَدُ أُمَّةِ الْقُرُونِ. لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي وَقْتِهِ

الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ، وَبِهَا صَارَتِ الْأَبْدَالُ أَبْدَالًا: إِخْمَاصُ الْبُطُونِ،
وَالصَّنْتُ، وَالْأَعْتِرَالُ عَنِ الْخَلْقِ، وَسَهْرُ اللَّيْلِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا. وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَا يَحْصُلُ
لَنَا، مِنْ فِرَاقِ وَسَلَامَةِ وَعِبَادَةِ وَحَلَاوَةِ وَعِلْمِ نَافِعٍ، بِسَبَبِ الْجُوعِ
وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.

(والرابع القلب)^(١): وَأَمَّا الْقَلْبُ فَحَسْبُكَ أَنَّهُ أَصْلُ الْكُلِّ، إِنْ
أَفْسَدْتَهُ فَسَدَ الْكُلُّ، وَإِنْ أَصْلَحْتَهُ صَلَحَ الْكُلُّ، إِذْ هُوَ الشَّجَرَةُ، وَسَائِرُ
الْأَعْضَاءِ أَغْصَانٌ، وَمِنَ الشَّجَرَةِ تَشْرَبُ الْأَغْصَانُ وَتَصْلُحُ وَتَفْسُدُ، وَإِنَّهُ
الْمَلِكُ، وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ تَبِعٌ وَأَرْكَانٌ، وَإِذَا صَلَحَ الْمَلِكُ صَلَحَتِ
الرَّعِيَّةُ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتِ، فَإِذَا صَلَحَ الْعَيْنُ وَاللِّسَانُ وَالْبَطْنُ وَغَيْرِهِ
دَلِيلٌ عَلَى صَلَاحِ الْقَلْبِ وَعِمْرَانِهِ، وَإِذَا رَأَيْتَ فِيهِ خَدَلًا وَفَسَادًا،
فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَدَلٍ فِي الْقَلْبِ وَفَسَادٍ وَقَعَ ثُمَّ بَلَ الْفَسَادُ فِيهِ
أَكْثَرَ، فَاصْرِفْ عِنَايَتَكَ إِلَيْهِ فَأُصْلِحْهُ يَصْلُحِ الْكُلُّ بِمَرَّةٍ وَتَسْتَرِيحُ.

ثُمَّ أَمْرُهُ دَقِيقٌ عَسِيرٌ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخَوَاطِرِ. وَهِيَ لَيْسَتْ
تَحْتَ يَدِكَ، وَالْإِمْتِنَاعُ مِنْ اتِّبَاعِهَا مَجْهُودٌ طَاقَتِكَ. فَفِيهِ أَقْصَى
الْمَشَقَّةِ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى صَارَ إِصْلَاحُهُ أَشَدَّ عَلَى أَهْلِ الْاجْتِهَادِ،
وَالْإِهْتِمَامُ بِهِ أَكْثَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَائِرِ.

= نظير في المعاملات والنوع. وكان صاحب كرامات.

نقي في الحج ذا النون المصري وصحبه. وتوفي التستري في سنة ٢٨٣ هـ وهو

على أصح الأقوال. سير أعلام النبلاء ١٣/٣٣٠.

(١) زيادة يفتضيها حسن تنسيق الكلام.

وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ/ أَنَّهُ قَالَ: عَالَجْتُ قَلْبِي عَشْرًا
وَلِسَانِي عَشْرًا وَنَفْسِي عَشْرًا فَكَانَ قَلْبِي أَضْعَبَ الثَّلَاثَةِ، فَهَذِهِ هَذِهِ.

الاهتمام
بالخصال
السيئة

ثُمَّ عَلَيْكَ بِالِاهْتِمَامِ بِالْخِصَالِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا: مِنَ الْأَمَلِ،
وَالْعَجَلَةِ فِي الْأُمُورِ، وَالْحَسَدِ، وَالْكِبْرِ؛ وَإِنَّمَا خَصَّصْنَا هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ
مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْخِصَالِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَحَضَّضْنَا عَلَى الْاِخْتِرَاسِ
مِنْهَا لِأَنَّهَا عِلَلُ الْقُرَاءِ^(١) خَاصَّةً، إِذْ هِيَ تَعْتَرِي سَائِرَ النَّاسِ عُمُومًا
وَالْقُرَاءَ خُصُوصًا فَتَكُونُ أَقْبَحَ وَأَشْنَعَ.

تَرَى الرَّجُلَ الْقَارِيءَ يُطَوِّلُ الْأَمَلَ وَيَعُدُّهُ نِيَّةَ خَيْرٍ، فَيُوقِعُهُ فِي
الْكَسَلِ وَالتَّوَانِي فِي الْعَمَلِ.

وَتَرَاهُ يَسْتَعْجِلُ فِي تَخْصِيلِ مَنَازِلِ الْخَيْرِ فَيَنْقَطِعُ عَنْهَا، أَوْ فِي
إِجَابَةِ دُعَاءٍ صَالِحٍ فَيُحْرِمُ ذَلِكَ، أَوْ فِي الدُّعَاءِ عَلَى أَحَدٍ بِسُوءٍ فَيَنْدُمُ
عَلَى ذَلِكَ، كَمَا ذَكَرَ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

وَتَرَاهُ يَحْسُدُ نُظْرَاءَهُ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، حَتَّى رُبَّمَا
يَبْلُغُ مِنْهُ ذَلِكَ مَبْلَغًا يَحْمِلُهُ عَلَى قَبَاحٍ وَفَضَائِحَ لَا يَقْدُمُ عَلَيْهَا فَاسِقٌ
وَلَا فَاجِرٌ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: مَا أَخَافُ عَلَى دَمِي إِلَّا

(١) القراء: يعني بهم المتعلمين والعلماء لأنهم يقرأون الكتب، فتشبت نفسهم خصال
سيئة ذكرها المصنف.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة في دعائه على قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ
الْكَافِرِينَ دِيَارًا، إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾،
[نوح: ٢٦، ٢٧].

من القُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ، فَاسْتَنْكَرُوا مِنْهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا أَنَا قُلْتُهُ إِئِمَّا قَالَهُ
إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ^(١).

وَعَنْ عَطَاءٍ^(٢) قَالَ: قَالَ لِي الثَّوْرِيُّ: أَحْذَرُوا الْقُرَّاءَ وَاحْذَرُونِي
مَعَهُمْ، فَلَوْ خَالَفْتُ أَوْدَهُمْ لِي فِي رُمَانَةٍ، فَأَقُولُ إِنَّهَا حُلْوَةٌ وَيَقُولُ إِنَّهَا
حَامِضَةٌ مَا أَمِنْتُهُ أَنْ يَسْعَى بِدَمِي إِلَى سُلْطَانٍ جَائِرٍ.

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ^(٣) أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَقْبَلُ شَهَادَةَ الْقُرَّاءِ عَلَى
جَمِيعِ الْخَلْقِ وَلَا أَقْبَلُ شَهَادَةَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ لِأَنِّي وَجَدْتُهُمْ
حُسَّادًا.

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود... بن النَّخَعِ (بفتحين) قبيلة من مذحج.

توفي سنة ٩٦ هـ. تابعي، من الأئمة المشاهير. سير أعلام النبلاء ٥٢٠/٤.

(٢) هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح القرشي، مولاهم، المكي، مفتي الحرم، ولد
بمكة في اثناء خلافة عثمان، روى عن عائشة وأبي هريرة وخلق، وروى عنه
الأوزاعي وابن جريج وأبو حنيفة. توفي سنة ٢١٥ هـ عن ثمان وثمانين سنة.
سير أعلام النبلاء ٧٨/٥.

(٣) هو أبو يحيى البصري. رضي الله عنه، من موالي بني أسامة بن لؤي القرشي.
كان عالماً زاهداً كثير النورع، قنوعاً لا يأكل إلا من كسبه، وكان يكتب
المصاحف بالأجرة. روي عنه أنه قال: قرأت في التوراة: إن الذي يعمل بيده طوبى
لمحياه ومماته.

وله مناقب عديدة وأثار شهيرة. وقد توفي سنة ١٣٢ هـ في البصرة. سير أعلام
النبلاء ٣٦٢/٥.

انظر ترجمته وأخباره في:

طبقات ابن سعد ٧/٢٤٣. ضبقت خليفة: ٢١٦، تاريخ خليفة: ٣٦٥، التاريخ الكبير
٧/٣٠٩، ٣١٠، التاريخ الصغير ١/٣١٦، تاريخ الفسوي ٢/٩٦، الجرح
والتعديل ٨/٢٠٨، تهذيب الأسماء ٢/٨٠، ٨١.

وَعَنِ الْفُضَيْلِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: اشْتَرِ لِي دَاراً بَعِيدَةً مِنَ الْقُرَاءِ، مَا لِي وَلِقَوْمٍ إِنْ ظَهَرَتْ مِنِّي زَلَّةٌ هَتَكُونِي، وَإِنْ ظَهَرَتْ عَلَيَّ نِعْمَةٌ حَسَدُونِي.

وَكَذَلِكَ تَرَاهُ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ وَيَسْتَخِفُّ بِهِمْ مُصْعِراً خَدَّهُ مُعَبَّساً وَجْهَهُ، كَأَنَّمَا يَمُنُّ عَلَى النَّاسِ بِمَا يُصَلِّي زِيَادَةَ رَكَعَتَيْنِ، أَوْ كَأَنَّمَا جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْشُورٌ بِالْجَنَّةِ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ النَّارِ، أَوْ كَأَنَّهُ اسْتَيْقَنَ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهِ وَالشَّقَاوَةَ لِسَائِرِ النَّاسِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَلْبَسُ لِبَاسَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ صُوفٍ وَغَيْرِهِ وَيَتَمَاوَتُ^(١)، وَهَذَا لَا يَلِيقُ بِالتَّرَفِّعِ وَالْكِبَرِ وَلَا يُلَائِمُهُ، بَلْ يُنَاقِضُهُ، وَلَكِنْ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ.

وَذَكَرَ أَنَّ فَرَقْدَا السَّبَخِيَّ^(٢) دَخَلَ عَلَى الْحَسَنِ وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ [٤٨/١] وَعَلَى الْحَسَنِ حُلَّةٌ، فَجَعَلَ يَلْمُسُهَا فَقَالَ الْحَسَنُ: مَا لَكَ تَنْظُرُ إِلَى ثِيَابِي، ثِيَابِي ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَثِيَابُكَ ثِيَابُ أَهْلِ النَّارِ، بَلْغَنِي أَنْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الْأَكْسِيَّةِ؛ ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ: جَعَلُوا الزُّهْدَ فِي ثِيَابِهِمْ وَالْكِبَرَ فِي صُدُورِهِمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لِأَحَدِكُمْ بِكِسَائِهِ أَعْظَمُ كِبَرًا مِنْ صَاحِبِ الْمِطْرَفِ بِمِطْرَفِهِ^(٣).

(١) يتماوت: يظهر الموت ويدعيه.

(٢) هو أبو يعقوب السبخي، عابد، صدوق، لئِن الحديث، روى له الترمذي وابن ماجه. توفي سنة ١٣١ هـ. من تلاميذ الحسن البصري.
انظر ترجمته في:

حلية الأولياء ٣/٤٤ - ٥٠ ترجمة رقم ٢٠٥.

صفة الصفوة ٣/٢٧١.

طبقات الشعرا ١/٣٦١ ترجمة رقم ٥٢.

(٣) المطرف: بكسر الميم ورفعها، رداء من حرير، مربع، والجمع مطارف.

وإلى هذا المعنى أشار ذو الثون رحمه الله حيث قال:

[الوافر]:

تَصَوَّفَ فَازْدَهَى بِالصُّوفِ جَهْلًا وَبِعَضِّ النَّاسِ يَلْبَسُهُ مَجَانَهُ
يُرِيكَ مَهَانَةً وَيُرِيكَ كِبْرًا وَلَيْسَ الْكِبْرُ مِنْ شَكْلِ الْمَهَانَةِ
تَصَوَّفَ كَيْ يُقَالَ لَهُ أَمِينٌ وَمَا مَعْنَى تَصَوُّفِهِ الْأَمَانَةُ
وَلَمْ يُرِدِ الْإِلَهَ بِهِ وَلَكِنْ أَرَادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الْخِيَانَةِ

فَلْتَحَذَرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ الْأَزْبَعِ لَا سِيَّمَا الْكِبْرَ، فَإِنَّ
الثَّلَاثَ الْأَوَّلَ مَدَاحِضُ لَوْ زَلَلْتَ فِيهَا لَوَقَعْتَ فِي الْعِصْيَانِ؛ وَالْكَبْرُ
مَدْحَضٌ لَوْ زَلَلْتَ فِيهِ لَوَقَعْتَ فِي بَحَارِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَلَا تَنْسَ
حَدِيثَ إِبْلِيسَ وَفَتْنَتَهُ أَنَّهُ أَبِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَالرُّجُوعُ
إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَعْصِمَنَا جَمِيعًا بِحُسْنِ نَظَرِهِ إِنَّهُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

فصل في السُّبُلِ المؤدِّيةِ إلى الزهد

وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنْكَ إِذَا نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَعَلِمْتَ أَنَّ
الدُّنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا، وَأَنَّ نَفْعَهَا يَفِي بِضُرِّهَا وَتَبَعَاتِهَا، مِنْ كَدِّ البَدَنِ
وَشُغْلِ القَلْبِ فِي الدُّنْيَا، وَالعَذَابِ الأَلِيمِ وَالحِسَابِ الطَّوِيلِ فِي
الآخِرَةِ، زَهَدْتَ فِي فُضُولِهَا، فَلَا تَأْخُذُ مِنْهَا إِلَّا مَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ فِي
عِبَادَةِ رَبِّكَ وَتَدْعُ التَّنَعُّمَ وَالتَّنَدُّدَ إِلَى الجَنَّةِ، دَارِ النِّعَمِ المُقِيمِ فِي
جَوَارِ رَبِّ العَالَمِينَ. ائْمِنِكِ القَدِيرِ الغَنِيِّ الكَرِيمِ.

عدم
الانشغال
بالدنيا

وَعَلِمْتَ أَنَّ الخَلْقَ لَا وِفَاءَ لَهُمْ، وَأَنَّ مَوْتَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَعُونَتِهِمْ
فِيمَا يَعْنِيكَ، وَتَرَكْتَ مُحَالَطَتَهُمْ إِلَّا فِيمَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ، تَتَنَعَّعُ
بِخَيْرِهِمْ وَتَجْتَنِبُ ضَرَّهُمْ، وَتَجْعَلُ صُحْبَتَكَ لِمَنْ لَا تَخْسِرُ فِي
صُحْبَتِهِ، وَلَا تَتَدَمُّ عَلَى خِدْمَتِهِ. وَأَنْسِكَ بِكِتَابِهِ وَمُلازِمَتِكَ إِيَّاهُ،
فَيَكُونُ لَكَ بِكُلِّ حَادٍ، وَتَرَى مِنْهُ كُلَّ جَمِيلٍ وَأَفْضَالٍ. وَتَجِدُهُ عِنْدَ
كُلِّ نَائِبَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
«أَحْفَظُ اللّهَ تَجِدُهُ حَيْثُ اتَّجَهْتَ»^(١).

ترك مخالطة
الناس

(١) — هذا جزء من حديث طويل رواه ابن حنبل (٢٩٣/١، ٣٠٣، ٣٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا غلام، إني مُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ: =

وَعَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ خَبِيثٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِمُعَادَاتِكَ، فَاسْتَعَدْتَ مَكَائِدَ
 بِرَبِّكَ الْقَادِرِ/ الْقَاهِرِ مِنْ هَذَا الْكَلْبِ اللَّعِينِ، وَلَا تَغْفُلْ عَنْ مَكَائِدِهِ [ب/٤٨]
 وَمَصَائِدِهِ، فَتَطْرُدَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَعْبَأَنَّ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَسِيرٌ إِذَا
 ظَهَرَتْ مِنْكَ عَزِيمَةُ الرَّجَالِ، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
 عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وَلَقَدْ صَدَقَ
 أَبُو حَازِمٍ^(١) فِيمَا قَالَ: مَا الدُّنْيَا وَمَا إِبْلِيسُ؟

أَمَّا الدُّنْيَا: فَمَا مَضَى فَحَلُمٌ، وَمَا بَقِيَ فَأَمَانِيٌّ.

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ أُطِيعَ فَمَا نَفَعَ، وَلَقَدْ عُصِيَ فَمَا ضَرَّ.

وَعَلِمْتَ جَهَالََةَ هَذِهِ النَّفْسِ وَجِمَاحَهَا إِلَى مَا يَضُرُّهَا، وَيُهْلِكُهَا،
 فَنَظَرْتَ إِلَيْهَا رَحْمَةً لَهَا نَظَرَ الْعُقَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي
 الْعَوَاقِبِ، لَا نَظَرَ الْجُهَّالِ وَالصُّبَّانِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي الْحَدِّ، وَلَا
 يَفْطَنُونَ لِغَائِلَةِ الْأَذَى وَيَعْرِثُونَ مِنْ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ وَالْجَمْتِهَا بِلِجَامِ
 التَّقْوَى، بِأَنْ تَمْنَعَهَا عَمَّا لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ بِالْحَقِيقَةِ، مِنْ فُضُولٍ وَكَلَامٍ

= احفظ الله يحفظك، احفظه تجده تجاهك، وإذا سألت فاستأذن الله، وإذا
 استعنت فاستعن بالله، وعنه أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا
 بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد
 كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

— كذلك رواه الترمذي (تقيمة ٥٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أبو حازم، سلمة بن دينار. تابعي المدني، مولى بني مخزوم، شيخ المدينة
 النبوية، الزاهد، الفقيه، مشهور بالمحاسن.

روى عن سعيد بن المسيب وعبد بن أبي قتادة وابن عمر وغيرهم؛ كما روى عنه
 ابن شهاب والسفيان وغيرهم. وثقه ابن معين وأحمد وأبو حاتم وابن خزيمة.

توفي سنة ١٣٥ هـ. سير أعلام النبلاء ٩٦/٦.

وَنَظَرَ وَتَلَبَّسَ بِخِضْلَةٍ فَاسِدَةٍ مِنْ طُولِ أَمَلٍ أَوْ عَجَلٍ أَوْ حَسَدٍ مُسْلِمٍ،
 أَوْ تَكَبُّرٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، أَوْ أَكَلٍ بِمَخْضِ شَهْوَةٍ وَشَرِّهِ، وَتُعْطِيهَا مَا
 لَيْسَ لَهَا مِنْهُ بَدٌّ وَلَا تَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا؛ إِذْ لَا ضَرُورَةَ إِلَى الْفُضُولِ،
 وَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ عَلَى عِبَادِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَأَغْنَاهُمْ عَنْ جَمِيعِ مَا
 يَضُرُّهُمْ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى ذَلِكَ؟ فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ بَعْضُ
 الصَّالِحِينَ: إِنَّ التَّقْوَى أَهْوَنُ شَيْءٍ، إِذَا رَأَيْتَ أَمْرًا تَرَكْتَهُ، فَإِنَّ النَّفْسَ
 تَسْتَكِينُ وَتَتَعَوَّدُ مَا عَوَّدْتَهَا، وَإِنَّهَا لَكَمَا قَالَ الْقَائِلُ: [الكامل]:

فَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبْتَهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
 وَقَالَ آخَرُ: [الطويل]:

هي النفس ما عَوَّدْتَهَا تَتَعَوَّدُ

ويروى: هي النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَحْمَلُ^(١).

وَقَالَ آخَرُ: [الطويل]:

صَبَرْتُ عَنِ اللَّذَاتِ حَتَّى تَوَلَّيْتُ وَالزَّمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
 وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أُطِعِمَتْ تَاقَتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ

(١) وتام البيت: «وللدهر أيام تجور وتعذل» وهذا البيت يُنسبُ للمتنبّي؛ وهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبّي، الشاعر الحكيم الذي بلغ صيته كل مسمع. ولد بالكوفة وإليها انتسب ونشأ بالشام ثم تنقل في البادية، وقال الشعر صبيّاً، وتنبأ في بادية السماوة بين الكوفة والشام وتبعه قوم، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص ونائب الإخشيد فأسرّه وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه. ووفد على سيف الدولة أمير حلب فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيد ثم قصد العراق وفارس. وفي طريق عودته إلى بغداد قتله فاتك الأسدي. سير أعلام النبلاء ١٦/١٩٩.

فَإِذَا عَلِمْتَ الَّذِي وَصَفْنَاهُ وَعَمِلْتَ بِهِ كُنْتَ مِنَ الزَّاهِدِينَ فِي
الدُّنْيَا، الرَّاعِبِينَ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَنْ سُمِّيَ بِاسْمِ الزَّاهِدِ، فَلَقَدْ سُمِّيَ بِأَلْفِ أَسْمٍ
مَمْدُوحٍ، وَكُنْتُ مِنَ الْمُتَفَرِّدِينَ الْمُتَقَطِّعِينَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، الَّذِينَ هُمْ
أَهْلُ الْأَنْسَرِ، خَدَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَتَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:
[المتقارب]:

تَشَاغَلَ قَوْمٌ بِدُنْيَاهُمْ وَقَوْمٌ تَخَلَّوْا لِمَوْلَاهُمْ / [٤٩/أ]
فَأَلْزَمَهُمْ بَابَ مَرْضَاتِهِ وَعَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ أَغْنَاهُمْ
إِذَا ذَكَرُوا بِالَّذِي أَسْلَفُوا أَذَابَ الْقُلُوبَ وَأَبْكَاهُمْ
فَمَا يَعْرِفُونَ سِوَى حُبِّهِ فَوَالُوا الْإِلَهَ فَوَالَاهُمْ
يَصْفُونَ بِاللَّيْلِ أَقْدَامَهُمْ وَعَيْنُ الْمُهَيَّمِنِ تَرَعَاهُمْ
فَطُوبَى لَهُمْ ثُمَّ طُوبَى لَهُمْ إِذَا بِالتَّحِيَّةِ حَيَاهُمْ^(١)

وَكُنْتُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي اللَّهِ، الْخَوَاصِّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، الَّذِينَ
قَالَ فِيهِمْ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]،
مَكَانَةَ
الزاهد
وَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ لَهُمْ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ، وَصِرَتْ حَيْثُ أَفْضَلَ
مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، إِذْ لَيْسَتْ لَهُمْ شَهْوَةٌ تَدْعُو إِلَى قَبِيحٍ
وَلَا نَفْسٌ خَبِيثَةٌ، وَكُنْتُ قَدْ خَلَفْتُ هَذِهِ الْعَقَبَةَ الطَّوِيلَةَ الشَّدِيدَةَ وَرَاءَكَ
وَسَبَقْتَ الْعَوَاتِقَ كُلَّهَا إِلَى مَقْصُودِكَ، وَلَا يَهْوُلُنَّكَ فَإِنَّهُ مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ
بِاللَّهِ وَالِإِعْتِصَامِ بِهِ لَهَيِّنٌ.

(١) البيتان ١ و ٢ من الأصل، والبيتان ٣ و ٤ من (ب) و (ج) والبيتان ٥ و ٦ من (د)
و (هـ).

نَسَأَلُ اللّٰهَ تَعَالَى، وَهُوَ خَيْرُ مَسْئُولٍ، أَنْ يُمَدِّكَ وَإِيَانَا بِحُسْنِ
تَوْفِيقِهِ وَعَوْنِهِ وَتَيْسِيرِهِ، فَإِنَّهُ الْكَافِي لِكُلِّ مُهِمٍّ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ
مُعْضَلٍ، فَبِيَدِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.
فَهَذَا مَا أَرَدْنَا ذِكْرَهُ فِي هَذَا الْبَابِ^(١)، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

(١) أي: باب عقبة العوائق.

العقبة الرابعة وهي عقبة العوارض

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ - وَفَقَكَ اللَّهُ - بِكَفَايَةِ الْعَوَارِضِ،
الشَّاعِلَةِ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، بِسَدِّ سَبِيلِهَا عَلَيْكَ لِئَلَّا تُشْغَلَ عَنْ
مَقْصُودِكَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهَا أَرْبَعَةٌ:

العارض الأول: الرِّزْقُ وَمُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِذَلِكَ:

وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُ فِي التَّوَكُّلِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي
مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ بِكُلِّ حَالٍ؛ وَذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

١ - أَحَدُهُمَا: نَتَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ وَيَتَمَشَّى لَكَ مِنَ الْخَيْرِ حَقُّهُ؛ فَإِنَّ
مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَوَكِّلاً فَلَا بُدَّ مِنْ اشْتِغَالِهِ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ بِسَبَبِ الْحَاجَةِ
وَالرِّزْقِ وَالْمَصْلَحَةِ، إِمَّا ظَاهِراً وَإِمَّا بَاطِناً؛ إِمَّا يَطْلُبُ وَكَسِبَ بِالْبَدَنِ
كَعَامَّةِ الرَّاغِبِينَ، وَإِمَّا بِذِكْرِ وَإِرَادَةِ وَوَسْوَاسَةِ بِالْقَلْبِ كَأَمْجَهْدِينَ
المُعَلِّقِينَ.

وَالْعِبَادَةُ تَحْتَاجُ إِلَى فَرَاغِ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ لِيَحْضَلَ حَقُّهَا؛ وَالْفَرَاغُ
لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْمُتَوَكِّلِينَ. بَلْ أَقُولُ: كُلُّ مَنْ هُوَ ضَعِيفُ الْقَلْبِ، لَا
يَكَادُ يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ إِلَّا بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ، فَلَا يَكَادُ يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ خَطِيرٌ مِنْ دُنْيَا
وَآخِرَةٍ.

الدنيا وأبناؤها
وَكَثِيرًا مَا سَمِعْتُ مِنْ شَيْخِي أَبِي مُحَمَّدٍ يَقُولُ: إِنَّمَا الْأُمُورُ
تَمْشِي فِي الْعَالَمِ لِرَجُلَيْنِ: مُتَوَكِّلٌ أَوْ مُتَهَوِّرٌ.

قُلْتُ: وَهَذَا كَلَامٌ جَامِعٌ فِي مَعْنَاهُ.

المتهور [٤٩/ب]
فَإِنَّ الْمُتَهَوِّرَ يَقْصِدُ الْأُمُورَ عَلَى قُوَّةِ عَادَةٍ وَجُرْأَةِ قَلْبٍ، لَا
يَلْتَمِئُ/ إِلَى صَارِفٍ يَصْرِفُهُ، أَوْ خَاطِرٍ يُضْعِفُهُ فَتَجْرِي لَهُ الْأُمُورُ.

المتوكل
وَالْمُتَوَكِّلُ يَقْصِدُ الْأُمُورَ عَلَى قُوَّةِ بَصِيرَةٍ، وَكَمَالِ يَقِينٍ وَطَمَإِينَةٍ
بِوَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَمَامِ نَفَقَةٍ بِضَمَانِهِ، وَلَا يَلْتَمِئُ إِلَى إِنْسَانٍ يُخَوِّفُهُ
أَوْ شَيْطَانٍ يُوسِسُ لَهُ، فَيَفُوزُ بِمَقَاصِدِهِ وَيُظْفَرُ بِمَطَالِبِهِ.

الضعيف
وَأَمَّا الْخَلْقُ الضَّعِيفُ أَبَدًا، يَكُونُ بَيْنَ تَوَكُّلٍ وَتَرَدُّدٍ، وَفُتُورٍ
وَتَحْيِيرٍ، كَالْحِمَارِ فِي مَعْلَفِهِ وَالذَّجَاجِ فِي قَفْصِهِ، يَرْمُقُ مَا تَعَوَّدَ مِنْ
صَاحِبِهِ، لَا يَكَادُ يَنْفِكُ مِنْ ذَلِكَ؛ تَقَاعَدَتْ نَفْسُهُ عَنِ مَعَالِي الْأُمُورِ،
وَأَنْقَطَعَتْ هِمَّتُهُ، فَلَا يَكَادُ يَقْصِدُ أَمْرًا شَرِيفًا، وَإِنْ قَصَدَهُ فَلَا يَكَادُ
يُظْفَرُ بِهِ وَلَا يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ، أَلَّا تَرَى أَصْحَابَ الْهَمَمِ مِنْ أُنْبَاءِ الدُّنْيَا،
لَمْ يَنَالُوا مَرْتَبَةَ كَبِيرَةٍ وَمَنْزِلَةَ خَطِيرَةٍ إِلَّا بِانْقِطَاعِ قُلُوبِهِمْ عَنِ أَنْفُسِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ.

الملوك
أَمَّا الْمُلُوكُ، فَيَبَاشِرُونَ الْحُرُوبَ وَيُكَافِحُونَ الْأَعْدَاءَ، إِمَّا هُلْكَاءَ
وَإِمَّا مُلْكَاءَ، حَتَّى تَخْضَلَ لَهُمْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ وَعَقْدُ الْوِلَايَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ^(١)، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا نَظَرَ إِلَى

(١) القرشي الأموي المكي، مؤسس خلافة بني أمية. قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت
عمرة القضاة ولكن ما ظهر إسلامه إلا يوم فتح مكة.
حدّث عن النبي، وكتب له مرات بسيرة، وحدث أيضاً عن أخته أم المؤمنين أم =

العسكريين^(١) يوم صفين قال: من أراد خطيراً خاطراً بعظيمته.

وأما التجار فيركبون المهالك براً وبحراً، ويطرحون أنفسهم على أحدى
الأمريين: إما فوت الأرواح، وإما حصول الأرباح، حتى يحصل لهم
بذلك كل ربح عظيم ومال جسيم وعلت نفيس.

وأما السوفي، الذي قد ضعف قلبه ورق عزمه، فلا يكاد يقطع
القلب عن علاقته من نفسه وماله، فهو من بيته إلى دكانه طول
عمره، لا يصل إلى مرتبة شريفة كالملوك، ولا إلى ربح عظيم
كالتجار المخاطرين، فإن نال في سوقه ربح دزهم على بضاعته
فذلك له كثير، وذلك لتعلق قلبه بشيء معلوم، فهذا في الدنيا
وأبنائها.

وأما أبناء الآخرة، فرأس مالهم هذه الخصلة التي هي التوكل أبناء
الآخرة وقطع القلب عن العلائق، لما أحكموها وأعطوها (حقها)^(٢)، تفرغوا
لعبادة الله تعالى، وتمكنوا من التفرّد عن الخلق، والسياحة في
الأرض، وافتحام الفيافي، وأستيطان الجبال والشعاب، فصاروا
أقوياء العباد ورجال الدين وأحرار الناس ومُلوِك الأرض بالحقيقة،
يسيرون حيث يشاءون ويقصدون من الأمور العظام علماً وعبادة ما
يشاءون، لا عائق لهم ولا حاجز لهم دونهم، وكل الأماكن لهم / [٥٠/أ]

= حبيبة وعن أبي بكر وعمر. وفي الخلافة بعد أن تنازل له الحسن بن علي عنها،
وحكم حوالي عشرين سنة من ٤١ هـ حتى ٦٠ هـ. سير أعلام النبلاء ٣/١١٩.

(١) أي عسكره وعسكر علي بن أبي طالب.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

وَاحِدٌ، وَكُلُّ الْأَزْمَانِ عِنْدَهُمْ وَاحِدٌ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ
يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ
فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ»^(١).

وَعَنْ سُلَيْمَانَ الْخَوَاصِ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ
بِصِدْقِ النَّبِيِّ، لَأَحْتَاَجَ إِلَيْهِ الْأَمْرَاءُ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَكَيْفَ يَحْتَاجُ وَمَوْلَاهُ
الْغِنَى الْحَمِيدُ؟

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَوَاصِ^(٢) قَالَ: لَقِيتُ غُلَامًا فِي النَّبِيِّ كَأَنَّهُ

(١) ذكر السيوطي في الجامع الصغير (٥٢٦/٢) النصف الأول من هذا الحديث فقط،
عن ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل بروايته عن ابن عباس، ورَمَزَ لحسنه.

— وقال المناوي (٦ ١٥٠) ورواه بهذا اللفظ الحاكم والبيهقي وأبو يعلى
وإسحاق وعبد بن حميد ونضراني وأبو نعيم كلهم من طريق هشام بن زياد بن
أبي المقدم عن محمد نقرضي عن ابن عباس. وقال البيهقي في الزهد: تكلموا
في هشام بسبب هذا الحديث.

— وقال العراقي (حجء ٤ ٢٤٤): رواه الحاكم والبيهقي من حديث ابن عباس
بإسناد ضعيف.

— ورواه أبو نعيم في نحية (٣ ٢١٨) بتمامه بلفظ: (من أحب أن يكون أقوى
الناس فليتوكل على الله. ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله. ومن أحب
أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه...) والحديث
طويل وله بقية.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص، من أقران الجُنَيْدِ. وُلِدَ فِي التَّوَكُّلِ
وَالرِّيَاضَاتِ حَظًّا كَبِيرًا. تُوُفِيَ بِالنَّرْبِ سَنَةَ ٢٩١ هـ.

النظر ترجمته وأخباره في:

ضَبَّتِ الصُّوفِيَّةُ ص ٢٨٤، حَبِيبَةُ الْأَوْلِيَاءِ ١٠/٣٢٥ - ٣٣١، صِفَةُ الصُّوفِيَّةِ
٨٠/٤ - ٨٤.

سَبِيكَةُ فِضَّةً، قُلْتُ: إِلَى أَيْنَ يَا غُلامُ؟ قَالَ إِلَى مَكَّةَ، قُلْتُ: بِلَا زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ؟ فَقَالَ: يَا ضَعِيفَ الْيَقِينِ، الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَقْدِرُ أَنْ يُوصِّلَنِي إِلَى مَكَّةَ بِلَا زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ. فَلَمَّا دَخَلْتُ مَكَّةَ فَإِذَا هُوَ فِي الطَّوَافِ يَقُولُ: [مجزوء الرجز].

يَا نَفْسُ سِيحِي أَبَدًا وَلَا تُحِبِّي أَحَدًا
إِلَّا الْجَلِيلَ الصَّمَدًا يَا نَفْسُ مُوتِي كَمَدًا
فَلَمَّا رَأَيْتَنِي قَالَ: يَا شَيْخُ أَنْتَ بَعْدُ عَلَى ذَلِكَ الضَّعْفِ مِنَ الْيَقِينِ؟

وَقَالَ أَبُو مُطِيعٍ^(١) لِحَاتِمِ الْأَصَمِّ، بَلَّغَنِي أَنَّكَ تَقْطَعُ الْمَفَاوِزَ بِالتَّوَكُّلِ مِنْ غَيْرِ زَادٍ، قَالَ حَاتِمٌ: زَادِي أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: أَرَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مَمْلُوكَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَرَى الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عِبِيدَ اللَّهِ وَعِيَالَهُ، وَأَرَى الْأَرْزَاقَ وَالْأَسْبَابَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ، وَأَرَى قَضَاءَ اللَّهِ نَافِذًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ اللَّهِ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ: [الوافر]:
أَرَى الزُّهَّادَ فِي رُوحِ وَرَاحَةِ قُلُوبِهِمْ عَنِ الدُّنْيَا مُزَاحَةَ
إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ أَبْصَرْتَ قَوْمًا مُلُوكِ الْأَرْضِ سِيَمَتُهُمْ سَمَاحَةَ

٢ - وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي الَّذِي أَقْتَضَى التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي خَطَرِ تَرْكِ هَذَا الشَّأْنِ فَهُوَ مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ وَالْأَمْرِ الْكَبِيرِ.

التوكل

(١) واسمه الحكم بن عبد الله صاحب أبي حنيفة، كان بصيراً بالرأي، علامة كبير الشأن تولى قضاء بلخ، وكان مرجئاً. وقد لقي عبد الرحمن بن حرملة وغيره، وهو ضعيف عندهم في الحديث، وكان مكفوفاً. مات سنة ١٩٩ هـ. انظر ترجمته وأخباره في طبقات بن سعد ٣٧٤/٧، ميزان الاعتدال ١/٥٧٤ - ٥٧٥، لسان الميزان ٢/٣٣٤ - ٣٣٦.

قُلْتُ: أَلَيْسَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَرَنَ الرَّزْقَ بِالْخَلْقِ فَقَالَ: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فَدَلَّ أَنَّ الرَّزْقَ مِنَ اللَّهِ لَا غَيْرُ كَالْخَلْقِ؛ ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالذَّلَالَةِ حَتَّى وَعَدَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَعْدِ حَتَّى ضَمِنَ فَقَالَ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالضَّمَانِ حَتَّى أَقْسَمَ فَقَالَ: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَطْقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّى أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ وَابْتَلَعَ وَأَنْذَرَ فَقَالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] فَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ قَوْلَهُ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِوَعْدِهِ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى ضَمَانِهِ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِقِسْمِهِ، ثُمَّ لَمْ يُبَالِ/ بِأَمْرِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَانظُرْ مَاذَا يَكُونُ حَالُهُ، وَأَنْتَبِهْ أَيُّ مِحْنَةٍ تَجِيءُ مِنْ هَذَا؟ وَهَذِهِ وَاللَّهِ مُصِيبَةٌ شَدِيدَةٌ وَنَحْنُ مِنْهَا فِي غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ.

وَلَقَدْ قَالَ انصَادِقُ الْأَمِينُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِابْنِ عُمَرَ: «كَيْفَ بَكَ إِذَا بَقِيَتْ بَيْنَ قَوْمٍ يَخْبِثُونَ رِزْقَ سَنَّتِهِمْ لِضَعْفِ الْيَقِينِ»^(١). وَعَنِ الْحَسَنِ: لَعَنَ اللَّهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ.

وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] هَلَكْتَ بَنُو آدَمَ، أَغْضَبُوا الرَّبَّ حَتَّى أَقْسَمَ لَهُمْ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ.

(١) قال الكنديري (٢/ ٨٠): رواه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث ابن عمر.

وَعَنْ أُوَيْسِ الْقُرْنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ عَبَدْتَ اللَّهَ عِبَادَةَ أَهْلِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَمَا تَقَبَّلَ مِنْكَ حَتَّى تُصَدِّقَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ تُصَدِّقُهُ؟ قَالَ
تَكُونُ آمِنًا بِمَا تَكْفُلُ اللَّهَ لَكَ مِنْ أَمْرِ رِزْقِكَ، وَتَرَى جَسَدَكَ فَارِغًا
لِعِبَادَتِهِ.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُ هَرِمُ بْنُ حَيَّانَ: أَيُّنَ تَأْمُرُنِي أَنْ أُقِيمَ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ
إِلَى الشَّامِ، قَالَ هَرِمٌ: كَيْفَ الْمَعِيشَةُ بِهَا؟ قَالَ: أَفْ لِهَذِهِ الْقُلُوبِ،
لَقَدْ خَالَطَهَا الشُّكُّ فَمَا تَنْفَعُهَا الْمَوْعِظَةُ.

وَبَلَّغْنَا أَنَّ نَبَاشًا تَابَ عَلَى يَدِي أَبِي يَزِيدَ الْبُسْطَامِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ
فَسَأَلَهُ أَبُو يَزِيدَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ: نَبَشْتُ أَلْفَ قَبْرِ فَلَمْ أَرْ وُجُوهَهُمْ إِلَى
الْقِبْلَةِ إِلَّا رَجُلَيْنِ، فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ: مَسَاكِينُ أَوْلِيكَ تُهَمُّهُ الرِّزْقُ حَوَّلَتْ
وُجُوهَهُمْ عَنِ الْقِبْلَةِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ فَسَأَلَهُ عَنْ
حَالِهِ؟ فَقَالَ: هَلْ سَلِمْتَ بِإِيمَانِكَ؟ فَقَالَ إِنَّمَا يَسْلَمُ الْإِيمَانُ
لِلْمُتَوَكِّلِينَ.

نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصْنِحَنَا بِفَضْلِهِ، وَلَا يُؤَاخِذَنَا بِمَا نَحْنُ أَهْلُهُ، إِنَّهُ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَهَذِهِ هَذِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَخْبِرْنَا مَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ وَحُكْمُهُ وَمَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ فِيهِ حَقِيقَةُ
التوكل من أمر الرِّزْقِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَتَبَيَّنُ لَكَ هَذَا فِي أَرْبَعَةِ فُصُولٍ: بَيَانِ لَفْظَةِ التَّوَكُّلِ،
وَمَوْضِعِهِ، وَحَدِّهِ، وَحِصْنِهِ.

● فَأَمَّا اللَّفْظَةُ: فَإِنَّمَا هِيَ تَوَكَّلْتُ تَفَعَّلْتُ مِنَ الْوَكَالَةِ، فَالْمُتَوَكَّلُ اللَّفْظَةُ

عَلَى أَحَدٍ هُوَ الَّذِي يَتَّخِذُهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَكِيلِ الْقَائِمِ بِأَمْرِهِ، الضَّامِنِ لِإِضْلَاحِهِ، الْكَافِي لَهُ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَأَهْتِمَامٍ، فَهَذِهِ جُمْلَتُهُ.

الموضع ● وَأَمَّا الْمَوْضِعُ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّوَكَّلَ اسْمٌ مُطْلَقٌ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ:

أَحَدُهَا فِي مَوْضِعِ الْقِسْمَةِ، وَهِيَ الثِّقَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى، بِأَنَّهُ لَا يَفُوتُكَ مَا قُسِمَ لَكَ فَإِنَّ حُكْمَهُ لَا يَتَبَدَّلُ، وَهَذَا وَاجِبٌ بِالسَّمْعِ.

وَالثَّانِي فِي مَوْضِعِ التُّصْرَةِ، وَهُوَ الْإِعْتِمَادُ وَالْوَثَاقَةُ بِنَصْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ إِذَا نَصَرْتَهُ وَجَاهَدْتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وَقَالَ: ﴿إِنْ تَصَرُّوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧] [الروم: ٤٧] وَهَذَا وَاجِبٌ بِالْوَعْدِ.

وَالثَّلَاثُ: فِي مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ، بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَكَفِّلٌ بِمَا يُقِيمُ بِنَيْتِكَ لِخِدْمَتِهِ، وَتَتِمَّكَّنَ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وَقَالَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ عليه السلام: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(١). وَهَذَا فَرَضٌ

(١) - رواه ابن حنبل (١، ٣٠، ٥٢) عن عمر بن الخطاب بلفظ: (لو أنكم توكلتم) (ولو أنكم تتوكلون).

- ورواه ابن ماجه في سننه (٢/١٣٩٤) باب التوكل، الحديث رقم (٤١٦٤) عن عمر بن الخطاب أيضاً.

- ورواه الحاكم في مستدرکه (٤/٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي على ذلك.

لَا زِمَ لِلْعَبْدِ، بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ جَمِيعاً، وَهَذَا هُوَ الْأَشْهَرُ وَالْأَغْلَبُ الرَّزْقُ مَوْضِعَ مِنْهُ، أَعْنِي التَّوَكُّلَ فِي مَوْضِعِ الرَّزْقِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ، التَّوَكُّلُ فَمَوْضِعُ التَّوَكُّلِ إِذَنْ هُوَ الرَّزْقُ وَهُوَ الرَّزْقُ الْمَضْمُونُ فِيمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ، وَإِنَّمَا يَتَّضِحُ لَكَ هَذَا بَيَّانِ أَقْسَامِ الرَّزْقِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّزْقَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ: مَضْمُونٌ، وَمَقْسُومٌ، وَمَمْلُوكٌ، أَقْسَامِ الرَّزْقِ وَمَوْعُودٌ .

فَالْمَضْمُونُ هُوَ الْغِذَاءُ وَمَا بِهِ قَوَامُ الْبَنِيَّةِ دُونَ سَائِرِ الْأَسْبَابِ، الْمَضْمُونِ فَالضَّمَانُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يُهَذَا النَّوْعِ، وَالتَّوَكُّلُ يَجِبُ بِإِزَائِهِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَفَفَتْ خِدْمَتَهُ وَطَاعَتَهُ بِأَبْدَانِنَا، فَضَمِنَ مَا يَسُدُّ خَلَلَ الْبَنِيَّةِ لِنَقُومَ بِمَا كَفَفَتْ .

وَقَالَ بَعْضُ مَشَايخِ الْكِرَامِيَّةِ^(١) كَلَاماً حَسَناً عَلَى أَصْلِهِ: إِنَّ أَسْبَابَ ضَمَانِ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَاجِبٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: الرِّزْقِ أَلْحَدُهَا: أَنَّهُ سَيِّدٌ وَنَحْنُ أَعْبِيدُ، وَعَلَى السَّيِّدِ كِفَايَةُ مُؤَنَةِ الْعَبِيدِ، كَمَا أَنَّ عَلَى الْعَبِيدِ خِدْمَةَ السَّيِّدِ.

= - ورواه الترمذي في زهد، وقال: حسن صحيح.

- ونقل الكديري في سراج الطالبين (٢/٨٧) عن الزبيدي قوله: (رواه أيضاً ابن المبارك وأبو داود الضياعي في الزهد، والنسائي وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي كلهم من حديث عمر رضي الله عنه).

(١) الكرامية: فرقة من المشبهة. شبهوا الله بالمخلوقات، وهم أصحاب عبد الله بن محمد بن كرام.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَى الرَّزْقِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ سَبِيلًا إِلَى طَلَبِهِ، إِذْ لَا يَذْرُونَ مَا هُوَ رِزْقُهُمْ، وَأَيْنَ هُوَ، وَمَتَى هُوَ؟ لِيَطْلُبُوهُ بِعَيْنِهِ مِنْ مَكَانِهِ، وَفِي وَقْتِهِ لِيَصِلُوا إِلَيْهِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمْ أَمْرٌ ذَلِكَ وَيُوصِلَهُمْ إِلَيْهِ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ كَلَّفَهُمُ الْخِدْمَةَ، وَطَلَبَ الرَّزْقَ شَاغِلٍ عَنْهَا، فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمُ الْمُؤَنَّةَ لِيَتَفَرَّغُوا لِلْخِدْمَةِ.

وَهَذَا كَلَامٌ مَنْ لَمْ يُحِطْ بِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ. وَالْقَائِلُ بِأَنَّ عَلَى اللَّهِ وَاجِبٌ تَائِهٌ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا فِي فَنَّ الْكَلَامِ فَسَادَهُ، وَلَنُرْجِعُ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ غَرَضِنَا.

المقسوم ٢ - وَأَمَّا الرَّزْقُ الْمَقْسُومُ: فَهُوَ مَا قَسَمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، مَا يَأْكُلُهُ وَيَشْرِبُهُ وَيَلْبَسُهُ كُلُّ وَاحِدٍ بِمِقْدَارٍ وَوَقْتٍ مُوَقَّتٍ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَلَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَمَّا كُتِبَ بِعَيْنِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الرَّزْقُ مَقْسُومٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ لَيْسَ تَقْوَى تَقِيَّ بِزَائِدِهِ وَلَا فُجُورٌ فَاجِرٍ بِنَاقِصِهِ»^(١).

المملوك ٣ - وَأَمَّا الْمَمْلُوكُ: فَمَا يَمْلِكُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا عَلَى [ب/٥١] حَسَبِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَسَمَ لَهُ أَنْ يَمْلِكَهُ وَهُوَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ

(١) - ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ١١٣) بأطول من ذلك برواية العسكري عن ابن مسعود مرفوعاً، (الحديث رقم ٢٢٤) وعلق السخاوي على هذا الحديث قائلاً: (وقوله في حديث ابن مسعود: ولا فجور فاجر بناقصه) يعارض ظاهره ظاهر حديث: (أن الرجل ليحرم الرزق بذنوب يصيبه) وقد تكلم السخاوي بإسهاب عن ذلك عند ذكره حديث: (إن الله لا يعذب بقطع الرزق) (حديث رقم ٢٣٦) كما بين أن إسناده ضعيف.

تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤] أَي مِمَّا
مَلَكَانَاكُمْ.

٤ - وَأَمَّا الْمَوْعُودُ: فَهُوَ مَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ بِشَرَطِ الْمَوْعُودِ
التَّقْوَى حَلَالًا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

فَهَذِهِ أَقْسَامُ الرِّزْقِ، وَالتَّوَكُّلُ إِنَّمَا يَجِبُ بِإِزَاءِ الْمَضْمُونِ مِنْهَا،
فَاعْلَمْ ذَلِكَ.

● وَأَمَّا حَدُّ التَّوَكُّلِ: فَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُيُوخِنَا: إِنَّهُ اتَّكَالُ الْقَلْبِ حَدُّ التَّوَكُّلِ
إِلَى اللَّهِ بِالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالْيَأْسَ عَمَّا دُونَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حِفْظُ الْقَلْبِ
إِلَى اللَّهِ بِمَوْضِعِ الْمَصْنُوحَةِ، بِتَرْكِ تَعْلِيْقِهِ عَلَى شَيْءٍ دُونَهُ.

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: التَّوَكُّلُ تَرْكُ التَّعْيِيقِ،
وَالتَّعْلِيقُ ذِكْرُ قَوَامِ بِنَيْتِكَ بِشَيْءٍ دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) أراد به أبا عمر محمد بن يرهيم الزجاجي النيسابوري. جاور بمكة سنين كثيرة،
ومات بها. صحب الجنييد وأب عثمان والنوري والخوص ورويمًا. مات بمكة
سنة ٣٤٨ هـ (سراج الطائين ٢ ٩٧).

وانظر ترجمته وأخباره في:

طبقت الصوفية ص ٤٣١ - ٤٣٣. الحلية ٣٧٦/١٠، المنتظم لابن الجوزي
٣٩١/٦.

والجنييد هو نزهاد المشهور. وإمام القدوة المحدث، أبو القاسم شيخ الصوفية.
كان مولده سنة ست وستين وأربع مئة. ومات في سنة سبع وأربعين وخمس مئة. =

قال شيخنا الإمام رحمه الله: التَّوَكُّلُ وَالتَّعْلِيْقُ ذِكْرَانِ، فَالتَّوَكُّلُ هُوَ ذِكْرُ قِوَامِ بِنَيْتِكَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّعْلِيْقُ ذِكْرُ قِوَامِهَا عَمَّنْ دُونَ اللَّهِ تَعَالَى. وَالْأَقَاوِيلُ عِنْدِي تَرْجِعُ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّ تُوَطِّنَ نَفْسَكَ عَلَى أَنَّ قِوَامَ بِنَيْتِكَ وَسَدَّ خَلَّتِكَ وَكَفَايَتِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا مِنْ أَحَدٍ دُونَ اللَّهِ، وَلَا بِحُطَامٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى إِنْ شَاءَ سَبَّبَ لَهُ مَخْلُوقاً أَوْ حُطَاماً، وَإِنْ شَاءَ كَفَاهُ بِقُدْرَتِهِ دُونَ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ، وَإِذَا ذَكَرْتَ ذَلِكَ بِقَلْبِكَ وَتَوَطَّنْتَ عَلَيْهِ فَانْقَطَعَ الْقَلْبُ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ وَالْأَسْبَابِ بِمَرَّةٍ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ، فَقَدْ حَصَلَ التَّوَكُّلُ حَقًّا، فَهَذَا حَدُّهُ.

● وَآمَّا حِصْنُ التَّوَكُّلِ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ، فَهُوَ ذِكْرُ ضَمَانِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحِصْنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَمَالِهِ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ عَنِ الْخُلْفِ وَالسَّهْوِ وَالْعَجْزِ وَالنَّقْصِ، فَإِذَا وَاطَبَ الْعَبْدُ عَلَى هَذِهِ الْأَذْكَارِ بَعَثَتْهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ صَبُّ الرِّزْقِ بِحَالٍ؟

طلب
الرزق

فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْقَ الْمَضْمُونَ الَّذِي هُوَ الْغِذَاءُ وَالنِّقْمَاءُ لَا يُمَكِّنُنَا

= قيل عنه: كان فقيهاً فاضلاً ومحدثاً صدوقاً موصوفاً بالعبادة. سير أعلام النبلاء . ٢٧٢/٢٠

طَلْبُهُ، إِذْ هُوَ شَيْءٌ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْعَبْدِ، كَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَلَا دَفْعِهِ.

وَأَمَّا الْمَقْسُومُ مِنَ الْأَسْبَابِ فَلَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ طَلْبُهُ، إِذْ لَا حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا حَاجَتُهُ إِلَى الْمَضْمُونِ، وَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، [٥٢/أ] وَفِي ضَمَانِ اللَّهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فَالْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ وَالثَوَابُ، وَقِيلَ: هُوَ رُخْصَةٌ، إِذْ هُوَ أَمْرٌ وَارِدٌ بَعْدَ الْحَظْرِ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْإِبَاحَةِ، لَا بِمَعْنَى الْإِجَابِ وَالْإِلْزَامِ.

فَإِنْ قِيلَ: لَكِنْ لِهَذَا الرِّزْقِ الْمَضْمُونِ أَسْبَابٌ، فَهَلْ يَلْزَمُنَا طَلْبُ الْأَسْبَابِ؟

قِيلَ لَهُ: لَا يَلْزَمُكَ ذَلِكَ، إِذْ لَا حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ، إِذْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ، فَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُنَا طَلْبُ السَّبَبِ؟ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمِنَ لَكَ ضَمَانًا مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ شَرْطِ الطَّلَبِ وَالْكَسْبِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ثُمَّ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَأْمُرَ الْعَبْدَ بِطَلَبِ مَا لَا يَعْرِفُ مَكَانَهُ فَيَطْلُبُهُ، إِذْ لَا يَعْرِفُ أَيُّ سَبَبٍ مِنْهَا رِزْقُهُ الَّذِي يَتَنَاوَلُهُ لَا غَيْرُ، وَالَّذِي يَصِيرُ سَبَبَ غِذَائِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ لَا غَيْرُ، فَتَوَاحِدُ مِنَّا لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ السَّبَبَ بَعَيْنِهِ وَمِنْ أَيْنَ يَحْصُلُ لَهُ، فَلَا يَصِحُّ تَكْلِيفُهُ، فَتَأَمَّلْ رَاشِدًا، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ.

ثُمَّ حَسْبُكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَوْلِيَاءَ الْمُتَوَكِّلِينَ، لَمْ يَطْلُبُوا رِزْقًا فِي الْأَكْثَرِ وَالْأَعْمِّ، وَتَجَرَّدُوا لِلْعِبَادَةِ، وَبِالْإِجْمَاعِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا تَارِكِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا عَاصِينَ لَهُ

تَعَالَى فِي ذَلِكَ، فَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ وَأَسْبَابِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ لَازِمٍ
لِلْعَبْدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَزِيدُ الرِّزْقُ بِالطَّلَبِ وَهَلْ يَنْقُصُ بِتَرْكِ الطَّلَبِ؟
فَكَلَّا، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، مُقَدَّرٌ وَمُوقَّتٌ، وَلَا تَبْدِيلَ
لِحُكْمِ اللَّهِ، وَلَا تَغْيِيرَ لِقِسْمَتِهِ وَكِتَابَتِهِ.

هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، خِلَافَ مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِ حَاتِمٍ وَشَفِيقٍ^(١)، قَالُوا: إِنَّ الرِّزْقَ لَا يَزِيدُ وَلَا
يَنْقُصُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ، لَكِنَّ الْمَالَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَهَذَا فَاسِدٌ، لِأَنَّ
الدَّلِيلَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْكِتَابَةُ وَالْقِسْمَةُ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ
بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾
[الحديد: ٢٣]. وَلَوْ كَانَ الطَّلَبُ يَزِيدُ وَالتَّرْكَ يُنْقُصُ، لَكَانَ لِلْأَسَى
وَالْفَرَحِ مَوْضِعٌ إِذَا هُوَ قَصَرَ وَتَوَاسَى حَتَّى فَاتَهُ، وَجَدَّ وَشَمَّرَ حَتَّى
حَصَلَهُ، وَقَالَ ﷺ: «هَكَذَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ»^(٢).

طلب الثواب
فَإِنْ قِيلَ: فَالثُّبُوبُ وَالْعِقَابُ أَيْضاً مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ،
ثُمَّ يَلْزَمُنَا طَلَبُهُ وَيَزِيدُ بِالطَّلَبِ وَيَنْقُصُ بِتَرْكِهِ.

(١) شفيق البلخي:

أبو علي شفيق بن إبراهيم البلخي. من مشايخ خراسان. كان إماماً في الزهد
وهو أستاذ حاتم لأصم. وله أقوال وحكم ومواعظ جنية. سير أعلام النبلاء
٣١٣/٩.

(٢) — وفي رواية الإحياء (٤/٢٥٧): (حُذِّهَا) والمعنى واحد.

— قال العراقي: أخرجه ابن جبن في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن
شريحيل، ووصله الضبراني عن هذيل عن ابن عمر، ورجاله رجال الصحيح.

فَاعْلَمْ: أَنَّ طَلَبَ الثَّوَابِ إِنَّمَا وَجَبَ لِإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِهِ أَمْرًا حَتْمًا / وَأَوْعَدَ عَلَى تَرْكِهِ وَلَمْ يَضْمَنْ الثَّوَابَ عَلَى غَيْرِ فِعْلِ مِثْلًا، [٥٢/ب] فَرِيَادَةُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ بِفِعْلِ الْعَبْدِ، فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي نُكْتَةٍ، وَهِيَ مَا قَالَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: إِنَّ الْمَكْتُوبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قِسْمَانِ:

قِسْمٌ هُوَ مَكْتُوبٌ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَتَعْلِيقِ بِفِعْلِ الْعَبْدِ، وَهُوَ مَا كُتِبَ فِي الْأَزْرَاقِ وَالْآجَالِ، أَلَّا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ مُطْلَقًا غَيْرَ مَشْرُوطٍ، اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩] وَقَالَ صَاحِبُ الشَّرْحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَرْبَعَةٌ قَدْ فُرِعَ مِنْهُنَّ: الْخُلُقُ، وَالْخُلُقُ، وَالرِّزْقُ، وَالْأَجَلُ»^(١).

وَقِسْمٌ مَكْتُوبٌ بِشَرْطٍ مُعْلَقٍ، مَشْرُوطٌ بِفِعْلِ الْعَبْدِ، وَهُوَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، أَمَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مُعْلَقًا بِفِعْلِ الْعَبْدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [المائدة: ٦٥] (وهذا بَيِّنٌ فاعلمه)^(٢).

(١) - أورده السيوطي في الجامع الصغير (١٧٢/٢) حديث رقم (٥٨٤٨) بلفظ: (فرغ إلى ابن آدم من أربع: خلق، والخلق، الرزق، والأجل) ونسبه للطبراني في معجمه الأوسط عن ابن مسعود، ورمز لصحته. ونقل العلامة المناوي في فيض القدير (٤٢٩/٤) عن الهيثمي قوله: فيه عيسى بن المسيب البجلي، وهو ضعيف عند جمهور، ووثقه الدراقطني في سننه. وضعفه في غيرها.

(٢) عبارة منقذة من الأصل. منبئة في باقي النسخ.

فَإِنْ قِيلَ: فَنَحْنُ نَجِدُ الطَّالِبِينَ يَجِدُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَمْوَالَ،
وَالتَّارِكِينَ يَغْدُمُونَ وَيَقْتَرُونَ.

قِيلَ لَهُ: كَأَنَّكَ لَا تَجِدُ مَعَ ذَلِكَ طَالِبًا مَحْرُومًا فَقِيرًا، أَوْ فَارِعًا
مَرْزُوقًا غَنِيًّا، بَلْ إِنَّ هَذَا هُوَ الْأَكْثَرُ، لِتَعَلَّمَ أَنَّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ، وَتَذْيِيرُ الْمَلِكِ الْحَكِيمِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ سَابِقٍ^(١)
الصَّقَلِيُّ الْوَاعِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالشَّامِ: [البسيط]:

وَكَمْ قَوِيٌّ قَوِيٌّ فِي تَقْلِبِهِ مُهْدَبُ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفٌ
وَكَمْ ضَعِيفٌ ضَعِيفٌ فِي تَقْلِبِهِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ
هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ لَهُ فِي الْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ
فَأَحْمَدُ إِلَهَكَ فِي ضَيْقِي وَفِي سَعَةِ وَلَا تُعَانِدْ فَمَا الْأَرْزَاقُ تَخْتَلِفُ

الثقة بالله فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلْ أَدْخُلُ الْبَادِيَةَ بِلَا زَادٍ؟ فَأَقُولُ: إِنْ كَانَ لَكَ قُوَّةُ
قَلْبٍ بِاللَّهِ وَالثِّقَّةُ الْبَالِغَةُ بِوَعْدِ اللَّهِ، فَاذْخُلْ وَإِلَّا فَكُنْ كَالْعَوَامِّ
بِعَلَاثَتِهِمْ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ الْإِمَامَ أَبَا الْمَعَالِي^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِنْ مَنْ
جَرَى مَعَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَادَةِ النَّاسِ، جَرَى اللَّهُ مَعَهُ عَلَى مَا هُوَ عَادَةٌ
النَّاسِ / فِي كِفَايَةِ الْمُؤَنَةِ، وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ جِدًّا، وَفِيهِ فَوَائِدٌ جَمَّةٌ
لِمَنْ تَأَمَّلَهَا.

(١) الواعظ الصقلي. كان بالشام، وله شعر، ولم نعر على ترجمته.

(٢) هو إمام الحرمين ضياء الدين عبد الملك ابن الشيخ محمد بن عبد الله بن أبي
يعقوب... الجويني، نسبة إلى جوين في نيسابور. ولد عام ٤١٩ هـ وجاور
بمكة والمدينة أربع سنين يفتي ويدرس ويجمع طرق الشافعي. ومن ثم لقب
بإمام الحرمين. ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الدين المدرسة النظامية
فيها. وبقي قريبا من ثلاثين سنة يخطب ويجلس للمناظرة والوعظ والتدريس.
توفي سنة ٤٧٨ هـ. سير أعلام النبلاء ٤٦٨/١٨.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ خَيْرَ النَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].
 خبير الزاد
 التقوى

فَاعْلَمْ أَنَّ فِيهِ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ زَادُ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: خَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَى، وَلَمْ يَقُلْ حُطَامُ (الدُّنْيَا)^(١) وَأَسْبَابُهَا.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ قَوْمٌ لَا يَأْخُذُونَ زَادًا فِي طَرِيقِ الْحَجِّ لِأَنْفُسِهِمْ أَتْكَالًا عَلَى النَّاسِ، وَيَسْأَلُونَ وَيُلْحُونَ وَيُؤْذُونَ النَّاسَ، فَأَمَرُوا بِالزَّادِ أَمْرَ تَنْبِيهِ، عَلَى أَنْ أَخَذَ الزَّادُ مِنْ مَالِكَ خَيْرٌ مِنْ أَخْذِ مَالِ النَّاسِ وَالِاتِّكَالِ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالْمُتَوَكِّلُ هَلْ يَحْمِلُ الزَّادَ فِي الْأَسْفَارِ؟
 زاد المتوكل

فَاعْلَمْ: أَنَّهُ رَبَّمَا يَحْمِلُ الزَّادَ وَلَا يُعَلِّقُ الْقَلْبَ بِهِ بِأَنَّهُ لَا مَحَالَةَ تَعَلُّقَ رِزْقِهِ، وَفِيهِ قِوَامُهُ، إِنَّمَا يُعَتَّقُ الْقَلْبَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: الْقَلْبُ بِاللَّهِ
 لا بالرزق
 إِنْ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى إِنْ شَاءَ أَقَامَ بِنَبِيِّيْ بِهَذَا أَوْ بغيرِهِ، وَرَبَّمَا يَحْمِلُ بِنَبِيٍّ أُخْرَى، بِأَنْ يُعِينَ مُسْلِمًا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي أَخْذِ الزَّادِ وَتَرْكِهِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْقَلْبِ. لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ إِلَّا بِوَعْدِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ كِفَايَتِهِ وَضَمَانِهِ، فَكَمْ مِنْ حَامِلِ الزَّادِ وَقَلْبُهُ مَعَ اللهِ تَعَالَى دُونَ الزَّادِ، وَكَمْ مِنْ تَارِكٍ وَقَلْبُهُ مَعَ الزَّادِ دُونَ اللهِ تَعَالَى، فَالشَّأْنُ إِذَنْ فِي الْقَلْبِ، فَافْهَمْ هَذِهِ الْأُصُولَ تُكْفِ الْمُؤْتَنَةَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

(١) فِي الْأَصْلِ: حَطَامُهَا، وَالنَّصِيبُ مِنْ بَاقِي النَّسْخِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَحْمِلُ الزَّادَ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ
وَالسَّلْفُ الصَّالِحُ.

يُقَالُ لَهُ: لَا جَرَمَ أَنَّ ذَلِكَ مُبَاحٌ غَيْرُ حَرَامٍ إِنَّمَا الْحَرَامُ تَعْلِيْقُ
الْقَلْبِ بِالزَّادِ، وَتَرْكُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَافْهَمْ ذَلِكَ.

ثُمَّ مَا ظَنَنْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿ وَتَوَكَّلْ
عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] أَعْصَاهُ فِي ذَلِكَ وَعَلَّقَ قَلْبَهُ
بَطَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ دِرْهَمٍ أَوْ دِينَارٍ؟ كَلَّا وَحَاشَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، بَلْ
كَانَ قَلْبُهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى. وَتَوَكَّلْتَهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ الَّذِي لَمْ يَلْتَفِتْ
إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَى مَقَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا
[٥٣ ب] كَانَ أَخَذَ الزَّادَ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمِنَ السَّلْفِ الصَّالِحِ لِنِيَّاتِ/
الْخَيْرِ، لَا لِمِيلِ قُلُوبِهِمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الزَّادِ، وَالْمَعْتَبَرِ الْقَصْدُ
عَلَى مَا أَعْلَمْنَاكَ. فَاتَّبِعْهُ مِنْ رَقَدَتِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، أَخَذَ الزَّادِ، أَمْ تَرَكَهُ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْحَالِ، إِنْ كَانَ مُقْتَدَى بِهِ يُرِيدُ
أَخَذَ الزَّادِ
وَتَرَكَهُ
أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَخَذَ الزَّادِ مُبَاحٌ، أَوْ يَنْوِي بِهِ عَوْنَ مُسْلِمٍ، أَوْ إِغَاثَةَ
مَلْهُوفٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَالْأَخْذُ أَفْضَلُ، وَإِنْ كَانَ مُنْفَرِدًا، قَوِيَ الْقَلْبُ
بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، يَشْغَلُهُ الزَّادُ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ، فَالتَّارُكَ أَفْضَلُ، فَتَفْهَمُ هَذِهِ
الْجُمْلَةَ وَاحْتَفِظْ بِهَا رَاشِدًا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

العَارِضُ الثَّانِي: الْأَخْطَارُ وَإِرَادَتُهَا وَقَصُودُهَا:

وَأِنَّمَا كِفَايَتُهَا فِي التَّفْوِيزِ، فَعَلَيْكَ بِتَفْوِيزِ الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ
نتيجة
التفويض
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لَطْمَانِيَّةِ الْقَلْبِ فِي الْحَالِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ
 حَاطِرَةً مُبْهَمَةً، لَا يُدْرِي صِلَاحُهَا مِنْ فَسَادِهَا، فَتَكُونُ مُضْطَرِبَ
 الْقَلْبِ هَائِمِ النَّفْسِ، لَا تَدْرِي تَقَعُ فِي صِلَاحٍ أَوْ فِسَادٍ؛ فَإِذَا فَوَّضْتَ
 الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، عَلِمْتَ أَنَّكَ لَا تَقَعُ إِلَّا فِي صِلَاحٍ وَخَيْرٍ،
 فَتَكُونُ آمِنًا مِنَ الْخَطَرِ مُطْمَئِنِّ الْقَلْبِ فِي الْحَالِ، وَهَذِهِ الطَّمَانِيَّةُ
 وَالْأَمْنُ وَالرَّاحَةُ فِي الْوَقْتِ غَنِيمَةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ
 يَقُولُ فِي مَجَالِسِهِ كَثِيرًا: دَعِ التَّدْبِيرَ إِلَى مَنْ خَلَقَكَ تَسْتَرِحْ؛ وَقَدْ أَنْشَدَ
 فِي ذَلِكَ: [الخفيف]:

إِنَّ مَنْ كَانَ لَيْسَ يَدْرِي أَفِي الْمَحَدِ جُوبٌ نَفَعُ لَهُ أَوْ الْمَكْرُوهِ
 لَحَرِيٍّ بِأَنْ يُفَوِّضَ مَا يَعُدُّ جِزُّ عَنْهُ إِلَى الَّذِي يَكْفِيهِ
 إِلَهَ الْبَرِّ الَّذِي هُوَ بِالرَّأْيِ فَهَ أَخْنَى مِنْ أُمَّه وَأَبِيهِ

وَالثَّانِي: مِنْ لَأْمَرَيْنِ: لِحُصُولِ الصِّلَاحِ وَالْخَيْرِ فِي لِاسْتِغْنَاءِ،
 وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمُورَ بِأَعْوَابِ مُبْهَمَةٍ، فَكَمْ مِنْ شَرٍّ فِي صُورَةِ خَيْرٍ. وَكَمْ
 مِنْ ضَرٍّ فِي حِلْيَةِ نَفْعٍ. وَكَمْ مِنْ سُمٍّْ فِي هَيْئَةِ شَهِيدٍ. وَتُتُّ نَجَاهِلٌ
 بِالْعَوَاقِبِ وَالْأَسْرَارِ، فِذَا رُذِّتِ الْأُمُورُ قَطْعًا وَأَخَذَتْ فِيهِ بِخَيْرِكَ
 مُتَحَكِّمًا، فَمَا أَسْرَعُ مَا تَقَعُ فِي هَلَاقٍ وَلَا تَشْعُرُ.

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الْعِبَادِ كَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُرِيَهُ إِبْنِيْسَ، فَقِيلَ
 لَهُ: سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَأَبَى إِلَّا ذَلِكَ، فَأَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، فَلَمَّا رَأَى
 الْعَابِدُ قَصْدَهُ بِالضَّرْبِ، فَقَدَّ لَهُ إِبْنِيْسُ: لَوْلَا أَرَى أَنَّكَ تَعِيشُ مِائَةَ
 سَنَةٍ لِأَهْنِكُتْكَ وَعَاقِبْتُكَ. فَوَعَتْرَ بِقَوْلِهِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ عُمْرِي بَعِيدٌ
 فَأَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ثُمَّ أَتُوبُ. فَوَقَعَ فِي الْفِسْقِ وَتَرَكَ الْعِبَادَةَ وَهَلَكَ
 وَخَسِرَ. / فَنِي هَذِهِ مَا يُبْهَتُّ عَنِّي تَرَكَ الْحُكْمَ فِي إِرَادَتِكَ، وَاللَّجَاجِ [أ/٥٤]

فِي مَطْلُوبِكَ، وَيُحَدِّثُكَ أَيْضاً طُولَ الْأَمَلِ، فَإِنَّهُ الْآفَةُ الْعَظِيمَةُ، وَلَقَدْ
صَدَقَ الْقَائِلُ: [الوافر]:

أَلَا يَا نَفْسَ إِنْ تَرْضِي بِقَوْتِ تَكُونِي حُرَّةً أَبَداً مَلِيَّةً
وَإِيَّاكَ الْمَطَامِعَ وَالْأَمَانِي فَكَمِ أُمْنِيَّةً جَلَبَتْ مَنِيَّةً

وَأَمَّا إِذَا فَوِّضْتَ أَمْرَكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَخْتَارَ لَكَ مَا
هُوَ صَالِحٌ، لَمْ تَلَقَ إِلَّا الْخَيْرَ وَالسَّادَاتِ، وَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى الصَّالِحِ،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [٤٤] فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِتَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ [غافر: ٤٤].

أَمَا تَرَى كَيْفَ أَعْتَبَ تَفْوِيضَهُ الْوَقَايَةَ مِنَ الْأَسْوَاءِ، وَالنَّصَرَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ، وَبُلُوغَ الْمُرَادِ، فَتَأَمَّلْ مُوَفَّقًا.

فَإِنْ قُلْتَ: بَيْنَ لَنَا مَعْنَى التَّفْوِيضِ وَحُكْمُهُ:

فَاعْلَمْ أَنَّ هُنَا فَضْلَيْنِ بِهِمَا يَتَّضِحُ الْكَلَامُ:

أَحَدُهُمَا: مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ.

وَالثَّانِي: مَعْنَى وَحْدَهُ وَضِدُّهُ.

معنى
التفويض

موضعه

١ - أَمَا مَوْضِعُهُ: فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَاتِ ثَلَاثَةٌ:

الأول: مُرَادٌ تَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ فَسَادٌ وَشَرٌّ لَا شَكَّ فِيهِ الْبُتَّةُ، كَالنَّارِ
وَالْعَذَابِ، وَفِي الْأَفْعَالِ كَالْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى
إِرَادَةِ ذَلِكَ.

والثاني: مُرَادٌ تَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ صَالِحٌ كَالجَنَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ

وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَكَ إِرَادَتُهَا بِالْحُكْمِ، لَا مَوْضِعَ لِلتَّفْوِيضِ فِيهِ، إِذْ لَا خَطَرَ فِيهِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ خَيْرٌ وَصَلَاحٌ.

وَالثَّالِثُ: مُرَادٌ لَا تَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ لَكَ فِيهِ صَلَاحًا أَوْ فَسَادًا، وَذَلِكَ نَحْوُ التَّوَافُلِ وَالْمُبَاحَاتِ، فَهَذَا مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تُرِيدَهَا قَطْعًا، بَلْ بِالِاسْتِثْنَاءِ وَشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ؛ فَإِنْ قَيَّدْتَ إِرَادَتَكَ بِالِاسْتِثْنَاءِ فَهُوَ تَفْوِيضٌ، وَإِنْ أَرَدْتَ دُونَ الْإِسْتِثْنَاءِ فَهُوَ طَمَعٌ مَذْمُومٌ مَنَهِيٌّ عَنْهُ، فَمَوْضِعُ التَّفْوِيضِ إِذْنُ كُلِّ مُرَادٍ فِيهِ الْخَطَرُ، وَهُوَ أَنْ لَا تَسْتَيْقِنَ صَلَاحَكَ فِيهِ.

٢ - وَأَمَّا مَعْنَى التَّفْوِيضِ فَقَالَ بَعْضُ شَيْوَحِنَا: هُوَ تَرْكُ اخْتِيَارِ مَا فِيهِ مُخَاطَرَةٌ، إِلَى الْمُخْتَارِ الْمُدَبِّرِ، الْعَالِمِ بِمَصْلَحَةِ الْخَلْقِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَعِبَارَةُ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ السَّجْزِيِّ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ تَرْكُ اخْتِيَارِ الْمُخَاطَرَةِ عَلَى الْمُخْتَارِ، لِيَخْتَارَ لَكَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ. وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: هُوَ تَرْكُ الطَّمَعِ، وَالطَّمَعُ هُوَ إِرَادَةُ [٥٤/ب] الشَّيْءِ الْمُخَاطَرِ بِالْحُكْمِ، فَهَذِهِ عِبَارَاتُ الْمَشَايخِ.

وَالَّذِي نَقَوْلُهُ إِنَّ التَّفْوِيضَ إِرَادَةٌ أَنْ يَحْفَظَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ التَّفْوِيضَ
عند الغزالي مَصَالِحَكَ، فِيمَا لَا تَأْمَنُ فِيهِ الْخَطَرُ.

(١) الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ السَّجْزِيِّ، (نسبة إلى سجستان على غير قيس) العلامة، شَيْخُ الْحَنْفِيَّةِ بَيْلَخِ، أَبُو الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ عَلِيِّ السَّجْزِيِّ ثُمَّ الْبَلْخِيِّ الزَّاهِدِ عَمَرَ الْعُمَرُ الطَّوِيلِ حَتَّى حَدَّثَ بِالْكَثِيرِ، وَحُمِلَ عَنْهُ، وَكَانَ عَفِيفًا، حَسَنَ السَّيْرَةِ. قِيلَ: مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ. سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ ١٩/٦٣٥.

وَصِدُّ التَّفْوِيزِ الطَّمَعُ، وَالطَّمَعُ فِي الْجُمْلَةِ يَجْرِي عَلَى
وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: فِي مَعْنَى الرَّجَاءِ، تُرِيدُ شَيْئاً لَّا خَطَرَ فِيهِ، وَلَا
مُخَاطَرَةَ بِالِاسْتِثْنَاءِ، وَذَلِكَ مَمْدُوحٌ غَيْرُ مَذْمُومٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا ﴾ [الشعراء: ٥١] وَهَذَا
الْقِسْمُ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِسَبِيلِ هُهُنَا.

وَالثَّانِي: طَمَعٌ مَذْمُومٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِيَاكُمْ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ
حَاضِرٌ»^(١) وَقِيلَ: هَلَاكُ الدِّينِ وَفَسَادُهُ الطَّمَعُ، وَمِلَاكُهُ الْوَرَعُ.

(١) — ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٩٧/١) برواية الطبراني في المعجم الأوسط عن جابر بلفظ: (إِيَاكُمْ وَالطَّمَعُ، فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ، وَإِيَاكُمْ وَمَا يُعْتَدِرُ مِنْهُ) وَقَدْ أَشَارَ السُّيُوطِيُّ إِلَى ضَعْفِهِ. (انظر الحديث رقم ٢٩٢٧) وَفِي بَيْضِ الْقَدِيرِ لِلْمَنَاوِي (١٣٢/٣) عَنِ الْهَيْثَمِيِّ قَالَ: فِيهِ ابْنُ حَمِيدٍ، مُجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ. — وَذَكَرَ السَّخَاوِيُّ فِي الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ (ص ١٣٥) هَذَا الْحَدِيثَ، وَأَكَّدَ ضَعْفَهُ بِسَبَبِ ابْنِ حَمِيدٍ الْمَجْمَعِ عَلَى ضَعْفِهِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ رَوَاهُ الْقَعْنَبِيُّ. وَيُضِيفُ لَكِنَّ لَهُ شَوَاهِدَ عِنْدَ الْعَسْكَرِيِّ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ عَنِ مَيْمُونِ بْنِ مَهْرَانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قِيلَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا الْغِنَى؟ قَالَ: الْبِئْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَاكُمْ وَالنَّطْمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ (راجع المقاصد الحسنة: تخريج الحديث رقم ٢٧٣).

— كَذَلِكَ أَشَارَ الْأَنْبِيَانِيُّ إِلَى ضَعْفِهِ (ضَعِيفُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ ٢٥٧/٢) وَرَقْمُ الْحَدِيثِ عِنْدَهُ (٢٢٠١) وَرَوَاهُ أَيْضاً الْحَاكِمُ النِّسَابُورِيُّ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٣٢٦/٤) كِتَابُ الرِّقَاقِ. عَنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقْصٍ عَنِ أَبِيهِ عَنِ جَدِّهِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي وَأَوْجِزْ فَقَالَ لَهُ: «عَيْبٌ بِالْإِيَّاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَاكَ وَالنَّطْمَعَ فَإِنَّهُ نَقْرُ الْحَاضِرِ، وَصَرَ صِلَاتِكَ وَأَنْتَ مُؤَدَّعٌ.»

قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: الطَّمَعُ المَذْمُومُ شَيْئَانِ، أَحَدُهُمَا: سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَى مَنْفَعَةٍ مَشْكُوكَةٍ، وَالثَّانِي: إِرَادَةُ الشَّيْءِ مُخَاطَرَةً بِالحُكْمِ، وَهَذِهِ الإِرَادَةُ تُقَابِلُ التَّفْوِيضَ لَا غَيْرَ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا حِصْنُ التَّفْوِيضِ فَهُوَ ذِكْرُ خَطَرِ الأُمُورِ، وَإِمْكَانِ الأَهْلَاكِ وَالفَسَادِ فِيهَا، وَحِصْنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ عَجْزِكَ عَنِ الإِعْتِصَامِ عَنِ ضُرُوبِ الخَطَرِ، وَالإِمْتِنَاعِ عَنِ الوُقُوعِ فِيهَا، بِجَهْلِكَ وَغَفْلَتِكَ وَضَعْفِكَ، فَالْمُوَاطَبَةُ عَلَى هَذَيْنِ الذِّكْرَيْنِ، تَحْمِلُكَ عَلَى تَفْوِيضِ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالتَّحَقُّظِ عَنِ الحُكْمِ فِيهَا، وَالإِمْتِنَاعِ عَنِ إِرَادَتِهَا إِلَّا بِشَرِطِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، فَهَذِهِ هَذِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا هَذَا الخَطَرُ الَّذِي ^(١) يُوجِبُونَ التَّفْوِيضَ لِأَجْلِهِ فِي الأُمُورِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الخَطَرَ فِي الجُمْلَةِ خَطَرَانِ:

الأول: خَطَرُ الشَّكِّ بِأَنَّهُ يَكُونُ أَوْ لَا يَكُونُ، أَوْ أَنَّكَ تَصِلُ إِلَيْهِ أَوْ لَا تَصِلُ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى الإِسْتِثْنَاءِ وَيَقَعُ فِي بَابِ النِّيَّةِ وَالأَمَلِ. وَالثَّانِي: خَطَرُ الفَسَادِ، بِأَنَّ لَا تَسْتَيْقِنَ فِيهِ الصَّلَاحَ لِنَفْسِكَ، فَهَذَا الَّذِي يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى التَّفْوِيضِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الأئِمَّةِ فِي الخَطَرِ: فَعَنَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الخَطَرَ فِي الفِعْلِ هُوَ أَنْ تَكُونَ دُونَهُ نَجَاةً، وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَامِعَهُ ذَنْبٌ. وَأَنْوَاعُهُ

= وإياك وما تعتذر منه» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في تعليقه على هذا الحديث: صحيح.

(١) في الأصل: الذين، والتصويب من باقي النسخ.

[٥٥/أ] وَالْإِيمَانَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالسُّتَةَ لَا خَطَرَ فِيهَا، إِذْ لَا يُمَكِّنُ/ دُونَ الْإِيمَانِ نَجَاةَ الْبَتَّةِ؛ وَالِاسْتِقَامَةَ لَا يُجَامِعُهَا ذَنْبٌ، فَإِذَنْ تَصِحُّ إِرَادَةُ الْإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةَ بِالْحُكْمِ.

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: الْخَطَرُ فِي الْفِعْلِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَرِضَ فِيهِ مَا يَكُونُ الْإِسْتِغَالُ بِالْعَارِضِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ؛ وَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْمُبَاحَاتِ وَالسُّنَنِ وَالْفَرَائِضِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ تَضَيَّقَ عَلَيْهِ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَقَصَدَ آدَاءَهَا فَقَصَدَهُ غَرِيقٌ أَوْ حَرِيقٌ يُمَكِّنُهُ إِنْقَاذَهُ، فَلَا اسْتِغَالَ بِإِنْقَاذِهِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى الصَّلَاةِ؛ فَلَا تَصِحُّ إِذَنْ إِرَادَةُ الْمُبَاحَاتِ وَالتَّوَافِلِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْفَرَائِضِ بِالْحُكْمِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَفْتَرِضَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ شَيْئًا، وَيُوعِدَهُ عَلَى تَرْكِهِ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ صَلَاحٌ فِي فِعْلِهِ؟.

فَاعْلَمْ أَنَّ شَيْخَنَا^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ الْعَبْدَ بِشَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ صَلَاحُهُ إِذَا تَجَرَّدَ عَنِ الْعَوَارِضِ، وَلَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِعْلًا فَرَضًا بِحَيْثُ لَا مَعْدِلَ لَهُ عَنْهُ إِلَّا وَلَهُ فِيهِ صَلَاحٌ، وَإِنَّمَا رُبَّمَا يُسَبِّبُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ عُدْرًا لِأَجْلِهِ، يَكُونُ الْعُدُولُ عَنْ أَحَدِ الْمَأْمُورَيْنِ أَوْلَى مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِالْآخِرِ كَمَا ذَكَرْنَا، فَيَكُونُ الْعَبْدُ فِي ذَلِكَ مَعْدُورًا بَلْ مَأْجُورًا لَا يَتْرِكُ هَذَا الْفَرَضِ بَلْ بِفِعْلِ الْفَرَضِ الَّذِي هُوَ أَوْلَى.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ الْإِمَامَ^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَسْئَلَةِ يَقُولُ: إِنَّ مَا

(١) هو أبو إسحاق الإسفراييني، إبراهيم بن محمد، المتكلم الأصولي، الشافعي.

(٢) هو أبو بكر الوراق، كما في سراج الطالبين ١٣٣/٢.

(٣) هو أبو المعالي الجويني إمام الحرمين.

افترض الله على عباده من الصلاة والحج والصوم ونحوه، ففيها صلاح لا محالة للعبد، وصحت إرادتها بالحكم، وانتق رأينا على ذلك، فبقي المباحات والثوافل إذن في هذا الحكم؛ فاعلم ذلك فإنه من غوامض الباب، وبالله التوفيق.

فإن قيل: فهل يأمن المفوض الهلاك والفساد والدار دار

المفوض

محنة؟

فاعلم أن في الأغلب لا يفعل بالمفوض إلا الصالح، وقد يفعل به في النادر غير الصالح؛ ولذلك ربما يخذله فيقع عن منزلة التفويض، ولا صلاح للعبد في الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض، وبه قال الشيخ أبو عمر رحمه الله.

وقيل: لا يفعل بمفوض إلا ما فيه صلاحه فيما فوض إلى الله سبحانه. والخذلان والقصور عن منزلة التفويض، مما لا يقع فيه التفويض، إذ لا يشك في فساد ذلك؛ والتفويض إنما يقع فيما يشك في فساده وصلاحه، وهذا أولى القوتين عند شيخنا [٥٥/ب] رحمه الله، إذ لولا ذلك لما قويت الباعثة على التفويض.

التفويض

فإن قيل: فهل يجب أن يفعل بالمفوض ما هو الأفضل؟

والاختيار

فاعلم أن الإيجاب مستحيل في حق الله تعالى ولا يجب لعباده عليه شيء؛ وقد يفعل بعبد الأصلاح دون الأفضل حكمة من الله من فعله. ألا ترى أنه قدر نبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يناموا طول الليل إلى طلوع الشمس في بعض الأسفار حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر، والصلاة أفضل من النوم؟ وربما يقدر للعبد

الْغِنَى وَالنُّعْمَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ الْفَقْرُ أَفْضَلَ؛ وَيَقْدَرُ لَهُ الْإِسْتِغَالُ
بِالْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ، وَإِنْ كَانَ التَّجَرُّدُ لِلْعِبَادَةِ أَفْضَلَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ بِعِبَادِهِ
بَصِيرٌ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ الطَّيِّبَ الْحَادِقَ التَّاصِحَ يَخْتَارُ لِلْمَرِيضِ مَاءَ
الشَّعِيرِ وَإِنْ كَانَ مَاءُ الشُّكْرِ أَفْضَلَ وَأَنْفَسَ، لَمَا عَلِمَ أَنَّ صَلَاحَ عَلَيْهِ
فِي مَاءِ الشَّعِيرِ؛ وَالْمَقْصُودُ لِلْعَبْدِ التَّجَاةُ مِنَ الْهَلَاكِ، لَا الْفَضْلُ
وَالشَّرْفُ مَعَ الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَكُونُ الْمُفَوَّضُ مُخْتَارًا؟

التفويض
والاختيار

فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحِيحَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا أَنَّهُ يَكُونُ مُخْتَارًا وَلَا يَفْدَحُ فِي
تَفْوِيضِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ إِذَا كَانَ لَهُ صَلَاحٌ فِي الْمَفْضُولِ
وَالْأَفْضَلِ، فَهُوَ يُرِيدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُسَبَّبَ لَهُ الْأَفْضَلُ، كَمَا أَنَّ
الْمَرِيضَ يَقُولُ لِلطَّيِّبِ: اجْعَلْ دَوَائِي مَاءَ الشُّكْرِ دُونَ مَاءِ الشَّعِيرِ، إِنْ
كَانَ لِي صَلَاحٌ فِي كِلَيْهِمَا. يَنْحَصِلُ لِي الْفَضْلُ وَالصَّلَاحُ جَمِيعًا،
فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ إِذَا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ صَلَاحَهُ فِيمَا هُوَ الْأَفْضَلُ
وَيُسَبَّبَ لَهُ ذَلِكَ، لِيَجْمَعَ لَهُ الْفَضْلَ وَالصَّلَاحَ جَمِيعًا، وَلَكِنْ بِشَرْطِ
أَنَّهُ إِنْ اخْتَارَ لَهُ اللَّهُ الصَّلَاحَ فِي غَيْرِ الْأَفْضَلِ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَذَا كَانَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَخْتَارَ الْأَفْضَلَ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ

يَخْتَارَ الْأَصْلَحَ؟

بَيْنَ
فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ الْأَفْضَلَ مِنَ الْمَفْضُولِ،
وَالْأَفْضَلَ وَلَا يَعْرِفُ الصَّلَاحَ مِنَ الْفَسَادِ لِإِرِيدَهُ بِالْحُكْمِ؛ ثُمَّ مَعْنَى اخْتِيَارِهِ
وَالْأَصْلَحَ الْأَفْضَلَ، أَنْ يُرِيدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ صَلَاحَهُ فِيمَا هُوَ الْأَفْضَلُ

وَيَخْتَارَ لَهُ/ ذَلِكَ وَيُقَدِّرُهُ، أَنْ لِلْعَبْدِ تَحَكُّمًا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ [٥٦/أ] فاعلمه.

فهذه جملة من دقيق هذا العلم وأسراره؛ ولولا أن الحاجة مسّت إليه لما تعرّضنا لإيراده لأنه يلاطم بحار علوم المكاشفة، مع أنني أقتصرْتُ على التُّكْنَةِ الْمُفْنَعَةِ في هذا الكتاب، وقصدتُ الإيضاح لِيَنْتَفِعَ بِهِ فُحُولُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُبْتَدِئُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ.

العارضُ الثالثُ: القضاء وورود أنواعه:

وَأَمَّا كِفَايَتُهُ فِي الرِّضَا بِهِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الرضا
وَذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ: بالقضاء

أَحَدُهُمَا: التَّفَرُّغُ لِلْعِبَادَةِ، لِأَنَّكَ إِذَا لَمْ تَرْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَكُونُ مَهْمُومًا مَشْغُولَ الْقَلْبِ أَبَدًا بِأَنَّهُ لِمَ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلِمَ ذَا لَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا؟

فَإِذَا اشْتَغَلَ الْقَلْبُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْهُمُومِ كَيْفَ يَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ؟ إِذْ لَيْسَ لَكَ إِلَّا قَلْبٌ وَاحِدٌ، وَقَدْ مَلَأْتَهُ مِنَ الْهُمُومِ، بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا. فَذِي مَوْضِعٍ يَكُونُ فِيهِ لِذِكْرِ الْعِبَادَةِ وَفِكْرِ الْآخِرَةِ.

وَلَقَدْ صَدَقَ شَفِيقُ الْبَلْخِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: إِنْ حَسِرَةَ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَتَذْيِيرِ الْآتِيَةِ قَدْ ذَهَبَتْ بِرَكَّةٍ سَاعَتِكَ هَذِهِ.

الثَّانِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ: خَطَرُ مَا فِي السُّخْطِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَقَدْ رَوَيْنَا فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ شَكَا بَعْضَ مَا نَالَهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: أَتَشْكُونِي

وَلَسْتُ بِأَهْلٍ ذَمٍّ وَلَا شَكْوَى؟ هَكَذَا بَدَأَ شَأْنَكَ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ فَلِمَ تَسْخَطُ قَضَائِي عَلَيْكَ؟ أَتُرِيدُ أَنْ أُغَيِّرَ الدُّنْيَا لِأَجْلِكَ، أَوْ أُبَدِّلَ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ بِسَبَبِكَ، فَأَقْضِي مَا تُرِيدُ دُونَ مَا أُرِيدُ، وَيَكُونُ مَا تُحِبُّ دُونَ مَا أَحْبَبْتُ؟ فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ، لَئِنْ تَلَجَّلَجَ هَذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى، لَأَسْلُبَنَّكَ ثَوْبَ الثُّبُوءِ وَالْأُورِدَتَكَ النَّارَ وَلَا أَبَالِي.

قُلْتُ: فَلَيْسَتْ مَعَ الْعَاقِلِ هَذِهِ السِّيَاسَةُ الْعَظِيمَةُ وَالْوَعِيدَ الْهَائِلَ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَاءِهِ، فَكَيْفَ مَعَ غَيْرِهِمْ؟ ثُمَّ اسْتَمِعَ مَا يَقُولُ: لَئِنْ تَلَجَّلَجَ هَذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَهَذَا فِي حَدِيثِ النَّفْسِ وَتَرَدُّدِ الْقَلْبِ، فَكَيْفَ بَمَنْ يَصْرُخُ وَيَسْتَعِيثُ وَيَشْكُو أَوْ يُنَادِي بِالْوَيْلِ وَالشُّورِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَا وَيَتَّخِذُ لَهُ أَعْوَانًا وَأَصْحَابًا؟ وَهَذَا/ لِمَنْ سَخَطَ مَرَّةً، [٥٦ ب] فَكَيْفَ مِمَّنْ هُوَ فِي السُّخْطِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ؟

وَهَذَا نِمْنٌ شَكَأَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ مَنْ شَكَأَ إِلَى غَيْرِهِ؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنَّا وَيَغْفِرَ لَنَا سُوءَ آدَابِنَا وَيُصَلِّحَنَا بِحُسْنِ نَظَرِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ وَحُكْمُهُ؟

معنى

الرضا

بالقضاء

فَاعْلَمْ أَنَّ عُنْمَاءَنَا قَالُوا: إِنَّ الرِّضَا تَرْكُ السُّخْطِ، وَالسُّخْطُ ذِكْرُ غَيْرِ مَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ أَوْلَى بِهِ وَأَصْلَحَ لَهُ فِيمَا لَا يَسْتَيَقِنُ فَسَادَهُ وَصَلَاحَهُ، هَذَا شَرْطٌ فِيهِ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ الشُّرُورُ وَالْمَعَاصِي بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْرِهِ،

الشرور

والمعاصي فَكَيْفَ يَرْضَى الْعَبْدُ الشَّرَّ وَيَلْزَمُهُ ذَلِكَ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّضَا إِنَّمَا يَلْزِمُهُ بِالْقَضَاءِ، وَقَضَاءُ الشَّرِّ لَيْسَ بِشَرٍّ،
وَإِنَّمَا الشَّرُّ هُوَ الْمَقْضِيُّ فَلَا يَكُونُ رِضَاً بِالشَّرِّ.

وَقَدْ قَالَ شَيْوْخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الْمَقْضِيَّاتُ أَرْبَعَةٌ: نِعْمَةٌ،
وَشِدَّةٌ، وَخَيْرٌ، وَشَرٌّ.

أنواع
المقضيّات

فَالنِّعْمَةُ يَجِبُ الرِّضَا فِيهَا بِالْقَاضِيِ وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ، وَيَجِبُ
عَلَيْهِ الشُّكْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نِعْمَةٌ، (وَإِظْهَارِ الْمِنَّةِ عَلَيْهِ بِإِبْدَاءِ أَثَرِ
النِّعْمَةِ)^(١).

وَالشَّدَّةُ يَجِبُ الرِّضَا فِيهَا بِالْقَاضِيِ وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ، وَيَجِبُ
عَلَيْهِ الصَّبْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا شِدَّةٌ.

وَالْخَيْرُ يَجِبُ الرِّضَا فِيهِ بِالْقَاضِيِ وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ، وَيَجِبُ
عَلَيْهِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَيْرٌ وَفَقَّهَ لَهُ.

وَالشَّرُّ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الرِّضَا بِالْقَاضِيِ وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ، مِنْ
حَيْثُ إِنَّهُ مَقْضِيٌّ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَرٌّ، وَكَوْنُهُ مَقْضِيًّا يَرْجِعُ إِلَى
الْقَاضِيِ وَالْقَضَاءِ بِالْحَقِيقَةِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّكَ تَرْضَى مَذْهَبَ الْمُخَالِفِ
أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لَكَ لَا أَنْ يَكُونَ مَذْهَبًا لَكَ؛ ثُمَّ كَوْنُهُ مَعْلُومًا يَرْجِعُ
إِلَى الْعِلْمِ، فَالرِّضَا وَالْمَحَبَّةُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْحَقِيقَةِ لِلْعِلْمِ بِمَذْهَبِ الْغَيْرِ
لَا بِمَذْهَبِهِ، فَكَذَلِكَ هَا هُنَا^(٢).

فَإِنْ قِيلَ: فَالرَّاضِي هَلْ يَكُونُ مُسْتَزِيدًا؟

(١) عبارة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٢) أي بالمقضي، كما في (د) و(ه).

قِيلَ لَهُ: نَعَمْ بِشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ دُونَ الْحُكْمِ، وَلَا يُخْرِجُهُ ذَلِكَ عَنِ الرِّضَا، بَلْ أَنْ يَدُلَّ عَلَى الرِّضَا فَهُوَ أَوْلَى، فَإِنَّ مَنْ أَعْجَبَهُ، شَيْءٌ وَرَضِيَ ذَلِكَ أَسْتَرَادَ مِنْهُ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَضَرَ اللَّبَنُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ»، وَفِي غَيْرِهِ يَقُولُ: «وَزِدْنَا خَيْرًا مِنْهُ»^(١)، وَفِي مَوْضِعٍ مِنَ الْمَوْضِعِينَ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ [أ/٥٧] تَعَالَى لَهُ مِنْ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ يُذَكَّرْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْاسْتِثْنَاءُ وَشَرْطُ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْقَلْبِ، وَأَنَّ مَا (يُقَالُ)^(٢) بِاللِّسَانِ عِبَارَةٌ عَنِ ذَلِكَ، فَلَا مُعْتَبَرَ بِتَرْكِ عِبَارَتِهِ مَعَ حُصُولِهِ بِالْقَلْبِ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ مُوَفَّقًا رَاشِدًا.

العارضُ الرَّابِعُ:

وجوب الشَّدَائِدُ والمصائبُ؛ وَإِنَّمَا كِفَايَتُهَا بِالصَّبْرِ. فَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ فِي الصَّبْرِ الْمَوَاطِنِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

(١) — أخرجهُ أبو داود (٤/١١٦)، «كتب الأشربة» باب ما يقول إذا شرب اللبن، الحديث رقم (٣٧٣٠) بلفظ: (إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا سقي لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه لا يُجزىء من الطعام والشراب إلا اللبن).

— وأخرجهُ الترمذي في الدعوات، حديث ٣٤٥١، باب ما يقول إذا أكل طعاماً. وقد حسن.

— كذلك أخرجهُ ابن ماجه (٢/١١٠٣) في باب اللبن، الحديث رقم (٣٣٢٢) ولفظه قريب من لفظ أبي داود.

(٢) لفظه ساقطة من الأصل. مثبتة في باقي النسخ.

أَحَدُهُمَا: التَّوَصُّلُ إِلَى الْعِبَادَةِ وَحُصُولُ الْمَقْصُودِ مِنْهَا، فَإِنَّ مَبْنَى
أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلُّهُ عَلَى الصَّبْرِ وَاحْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَبُورًا لَمْ
يَصِلْ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا بِالْحَقِيقَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَصَدَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى
وَتَجَرَّدَ لَهَا أَسْتَقْبَلَتْهُ شِدَائِدٌ وَمِحَنٌ وَمَصَائِبٌ مِنْ وُجُوهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا عِبَادَةَ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا مَشَقَّةٌ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ كُلُّ
هَذَا التَّرْغِيبِ فِيهِ، وَالْوَعْدِ عَلَيْهِ، إِذْ لَا يَتَأْتَى فِعْلُ الْعِبَادَةِ إِلَّا بِقَمْعِ
الْهُوَى وَقَهْرِ النَّفْسِ، إِذْ هِيَ زَاجِرَةٌ عَنِ الْخَيْرِ وَالرُّشْدِ؛ وَمُخَالَفَةٌ
الْهُوَى وَقَهْرِ النَّفْسِ مِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

وِثَانِيهَا: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا فَعَلَ الْخَيْرَ مَعَ الْمَشَقَّةِ، لَزِمَهُ الْإِحْتِيَاطُ لَهُ
حَتَّى لَا يَفْسُدَ عَلَيْهِ، وَالْإِبْقَاءُ عَلَى الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ.

وِثَالِثُهَا: أَنَّ الدَّارَ دَارُ مِحْنَةٍ؛ فَمَنْ كَانَ فِيهَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ
الْإِبْتِلَاءِ بِشِدَائِدِهَا وَمَصَائِبِهَا، وَذَلِكَ أَقْسَامٌ: الْمُصِيبَةُ فِي الْأَهْلِ المحن
وَالْقَرَابَاتِ وَالْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ بِالْمَوْتِ وَالْفَقْدِ وَالْفِرَاقِ، وَفِي
النَّفْسِ بِأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ، وَفِي الْعَرُضِ بِقِتَالِ النَّاسِ إِيَّاهُ،
وَالطَّمَعِ فِيهِ وَالْإِزْدِرَاءِ بِهِ وَالْغَيْبَةِ لَهُ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ؛ وَفِي الْمَالِ
بِالذَّهَابِ وَالزَّوَالِ. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَصَائِبِ لَدَغَةٌ وَحُرْفَةٌ مِنْ
نَوْعٍ آخَرَ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَيْهَا كُلِّهَا، وَإِلَّا فَيَمْنَعُهُ الْجَزَعُ
وَالتَّلَهُفُ مِنَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّ طَالِبَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ابْتِلَاءً وَأَكْثَرُ مَحَبَّةً أَبَدًا، وَمَنْ
كَانَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَقْرَبَ فَالْمَصَائِبُ لَهُ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُ، وَالْبَلَاءُ عَلَيْهِ

أَشَدُّ. أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الشَّهَدَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»^(١)؟

فَإِذَنْ مَنِ قَصَدَ الْخَيْرَ وَتَجَرَّدَ لِطَرِيقِ الْآخِرَةِ، اسْتَقْبَلَتْهُ هَذِهِ
[٥٧/ب] الْمِحْنُ، فَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا، وَلَا يَكُونُ/ بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا،

(١) - رواه البخاري (١٤٩/٧) كتاب الطب أو المرض، وفيه: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول).

- ورواه ابن ماجه (١٣٣٤/٢) كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، من حديث سعد (الحديث رقم ٤٠٢٣) ومن حديث أبي سعيد (الحديث رقم ٤٠٢٤).
- ورواه ابن حنبل: (١٧٢/١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥، ٣٦٩/٦).

- ورواه الحاكم في المستدرک (٣٠٧/٤) عن أبي سعيد قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء»، قلت: ثم من؟ قال: «ثم الصالحون» وصححه الحاكم على شرط مسلم.

- ورواه الترمذي في كتاب الزهد بلفظ: (قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل) وقال الترمذي: حسن صحيح.

- ورواه اندارمي في الرقاق (ص ٣٢٠) باب في أشد الناس بلاء.
- وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١٣٦/١). رواه من حديث سعد وصححه

(رقم الحديث ١٠٥٤) ومن حديث أخت حذيفة، وحسنه، بلفظ: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل). (رقم الحديث ١٠٥٦).

وتجدد الإشارة إلى أن جميع روايات هذا الحديث، والتي أشرت إلى أماكنها لم تذكر لفظة (العلماء) كما وردت عند الغزالي في روايته الأخرى.

- ووجدت في المستدرک للحاكم (٤٠/١ - ٤١) رواية أخرى له من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: (قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء.

قال: ثم من؟ قال: العلماء. قال: ثم من؟ قال: الصالحون...).

- وهكذا رواه الذهبي في ذيل المستدرک (٤١/١) وذكر أنه صحيح على شرط مسلم.

أَنْقَطَعَ عَنِ الطَّرِيقِ وَأَشْتَغَلَ عَنِ الْعِبَادَةِ، فَلَا يَصِلُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَقَدْ أَعْلَمْنَا اللَّهُ تَعَالَى بِالتِّقَاءِ الْمِحَنِ وَالْمَصَائِبِ وَأَبْتِلَانِنَا بِهَا، وَحَقَّقَ ذَلِكَ وَأَكَّدَهُ فَقَالَ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ثُمَّ قَالَ سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَطُنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَايَا، فَإِنْ تَصَبَرُوا فَانْتُمْ الرَّجَالُ وَعَزَائِمُكُمْ عَزَائِمُ الرَّجَالِ؛ فَإِذَنْ مَنْ عَزَمَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَجِبُ أَوْلَى أَنْ يَعْزِمَ عَلَى الصَّبْرِ الطَّوِيلِ، وَيُوطِنَ نَفْسَهُ عَلَى أَحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ الْعَظِيمَةِ الْمُتَوَالِيَةِ إِلَى الْمَوْتِ، وَإِلَّا فَقَدْ قَصَدَ الْأَمْرَ بِغَيْرِ آلِهِ وَأَتَاهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْمُضْبِرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ عَزَمَ عَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ لِلْآخِرَةِ فَلْيَجْعَرْ عَنِ نَفْسِهِ أَرْبَعَةَ الْوَأْنِ مِنَ الْمَوْتِ: الْأَبْيَضَ، وَالْأَحْمَرَ، وَالْأَسْوَدَ، وَالْأَخْضَرَ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ: الْجُوعُ، وَالْأَسْوَدُ: ذَمُّ النَّاسِ، وَالْأَحْمَرُ: مُخَانَفَةُ الشَّيْطَانِ، وَالْأَخْضَرُ: الْوَقَائِعُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

وَالثَّانِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ: مَا فِي الصَّبْرِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. كرامات الصابرين

— مِنْ ذَلِكَ النَّجَاةُ وَالنَّجَاحُ. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٣﴾ [الطلاق: ٣]، مَعْنَاهُ: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
بِالصَّبْرِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الشَّدَائِدِ.

— وَمِنْهَا الظَّفَرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ [هود: ٤٩].

وَمِنْهَا الظَّفَرُ بِالْمُرَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ
بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وَقِيلَ: كَتَبَ يُوسُفُ فِي
جَوَابِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: إِنَّ آبَاءَكَ صَبَرُوا فَظَفَرُوا، فَاصْبِرْ كَمَا
صَبَرُوا تَظْفَرْ كَمَا ظَفَرُوا.

وقيل في هذا المعنى [البسيط]:

لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَابَّةٌ إِذَا اسْتَعْنَتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَىٰ فَرَجًا
أَخْلِقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْطَىٰ بِحَاجَتِهِ وَمُذْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَأَ

— وَمِنْهَا التَّقَدُّمُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِمَامَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

وَمِنْهَا الثَّنَاءُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ
الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٤٤﴾ [ص: ٤٤].

[٥٨/أ] — وَمِنْهَا الْبِشَارَةُ/ وَالصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ
الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ
رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧].

— وَمِنْهَا الْمَحَبَّةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦].

– وَمِنْهَا الدَّرَجَاتُ الْعُلَى فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

– وَمِنْهَا الْكِرَامَةُ الْعَظِيمَةُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾
[الرعد: ٢٤].

– وَمِنْهَا ثَوَابٌ بِلَا غَايَةٍ وَلَا نِهَائَةٍ، خَارِجاً عَنِ أَوْهَامِ الْخَلْقِ
وَأَعْدَادِهِمْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:
١٠].

فَسُبْحَانَهُ مِنْ سَيِّدٍ مَاجِدٍ مَا أَكْرَمَهُ، كُلُّ هَذِهِ الْكِرَامَاتِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ يَعْطِي عَبْدَهُ عَلَى صَبْرٍ سَاعَةٍ. فَبَانَ لَكَ أَنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
فِي الصَّبْرِ. قَالَ ﷺ: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرًا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١)
وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَمِيعُ خَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَبْرٍ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ.

(١) – هذا هو القسم الأخير من حديث رواه أبو سعيد الخدري أَنَّ نَاساً مِنَ الْأَنْصَارِ
سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَعَضَّاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْضَاهُمْ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ:
«مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أُذْخِرَ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفُ يُعْفِقْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ
يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يَصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».
– رواه البخاري (١٥١/٢ - ١٥٢) كتاب الزكاة. باب الاستعفاف عن المسألة.
ورواه أيضاً في كتاب الرقاق باب الصبر (١٢٤/٨).
– كذلك رواه مسلم (٧٢٩ ٢) كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، الحديث
رقم (١٠٥٣).

– ورواه ابن حنبل (١٢/٣) بلفظ: (ما أجد لكم رزقاً أوسع من الصبر) وبلفظ:
(وما رزق العبد رزقاً أوسع من الصبر) (٤٧/٣) وبلفظ ثالث (ولئن تعطوا عطاء
خيراً أوسع من الصبر) (٩٣ ٣).
– ورواه أيضاً أبو داود في سننه (٢٩٥/٢) كتاب الزكاة باب في الاستعفاف. =

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ: [مجزوء البسيط]:

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَى وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُونُ
أَصْبِرْ وَإِنْ طَالَتِ اللَّيَالِي فَرُبَّمَا أَمْكَنَ الْحَرُونَ^(١)
وَرُبَّمَا نَيْلَ بَاطِبِارٍ مَا قِيلَ هَيْهَاتَ لَا يَكُونُ

وَالْقَائِلُ: [الطويل]:

صَبَرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ مِنِّي سَجِيَّةً وَحَسْبُكَ أَنَّ اللَّهَ أَتْنَى عَلَى الصَّبْرِ
إِذَا كَانَ بَابُ الذَّلِّ مِنْ جَانِبِ الْغِنَى سَمَوْتُ إِلَى الْعُلْيَاءِ مِنْ جَانِبِ الْفَقْرِ
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا فَأَمَّا إِلَى يُسْرٍ وَأَمَّا إِلَى عُسْرِ

فَعَلَيْكَ بِاِغْتِنَامِ هَذِهِ الْخَصْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَبِذَلِ الْمَجْهُودِ فِيهَا تَكُنْ
مِنَ الْفَائِزِينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَبِيُّ التَّوْفِيقِ.

فَإِنْ قُلْتَ فَمَا حَقِيقَةُ نَصْبِرٍ وَحُكْمُهُ؟

حقيقة

فَاعْلَمْ أَنَّ نَفْضَةَ نَصْبِرٍ مِنْ ضَرْبِ اللُّغَةِ الْحَبْسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الكهف: ٢٨]. أَيِ الْحَبْسِ
نَفْسَكَ مَعَهُمْ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَنَى مَعْنَى حَبْسِهِ

الصبر

= — كذلك رواه الدرر في سننه (١ ٣٨٧) كتاب الزكاة: باب في الاستعفاف عن
نمساة.

— ورواه الترمذي في نبر، ما جاء في الصبر، حديث رقم (٢٠٥٢).

— ورواه أيضاً النسائي في الزكاة، باب الاستعفاف عن نمساة، حديث رقم
(٢٥٨٩).

(١) الحرور: الخيل الذي يرفض لانقياد. والمقصود أنه يمكن تحقيق الأمر
الصعب.

العَذَابَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ فَلَا يُعَاجِلُهُمْ بِهِ. ثُمَّ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ مِنْ
مَسَاعِي الْقَلْبِ سُمِّيَ صَبْرًا لِأَنَّهُ حَبَسَ النَّفْسَ عَنِ الْجَزَعِ، وَالْجَزَعُ
فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ ذِكْرُ اضْطِرَابِكَ فِي الشَّدَّةِ، وَقِيلَ بَلْ إِرَادَةُ الْخُرُوجِ / [٥٨/ب]
عَنِ الشَّدَّةِ بِالْحُكْمِ، وَالصَّبْرُ تَرْكُهُ، وَحِصْنُ الصَّبْرِ ذِكْرُ مِقْدَارِ الشَّدَّةِ
وَوَقْتِهَا، وَأَنَّهَا لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ، وَلَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ، وَلَا فَائِدَةَ فِي
الْجَزَعِ، بَلْ فِيهِ الضَّرَرُ وَالْخَطَرُ. وَحِصْنُ هَذَا الْحِصْنِ ذِكْرُ حُسْنِ
عَوْضِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَكَرِيمِ الدُّخْرِ فِي ذَلِكَ لَدَيْهِ؛ فَهَذِهِ هَذِهِ
وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فصل في الرزق وتدبيره

فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ الشَّدِيدَةِ الْمَنِيعَةِ بِدَفْعِ هَذِهِ الْعَوَارِضِ
الْأَرْبَعَةِ وَإِزَاحَةِ عِلَّتِهَا، وَإِلَّا فَلَا تَدْعُكَ تَذَكُّرُ مَقْصُودِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ
وَلِتَتَفَكَّرَ فِيهَا، فَضْلاً عَنِ أَنْ تُدْرِكَهَا وَتُحْصِلَهَا، وَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا
شُغْلاً شَاغِلاً عَاجِلاً وَآجِلاً.

أمر الرزق وتدبيره ثم إن أعضله وأعظمها أمر هذا الرزق وتدبيره، فإنه البلية الكبرى لعامة الخلق، أتعبت نفوسهم، وشغلت قلوبهم، وأكثرت همومهم، وضيعت أعمارهم، وأعظمت تبعاتهم وأوزارهم، وعدلت بهم عن الله تعالى وخدمته إلى خدمة الدنيا وخدمة المخلوقين، فعاشوا في الدنيا في ظلمة وغفلة وتعب ونصب، ومهانة وذُل، وقدموا الآخرة مفنيس، بين أيديهم الحساب والعذاب، إن لم يرحم الله تعالى بفضلِهِ؛ فانظر كم من آية أنزل الله تعالى في ذلك، وكم ذكر من وعده وضمانيه وقسمه على ذلك. ونم ترل الأنبياء والعلماء يعطون الناس ويؤتون لهم الطريق ويصننون لهم الكتب ويضربون لهم الأمثال ويحرفونهم بالله تعالى، وهم مع ذلك لا يهتدون ولا يتقون ولا يطمئنون، بل هم في غمرة من ذلك لا يزالون يخافون أن يفوتهم غداء أو عشاء.

وَأَصْلُ ذَلِكَ كَلِمَةٌ قَلِيلَةٌ التَّدْبِيرُ لآيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقَلِيلٌ التَّفَكُّرُ فِي أَصْلِ
صَنَائِعِ اللَّهِ، وَتَرَكُ التَّدَكُّرِ لِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَرَكُ التَّأْمُلِ لِأَقْوَالِ
الرِّزْقِ الصَّالِحِينَ مَعَ الإِسْتِرْسَالِ لِسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالإِضْغَاءِ إِلَى كَلَامِ
الْجَاهِلِينَ وَالإِغْتِرَارِ بِعَادَاتِ الْعَافِلِينَ، حَتَّى تَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ،
وَرَسَخَتْ الْعَادَاتُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَتَأَدَّى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ الْقَلْبِ
وَرِقَّةِ الْيَقِينِ.

وَأَمَّا الْأَخْيَارُ الَّذِينَ هُمْ أَوْلُو الْأَبْصَارِ وَأَرْبَابُ الْجِدِّ وَالإِجْتِهَادِ، الْأَخْيَارُ
أَبْصَرُوا طَرِيقَ السَّمَاءِ، فَلَمْ يَعْبُوا بِأَسْبَابِ الْأَرْضِ، وَاعْتَصَمُوا بِالرِّزْقِ
بِحَبْلِ اللَّهِ، فَلَمْ يَكْتَرِبُوا/ بَعَلَانِقِ الْخَلْقِ، وَتَيَقَّنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى [٥٩/أ]
وَأَبْصَرُوا طَرِيقَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالْخَلْقِ وَالنَّفْسِ،
فَإِذَا وَسَّسَ لَهُمْ شَيْطَانٌ أَوْ نَفْسٌ أَوْ إِنْسَانٌ قَامُوا بِالمُنَاقَشَةِ وَالمُدَافَعَةِ
وَالْمُخَالَفَةِ، حَتَّى وَلَّى الْخَلْقُ عَنْهُمْ، وَاعْتَزَلَ عَنْهُمْ الشَّيْطَانُ،
وَأَنْقَادَتْ لَهُمُ النَّفْسُ، وَاسْتَقَامَ لَهُمُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ، عَلَى مَا ذَكَرَ
عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْبَادِيَةَ آتَاهُ
الشَّيْطَانُ فَخَوْفَهُ بِأَنْ هُدِيَ بِدِيَةِ مُهْلِكَةٍ وَلَا زَادَ مَعَكَ وَلَا سَبَبَ فَعَزَمَ
عَلَى نَفْسِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَقْضَعَ عَلَى تَجْرُدِهِ ذَلِكَ، وَأَنْ لَا يَقْطَعَهَا حَتَّى
يُصَلِّيَ تَحْتَ كُلِّ مِيلٍ مِنْ أُمِّيئِهَا أَلْفَ رُكْعَةٍ، وَقَامَ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَبَقِيَ
فِي الْبَادِيَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، حَتَّى إِنَّ الرَّشِيدَ حَجَّ فِي بَعْضِ تِلْكَ
السِّنِينَ فَرَأَهُ تَحْتَ مِيلٍ يُصْنِي. فَقِيلَ لَهُ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ، فَأَتَاهُ
فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا إِسْحَقَ؟ فَأَنْشَأَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ: [الطويل]:

نُرِّقُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرِّقُ
فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللَّهَ رَبَّهُ وَجَادَ بِدُنْيَاهُ نَمَا يَتَوَقَّعُ

خبر آخر
عن بعض الصالحين
وَعَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْبَوَادِي،
فَوَسَّوسَ لَهُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّكَ مُتَجَرِّدٌ، وَهَذِهِ بَادِيَةٌ مُهْلِكَةٌ لَا عُمْرَانَ فِيهَا
وَلَا نَاسَ، فَعَزَمَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنْ يَمْضِيَ عَلَى تَجَرُّدِهِ، وَأَنْ يَتْرِكَ الطَّرِيقَ
حَتَّى لَا يَقَعَ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ وَأَنْ لَا يَأْكُلَ شَيْئًا حَتَّى يُجْعَلَ فِي فِيهِ
السَّمْنُ وَالْعَسَلُ ثُمَّ عَدَلَ عَنِ الشَّارِعِ وَمَرَّ عَلَى وَجْهِهِ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:
فَسِرْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَإِذَا بِقَافِلَةٍ قَدْ أَضَلَّتِ الطَّرِيقَ وَهُمْ يَسِيرُونَ، فَلَمَّا
أَبْصَرْتُهُمْ رَمَيْتُ بِنَفْسِي إِلَى الْأَرْضِ لَعَلَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَنِي، فَسَيَّرَهُمُ اللَّهُ
حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ، فَغَمَضْتُ عَيْنِي، فَدَنَوْا مِنِّي وَقَالُوا: هَذَا مُنْقَطِعٌ
غُشِّي عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَهَاتُوا سَمْنًا وَعَسَلًا نَجْعَلُهُ فِي فِيهِ
لَعَلَّهُ يَبْقَى، فَاتَّوَا بِسَمْنٍ وَعَسَلٍ فَسَدَدْتُ فِيَّ وَأَسْتَانِي فَاتَّوَا بِسَكِينٍ
فَعَالَجُوا فِيَّ حَتَّى يَفْتَحُوهُ، فَضَحِكْتُ، فَفَتَحْتُ فَايَ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ
مِنِّي قَالُوا مَجْنُونٌ أَنْتَ؟ قُلْتُ لَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَخْبَرْتُهُمْ بِبَعْضِ
مَا جَرَى لِي مَعَ الشَّيْطَانِ.

[٥٩/ب]
وَعَنْ بَعْضِ مَشَايِخِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالَ: نَزَلْتُ فِي بَعْضِ /
أَسْفَارِي أَيَّامَ التَّغْلِيمِ مَسْجِدًا، وَكُنْتُ مُتَجَرِّدًا عَلَى عَادَةِ أَوْلِيَائِنَا،
فَوَسَّوسَ إِلَيَّ الشَّيْطَانُ بِأَنْ هَذَا مَسْجِدٌ بَعِيدٌ عَنِ النَّاسِ، لَوْ سِرْتُ إِلَى
مَسْجِدٍ بَيْنَ النَّاسِ لَرَأَىكَ أَهْلُهُ وَقَامُوا بِكِفَايَتِكَ؛ فَقُلْتُ: لَا أَيْتُ إِلَّا
هَهُنَا، وَعَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ لَا أَكُلَ إِلَّا الْحَلَوَاءَ، وَلَا أَكُلَ حَتَّى يُوَضَعَ
فِي فِيَّ لُقْمَةٌ لُقْمَةً، وَصَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ؛ فَلَمَّا مَضَى
صَدْرٌ مِنَ اللَّيْلِ، إِذَا أَنَا بِإِنْسَانٍ يَدُقُّ الْبَابَ وَمَعَهُ سِرَاجٌ، فَلَمَّا كَثُرَ
الدَّقُّ فَتَحْتُ الْبَابَ، فَإِذَا بِعَجُوزٍ وَقَدْ دَخَلَتْ، فَوَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ طَبَقًا
مِنَ الْخَبِيصِ، وَقَالَتْ: هَذَا الشَّابُّ وَلَدِي، صَنَعْتُ لَهُ هَذَا الْخَبِيصَ

وَجَرَى بَيْنَنَا كَلَامٌ، فَحَلَفَ أَنْ لَا يَأْكُلَ حَتَّى يَأْكُلَ مَعَهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ،
أَوْ قَالَتْ هَذَا الْغَرِيبُ الَّذِي فِي الْمَسْجِدِ؛ فَكُلْ رَحِمَكَ اللَّهُ، وَأَخَذَتْ
تَضَعُ فِي فَمِي لُقْمَةً وَفِي فَمِ وَلَدَهَا لُقْمَةً.

فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِنْ مُجَاهَدَاتِ الصَّالِحِينَ وَمِنَاقِضَاتِهِمُ لِلشَّيْطَانِ،
فَإِنَّ لَكَ فِي ذَلِكَ فَوَائِدَ ثَلَاثَةَ:

فوائد هذه
الأخبار

إِحْدَاهَا: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ لَا يَمُوتُ مَنْ قَدَّرَ لَهُ بِحَالٍ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْرَ الرِّزْقِ وَالتَّوَكُّلِ لَمِهِمُّ جِدًّا، وَأَنَّ لِلشَّيْطَانِ
فِيهِ غَوَائِلَ وَوَسَاوِسَ عَظِيمَةً، حَتَّى أَنْ مِثْلَ أَوْلِيكَ الْأَيْمَةَ الرُّهَادَ لَمْ
يَتَخَلَّصُوا مِنْ ذَلِكَ وَنَمَّ يَبْسُ مِنْهُمْ الشَّيْطَانُ بَعْدَ طُولِ تِلْكَ الرِّيَاضَاتِ
وَالْمُجَاهَدَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُمْ، حَتَّى يَحْتَاجُوا إِلَى دَفْعِهِ بِهَذِهِ
الْمُنَاقِضَاتِ. وَلَعَمْرِي أَنْ مَنْ جَاهَدَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ سَبْعِينَ سَنَةً، لَا
يَأْمَنُ أَنْ يُوسُوسَا لَهُ كَمَا يُوسُوسَانِ لِلْمُبْتَدِئِ فِي الْعِبَادَةِ، بَلْ لِعَافِلٍ
لَمْ يَجْتَهِدْ سَاعَةً فِي رِيَاضَةٍ، وَلَوْ ظَفَرَ بِهِ لَفَضَحَاهُ وَأَهْلَكَاهُ هَلَاكَ
الْعَافِلِينَ الْمُعْتَرِّينَ، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ.

وَالثَّلَاثَةُ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْجِدِّ الْمَحْضِ
وَالْمُجَاهَدَةِ الْبَالِغَةِ، فَنَيْتُهُمْ كُنُوا لِحِمَاً وَدَمًا وَبِدْنًا وَرُوحًا مِثْلَكَ، بَلْ
كُنُوا أَنْحَفَ أَبْدَانًا وَأَضْعَفَ أَرْكَانًا وَأَدَقَّ عِظَامًا مِنْكَ، وَكِنْ كَانَتْ
لَهُمْ قُوَّةُ الْعِلْمِ وَنُورُ الْيَقِينِ وَهِمَّةُ أَمْرِ الدِّينِ، حَتَّى قَوُوا عَلَى مِثْلِ
تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتِ وَالْقِيَمِ بِحَقِّ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ؛ فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ،
رَحِمَتَ اللَّهِ وَإِيَّاكَ، وَدَاوِمَ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْمُعْضِلِ، نَعْنِكَ تُفْلِحُ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فصل

نصائح في التوكل على الله في تدبير الرزق

ثُمَّ أَعْلَمَ بَعْدَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنِّي مُجَرِّدٌ لَكَ نُكْتًا وَجَدْتَهَا، بِحَيْثُ تَنُكْتُ فِي الْقَلْبِ إِذَا تَذَكَّرْتَهَا/ وَتَكْفِيكَ مُؤَنَّةَ هَذَا الْبَابِ، وَتَدْعُكَ عَلَى وَاضِحَةِ الطَّرِيقِ إِنْ تَأَمَّلْتَهَا وَعَمِلْتَ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ. [٦٠/أ]

الأولى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمِنَ رِزْقَكَ فِي كِتَابِهِ، وَتَكْفَلَ لَكَ بِهِ، وَمَا تَقُولُ لَوْ وَعَدَكَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا أَنَّهُ يُضِيفُكَ اللَّيْلَةَ وَيُعَشِّيكَ، وَأَنْتَ حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ، أَنَّهُ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ وَلَا يُخْلِفُ الوَعْدَ؛ بَلْ نُو وَعَدَكَ بِذَلِكَ سُوقِيٌّ أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ أَوْ مَجُوسِيٌّ، مَسْتُورٌ عِنْدَكَ بِظَاهِرِهِ، عَفِيفٌ فِي مَقَالَتِهِ، أَلَسْتَ تَتَّقُ بِوَعْدِهِ وَتَطْمِئِنُّ بِقَوْلِهِ وَلَا تَهْتَمُ لِعَشَائِكَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَتِكَالًا عَلَيْهِ؟ فَمَا لَكَ وَقَدْ وَعَدَكَ اللَّهُ وَضَمِنَ لَكَ رِزْقَكَ وَتَكْفَلَ، بَلْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَأَنْتَ لَا تَطْمِئِنُّ بِوَعْدِهِ، وَلَا تَسْكُنُ إِلَى قَوْلِهِ وَضَمَانِهِ، وَلَا تَنْظُرُ إِلَى قَسَمِهِ، بَلْ يَضْطَرُّ قَلْبُكَ وَيَهْتَمُّ؟ فَيَا لَهَا مِنْ فَضِيحَةٍ لَوْ رَأَيْتَ وَبَالَهَا، وَيَا لَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ لَوْ عَلِمْتَ نِكَالَهَا.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [الطويل]:

أَتَطْلُبُ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ وَتُصْبِحُ مِنْ خَوْفِ الْعَوَاقِبِ آمِنًا

وَتَرْضَى بِصَرَافٍ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا ضَمِينًا وَلَا تَرْضَى بِرَبِّكَ ضَامِنًا
كَأَنَّكَ لَمْ تَفْعَلْ^(١) بِمَا فِي كِتَابِهِ فَأَصْبَحْتَ مَنْحُولَ الْيَقِينِ مُزَابِنًا

وَلِهَذَا الْمَعْنَى يَنْجَرُ هَذَا الْأَمْرُ إِلَى الشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ، وَيُخَافُ
عَلَى صَاحِبِهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - سَلْبُ الْمَعْرِفَةِ وَالِدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ
سُبْحَانَهُ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠] فَحَسِبَ الْمُؤْمِنُ
الْمُهْتَمُّ بِأَمْرِ دِينِهِ هَذِهِ التُّكْتَةَ الْوَاحِدَةَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ، صَحَّ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
وَأَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَتَعْلَمَ أَنَّ قِسْمَتَهُ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ؛ إِنْ
أَنْكَرْتَ الْقِسْمَةَ أَوْ جَوَزْتَ نَقْضَهَا، فَذَلِكَ بَابُ الْكُفْرِ تَقَرُّعُهُ. نَعُوذُ
بِاللَّهِ؛ وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ حَرٌّ لَا يَتَغَيَّرُ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي الْإِهْتِمَادِ وَالنَّصَبِ
إِلَّا الدُّلَّ وَالْهَوَانَ فِي النَّبِيِّ. وَالشَّدَّةُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْآخِرَةِ؟ وَذَلِكَ
قَالَ ﷺ: «مَكْتُوبٌ عَلَى خَيْرِ الْحَوْتِ وَالثَّوْرِ رِزْقُ فُلَانٍ بَيْنَ فُلَانٍ، فَلَا
يَزْدَادُ الْحَرِيصُ إِلَّا جُهْدًا»^(٢)، وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ يَقُولُ شَيْخُنَا
رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنْ مَا قَدَّرَ يَخْضَعُ لَكَ أَنْ يَمْضُغَاهُ فَلَا يَمْضُغُهُ غَيْرُكَ، فَكُلْ
رِزْقَكَ - وَيَحْك - بِالْعَزْمِ. وَلَا تَأْكُلْهُ بِالذُّلِّ، فَهَذِهِ نُكْتَةٌ حَسَنَةٌ مُقْنَعَةٌ / [ب/٦٠]

(١) لم تفعل: أي لم تقنع بعد وعده من ضمان الرزق لعباده. مُزَابِنًا: من فعل زَبَنَ
أي دفع. وكأنك تدفع اليقين لصدق باليقين المنحول غير اصدق.
(٢) لم أجد له أصلًا.

الثالثة: مَا سَمِعْتُ شَيْخِي الْإِمَامَ (١) رَحِمَهُ اللَّهُ يَحْكِي عَنِ
الْأَسْتَاذِ (٢) رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِمَّا يُفْنِعُنِي فِي أَمْرِ الرَّزْقِ أَنِّي
تَذَكَّرْتُ وَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَلَيْسَ هَذَا الرَّزْقُ لِلْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ، وَالْمَيْتِ مَا
يَصْنَعُ بِالرَّزْقِ؟ فَإِذَا كَانَ حَيَاةَ الْعَبْدِ فِي خَزَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِيَدِهِ، إِنْ
شَاءَ يُعْطِينِي وَإِنْ شَاءَ يَمْتَعُنِي، وَهُوَ غَيْبٌ عَنِّي، مَوْكُولٌ إِلَى اللَّهِ
سُبْحَانَهُ يَدْبِرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنَا سَاكِنُ النَّفْسِ بِذَلِكَ. فَهَذِهِ نَكْتَةٌ لَطِيفَةٌ
مُفْنِعَةٌ لِأَهْلِ التَّحْقِيقِ.

النكته الرابعة: مِمَّا ذَكَرْنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمِنَ
رِزْقَ الْعَبْدِ وَلَمْ يَضْمَنْ إِلَّا الرَّزْقَ الْمَضْمُونِ الَّذِي هُوَ الْغِذَاءُ وَالتَّرْيِيبَةُ،
وَفِيهِ الْقَوَامُ وَالْعُدَّةُ.

وَأَمَّا الْأَسْبَابُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَالْعَبْدُ إِذَا تَجَرَّدَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ
وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، فَرُبَّمَا يُحْبَسُ عَنْهُ الْأَسْبَابُ، فَلَا يَعْبَأَنَّ بِذَلِكَ وَلَا
يَضْجُرُ، لِمَا عَلِمَ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ أَنَّ الضَّمَانَ قَوَامُ الْبِنْيَةِ، وَالتَّوَكُّلُ
عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَا غَيْرُ، وَالْمُنْتَظَرُ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا مَحَالَةَ يُمِدُّهُ بِالْقُوَّةِ لِيَقُومَ بِحَقِّ
الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ مَا دَامَ لَهُ أَجَلٌ وَتَكْلِيفٌ بِالْعِبَادَةِ، وَهَذَا هُوَ
الْمَقْصُودُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ يُعِيمُ بِنْيَةَ عَبْدِهِ
بِطَّعَامٍ وَشَرَابٍ أَوْ بِطِينٍ وَتُرَابٍ، أَوْ بِتَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ كَالْمَلَائِكَةِ، وَإِنْ
شَاءَ بَدُونَ هَذَا كُلِّهِ. فَلَيْسَ مَطْلُوبُ الْعَبْدِ إِلَّا الْقَوَامُ وَالْقُوَّةُ لِلْعِبَادَةِ

(١) الإمام: أي إمام الحرمين الجويني.

(٢) الأستاذ: أي أبو إسحاق الإسفراييني.

لَيْسَ الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ وَشِدَّةَ الشَّهْوَةِ وَنَيْلَ اللَّذَّةِ، فَلَا أُعْتَبَرُ بِالْأَسْبَابِ
إِذْنًا، وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَوِيَّتِ الرَّهَادُ وَالْعُبَادُ عَلَى الْأَسْفَارِ وَطَيُّ اللَّيَالِي
وَالْأَيَّامِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَأْكُلْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَأْكُلْ شَهْرًا وَشَهْرَيْنِ
وَهُوَ عَلَى قُوَّتِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَسْتَفُّ الرَّمْلَ فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ لَهُ غِذَاءً، خَبِرَ عَنِ
نَحْوِ مَا ذَكَرَ عَنِ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ بِمَكَّةَ، فَمَكَثَ الثَّوْرِيُّ
خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا يَسْتَفُّ الرَّمْلَ.

وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الْأَسْوَدُ^(١): رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ آدَهَمَ يَأْكُلُ الطِّينَ
عِشْرِينَ يَوْمًا.

وَعَنِ الْأَعْمَشِ^(٢) قَالَ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا

(١) من كبار أولياء الله. صحب سفيان الثوري وإبراهيم بن آدهم وغيرهما وكان يُعَدُّ من الأبدال. وله مواضع وحكم. وهو من رجال القرن الثاني للهجرة. سير أعلام النبلاء ٧٨/٩.

وانظر ترجمته وأخباره في: حية الأولياء ٢٧١/٨.

(٢) سليمان بن مهران الكوفي إمام شيخ الإسلام، شيخ المقرئين والمحدثين أبو محمد الأسدي، مولاهم. انحافظ، كان ثقة، عالماً فاضلاً، رأى أنس بن مالك وحكى عنه وعن كثير من التابعين كما روى عنه خلق كثير منهم أبي حنيفة والأوزاعي وشعبة. قيل عنه: هو علامة الإسلام.

توفي سنة ثمانية وأربعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٢٢٦/٦.

(٣) إبراهيم بن يزيد بن شريك الكوفي من تيم الرباب ويكنى أبا أسماء. كان من العبَّاد، ثقة، صالح الحديث. فتنه الحجاج ولم يبلغ أربعين سنة، وقد توفي في حبس الحجاج سنة ٩٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٦٠/٥.

أَكَلْتُ مِنْذُ شَهْرٍ، قُلْتُ مِنْذُ شَهْرٍ؟ قَالَ: وَلَا شَهْرَيْنِ، إِلَّا أَنْ إِنْسَانًا
نَاشَدَنِي عَلَى عُنُقُودٍ مِنْ عِنَبٍ فَأَكَلْتُهُ، فَأَنَا أَشْتَكِي بَطْنِي.

قُلْتُ: فَلَا تَعَجِبَنَّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ لِلَّهِ الْقُدْرَةَ عَلَى مَا يَشَاءُ؛
وَهَذَا مَرِيضٌ تَرَاهُ لَا يَأْكُلُ شَهْرًا، وَهُوَ حَيٌّ يَعِيشُ، وَالْمَرِيضُ عَلَى
كُلِّ حَالٍ أَضْعَفُ نَفْسًا وَأَرْقُ طَبْعًا مِنَ الصَّحِيحِ.

وَأَمَّا الَّذِي يَمُوتُ/ جُوعًا فَذَلِكَ أَجَلٌ حَضَرَهُ، كَالَّذِي يَمُوتُ
سِبْعًا وَتُخَمَةً. وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَرَّازِ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ: حَالِي مَعَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُطْعِمَنِي فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَدَخَلْتُ
الْبَادِيَةَ، فَمَضَيْتُ عَلَيَّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَا طَعِمْتُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ
وَجَدْتُ ضَعْفًا، فَجَلَسْتُ مَكَانِي، فَإِذَا بِهَا تَفٍ يَقُولُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَيُّمَا
أَحَبُّ إِلَيْكَ: سَبَبٌ أَوْ قُوَى؟ فَقُلْتُ: لَا، إِلَّا الْقُوَى، فَقُمْتُ مِنْ وَقْتِي
وَقَدْ اسْتَقَلَلْتُ، فَأَقَمْتُ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا مَا طَعِمْتُ وَلَا وَجَدْتُ أَلْمًا
لِذَلِكَ.

فَإِذَا رَأَى الْعَبْدُ أُحْتَبَسَ الْأَسْبَابَ عَنْهُ، وَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّوَكُّلَ
عَلَى اللَّهِ، فَلَيْسَتْ تَقِينُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمُدُّهُ بِالْقُوَّةِ فَلَا يَضْجَرَنَّ لِذَلِكَ،
بَلْ حَقُّهُ أَنْ يَشْكُرَ نِعْمَةَ تَعَالَى عَمَى ذَلِكَ شُكْرًا كَثِيرًا. فَإِنَّ لَهُ الْمِنَّةَ

(١) أحمد بن عيسى البغدادي، العارف. شيخ الصوفية وصاحب تصنيف، وكان من
المتوكلين.

ويقال: إنه أول من تكلم في علم نفعه والبقاء. وهو إمام القوم في كل فن من
علومهم، وهو أحسن القوم كلاماً خلا الجُنَيْدَ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ.

مات سنة ٢٧٧ هـ وقبر ٢٨٦ هـ.

والخَرَّاز: نسبة إلى خَرَزُ الجلود كقرب وغيرها. سير أعلام النبلاء ٤١٩/١٣.

انظر ترجمته في: طبقات الصوفية ٢٢٨ - ٢٣٢، حلية الأولياء ٢٤٦/١٠ - ٢٤٩.

وَالصُّنْعَ اللَّطِيفِ، إِذْ رَفَعَ عَنْهُ الْمُؤَنَةَ وَأَعْطَاهُ الْمَعُونَةَ، وَحَصَلَ لَهُ الْأَصْلُ وَالْمَقْصُودُ، وَدَفَعَ عَنْهُ الثَّقَلَ وَالْوَاسِطَةَ، وَخَرَقَ لَهُ عِلَاقَ الْعَادَةِ، وَأَرَاهُ طَرِيقَ الْقُدْرَةِ، أَنْ شَبَّهَ حَالَهُ بِحَالِ الْمَلَائِكَةِ، وَرَفَعَهُ عَنْ حَالَةِ الْبَهَائِمِ وَالْعَامَّةِ فِي تِلْكَ الْكِرَامَةِ، فَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَصْلَ الْكَبِيرَ تَغْنَمِ الرِّبْحِ الْعَظِيمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْتُ: لَعَلَّكَ تَقُولُ: أَرَاكَ أَطْنَبْتَ فِي هَذَا الْفَضْلِ خِلَافَ شَرْطِ أَهْمِيَةِ التَّوَكُّلِ الْكِتَابِ.

فَأَقُولُ: لَعَمْرُؤِ اللَّهِ إِنَّهُ لَقَلِيلٌ فِي جَنْبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى، إِذْ هُوَ أَهَمُّ شَأْنًا فِي الْعِبَادَةِ، بَلْ عَلَيْهِ مَدَارُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْعُبُودِيَّةِ، فَمَنْ لَهُ هِمَّةٌ فِي هَذَا الشَّأْنِ فَلَيْسَتْ مَسْكُ بِذَلِكَ وَلِيْرَاعِهِ حَقَّهُ، وَإِلَّا فَهُوَ عَنِ الْمَقْصُودِ بِمَعْزِلٍ.

وَالَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى بَصِيرَةِ عُلَمَاءِ الْآخِرَةِ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ، أَنَّهُمْ بَنَوْا أَمْرَهُمْ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَالتَّفَرُّغِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَقَطْعِ الْعِلَاقِ كُلِّهَا؛ فَكَمْ صَنَفُوا مِنْ كِتَابٍ، وَكَمْ أَوْصَوْا بِوَصِيَّةٍ؛ وَقَيَّضَ اللَّهُ لَهُمْ أَعْوَانًا مِنَ السَّادَةِ وَأَصْحَابٍ، فَتَمَشَّى لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ الْمَخْضِرِ مَا لَمْ يَتَمَشَّ لِطَائِفَةٍ مِنْ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ إِلَّا لِرُزْهَادِ الْكِرَامِيَّةِ، الَّذِينَ بَنَوْا مَذْهَبَهُمْ عَلَى أَصُولٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمَةٍ، وَمَا زَلْنَا أَعِزَّةً مَا دُمْنَا عَلَى مِنْهَاجِ أَيْمَنَّا نُخْرِجُ مِنْ مَعَاهِدِنَا وَمَدَارِسِنَا كُلَّ حِينٍ، إِمَّا إِمَامًا فِي الْعِلْمِ كَالْأُسْتَاذِ أَبِي إِسْحَاقَ وَابْنِ حَامِدٍ^(١).....

(١) الأستاذ علامة شيخ الإسلام أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفرينجي الشافعية ببغداد

وَأَبِي الطَّيِّبِ^(١) وَابْنِ فَوْرِكَ وَشَيْخِنَا الْإِمَامَ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ السَّادَةِ، وَإِمَامًا صِدِّيقٌ فِي الْعِبَادَةِ كَأَبِي إِسْحَقَ الشَّيرَازِي^(٢)، وَأَبِي سَعِيدِ الصُّوفِي^(٣) وَنَصْرِ الْمَقْدِسِيِّ^(٤) وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ فَاقَ الْأُمَّةَ عِلْمًا وَزُهْدًا، حَتَّى ضَعُفَتِ الْقُلُوبُ مِنْ بَعْضِنَا وَتَلَطَّخْنَا بِشَيْءٍ مِنْ/ الْعَلَائِقِ الَّتِي ضَرَرُهَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهَا، تَرَاجَعَتِ الْأُمُورُ، وَتَقَاعَدَتِ الْهِمَمُ، وَطَارَتِ الْبَرَكَاتُ وَزَالَتِ [٦١/ب]

= ولد سنة أربع وأربعين وثلاث مئة، وقدم بغداد وله عشرون سنة، فتفقه على أبي الحسن بن المرزبان، وبيع في المذهب، وأربى على المتقدمين، وعظم جاهه عند الملوك، حدث عنه من تلامذته القاضي أبو الحسن الماوردي. وقد توفي في سنة ست وأربع مئة. سير أعلام النبلاء ١٧/١٩٣.

(١) الإمام العلامة، شيخ الإسلام، القاضي أبو الطيب، طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري، الشافعي، فقيه بغداد. ولد سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة بآمل، وسمع الحديث بجرجان وبنيسابور وبغداد حيث استوطن ودرّس وأفتى وأفاد وولي القضاء. وكان أبو الطيب ورعاً عاقلاً عارفاً بالأصول والفروع، محققاً، حسن الخلق، صحيح المذهب. سير أعلام النبلاء ١٧/٦٦٧.

(٢) الشيخ الإمام، القدوة، المجتهد، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف، الفيروز آبادي الشيرازي الشافعي، نزيل بغداد. ولد في سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة، وقدم بغداد سنة خمس عشرة وأربع مئة. قال السمعاني: هو إمام الشافعية، ومدّرس النظامية، وشيخ العصر، رحل الناس إليه من البلاد وقصدوه، وتفرد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة، صنّف في الأصول والفروع والخلاف والمذاهب، وكان زاهداً ورعاً متواضعاً. وقد توفي سنة ست وأربع مئة ببغداد. سير أعلام النبلاء ١٨/٤٥٢.

(٣) (صديق في العبادة للغزالي) لم نعره على ترجمته.

(٤) الشيخ الإمام العلامة القدوة المحدث شيخ الإسلام أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي، الإمام الزاهد المجمع على جلالته وفضيلته وله مصنفات كثيرة في المذهب وغيره. صحبه الغزالي متبركاً به حين قدم إلى دمشق... وقد توفي المقدسي سنة ٤٩٠ هـ بدمشق. سير أعلام النبلاء ١٩/١٣٦.

اللذات والحلاوات، فلا تكاد تصفو لأحد عبادة، أو يحصل له علم وحقيقة، فإنَّ اللُّمعة التي تظهر من الآن ليست إلا مما بقي على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين، كالحارث المحاسبي^(١)، ومحمد بن إدريس الشافعي والمزني^(٢) وحرملة^(٣) وغيرهم من أئمة الدين، رضي الله عنهم أجمعين، فهم كما قيل: [الطويل]:

رعى الله قوماً قد رعوا حق ربهم
فما صحبوا الأيام إلا تعففاً
أفاضل صديقون أهل ولاية
تحلل عقد الصبر من كل صبر
فلا نقضوا عهداً ولا أخلفوا عهداً
وما وجدوا من حب سيدهم بداً
إلى سيّد السادات قد جعلوا القصد
وما حلت الأيام من صبرهم عقداً

(١) الزاهد العارف، شيخ تصوفية أبو عبد الله الحارث بن أسد، نبغداي المحاسبي، صاحب تصنيف في التصوف، ولقب المحاسبي (بضم حيم) لكثرة محاسبته لنفسه.

له كتب كثيرة في الزهد. ونصون الديانة والرد على المعتزلة والتوفيقية وقد توفي سنة ثلاث وأربعين ومئتين. سير أعلام النبلاء ٤٩٢/١٢.

(٢) الإمام العلامة، فقيه نسبة عن زهاد أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى، صاحب الشافعي وهو من أهل مصر. كان زاهداً عالماً مجتهداً غوراً عن المعاني الدقيقة، وهو إمام الشافعيين وأعرفهم بطرقه وفتاويه وما ينقله عنه.

صنف كتباً كثيرة في مذهب إمام الشافعي الذي قال عنه: المزني ناصر مذهبي. توفي سنة ٢٦٤ هـ في مصر. والمزني (بضم الميم وفتح الزاي) نسبة إلى مزينة وهي قبيلة مشهورة. سير أعلام النبلاء ٤٩٢/١٢.

(٣) أبو عبد الله حرملة بن يحيى بن عبد الله، صاحب الإمام الشافعي ولزمه وتفقه به، وحدث عن ابن وهب فأكثر جداً، وكان أعلم الناس به.

ولد سنة ١٦٦ هـ ومات في سنة ٢٤٣ هـ. سير أعلام النبلاء ٣٨٩/١١.

وَكُنَّا فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مُلُوكًا فَصِرْنَا سُوقَةً، وَكُنَّا فُرْسَانًا فَصِرْنَا
 رِجَالَةً^(١)، وَلَيْتَنَا لَا نَنْقَطِعُ عَنِ الطَّرِيقِ بِمَرَّةٍ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ
 الْمَصَائِبِ، وَالْمَسْئُولُ أَنْ لَا يَسْلُبَنَا هَذَا الرَّمَقَ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، مَثَانٌ
 رَحِيمٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.
 وَأَمَّا التَّفْوِيزُ^(٢) فَتَأَمَّلْ فِيهِ أَصْلَيْنِ:

دواعي
 التفويض

أَحَدُهُمَا: أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَخْتِيَارَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِمَنْ كَانَ عَالِمًا
 بِالْأُمُورِ بِجَمِيعِ جِهَاتِهَا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَحَالَهَا وَعَاقِبَتِهَا، وَإِلَّا فَلَا
 يَأْمَنُ أَنْ يَخْتَارَ الْهَلَاكَ وَالنَّفْسَادَ عَلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ، أَلَا تَرَى
 أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ لِبَدَوِيٍّ أَوْ قَرَوِيٍّ أَوْ رَاعِيٍّ غَنَمٍ: انْقُدْ لِي هَذِهِ الدَّرَاهِمَ
 وَمَيِّزْ لِي بَيْنَ جَيْدِهَا وَرَدِيئِهَا، فَإِنَّهُ لَا يَهْتَدِي لِذَلِكَ، وَوَقْتُ سُوقِيَّ
 غَيْرَ صَيْرَفِيٍّ فَرَبَّمَا يَعْسُرُ بَصْدًا؟ فَلَا تَأْمَنُ إِذَنْ إِلَّا بِأَنْ تَعْرِضَهَا عَلَى
 الصَّيْرَفِيِّ الْخَبِيرِ بِالذَّمِّ وَالنُّضْبِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْأَسْرَارِ.
 وَهَذَا الْعِلْمُ الْمَحِيطُ بِالْأُمُورِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ لَا يَصْحَحُ إِلَّا نَبِيَّ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ، فَلَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْأَخْتِيَارُ وَالتَّيْبِيرُ إِلَّا اللَّهُ
 وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ يَقْتَضِي عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَرَبِّكَ بِحَقِّ مَا يَسْأَلُ
 وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤].

وَحِكْمِي عَنِ بَعْضِ الصَّالِحِينَ. قِيلَ / لَهُ: مَنْ قَبِلَ أَنَّهُ تَعَالَى: سَلَّ
 تُعْظَ، وَكَانَ مُوَفَّقًا فَقَدَّ: إِنَّ عَنِمَا بِجَمِيعِ الْوُجُوهِ يَقْتَضِي لِجَاهِلٍ مِنْ

(١) رجالة: أي نسير على قدامنا بعد أن كنا نركب الخيل.
 (٢) أي تفويض الأمر كله له.

جَمِيعِ الْوُجُوهِ: سَلْ تُعْطَ، أَي شَيْءٍ أَعْلَمَ مَاذَا يَصْلُحُ لِي فَاسْأَلْهُ؟
وَلَكِنْ أَخْتَرْتُ أَنْتَ لِي، فَهَذِهِ هَذِهِ.

الأصل الثاني: مَا تَقُولُ لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَكَ: أَنَا أَقُومُ بِجَمِيعِ
أُمُورِكَ وَأُدَبِّرُ جَمِيعَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِكَ، فَفَوِّضِ الْأَمْرَ كُلَّهُ
إِلَيَّ، وَاشْتَغِلِي أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي يَعْنِيكَ؛ وَهُوَ عِنْدَكَ أَعْلَمُ أَهْلُ
زَمَانِكَ، وَأَحْكَمُهُمْ وَأَفْوَاهُهُمْ وَأَرْحَمُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَأَصْدَقُهُمْ وَأَوْفَاهُمْ؛
أَلَسْتَ تَعْنَتُنِي ذَلِكَ وَتَعُدُّهُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ، وَتَمْتَنُّ مِنْهُ أَكْبَرَ مَنَّةٍ، وَتُقَدِّمُ لَهُ
أَوْفَرَ شُكْرٍ وَأَجْمَلَ ثَنَاءٍ؟ ثُمَّ إِذَا اخْتَارَ لَكَ شَيْئًا لَا تَعْرِفُ وَجَهَ الصَّلَاحِ
فِيهِ فَلَا تَضْجَرِي لِذَلِكَ؛ بَلْ تَتَّقِي وَتَطْمَئِنِّي إِلَى تَدْبِيرِهِ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَخْتَارُ
لَكَ إِلَّا مَا هُوَ الْخَيْرُ، وَمَا يَنْظُرُ لَكَ إِلَّا الصَّلَاحَ كَيْفَمَا كَانَ، بَعْدَمَا وَكَلْتَ
الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَضَمِنَ ذَلِكَ؟

فَمَا لَكَ إِذَنْ لَا تُفَوِّضِ الْأُمُورَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الَّذِي
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ؟ أَعْلَمُ كُلَّ عَالِمٍ، وَأَقْدَرُ كُلَّ قَادِرٍ،
وَأَرْحَمُ كُلَّ رَاحِمٍ، وَأَغْنَى كُلَّ غَنِيٍّ. لِيَخْتَارَ لَكَ بِلَطِيفِ عِنْمَةٍ وَحُسْنِ
تَدْبِيرِهِ مَا لَمْ يَبْتَلِغْهُ عِنْمُكَ وَلَا يُدْرِكُهُ فَيْهْمُكَ؟ وَاشْتَغِلِي أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي
يَعْنِيكَ فِي عَاقِبَتِكَ، وَإِذَا اخْتَارَ لَكَ أَمْرًا لَا تَعْلَمُ وَجَهَ سِرِّهِ رَضِيتَ بِذَلِكَ
وَاطْمَأْنَنْتِ إِلَيْهِ كَيْفَمَا كَانَ، هُوَ الصَّلَاحُ وَالْخَيْرُ، فَتَأْمَلِي رَاشِدًا إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِاللَّهِ سُبْحَانَهُ التَّوْفِيقُ.

وَأَمَّا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ. فَتَأْمَلِي فِيهِ أَصْنِينَ مُقْنَعِينَ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا:
أَحَدُهُمَا: مَا فِي الرِّضَا مِنَ الْفَائِدَةِ فِي الْحَالِ وَالْحَالِ.
فَأَمَّ الْفَائِدَةُ الْحَنِيةَ فَفَرَاغُ الْقَلْبِ، وَقِلَّةُ الْهَمِّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ،
دواعي
الرضا
بالقضاء

وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الزُّهَادِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا كَانَ الْقَدْرُ حَقًّا فَالْهَمُّ فَضْلٌ. وَأَصْلُهُ الْخَبَرُ الْمَأْثُورُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ:

«لَيْقَلَّ هَمُّكَ، وَمَا قُدِّرَ يَكُنْ وَمَا لَمْ تُرْزَقْ لَمْ يَأْتِكَ»^(١) هَذَا هُوَ الْكَلَامُ الْجَامِعُ، النَّبَوِيُّ، الْبَالِغُ^(٢) فِي قِلَّةِ اللَّفْظِ وَكَثْرَةِ الْمَعْنَى.

وَأَمَّا الْفَائِدَةُ فِي الْمَالِ، فَثَوَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانُهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. وَفِي السُّخْطِ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالضَّجْرِ فِي الْحَالِ^(٣)، وَالْوِزْرِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الْآخِرَةِ بِلَا فَائِدَةٍ، إِذِ الْقَضَاءُ نَافِذٌ فَلَا يَنْصَرِفُ بِهِمْكَ وَسُخْطِكَ، كَمَا قِيلَ: [الكامل]:

[ب/٦٢] مَا قَدْ قُضِيَ يَا نَفْسُ فَاصْطَبِرِي لَهُ وَلَكَ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقَدَّرْ / وَتَيَقَّنِي أَنَّ الْمُقَدَّرَ كَائِنٌ حَتْمًا عَلَيْكَ صَبِرْتِ أَمْ لَمْ تَصْبِرِي^(٤)

(١) — ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٧١) بلفظ: (لا يكثر همك، ما يقدر يكن وما ترزق يأتك) وقال: قاته لابن مسعود، رواه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وهو مختلف في صحبته، ورواه الأصبهاني في ترغيبه من رواية مالك بن عمر والمعدفي مرسلًا. (راجع المقاصد الحسنة الحديث رقم ١٣٢٧).
— وذكر العجلوني في كشف الخفاء (٥٠٥/٢) إضافة إلى ما ذكره السخاوي أن لأبي نعيم أيضاً عن أنس قال: خدمت النبي عشر سنين فما لامني فيما نسيت ولا فيما ضيَّعت، فإن لامني بعض أهله قال دعوه، فما قدر فهو كائن، وفي رواية أخرى: فما قدر سيكون (الحديث رقم ٣١٣٠). وفي رواية لابن ماجه في سننه (٣٠/١) في باب القدر (... فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأت لم يكن ليصيبك). الحديث رقم ٧٧.

(٢) البالغ: أي البليغ.

(٣) الحال: أي الدنيا.

(٤) سقط هذا البيت من الأصل، وذكر في باقي النسخ.

وَالْعَاقِلُ لَا يَخْتَارُ الْهَمَّ بِلَا فَائِدَةٍ مَعَ الْوِزْرِ وَالْعُقُوبَةَ عَلَى رَاحَةِ
الْقَلْبِ وَثَوَابِ الْجَنَّةِ .

وَالْأَضْلُ الثَّانِي: مَا فِي السُّخْطِ مِنْ عِظَمِ الْخَطَرِ وَالضَّرَرِ وَالْكَفْرِ
وَالنَّفَاقِ، إِلَّا أَنْ يَتَذَارَكَهُ اللَّهُ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا
يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا
مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] نَفَى الْإِيمَانَ، وَأَقْسَمَ
عَلَى مَنْ سَخِطَ قَضَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَخِطَ
قَضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَرَوَيْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثٍ قَدْسِي عَنْ
رَبِّ الْعَالَمِينَ: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، وَلَمْ يَضِرْ عَلَى بِلَائِي وَلَمْ
يَشْكُرْ نِعْمَائِي فَلْيَتَّخِذْ إِلَهًا سِوَانِي»^(١).

قِيلَ كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَذَا لَا يَرْضَانِي رَبًّا حِينَ يَسْخِطُ، فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا
آخَرَ يَرْضَاهُ؛ وَهَذَا غَايَةُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ لِمَنْ عَقَلَ. وَلَقَدْ صَدَقَ
بَعْضُ السَّلَفِ إِذْ قِيلَ لَهُ: مَا الْعُبُودِيَّةُ وَالرُّبُوبِيَّةُ؟ فَقَالَ: الرَّبُّ يَقْضِي

(١) - رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس بن مالك كما جاء في الجامع

الصغير للسيوطي (٥٥٨/٢) الحديث رقم ٩٠٢٧ ولفظه: (من لم يرض
بقضاء الله، ويؤمن بقدر الله فليتمس إلهاً غير الله) وأشار السيوطي إلى ضعفه.

- وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢٥٠/٥) الحديث رقم (٥٨٥٤)
وأشار إلى ضعفه أيضاً وإلى وروده في الأحاديث الضعيفة برقم (٥٠٦) وفي
الروض النضير برقم (١١٩).

- وقال الكديري في سراج الطالبين (١٩٨/٢ - ١٩٩): قال العراقي: رواه
الطبراني في الكبير، وابن جبان في الضعفاء من حديث أبي هند الداري،
وإسناده ضعيف.

وَالْعَبْدُ يَرْضَى، فَإِذَا قَضَى الرَّبُّ وَلَمْ يَرْضَ الْعَبْدُ فَمَا هُنَاكَ رُبُوبِيَّةٌ وَلَا
عبودية.

فَتَأْمَلْ هَذَا الْأَصْلَ لِنَفْسِكَ لَعَلَّكَ تَسَلِّمُ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

الصبر

وَأَمَّا الصَّبْرُ فَإِنَّهُ دَوَاءٌ مُرٌّ، وَشُرْبَةُ كَرِيهَةٌ إِلَّا أَنهَا مَبَارَكَةٌ
كَرِيمَةٌ^(١) تَجْلِبُ كُلَّ مَنَفَعَةٍ، وَتَدْفَعُ عَنكَ كُلَّ مَضْرَرَةٍ، وَإِذَا كَانَ الدَّوَاءُ
بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَلِلْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ يُكْرَهُ النَّفْسَ عَلَى شُرْبِهِ وَتَجَرُّعِهِ،
وَيُغْضِي عَلَى مَرَارَتِهِ وَحِدَّتِهِ، وَيَقُولُ: مَرَارَةٌ سَاعَةٌ وَرَاحَةٌ سَنَةٌ.

فَأَمَّا الْمَنَافِعُ الَّتِي يَجْلِبُهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ أَرْبَعَةٌ:

أنواع
الصبر

١ - صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ.

٢ - وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ.

٣ - وَصَبْرٌ عَنِ فُضُولِ الدُّنْيَا.

٤ - وَصَبْرٌ عَلَى الْمُحَنِ وَالْمَصَائِبِ.

فَإِذَا احْتَمَلَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ، وَصَبَرَ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ الْأَرْبَعَةِ،
تَحْصُلُ لَهُ الطَّاعَاتُ وَمَذَرِبُهُ، مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ وَثَوَابِهَا الْجَزِيلِ فِي
الْعَاقِبَةِ، ثُمَّ لَا يَقَعُ فِي الْمَعَاصِي وَبَلِيَّاتِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَبِعَاتِهَا فِي
الْآخِرَةِ، ثُمَّ لَا يُتِّكِلُ بِطَلَبِ الدُّنْيَا وَمَا لَهَا مِنَ الشُّغْلِ فِي الْحَالِ
وَالتَّبَعَةِ فِي الْمَالِ، ثُمَّ لَا يُحْبِطُ أَجْرُهُ عَلَى مَا أُبْتَلِيَ بِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ،
فَحَصَلَ إِذَنْ بِسَبَبِ الصَّبْرِ الطَّاعَةُ وَمَنَازِلُهَا الشَّرِيفَةُ وَثَوَابُهَا، وَالتَّقْوَى

فوائد
الصبر

(١) في الأصل: وشربة كريهة مباركة. وقد أثبتناه من (ج) لأنه يوضح المعنى المراد.

وَالزُّهُدُ وَالْعِوَضُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ
أَمْرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَأَمَّا دَفْعُ الْمَضَارِّ فَيُرِيحُهُ أَوْلَى مِنْ مُؤَنَةِ الْجَزَعِ وَمُقَاسَاتِهِ، فِي
الدُّنْيَا، ثُمَّ وَزْرِهِ وَعُقُوبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا إِنْ هُوَ ضَعْفٌ / عَنِ الصَّبْرِ وَسَلَكَ طَرِيقَ الْجَزَعِ، فَاتَهُ كُلُّ
[٦٣/أ] مَنَفَعَةٍ، وَلِحَقِّهِ كُلُّ مَضْرَرَةٍ، إِذْ لَا يَصْبِرُ عَلَى مَشَقَّةِ الطَّاعَةِ، فَلَا يَفْعَلُ
الطَّاعَةَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى حِفْظِهَا فَيُخْبِطُهَا، أَوْ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْمُوَاطَّئَةِ
عَلَيْهَا، فَلَا يَصِلُ إِلَى مَنْزِلَةِ شَرِيفَةٍ فِيهَا مِنْ دَرَجَاتِ الْإِسْتِقَامَةِ، أَوْ لَا
يَصْبِرُ عَنِ مَعْصِيَةٍ، فَيَقَعُ فِيهَا أَوْ عَنِ فُضُولٍ فَيَسْتَعْلِفُ بِهَا، أَوْ لَا يَصْبِرُ
عَلَى مُصِيبَةٍ يُحْرَمُ ثَوَابَ الصَّبْرِ، وَرُبَّمَا يَكْثُرُ الْجَزَعُ حَتَّى يَقُوتَ
الْعِوَضُ بِسَبَبِ ذَلِكَ فَتَكُونُ لَهُ مُصِيبَتَانِ: فَوْتُ الشَّيْءِ، وَفَوْتُ الْأَجْرِ
وَالْعِوَضِ، وَحُلُولُ الْمَكْرُوهِ، وَحِرْمَانُ الصَّبْرِ. وَلَقَدْ قِيلَ: حِرْمَانُ
الصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ أَشَدُّ مِنَ الْمُصِيبَةِ؛ وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي شَيْءٍ يُذْهَبُ
الْحَاصِلَ الْمَوْجُودَ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الدَّاهِبَ الْمَفْقُودَ؟ وَإِذَا فَاتَكَ
أَحَدُهُمَا فَلَا يَقُوتُكَ الْآخَرُ.

وَمِنَ الْكَلَامِ الْجَامِعِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَزَى رَجُلًا فَقَالَ:
إِنْ صَبَرْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَتْ
عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ.

ثُمَّ أَقُولُ: إِنْ جُمِنَ الْأَمْرُ أَنْ قَطَعَ الْقَلْبَ عَنِ الْعَلَانِيَةِ الْمَأْلُوفَةِ
وَقَطَعَ النَّفْسَ عَنِ الْعِدَاتِ الرَّاسِخَةِ، بِالتَّوَكُّلِ الْمَحْضِ عَلَى اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ. وَتَرَكَ التَّدْبِيرَ فِي الْأُمُورِ، وَتَفَوَّضَهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ
غَيْرِ عِلْمٍ بِمَا هُوَ السَّرُّ فِيهَا. وَكَبَحَ النَّفْسَ عَنِ السَّخَطِ وَالْجَزَعِ، مَعَ

تَسَارِعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ، وَإِكْرَاهَهَا عَلَى لِجَامِ الرِّضَا وَتَجَرُّعِ شُرْبَةِ الصَّبْرِ
مَعَ نَفَرَتِهَا عَنِ ذَلِكَ، لِأَمْرٍ مَرُّ وَعِلَاجٍ شَدِيدٌ وَحِمْلٌ ثَقِيلٌ، وَلَكِنَّهُ
تَذَبِيرٌ سَدِيدٌ وَطَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ، وَلَهُ عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ وَأَحْوَالٌ سَعِيدَةٌ
مَسْعُودَةٌ.

وَمَا تَقُولُ فِي الْوَالِدِ الْمُشْفِقِ الْغَنِيِّ، إِذَا عَزَّ وَلَدُهُ الْعَزِيزَ رُطْبَةً
أَوْ تَفَاحَةً يَأْكُلُهَا وَهُوَ أَرْمَدٌ، وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَلِّمِ الْغَلِيزِ السَّائِسِ،
وَيَحْبِسُهُ طُولَ النَّهَارِ عِنْدَهُ وَيُضَجِرُّهُ، وَيَحْمِلُهُ إِلَى الْحَجَامِ لِيَحْجَمَهُ
فَيُوجِعُهُ وَيُفْلِقَهُ، أَتَرَى مَنَعَ ذَلِكَ مِنْ بُخْلِ بِهِ، كَيْفَ وَهُوَ يُعْطِي
الْأَجَانِبَ وَيُوسِعُ عَلَيْهِمْ؟ أَوْ هَوَانَ بِهَذَا الْوَالِدِ عِنْدَهُ، كَيْفَ وَهُوَ يَكْتَرُ
لَهُ جَمِيعَ مَا فِي يَدِهِ؟ أَوْ قَصْدَ بِذَلِكَ إِتْعَابَهُ وَإِيذَاءَهُ لِبُغْضِ لَهُ، كَيْفَ
وَهُوَ قَرَّةٌ عَيْنِهِ وَثَمَرَةٌ فَوَادِهِ، لَوْ هَبَّتْ عَلَيْهِ رِيحٌ لَعَزَّ عَلَيْهِ؟، كَلَّا،
وَلَكِنْ لِمَا عَلِمَ أَنَّ صَلَاحَهُ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ بِهَذَا التَّعَبِ الْقَلِيلِ يَصِلُ/
إِلَى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَنَفْعٍ عَظِيمٍ.

وَمَا تَقُولُ فِي الطَّيِّبِ الْحَازِقِ النَّاصِحِ الْمُحِبِّ، إِذَا مَنَعَ
الْمَرِيضَ الدَّنْفَ شُرْبَةَ مَاءٍ وَهُوَ ظَمَانٌ وَيَتَقَلَّى كَبْدَهُ، وَسَقَاهُ شُرْبَةَ
إِهْلِيلِجٍ^(١) كَرِيهَةٍ، تَجَرُّعَ عَنِ ذَلِكَ نَفْسُهُ وَطَبْعُهُ، (أَتَرَى)^(٢) أَنَّ ذَلِكَ
مِنْهُ مُعَادَاةٌ وَإِيذَاءٌ؟ كَلَّا، بَلْ نُصَحُّ وَإِحْسَانٌ لِمَا عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ فِي
إِعْطَائِهِ شَهْوَتَهُ سَاعَةً هَلَاقَهُ وَعَطْبَهُ رَأْسًا، وَفِي مَنَعِ ذَلِكَ شِفَاؤُهُ
وَبَقَاؤُهُ.

(١) الاهليلج: تمر، وهو أصناف كثيرة، يصنع منه شراب لمداواة بعض الأمراض
وهو معروف لدى أصحاب هذه الصناعة.

(٢) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

فَتَأْمَلُ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِذَا حَسَسَ اللَّهُ عَنْكَ رَغِيْفًا أَوْ دِرْهَمًا، فَتَعْلَمُ
يَقِينًا أَنَّهُ يَمْلِكُ مَا تُرِيدُ، وَيَقْدِرُ عَلَىٰ إِصْلَاحِ إِلَيْكَ، وَلَهُ الْجُودُ
وَالْفَضْلُ، وَيَعْلَمُ حَالَكَ فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَكَانَكَ بِشَيْءٍ، فَلَا عُدْمَ وَلَا
عَجْزَ وَلَا خَفَاءَ، تَعَالَىٰ عَنِ ذَلِكَ وَتَقَدَّسَ، فَإِنَّهُ أَغْنَىٰ الْأَغْنِيَاءِ وَأَقْدَرُ
الْقَادِرِينَ، وَأَعْلَمُ الْعُلَمَاءِ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ؛ فَتَعْلَمُ إِذْنًا بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ
لَمْ يَمْنَعَكَ إِلَّا لِصَلَاحٍ وَأَخْتِيَارٍ لَكَ، كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ: ﴿خَلَقَ
لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي جَادَ عَلَيْكَ
بِمَعْرِفَتِهِ، وَهِيَ الَّتِي تَتَلَاشَىٰ فِي جَنِّهَا الدُّنْيَا بِأَسْرِهِا.

وَفِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ: «إِنِّي لِأَدُودُ
أَوْلِيَائِي عَنِ نَعِيمِ الدُّنْيَا كَمَا يَدُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عَنِ مَبَارِكِ^(١)
الْعَرَّةِ»^(٢).

وَإِذَا أَبْتَلَاكَ بِشِدَّةٍ فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ ابْتِلَائِكَ وَأَمْتَحَانِكَ،
عَالِمٌ بِحَالِكَ، بَصِيرٌ بِضَعْفِكَ، وَهُوَ بِكَ رَوْوْفٌ رَحِيمٌ؛ أَمَا تَسْمَعُ
قَوْلَهُ ﷻ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا»^(٣).

-
- (١) مبارك: جمع مَبْرُك: كمدخر ومدخل، وهو موضع بروت الإبل واضطجاعها،
والعرّة والعرة: الجرب، ونقصود: إبعاد الإبل عن المواضع التي تؤذيها.
- (٢) — قال الكديري في سرح نضالين (٢/٢١١): هذا الخبر أورده أبو نعيم في
الحلية، ومكي بن طالب في قوت القلوب، طويلاً عن وهب بن منبه.
- (٣) — قال العراقي (إحياء ٤/٥٤٥): متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب، وفي
أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته بيضها فأرضعته.
— وروى هذا الحديث البخاري (٩/٨) كتاب الأدب، باب رحمة الولد، بلفظ:
(لله أرحم بعباده من هذه بولدها).

فَإِذَا (عَلِمْتَ هَذَا) ^(١) عَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يُنَزَّلْ بِكَ هَذَا الْمَكْرُوهَ إِلَّا
لِصَلَاحٍ لَكَ جَهْلُهُ أَنْتَ وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا تَرَاهُ يُكْثِرُ ابْتِلَاءَ
أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ عِبَادِهِ؛ حَتَّى يَقُولَ ﷺ: «إِذَا
أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ» ^(٢) وَيَقُولُ: «أَشَدُّ النَّاسِ بِلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ
الشُّهَدَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ» ^(٣). وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يَحْسِبُ عَنْكَ الدُّنْيَا،
أَوْ يُكْثِرُ عَلَيْكَ الشَّدَائِدَ وَالْبَلَوَى، فَاعْلَمْ أَنَّكَ عِنْدَهُ عَزِيزٌ، وَأَنَّكَ عِنْدَهُ

= — وهكذا رواه مسلم (٢١٠٩/٤) كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، الحديث
رقم ٢٧٥٤.

— في سنن ابن ماجه (١٤٣٦/٢) خبر آخر عن ابن عمر عن امرأة تحصب
تنورها قالت لرسول الله ﷺ: (أو ليس الله بأرحم بعباده من الأم بولدها؟ قال:
نعم) وفي التعليق على هذا الحديث ذكر في الزوائد أن الإسناد بهذا الحديث
ضعيف لضعف إسماعيل بن يحيى (أحد رواة)، متفق على تضعيفه (الحديث
رقم ٤٢٩٧).

— وفي سنن أبي دود (٤٦٩ ٣) كتاب الجنائز (الحديث ٣٠٨٩) رواية أخرى
بلفظ: (الله أرحم بعبده من أم الأفراخ بفراخها).

(١) زيادة يقتضيها سياق كلام مثبتة في باقي النسخ، ساقطة من الأصل.

(٢) — رواه ابن حنبل (٤٢٧ - ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد، وتمامه: (...)
فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع).

— ورواه ابن ماجه في سننه (١٣٣٨/٢) عن أنس بن مالك، بنفـظ: (عِظْمُ الْجِزَاءِ
مِنْ عِظْمِ الْبَلَاءِ وَإِنْ تَهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَهُوَ الرِّضَا، وَمَنْ
سَخَطَ فَهُوَ السَّخَطُ) (حديث رقم ٤٠٣١).

— وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٤٨/١) وصححه، حديث رقم (٣٥٤)
كما رواه الطبراني في المعجم الأوسط والمعجم الكبير، وبيهقي، والضياء
المقدسي، عن أنس. قال الهيثمي: رجال الطبراني موثقون. وقال المنذري
رواته ثقات. (راجع فيض القدير ١/٢٤٦).

(٣) راجع تخريج الحديث ص ٢٦٨ حاشية (١).

بِمَكَانٍ عَلَيَّ، وَانَّهُ يَسْلُكُ بِكَ طَرِيقَ أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى
ذَلِكَ. أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:
٤٨] بَلِ أَعْرِفُ مِثَّتَهُ عَلَيْكَ فِيمَا يَحْفَظُ عَلَيْكَ مِنْ صَلَاحِكَ، وَيُكْثِرُ مِنْ
أَجْرِكَ وَثَوَابِكَ، وَيُنْزِلُكَ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ وَالْأَعِزَّةِ عِنْدَهُ، فَكَمْ تَرَى / مِنْ [٦٤/أ]
عَوَاقِبَ حَمِيدَةٍ، وَمَوَاهِبَ كَرِيمَةٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

فصل

في الرضا بترك التدبير إلى الله تعالى

وَبِالْجُمْلَةِ إِذْ عَلِمْتَ يَقِينًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى الْمَلِيءُ^(١) بِضَمَانِ رِزْقِكَ
الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ فِي بَقَائِكَ وَقِيَامِكَ بِعِبَادَتِهِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا
يَشَاءُ كَيْفَ شَاءَ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِحَاجَتِكَ حَالًا فَحَالًا سَاعَةً فَسَاعَةً،
أَتَكَلَّمْتَ عَلَى ضَمَانِهِ الْحَقُّ وَوَعْدِهِ الصِّدْقُ، وَسَكَنَ قَلْبُكَ بِذَلِكَ
وَأَضْرَبْتَ عَنْ تِلْكَ الْعَلَاتِقِ وَالْأَسْبَابِ، وَتَعَلَّقْتَ قَلْبَكَ بِهَا، إِذِ الْعَلَاتِقُ
لَا تُغْنِيكَ وَلَا تَكْفِيكَ دُونَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُسِّرُ أَكْلَهَا
وَشُرْبَهَا، ثُمَّ هُوَ الَّذِي يُمْرِئُهَا وَيُهْنِئُهَا، ثُمَّ هُوَ الَّذِي يُلْحِقُكَ قُوَّتَهَا
وَنَفْعَهَا، وَيَذْفَعُ عَنْكَ ثِقْلَهَا وَضُرَّهَا، وَهُوَ تَعَالَى يُغْنِيكَ وَيَكْفِيكَ
دُونَهَا إِذَا شَاءَ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ لَا
غَيْرُ.

وَكَذَلِكَ تَتْرُكُ التَّدْبِيرَ فِي أُمُورِكَ عَلَى مَنْ يُدَبِّرُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ، وَتُرِيحُ نَفْسَكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَبْلُغُهُ عِلْمُكَ وَبَصْرُكَ مِنْ أَمْرِ
يَكُونُ غَدًا أَوْ لَا يَكُونُ، بَأَنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ؛ وَتَكْفُفُ عَنْ لَعَلِّ وَلَوْ، إِذْ
لَيْسَ فِيهِ إِلَّا شَغْلُ الْقَنْبِ وَتَضْيِيعُ الْوَقْتِ، وَلَعَلَّهُ تَكُونُ أُمُورٌ لَمْ تَحْطُرْ

(١) المليء والمليء بالادغام، على وزن فعيل: أي الغني والمفتنر.

بِبَالِكَ، فَيَكُونُ مَا سَبَقَ مِنْ فِكْرِكَ وَتَضْيِيعُ الْعَمْرِ فِي ذَلِكَ، وَتَدْبِيرِكَ
وَتَضْيِيعِكَ الْوَقْتَ الْعَزِيزَ لَعْوَا بِلَا فَائِدَةٍ، بَلْ خُسْرَانًا تَنْدُمُ عَلَيْهِ وَتُغْبِنُ
فِيهِ، لِمَكَانِ شُغْلِ الْقَلْبِ بِلَا فَائِدَةٍ؛ وَفِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ الزُّهَادِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: [الكامل]:

سَبَقَتْ مَقَادِيرُ الْإِلَهِ وَحُكْمُهُ فَأَرِخْ فُوَادِكَ مِنْ لَعَلٍّ وَمِنْ لَوْ

وقال آخر: [الخفيف]:

سَهَرَتْ أَعْيُنٌ وَنَامَتْ عُيُونٌ فِي أُمُورٍ تَكُونُ أَوْ لَا تَكُونُ
إِنَّ رَبًّا كَفَاكَ بِالْأَمْرِ مَا كَا نَ سَيَكْفِيكَ فِي غَدٍ مَا يَكُونُ

وقال آخر: [الكامل]:

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ وَأُخُو الْجَهَالَةِ مُتَعَبٌ مَخْرُونٌ
فَلَعَلَّ مَا تَخْشَاهُ لَيْسَ بِكَائِنٍ وَلَعَلَّ مَا تَرْجُوهُ لَيْسَ يَكُونُ

وَتَقُولُ لِنَفْسِكَ فِي الْجُمْلَةِ يَا نَفْسُ: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ

اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١] وَهُوَ

حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ إِذْ هُوَ قَدِيرٌ لَا نِهَايَةَ لِقُدْرَتِهِ، حَكِيمٌ لَا نِهَايَةَ

لِحِكْمَتِهِ، رَحِيمٌ لَا نِهَايَةَ لِرَحْمَتِهِ؛ وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَحَقِيقٌ أَنْ
تَكَلَّ عَلَيْهِ وَتَقَوَّضَ الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَيْهِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّقْوِيضِ. [ب/٦٤]

وَكَذَلِكَ تُوطِنُ قَلْبَكَ عَلَى أَنْ مَا يَقْضِي اللَّهُ لَكَ فَهُوَ الْأَوْفَقُ

وَالْأَصْلَحُ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَبْلُغُ عِلْمُنَا كَيْفِيَّتَهُ وَسِرَّهُ؛ وَتَقُولُ: يَا نَفْسُ

الْمَقْدُورُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛ فَلَا فَائِدَةَ فِي الشُّخْطِ، وَالْخَيْرُ فِيمَا

يَصْنَعُ اللَّهُ، فَلَا وَجْهَ لِنَشْخِطِ، أَلَسْتَ تَقُولِينَ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا،

فَكَيْفَ لَا تَرْضِينَ بِقَضَائِهِ! وَالْقَضَاءُ مِنْ شَأْنِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَحَقَّهَا، فَعَلَيْكَ

بِالرِّضَا.

ضبط
 عن ذلك، وَتَضْبُطُ قَلْبَكَ حَتَّى لَا تَجْزَعَ، وَلَا تَطْهَرُ مِنْهُ شِكَايَةٌ وَقَلْقٌ،
 الْجَزَعُ سِيَّمًا عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، فَإِنَّ الشَّأْنَ هُنَالِكَ، وَالتَّقْسُ مُتَسَارِعَةٌ جِدًّا
 إِلَى عَادَةِ الْجَزَعِ عِنْدَ ذَلِكَ، وَتَقُولُ: يَا نَفْسُ هَذِهِ قَدْ وَقَعَتْ، فَلَا
 حِيلَةَ لِدَفْعِهَا، وَقَدْ دَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْبَلَاءِ
 فِي خَزَائِنِهِ لَكَثِيرَةٌ، وَإِنَّ هَذِهِ سَتَنْقَضِي فَلَا تَبْقَى، وَإِنَّمَا سَحَابَةٌ
 سَتَنْقَشِعُ، فَتَجَلْدِي يَا نَفْسُ قَلِيلًا تَجِدِي لِذَلِكَ سُورًا طَوِيلًا، وَثَوَابًا
 جَزِيلًا بَعْدَ أَنْ لَا دَفْعَ لِلنَّازِلِ، وَلَا فَائِدَةَ فِي الْجَزَعِ، وَلَا مُصِيبَةَ فِي
 الْحَقِيقَةِ مَعَ الْعَزَاءِ وَالصَّبْرِ، فَتَشْغَلْ لِسَانَكَ بِالِاسْتِرْجَاعِ، وَقَلْبَكَ بِذِكْرِ
 مَا يَحْصُلُ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَجْرِ، وَتَتَذَكَّرُ صَبْرَ أَوْلِي الْعِزْمِ
 عَلَى الْمَصَائِبِ الْعِظَامِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ الْأَعِزَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.
 وَإِذَا حَبَسَ اللَّهُ عَنْكَ الرِّزْقَ وَالْدُنْيَا فِي وَقْتٍ فَتَقُولُ: يَا نَفْسُ هُوَ أَعْلَمُ
 بِالْحَالِ وَأَرْحَمُ بِكَ وَأَكْرَمُ، وَأَنَّهُ الَّذِي يُطْعِمُ الْكَلْبَ فِي خِسَّتِهِ،
 وَيُطْعِمُ الْكَافِرَ فِي عِدَاوَتِهِ، وَأَنَا عَبْدُهُ الْعَارِفُ الْمُوَحِّدُ، أَمَا أُسَاوِي
 عِنْدَهُ رَغِيفًا أَيْضًا؟، فَأَعْلَمِي بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ لَمْ يَحْسِنْ ذَلِكَ عَنْكَ إِلَّا
 لِنَفْعِ عَظِيمٍ، وَسَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرًا، فَاصْبِرِي قَلِيلًا تَرِي
 الْعَجَبَ مِنْ لَطِيفِ صُنْعِهِ، أَمَا سَمِعْتِ الْقَائِلَ: [الوافر]:

تَوَقَّعْ صُنْعَ رَبِّكَ سَوْفَ يَأْتِي بِمَا تَهْوَاهُ مِنْ فَرْجٍ قَرِيبٍ
 وَلَا تَيْأَسْ إِذَا مَا نَابَ حَطْبٌ فَكَمْ فِي الْغَيْبِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيبٍ

وَلَاخِرُ: [مجزوء الوافر]:

(أَلَا يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الَّذِي الْهَمُّ بِهِ بَرَّحٌ)^(١)

(١) هذا البيت ساقط من الأصل، ومثبت في (د) و(ج).

إِذَا أَشْتَدَّتْ بِكَ الْعُسْرَى ففَكَرْ فِي أَلَمِ نَشْرَحِ / [أ/٦٥]
 فَعُسْرِيَيْنِ يُسْرِيَيْنِ إِذَا كَرَّرْتَهُ فَأَفْرَحْ
 فَإِذَا جَرَّبْتَ هَذِهِ الْأَذْكَارَ وَنَحْوَهَا، وَوَاطَبْتَ عَلَيْهَا بِالتَّكْرِيرِ وَالتَّمْرِينِ، فَإِنَّ
 ذَلِكَ سَيَهْوُنُ عَلَيْكَ إِذَا كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ وَاجْتِهَادٌ زَمَانًا غَيْرَ طَوِيلٍ.

وَلَقَدْ دَفَعْتَ هَذِهِ الْعَوَارِضَ الْأَرْبَعَةَ^(١) عَنِ نَفْسِكَ، وَكُفَيْتَ
 مُؤْتَنَتَهَا وَصِرْتَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُفَوَّضِينَ، الرَّاضِينَ
 بِقَضَائِهِ، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلَائِهِ، وَحَصَلَتْ لِنَفْسِكَ رَاحَةٌ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ
 فِي الدُّنْيَا، وَعَظِيمَ الثَّوَابِ وَالدُّخْرِ فِي الْعُقْبَى، وَجَلِيلَ الْقَدْرِ وَالْمَحَبَّةِ
 عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَجْتَمِعُ لَكَ خَيْرُ الدَّارَيْنِ، وَتَسْتَقِيمُ لَكَ طَرِيقُ
 الْعِبَادَةِ، إِذْ لَا عَائِقَ وَلَا شَاغِلَ، وَكُنْتَ حِينَئِذٍ قَدْ قَطَعْتَ هَذِهِ الْعَقَبَةَ
 الْعَسِيرَةَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ، أَنْ يُمَدِّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، فَإِنَّ
 الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
 الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

(١) وهي: الرزق، والأخطار، والمصائب، وأنواع القضاء.

العقبة الخامسة وهي عقبة البواعث

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي بِالسَّيْرِ إِذَا أَسْتَقَامَ لَكَ الطَّرِيقُ، وَسَهَلَتْ
السَّبِيلُ، وَارْتَفَعَتِ الْعَوَانِقُ، وَزَالَتِ الْعَوَارِضُ، وَلَا يَحْصُلُ لَكَ السَّيْرُ
الْمُسْتَقِيمُ إِلَّا بِاسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالزَّامِهِمَا حَقَّهُمَا عَلَى
حَدِّهِمَا.

أَمَّا الْخَوْفُ، فَيَجِبُ إِزْمُهُ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِلزَّجْرِ عَنِ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَمْرَةً بِالسُّوءِ
مِيَالَةً إِلَى الشَّرِّ، طَمَّحَةٌ بِنَى الْفِتْنَةِ وَلَا تَنْتَهِي عَنْ ذَلِكَ إِلَّا بِتَخْوِيفٍ
عَظِيمٍ، وَتَهْدِيدٍ بِالْغِي. نَيْسَتْ هِيَ فِي طَبْعِهَا حُرَّةٌ يَهْجُهَا الْوَفَاءُ،
وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ عَنِ نَجْفَاءِ. إِنَّمَا هِيَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ:
[مجزوء الكامل]:

الْعَبْدُ يُقْرَعُ بِأَنْعَصَا وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ أَمَلَامَهُ

وَالْتَدْبِيرُ فِي أَمْرِهِ أَنْ تُقْرَعَهَا أَبْدَأَ بِسَوْطِ التَّخْوِيفِ، قَوْلًا وَفِعْلًا
وَفِكْرًا؛ نَحْوَمَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ، أَنَّ نَفْسَهُ دَعَتْهُ إِلَى
مَعْصِيَةٍ، فَانْطَلَقَ وَنَزَعَ ثِيَابَهُ، يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاءِ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ:

ذوقِي، فَنَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا مِنْ هَذِهِ، أَي جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ وَبَطَالَةٌ
بِالنَّهَارِ.

وَالثَّانِي: لثَلَا تَعْجَبَ بِالطَّاعَاتِ فَتَهْلِكَ، بَلْ تَقْمَعُهَا بِالذَّمِّ
وَالْعَيْبِ وَالتَّقْصِ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْأَوْزَارِ، الَّتِي فِيهَا ضُرُوبُ الْأَخْطَارِ،
وَذَلِكَ نَحْوُ مَا ذَكَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَخَذْنَا أَنَا وَعِيسَى بِمَا
كَسَبَتْ هَاتَانِ لَعَذَّبْنَا عَذَابًا لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحَدٌ»^(١)، وَأَشَارَ بِأَصْبَعَيْهِ. وَعَنِ
الْحَسَنِ^(٢) أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا يَأْمَنُ أَحَدُنَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ ذَنْبًا،
فَأُطْبِقَ بَابَ الْمَغْفِرَةِ دُونَهُ، فَهُوَ يَعْمَلُ فِي غَيْرِ عَمَلٍ.

وَعَنِ ابْنِ السَّمَاكِ فِيمَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ: تَقُولِينَ قَوْلَ الزَّاهِدِينَ،
وَتَعْمَلِينَ عَمَلَ الْمُتَنَافِقِينَ، وَفِي الْجَنَّةِ تَطْمَعِينَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! إِنْ
لِلْجَنَّةِ قَوْمًا آخِرِينَ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ غَيْرُ مَا تَعْمَلِينَ.

فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا يَنْزِمُ الْعَبْدُ تَذْكِيرُهَا لِلنَّفْسِ وَتَكْرِيرُهَا عَلَيْهَا،
لِثَلَا تَعْجَبَ بِطَاعَةٍ، أَوْ تَقَعَّ فِي مَعْصِيَةٍ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.
وَأَمَّا الرَّجَاءُ: فَإِنَّمَا يَلْزِمُكَ اسْتِشْعَارُهُ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِلْبَعْثِ^(٣) عَلَى الطَّاعَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ ثَقِيلٌ،
وَالشَّيْطَانَ عَنْهُ زَاجِرٌ، وَالْهَوَى إِلَى ضِدِّهِ دَاعٍ، وَحَالَ أَهْلِ الْغَفْلَةِ مِنْ
عَامَّةِ الْخَلْقِ فِي النَّفْسِ مُنْطَبِعٌ مُشَاهِدٌ، وَالنَّوَابِ الَّذِي يُطَلَّبُ بِهِ عَنِ
الْعَيْنِ غَائِبٌ، وَأَمْدُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ فِيمَا يَحْسِبُهُ بَعِيدٌ، وَإِذَا كَانَ الْحَالُ عَلَى

ضرورة
استشعار
الرجاء

(١) لم أجد له أصلاً.

(٢) أي الحسن البصري.

(٣) للبعث على الطاعات: أي للحض والحث عليها.

هَذِهِ الْحَالَةَ، فَلَا تَتَّبِعْهُ النَّفْسُ لِلْخَيْرِ، وَلَا تَرْغَبْ فِيهِ حَقَّهُ، وَلَا تَهْتَزُّ لَهُ إِلَّا بِأَمْرِ يُقَابِلُ كُلَّ هَذِهِ الْمَوَانِعِ، وَيُسَاوِيهَا، بَلْ يَزِيدُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ الْأَمْرُ هُوَ الرَّجَاءُ الْقَوِيُّ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّرْغِيبُ الْبَالِغُ فِي حُسْنِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ أَجْرِهِ، وَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحُزْنُ يَمْنَعُ عَنِ الطَّعَامِ، وَالْخَوْفُ يَمْنَعُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالرَّجَاءُ يَقْوِي عَلَى الطَّاعَاتِ، وَذِكْرُ الْمَوْتِ يُزَهِّدُ فِي الْفُضُولِ.

وَالثَّانِي: لِيَهْوُونَ عَلَيْكَ أَحْتِمَالِ الشَّدَائِدِ وَالْمَشَقَّاتِ.

وَأَعْلَمُ: أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ مَا يَبْدُلُ؛ وَمَنْ طَابَ لَهُ شَيْءٌ وَرَغِبَ فِيهِ حَقَّ رَغْبَتِهِ، أَحْتَمَلَ شِدَّتَهُ وَلَمْ يُبَالِ بِمَا يَلْقَى مِنْ مُؤَنَّتِهِ؛ وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا حَقَّ مَحَبَّتِهِ، أَحَبَّ أَيْضًا أَحْتِمَالِ مِحْنَتِهِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيَجِدُ لِذَلِكَ الْمِحْنَةِ ضَرْبًا مِنَ اللَّذَّةِ؛ أَلَّا تَرَى مُشْتَارَ^(١) الْعَسَلِ لَا يُفَكِّرُ بِلَسْعِ النَّحْلِ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ حَلَاوَةِ الْعَسَلِ؛ وَالْأَجِيرُ لَا يَعْبَأُ بِإِرْتِقَاءِ السَّلْمِ الطَّوِيلِ، مَعَ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ طُولَ النَّهَارِ الصَّائِفِ الْمَدِيدِ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ أَخْذِ دِرْهَمَيْنِ بِالْعَشِيِّ؛ وَإِنَّ الْفَلَّاحَ لَا يُفَكِّرُ بِمُقَاسَاةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَمُبَاشَرَةِ الشَّقَاءِ وَالْكَدِّ طُولَ السَّنَةِ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنَ الْبَيْدَرِ أَوْ مِنَ الْغَلَّةِ؛ وَكَذَلِكَ، يَا أَخِي، الْعِبَادُ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْإِجْتِهَادِ، إِذَا ذَكَرُوا الْجَنَّةَ فِي طَيْبِ مَقِيلِهَا، وَأَنْوَعَ نَعِيمِهَا، مِنْ قُصُورِهَا وَحُورِهَا، وَضَعَمِهَا، وَشَرَابِهَا، وَحَلِيَّتِهَا وَحُلَلِهَا، وَسَائِرِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِهَا. هَذَا عَلَيْهِمْ مَا أَحْتَمَلُوهُ مِنْ تَعَبٍ فِي عِبَادَةِ،

(١) مشتار العسل: الذي يجتني ويستخرج عسل النحل من محله. وشار العسل: إستخرجه.

[٦٦/أ] أَوْ فَاتَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ لَذَّةٍ وَنِعْمَةٍ، أَوْ نَالَهُمْ مِنْ ضَرَرٍ / وَمَشَقَّةٍ .

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ أَصْحَابَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَلَّمُوهُ فِيمَا كَانُوا يَرَوْنَ مِنْ خَوْفِهِ وَأَجْتِهَادِهِ وَرَثَّةِ حَالِهِ، فَقَالُوا: يَا أَسْتَاذُ: لَوْ نَقَضْتَ مِنْ هَذَا الْجُهْدِ نِلْتَ مُرَادَكَ أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ سُفْيَانُ: كَيْفَ لَا أَجْتَهُدُ وَقَدْ بَلَّغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَكُونُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ نُورٌ تُضِيءُ لَهُ الْجَنَّاتُ الثَّمَانُ، فَيُظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ نُورٌ مِنْ جِهَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَخِرُّونَ سَاجِدِينَ، فَيَنَادُونَ: أَنْ أَرْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ، لَيْسَ الَّذِي تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ جَارِيَةٌ تَبَسَّمَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا، ثُمَّ أَنشَأَ يَقُولُ: [البسيط]:

مَا ضَرَّ مَنْ كَانَتْ الْفِرْدَوْسُ مَنَزَلَهُ مَاذَا تَحَمَّلَ مِنْ بُؤْسٍ وَإِقْتَارِ
تَرَاهُ يَمْشِي كَثِيبًا خَائِفًا وَجَلًّا إِلَى الْمَسَاجِدِ يَمْشِي بَيْنَ أَطْمَارِ
يَا نَفْسُ مَا لَكَ مِنْ صَبْرٍ عَنِّي نَهَبٌ^(١) قَدْ حَانَ أَنْ تُقْبَلِي مِنْ بَعْدِ إِدْبَارِ

قُلْتُ أَنَا: وَإِذَا كَانَ مَدَارُ أَمْرِ الْعِبَادَةِ عَلَى الْأُمْرَيْنِ: الْقِيَامِ بِالطَّاعَةِ وَالْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ مَعَ هَذِهِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ إِلَّا بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ وَتَرْجِيَةِ وَتَخْوِيفٍ، فَإِنَّ الذَّابَّةَ الْحَرُونَ تَحْتَاجُ إِلَى قَائِدٍ يَقْرُدُهَا. وَإِنِّي سَائِقٌ يَسُوقُهَا، وَإِذَا وَقَعَتْ فِي مَهْوَاةٍ، وَتَرْهِيْبًا تُضْرَبُ بِالسَّوْطِ مِنْ جَانِبٍ. وَيُلَوِّحُ لَهَا بِالشَّعِيرِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، حَتَّى تَنْهَضَ وَتَتَخَلَّصَ مِمَّا وَقَعَتْ فِيهِ، وَإِنَّ الصَّبِيَّ نُعْرَهُ لَا يَمُرُّ إِلَى الْكُتَّابِ إِلَّا بِتَرْجِيَةِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، وَتَخْوِيفٍ مِنَ الْمَعْتَمِ؛ فَكَذَلِكَ

ترغيب
النفس
وترهيبها

(١) فِي الْأَصْلِ: نَارٌ، وَنُصِيبُ مِنَ (د) وَ(هـ) وَهَذَا يَتَّفِقُ مَعَ عَرُوضِ الْبَحْرِ الْبَسِيطِ .

النَّفْسُ دَابَّةٌ حَرُونَ، وَقَعَتْ فِي مَهْوَاةِ الدُّنْيَا، فَالْخَوْفُ سَوَّطُهَا
 وَسَائِقُهَا، وَالرَّجَاءُ شَعِيرُهَا وَقَائِدُهَا، وَإِنَّهَا الصَّبِيُّ الْعَرِمُ، يُحْمَلُ إِلَى
 كِتَابِ الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى، فَذَكَرُ النَّارِ وَالْعِقَابِ تَخْوِيفُهَا، وَذَكَرُ الْجَنَّةِ
 وَثَوَابِهَا تَرْجِيئُهَا وَتَرْغِيبُهَا. وَلِذَلِكَ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الطَّالِبَ لِلْعِبَادَةِ
 وَالرِّيَاضَةِ، أَنْ يُشْعِرَ النَّفْسَ بِالْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا: الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ،
 وَإِلَّا فَلَا تُسَاعِدُ النَّفْسُ الْجَمُوحُ عَلَى ذَلِكَ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى أَتَى الذِّكْرُ
 الْحَكِيمُ بِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ: الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّهْدِيدُ،
 وَأَبْلَغَ فِي كُلِّ مِنْهُمَا، فَذَكَرَ مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ مَا لَا صَبْرَ عَنْهُ، وَذَكَرَ
 مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ؛ فَعَلَيْكَ إِذَا بِالتَّزَامِ هَذَيْنِ
 الْمَعْنِيَيْنِ، يَحْصُلُ لَكَ مُرَادُكَ، وَيَسْهَلُ عَلَيْكَ أَحْتِمَالُ الْمَشَقَّةِ، وَاللَّهُ
 تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

حقيقة

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا حَقِيقَةُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ وَحُكْمُهُمَا؟

الخوف

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَوْفَ / وَالرَّجَاءَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَرْجِعَانِ [٦٦/ب]
 إِلَى قَبِيلِ الْخَوَاطِرِ، وَإِنَّمَا الْمَقْدُورُ لِلْعَبْدِ مُقَدَّمَاتُهُمَا.

قَالُوا: الْخَوْفُ رَعْدَةٌ تَحْدُثُ فِي الْقَلْبِ عَن ظَنِّ مَكْرُوهٍ يَنَالُهُ،
 وَالْخَشْيَةُ نَحْوُهُ؛ لَكِنِ الْخَشْيَةُ تَقْتَضِي ضَرْبًا مِنَ الْإِسْتِعْظَامِ وَالْمَهَابَةِ؛
 وَضِدُّ الْخَوْفِ، الْجَرَاءَةُ؛ وَلَكِنْ قَدْ يُقَابَلُ بِالْأَمْنِ، يُقَالُ: خَافْتُ،
 وَأَمِنْتُ، وَخَوْفٌ، وَأَمْنٌ، لِأَنَّ الْأَمْنَ الَّذِي يَجْتَرِيءُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْجَرَاءَةَ تُضَادُّهُ.

مقدمات

الخوف

وَمُقَدَّمَاتُ الْخَوْفِ أَرْبَعٌ:

الأولى^(١): ذَكَرُ الدُّنُوبِ الكَثِيرَةِ الَّتِي سَبَقَتْ، وَكَثْرَةُ الخُصُومِ
الَّذِينَ مَضَوْا فِي المَظَالِمِ، وَأَنْتَ مُرْتَهِنٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الخَلَاصُ بَعْدُ.
وَالثَّانِيَةُ: ذَكَرُ شِدَّةِ عُقُوبَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، الَّتِي لَا طَاقَةَ لَكَ بِهَا.
وَالثَّلَاثَةُ: ذَكَرُ ضَعْفِ نَفْسِكَ عَنِ احْتِمَالِهَا.
وَالرَّابِعَةُ: ذَكَرُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ مَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ.

حقيقة
الرجاء

وَأَمَّا الرَّجَاءُ: فَهُوَ ابْتِهَاجُ القَلْبِ بِمَعْرِفَةِ فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ،
وَأَسْتِرْوَا حُهُ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ الخَوَاطِرِ غَيْرِ
مَقْدُورٍ لِلعَبْدِ. وَرَجَاءٌ هُوَ مَقْدُورٌ، وَهُوَ تَذَكُّرُ فَضْلِ اللَّهِ وَسَعَةِ
رَحْمَتِهِ؛ وَقَدْ تُسَمَّى أَيْضاً إِزَادَةَ المُخَاطَرَةِ بِالإِسْتِنَاءِ رَجَاءً. وَالمُرَادُ
مِنْ هَذَا البَابِ، هُوَ الأَوَّلُ. وَهُوَ التَّذَكُّرُ عَلَى حَسَبِ الإِبْتِهَاجِ
وَالإِسْتِرْوَا حِ؛ وَضِدُّهُ اليَأْسُ. وَهُوَ تَذَكُّرُ فَوَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ
وَقَطْعُ القَلْبِ عَنِ ذَلِكَ. وَهُوَ مَعْصِيَةٌ مَخْضُوعَةٌ.

وَهَذَا الرَّجَاءُ فَرَضٌ إِذَا نَمَّ يَكُنُ لِلعَبْدِ سَبِيلٌ إِلَى الإِمْتِنَاعِ عَنِ
اليَأْسِ إِلاَّ بِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ نَفْلٌ بَعْدَ اعْتِقَادِ الجُمْلَةِ فِي فَضْلِ اللَّهِ وَسَعَةِ
رَحْمَتِهِ.

وَمُقَدِّمَاتُ الرَّجَاءِ أَرْبَعٌ:

مقدمات
الرجاء

الأولى: ذَكَرُ سَوَابِقِ فَضْلِهِ إِلَيْكَ مِنْ غَيْرِ قَدَمٍ أَوْ شَفِيعٍ.
وَالثَّانِيَةُ: ذَكَرُ مَا وَعَدَ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِ حَسَبِ

(١) ساقطة من الأصل: مثبتة في باقي النسخ.

فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، دُونَ اسْتِحْقَاقِكَ إِيَّاهُ بِالْفِعْلِ، إِذْ لَوْ كَانَ عَلَى حَسَبِ
الْفِعْلِ لَكَانَ أَقَلَّ شَيْءٍ وَأَصْغَرَ أَمْرٍ.

وَالثَّالِثَةُ: ذِكْرُ كَثْرَةِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ فِي أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ فِي
الْحَالِ، مِنْ أَنْوَاعِ الْإِمْدَادِ وَالْأَلْطَافِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ.

وَالرَّابِعَةُ: ذِكْرُ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَبْقِهَا غَضَبُهُ، وَأَنَّهُ
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الْغَنِيُّ الْكَرِيمُ، الرَّؤُوفُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَإِذَا وَاطَّيْتِ عَلَى هَذَيْنِ التَّوَعِينِ مِنَ الْأَذْكَارِ أَفْضِيَا بِكَ إِلَى
اسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِكُلِّ حَالٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ
وَرَحْمَتِهِ.

فصل

ضرورة الاحتياط عند قطع عقبة البواعث

[٦٧/أ] فَعَلَيْكَ/ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِقَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ فِي تَمَامِ الْإِحْتِيَاظِ وَالتَّحَرُّزِ وَحَدِّ الرَّعَايَةِ، فَإِنَّهَا عَقَبَةٌ دَقِيقَةٌ الْمَسْلَكِ، خَطِرَةٌ الطَّرِيقِ، وَذَلِكَ أَنَّ طَرِيقَهَا بَيْنَ صَرِيحَيْنِ مَخُوفَيْنِ مُهْلِكَيْنِ: أَحَدُهُمَا طَرِيقُ الْأَمْنِ، وَالثَّانِي طَرِيقُ النَّيَّاسِ، وَطَرِيقُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ هُوَ الطَّرِيقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِزَيْنِ، فَإِنْ غَلَبَ الرَّجَاءُ عَلَيْكَ حَتَّى فَقَدْتَ الْخَوْفَ الْبَتَّةَ، وَقَعْتَ فِي صَرِيحِ الْأَمْنِ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وَإِنْ غَلَبَ الْخَوْفُ حَتَّى فَقَدْتَ الرَّجَاءَ الْبَتَّةَ، وَقَعْتَ فِي طَرِيقِ النَّيَّاسِ: ﴿لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فَإِنْ كُنْتَ رَكِبْتَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَأَعْتَصَمْتَ بِهِمَا جَمِيعًا، فَهُوَ الصَّرِيقُ الْعَدْلُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّتِي هِيَ سَبِيلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَصْفِيَائِهِ، الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فَإِذَا ظَهَرَ لَكَ فِي هَذِهِ الْعَقَبَةِ ثَلَاثَةُ طَرِيقٍ: طَرِيقُ الْأَمْنِ وَالْجَرَاءَةِ، وَطَرِيقُ النَّيَّاسِ وَالْقُنُوطِ، وَطَرِيقُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مُتَمَدِّدٌ

بَيْنَهُمَا؛ فَإِنْ مَلَتْ عَنْهُ بِقَدَمٍ إِلَى يَمِينِكَ أَوْ يَسَارِكَ، وَقَعْتَ فِي
 الْمُهْلِكِينَ وَهَلَكْتَ مَعَ الْهَالِكِينَ؛ ثُمَّ الشَّانُ أَنْ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِرِينَ
 الْمُهْلِكِينَ أَوْسَعُ مَجَالًا وَأَكْثَرُ دَاعِيًا، وَأَسْهَلُ سُلُوكًا مِنَ الطَّرِيقِ
 الْعَدْلِ، لِأَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ مِنْ جَانِبِ الْأَمْنِ، رَأَيْتَ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ
 وَكَثْرَةِ فَضْلِهِ وَغَايَةِ جُودِهِ، مَا لَا يَبْقَى لَكَ مَعَهُ خَوْفٌ، فَتَتَكَلَّفُ عَلَى
 ذَلِكَ بَمَرَّةٍ وَتَأْسُ بِهِ؛ وَإِنْ نَظَرْتَ مِنْ جَانِبِ الْخَوْفِ، رَأَيْتَ مِنْ
 عَظِيمِ سِيَاسَةِ اللَّهِ وَكَثْرَةِ هَيْبَتِهِ، وَدِقَّةِ أَمْرِهِ، وَغَايَةِ مُنَاقَشَتِهِ، مَعَ أَوْلِيَائِهِ
 وَأَصْفِيَائِهِ، مَا لَا يَكَادُ يَبْنَى مَعَهُ رَجَاءٌ، فَنِيَّاسُ بَمَرَّةٍ وَتَقْنَطُ، فَتَحْتَاجُ
 أَنْ لَا تَنْظُرَ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَطْ، حَتَّى تَتَكَلَّفَ وَتَأْمَنَ، وَلَا
 إِلَى عَظِيمِ الْهَيْبَةِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَقَطْ، حَتَّى تَقْنَطَ وَيَنَاسَ، بَلْ تَنْظُرْ إِلَى
 هَذَا وَإِلَى هَذَا جَمِيعًا. وَتَأْخُذُ مِنْ هَذَا بَعْضًا، وَمِنْ هَذَا بَعْضًا،
 فَتَرْكَبَ بَيْنَهُمَا طَرِيقًا دَقِيقًا. وَتَسْلُكُ ذَلِكَ لِتَسْلَمَ، فَإِنَّ طَرِيقَ الرَّجَاءِ
 الْمَخْضِ سَهْلٌ وَاسِعٌ عَرِيضٌ. وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيكُ إِلَى الْأَمْنِ وَالْخُسْرَانِ؛
 وَطَرِيقُ الْخَوْفِ الْمَخْضِ وَاسِعٌ عَرِيضٌ، وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيكُ إِلَى
 الضَّلَالِ؛ وَالطَّرِيقُ الْعَدْلُ بَيْنَهُمَا، طَرِيقُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. وَإِنْ كَانَ
 دَقِيقًا عَسِرًا، فَإِنَّهُ/ سَبِيلٌ سَلِيمٌ، وَمَنْهَجٌ بَيِّنٌ، يُؤَدِّي إِلَى الْغُفْرَانِ [٦٧/ب]
 وَالْإِحْسَانِ، ثُمَّ إِلَى الْجَدَنِ وَالرِّضْوَانِ، وَلِقَاءِ الْمَلِكِ الرَّحْمَنِ؛ أَمَّا
 تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي بَدْءِ هَذَا السَّبِيلِ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾
 [السجدة: ١٦]، وَقَالَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ [السجدة: ١٧]، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْجُمْلَةَ جَدًّا وَتَشَمَّرْ
 وَتَتَّبِعْ لِلْأَمْرِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ بِالْهُوَيْنَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

أصول سلوك طريق الخوف والرجاء

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَتَأْتَى لَكَ سُلُوكُ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَحَمْلُ هَذِهِ
النَّفْسِ الْجَمُوحِ الكِسْلَانَةِ عَلَى الخَيْرِ، بِاجْتِنَابِ المَحْبُوبِ عِنْدَهَا،
وَاِكْتِسَابِ الطَّاعَاتِ الثَّقِيلَةِ عَلَيْهَا، إِلَّا بِالتَّحْفُظِ بِثَلَاثَةِ أُصُولٍ، وَالتَّذَكُّرِ
لَهَا عَلَى سَبِيلِ الدَّوَامِ، مِنْ غَيْرِ فِتْرَةٍ^(١) وَلَا غَفْلَةٍ.

الأول: ذِكْرُ أَقْوَالِهِ سُبْحَانَهُ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ.

وَالثَّانِي: ذِكْرُ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ فِي الأَخْذِ وَالعُقُوبِ.

وَالثَّالِثُ: ذِكْرُ جَزَائِهِ لِلْعِبَادِ فِي المَعَادِ مِنَ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ.
وَتَفْصِيلُ كُلِّ أَضْلٍ مِنْهَا يَحْتَاجُ إِلَى صُحُفٍ كَثِيرَةٍ، وَلِأَجْلِهَا صَنَعْنَا
كِتَابَ: «تَنْبِيهِ الغَافِلِينَ»، وَنَحْنُ نُشِيرُ فِي هَذَا الكِتَابِ إِلَى كَلِمَاتٍ تُوقِفُكَ
عَلَى المَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

(١) الفِتْرَةُ: الضَّعْفُ.

الأصلُ الأوَّلُ : أقواله سبحانه

تَدَبَّرَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، مِنْ آيَاتِ التَّرْغِيبِ
وَالتَّرْهِيْبِ وَالتَّرْجِيَةِ وَالتَّخْوِيفِ .

فَمِنْ آيَاتِ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الدُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل
عمران: ١٣٥] ﴿ غَافِرِ الدَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [غافر: ٣] ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ
التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥] - ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢] - ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [١١٣] ﴿
[البقرة: ١٤٣] - ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فَهَذِهِ
وَنَحْوُهَا مِنْ آيَاتِ الرَّجَاءِ .

وَمِنْ آيَاتِ الخَوْفِ وَالسِّيَاسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعْبَادُ فَاتَّقُونِ ﴾ [١٦] ﴿
[الزمر: ١٩] - ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [١١٥] ﴿
[المؤمنون: ١١٥] - ﴿ يُحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [٣٦] ﴿ [القيامة: ٣٦] ﴿
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣] - ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ
صُنْعًا ﴾ [نكهف: ١٠٤] - ﴿ وَبَدَأْتُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [١٧] ﴿

[الزمر: ١٤٧] - ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ﴿٢٣﴾
 [الفرقان: ٢٣] نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُسَلِّمَنَا بِرَحْمَتِهِ .

وَمِنَ الْآيَاتِ اللَّطِيفَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ قَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٤٩﴾ [الحجر: ٤٩] ثُمَّ قَالَ
 فِي عَقِبِهِ: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ﴿٥٠﴾ [الحجر: ٥٠] لِئَلَّا
 يَسْتَوْلِيَ عَلَيْكَ / الرَّجَاءُ بِمَرَّةٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٣] ثُمَّ
 قَالَ فِي عَقِبِهِ: ﴿ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر: ٣] لِئَلَّا يَسْتَوْلِيَ
 عَلَيْكَ الْخَوْفُ بِمَرَّةٍ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَحذَرُكُمْ
 اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ثُمَّ قَالَ فِي عَقِبِهِ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
 بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠] وَأَعْجَبُ مِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ ﴿ مَنْ خَشِيَ
 الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ [ق: ٣٣] .

عَلَّقَ الْخَشْيَةَ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، دُونَ اسْمِ الْجَبَّارِ، أَوْ الْمُتَنَقِّمِ،
 وَالْمُتَكَبِّرِ وَنَحْوِهِ، لِنُكُونِ الْخَشْيَةِ مَعَ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ، فَلَا تَكُونُ الْخَشْيَةُ
 تُطِيرُ قَلْبَكَ بِمَرَّةٍ، فَيَكُونُ تَخْوِيفًا فِي تَأْمِينٍ، وَتَحْرِيبًا فِي تَسْكِينٍ،
 كَمَا تَقُولُ: أَمَا تَخْشَى الْوَالِدَةَ الرَّحِيمَةَ؟ أَمَا تَخَافُ الْوَالِدَ الرَّحِيمَ؟ أَمَا
 تَخَافُ الْأَمِيرَ الْكَرِيمَ؟ وَنَمْرَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الصَّرِيقُ عَدْلًا، فَلَا
 تَذْهَبُ إِلَىٰ أَمْنٍ وَلَا قُنُوطٍ .

جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَدَبِّرِينَ لِهَذَا الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الْعَامِلِينَ
 بِمَا فِيهِ، إِنَّهُ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ .

الأصل الثاني: في أفعاله ومعاملاته

من جانب الخوف:

أَمَّا مِنْ جَانِبِ الْخَوْفِ: فَأَوَّلًا أَنَّ إِبْلِيسَ عَبْدَهُ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، خَبَرَ إِبْلِيسَ فَلَمْ يَتْرُكْ فِيهَا قِيْلًا، مَوْضِعَ قَدَمٍ إِلَّا سَجَدَ فِيهِ لِهَيْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى سَجْدَةً، ثُمَّ تَرَكَ لَهُ أَمْرًا وَاحِدًا، فَطَرَدَهُ عَنْ بَابِهِ، وَضَرَبَ بِوَجْهِهِ عِبَادَةَ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَلَعَنَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا أَبَدَ الْآبِدِينَ. خَبَرَ يُونُسَ

حَتَّى رُوِيَ أَنَّ الصَّادِقَ الْأَمِينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأَى جِبْرِيلَ، مُتَعَلِّقًا بِأَسْتَارِ الْكُعْبَةِ وَهُوَ يَصْرُخُ: إِلَهِي: لَا تُغَيِّرْ أَسْمِي وَلَا جَبْرِيْلَ تَبَدُّلَ جِسْمِي.

ثُمَّ آدَمَ ﷺ، صَفِيَّهُ وَنَبِيَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ، خَبَرَ آدَمَ وَحَمَلَهُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ إِلَى جِوَارِهِ، أَنْبَسَطَ فَأَكَلَ أَكْلَةً وَاحِدَةً لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِيهَا، فَتَوَدَّى: أَلَا لَا يُجَاوِرُنِي مَنْ عَصَانِي، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ حَمَلُوا سَرِيرَهُ، يَزْجُونَهُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، حَتَّى أَهْوَوْهُ بِالْأَرْضِ، وَلَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ فِيهَا رُوِيَ، حَتَّى بَكَى عَلَى ذَلِكَ مِائَتِي سَنَةً، وَلِحَقِّهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالْبَلَاءِ مَا لِحَقِّهِ، وَبَقِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ فِي تَبَعَاتِ ذَلِكَ إِلَى الْأَبَدِ.

ثُمَّ إِنَّ نُوحًا ﷺ شَيْخَ الْمُرْسَلِينَ، الَّذِي أَحْتَمَلَ فِي أَمْرِ دِينِهِ مَا خَبَرَ نُوحَ

أَحْتَمَلَ، لَمْ يَقُلْ إِلَّا كَلِمَةً وَاحِدَةً عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، إِذْ نُودِيَ: ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].
 حَتَّى رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ لَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَيَاءً
 مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعِينَ سَنَةً.

خبر
 إبراهيم
 ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ ﷺ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا هَفْوَةٌ وَاحِدَةً، فَكَمْ
 خَافَ وَتَضَرَّعَ وَقَالَ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [٨٢]
 [الشعراء: ٨٢] حَتَّى رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَبْكِي مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ،
 فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمِينَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ يَا إِبْرَاهِيمُ:
 هَلْ رَأَيْتَ خَلِيلًا يُعَذِّبُ خَلِيلَهُ بِالنَّارِ؟ فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ إِذَا ذَكَرْتُ
 خَطِيئَتِي نَسِيتُ خُلَّتَهُ.

خبر موسى
 ثُمَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ ﷺ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا وَكْزَةٌ عَنْ حِدَّةٍ، فَكَمْ
 خَافَ، وَأَسْتَغْفَرَ وَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:
 ١٦].

خبر بلعم
 ابن باعوراء
 ثُمَّ فِي زَمَانِهِ بَلْعَمُ بْنُ بَاعُورَاءَ، كَانَ بِحَيْثُ إِذَا نَظَرَ يَرَى
 الْعَرْشَ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ
 مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مَالَ
 إِلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا مَبِينَةً وَاحِدَةً، وَتَرَكَ لَوْلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ حُرْمَةً وَاحِدَةً،
 تَسْلُبُهُ مَعْرِفَتَهُ، وَجَعَنَهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ الْمَطْرُودِ: فَقَالَ: ﴿فَشَلُّهُ كَمَا شَلَّ
 الْكَلْبُ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. فَوَقَعَهُ فِي بَحْرِ
 الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ إِلَى الْأَبَدِ. حَتَّى سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُمَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّهُ
 كَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ فِي مَجْلِسِهِ أَتَتْ عَشْرَ أَلْفِ مَحْبَرَةٍ
 لِلْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ عَنْهُ. ثُمَّ صَارَ بِحَيْثُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَّفَ

كِتَابًا أَنْ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعٌ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ،
وَفَطِيحِ خِذْلَانِهِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ.

فَانظُرْ حُبَّ الدُّنْيَا وَشُؤْمَهَا مَا تَجَلِبُّ لِلْعُلَمَاءِ خَاصَّةً. فَتَتَّبِعْهُ، فَإِنَّ
الْأَمْرَ خَطِيرٌ، وَالْعُمْرَ قَصِيرٌ، وَفِي الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ، وَالنَّاقِدَ بَصِيرٌ؛ فَإِنَّ
حَتَمَ بِالْخَيْرِ أَعْمَالَنَا، وَأَقَالْنَا عَثْرَاتِنَا، فَمَا ذَلِكَ عَلَيْهِ بِعَسِيرٍ.

خبر داود

ثُمَّ إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيفَتُهُ فِي أَرْضِهِ، أَذْنَبَ ذَنْبًا وَاحِدًا، فَبَكَى
عَلَى ذَلِكَ حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ فِي الْأَرْضِ مِنْ دُمُوعِهِ، وَقَالَ: إِلَهِي أَمَا
تَرْحَمُ بَكَائِي وَتَضْرَعِي؟ فَتُودِي: يَا دَاوُدُ نَسِيتَ ذَنْبَكَ، وَذَكَرْتَ
بِكَاءِكَ؟! وَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَقِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

ثُمَّ يُؤْنَسُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، غَضِبَ غَضَبَةً وَاحِدَةً فِي غَيْرِ
مَوْضِعِهَا، فَسَجَنَهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، تَحْتَ قَعْرِ الْبَحَارِ، أَرْبَعِينَ يَوْمًا
وَهُوَ يُنَادِي: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٨٧]
[الأنبياء: ٨٧]، وَسَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتَهُ، فَقَالُوا: إِلَهَنَا وَسَيِّدَنَا،
صَوْتُ مَعْرُوفٍ فِي مَوْضِعٍ مَجْهُولٍ، قَالَ تَعَالَى: ذَلِكَ عَبْدِي يُؤْنَسُ،
فَشَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ فِيهِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ اسْمِهِ، وَقَالَ: ﴿وَذَا
النُّونِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فَنَسَبَهُ إِلَى سِجْنِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَالنَّفَمَةُ الْحُوتُ
وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [١٤٢] فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُسِيحِينَ [١٤٣] لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْتُونَ [١٤٤] ﴿
[الصفات: ١٤٢ - ١٤٤] ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ وَمِنَّتَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿لَوْلَا / أَنْ
تَذَرِكُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَتَبْدَأَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]. فَانظُرْ إِلَى هَذِهِ
السِّيَاسَةِ نَبِيًّا الْمُسْكِينُ.

خبر سيدنا

وَكَذَلِكَ هَلُمَّ جَرًّا، إِنِّي سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ،
يَقُولُ: ﴿فَسَتَقِمُّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْعَمُوا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بَصِيرٌ ﴿١١٦﴾ [هود: ١١٢]، حَتَّى كَانَ يَقُولُ ﷺ: «شَيْئَنِي هُوَ وَأَخْوَاتُهَا»^(١) قِيلَ: عَنَى هَذِهِ آيَةُ وَأَشْكَالَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، إِلَى أَنْ مَنْ عَلَيْهِ بِالْغُفْرَانِ فَقَالَ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿١﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٢﴾﴾ [الم نشرح: ٢]، وَقَالَ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُصَلِّي اللَّيْلَ، حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَيَقُولُونَ: أَتَفْعَلُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(٢).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «لَوْ أَنِّي وَعَيْسَى أُخِذْنَا بِمَا كَسَبَتْ هَاتَانِ لَعَذَّبْنَا عَذَابًا لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ»^(٣). وَكَانَ يُصَلِّي اللَّيْلَ وَيَبْكِي وَيَقُولُ: «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ»^(٤).

(١) - ذكر السيوطي في الجامع الصغير (٥٠/٢) هذا الحديث مع زياداته فبلغت ثمانية أحاديث بروايات ومصادر عدة وقد حسنها جميعها (الأحاديث من رقم ٤٩١١ حتى رقم ٤٩١٨).

أما الحديث الذي نحن بصدده فقد رواه الطبراني في المعجم الكبير عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة. وأشار السيوطي إلى صحته. (راجع فيض القدير للمناوي ١٦٨/٤ - ١٦٩).

(٢) - رواه الإمام مسلم (٢١٧١: ٤) عن المغيرة بن شعبة (الحديث رقم ٢٨١٩).

- ورواه ابن جبان في صحيحه من رواية عبد الملك هكذا منه العراقي (إحياء) ٨١/٤.

(٣) انظر تخريج الحديث ص ٣٠٢ حاشية (١).

(٤) - رواه مسلم (٣٥٢/١) كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود =

ثُمَّ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ قَرْنٍ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ، خَيْرِ
 كَانَ يَبْدُو شَيْءٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمِزَاحِ، فَزَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد:
 ١٦]. الْآيَةِ، ثُمَّ وَضَعَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، مَعَ كَوْنِهَا مَرْحُومَةً، الْحُدُودَ
 وَالسِّيَاسَاتِ الْعَظِيمَةَ وَالْآدَابَ، حَتَّى كَانَ يُؤَسُّ بْنُ عُبَيْدٍ يَقُولُ: لَا
 تَأْمَنُ مَنْ قَطَعَ فِي خَمْسَةِ دَرَاهِمَ خَيْرَ عَضْوٍ مِنْكَ، أَنْ يَكُونَ غَدَاً عَذَابُهُ
 هَكَذَا.

نَسَأُلُ اللَّهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ الرَّحِيمَ، أَنْ لَا يُعَامِلَنَا إِلَّا بِمَحْضِ
 كَرَمِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.
 من جانب الرجاء:

وَأَمَّا جَانِبُ الرَّجَاءِ: فَحَدَّثَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ التَّوَسُّعِ وَلَا حَرَجَ،
 وَمَنْ الَّذِي يَعْرِفُ غَيْبَتَهُ أَوْ يُحْسِنُ وَصْفَهَا، فَإِنَّهُ يَمُتُّ كُنْفَرٍ سَبْعِينَ
 سَنَةً بِإِيمَانٍ سَاعَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ
 لَهُمْ مَا سَفَعُوا﴾

= (الحديث رقم ٤٨٦) بنظر: (لهم أعود برضاك من سخطك. وجمعدتك من
 عقوبتك...).

— كذلك رواه أبو دود في سننه (٥٤٧/١) كتب الصلاة، باب ندعاء في
 الركوع والسجود الحديث رقم (٨٧٩) عن عائشة بنظر مسلم.

— ورواه ابن ماجه في سننه (٣٧٣) كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في
 القنوت في الوتر الحديث رقم (١١٧٩) عن علي بن أبي طالب.

— ورواه ابن حنبل في مسنده (١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ١٥٨/٦، ٢٠١) وذكر دعاء
 رسول الله ﷺ في قنوت الوتر وفي دعاء السجود.

خبر سحرة لهم ما قد سلف ﴿ [الأنفال: ٣٨]. أما ترى في أمر سحرة فرعون فرعون الذين جاءوا لحربه، وحلفوا بعهدة عدوه، فقالوا: ﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ [الأعراف: ١٢١]، عن صدق القلوب، كيف قبلهم [٦٩/ب] وهب لهم جميع ما سلف؟ ثم كيف جعلهم رؤوس الشهداء في الجنة أبد الأبدين؟

فهذا مع من عرفه ووحده ساعة بعد ذلك الكفر والضلال والفساد، فكيف حال من أفنى في توحيد عمره، ولا يرى لذلك أهلاً في الدارين غيره؟ أما ترى أصحاب الكهف وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم، قاموا وقالوا: ﴿ ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونك إلهاً ﴾ [الكهف: ١٤]، والتجأوا إليه، كيف قبلهم، ثم أعزهم وأكرمهم، فقد: ﴿ وتبئهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ [الكهف: ١٨]، وكيف أعظم لهم الحرمة، والبسهم المهابة والخشية، حتى يقول لأكرم الخلق ﷺ: ﴿ نواطلقت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ [الكهف: ١٨]. بل كيف أكرم كلباً تبعهم حتى ذكره في كتابه العزيز مرات. ثم جعته معهم في الدنيا محبوباً. ويدخله في الآخرة الجنة مكرماً؛ فهذا فضله مع كلب خطأ خطوات مع قوم عرفوه ووحده أيام معدودة من غير عبادة أو خدمة، فكيف فضله مع عبده المؤمن، الذي خدمه ووحده وعبده سبعين سنة؟ ولو عاش سبعين ألف سنة كان قاصداً للعبودية.

أما سمعت كيف عاتب إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه على المجرمين بالهلاك؟ وكيف عاتب موسى عليه الصلاة والسلام في أمر قارون.

عتاب الله لبعض أنبيائه

فَقَالَ: أَسْتَغَاثَ بِكَ قَارُونُ فَلَمْ تُغِثْهُ؛ فَوَعَزَّتْ بِي لَوْ أَسْتَغَاثَ بِي لِأَغِثْتَهُ
وَعَفَوْتُ عَنْهُ.

وَكَيفَ عَاتَبَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ قَوْمِهِ: بِأَنَّكَ تَحْزَنُ
عَلَى شَجَرَةٍ يَقِطِينَ، أَنْبُثَهَا فِي سَاعَةٍ وَأَيْسُتُهَا فِي سَاعَةٍ، وَلَا تَحْزَنُ
عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ؟ ثُمَّ كَيْفَ قَبِلَ عُذْرَهُمْ، وَصَرَفَ عَذَابَهُ
الْعَظِيمَ عَنْهُمْ بَعْدَمَا أَضَلَّهُمْ.

ثُمَّ كَيْفَ عَاتَبَ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
أَجْمَعِينَ وَسَلَّم، فِيمَا رُوِيَ^(١) أَنَّهُ دَخَلَ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، فَرَأَى قَوْمًا
يَضْحَكُونَ، فَقَالَ: لِمَ تَضْحَكُونَ؟ لَا أَرَاكُمْ (تَضْحَكُونَ)^(٢)، حَتَّى إِذَا
كَانَ عِنْدَ الْحَجَرِ رَجَعَ إِلَيْهِمُ الْقَهْقَرَى فَقَالَ جَاءَنِي جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ: لِمَ تَقْتَطُ عِبَادِي مِنْ
رَحْمَتِي: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي نَزَّلْتُ الْغُفُورَ الرَّحِيمَ﴾ [الحجر: ٤٩] وَهَذَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ
بَوْلِدِهَا^(٣). وَفِي نَحْوِ نَشْهُورٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ

(١) - أخرجه أحمد بن حنبل من حديث أبي هريرة (٢، ٣١٢، ٤٣٢، ٤٥٣) ومن
حديث أنس (٣/١٨٠، ١٩٣، ٢١٠)، ومن حديث عائشة (٦/٨١، ١٦٤).

- وأخرجه ابن ماجه (٢/١٤٠٢) الحديث رقم ١٩٠ بزيادة من حديث أبي ذر.
- وقال العراقي: (جاء ٤ ١٤٥) متفق عليه من حديث أنس وقد أخرجه ابن
حبّان في صحيحه من حديث أبي هريرة. وقد العجلوني في كشف الخفاء:
(٢/٢٠٢) الحديث رقم ٢٠٩٦ متفق عليه عن أنس مرفوعاً. وعن أبي هريرة
وجماعة. ورواه الحاكم عن أبي ذر وزاد فيه.

(٢) ساقطة من الأصل مثبتة في باقي نسخ.

(٣) سبق ذكره وتخريجه ص ٢٩٣ حاشية (٣).

[٧٠/أ] رَحْمَةٍ: فَوَاحِدَةٌ مِنْهَا قَسَمَهَا بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحِمُونَ؛ وَأَدْخَرَ مِنْهَا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ لِنَفْسِهِ، لِيَرْحَمَ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).

وَإِذْ قَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ كُلَّ هَذِهِ الْعَطَايَا الْكَرِيمَةِ الْعَزِيزَةِ، مِنْ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْكَوْنِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ، ثُمَّ مَعْرِفَةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، إِلَى سَائِرِ مَا لَدَيْكَ مِنَ النَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَمَرْجُؤُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُتِمَّ ذَلِكَ، فَإِنَّ مَنْ بَدَأَ بِالْإِحْسَانِ فَعَلَيْهِ الْإِتْمَامُ، وَيَجْعَلُ لَكَ مِنْ تِسْعِ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً لَكَ الْحِظَّ الْوَافِرَ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يُخَيِّبَ آمَالَنَا مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ بِفَضْلِهِ، إِنَّهُ السَّيِّدُ الْكَرِيمُ، الْجَوَادُّ الرَّحِيمُ.

(١) — رواه مسلم (٢١٠٨/٤) كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، عن أبي هريرة وعن سلمان الفارسي بالفاظ متقاربة وبمعنى متشابه. الحديث رقم (٢٧٥٢) (٢٧٥٣).

— كذلك رواه ابن ماجه في سننه (١٤٣٥/٢) عن أبي هريرة وعن أبي سعيد (الحديث رقم ٤٢٩٣ و٤٢٩٤). وفي الزوائد: حديث أبي سعيد صحيح ورجاله ثقات.

— وقال العراقي (إحياء ١٥١/٤): متفق عليه من حديث أبي هريرة. — ورواه أيضاً الحاكم في مستدرکه (٥٦/١) كتاب الإيمان، قال: صحيح على شرط الشيخين.

الأصل الثالث في ذِكْرِ مَا وَعَدَ وَأُوعِدَ فِي الْمَعَادِ

فَلتَذْكُرْ فِي ذَلِكَ الْأَحْوَالِ الْأَرْبَعَةَ:

١ - الْمَوْتِ .

٢ - وَالْقَبْرِ .

٣ - وَالْقِيَامَةِ .

٤ - وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَمَا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْهَا مِنَ الْخَطَرِ لِلْمُطِيعِينَ، وَالْعَاصِينَ، وَالْمُقْصِرِينَ، وَالْمُجْتَهِدِينَ .

١ - أَمَّا الْمَوْتُ فَادْكُرْ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ شُبْرُومَةَ^(١) أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ

(١) الإمام العلامة، فقيه العراق، ابن شُبْرُومَةَ. قاضي الكوفة. حَدَّثَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ وَإِبْرَاهِيمِ النَّخَعِيِّ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَأَبِي زُرْعَةَ وَطَائِفَةَ. حَدَّثَ عَنْهُ: الثَّوْرِيُّ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَسَفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَخَلْقٌ سِوَاهُمْ، وَثِقَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَبُو حَاتِمِ الرَّازِيِّ وَغَيْرُهُمَا. وَكَانَ مِنْ أئِمَّةِ الْفُرُوعِ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَمَا هُوَ بِالْمَكْتَرِ.

الشَّعْبِيُّ^(١) عَلَى رَجُلٍ مَرِيضٍ نَعُوذُهُ وَهُوَ لِمَا بِهِ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ يَلْقَنُهُ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: أَرَفُقُ بِهِ، فَتَكَلَّمَ الْمَرِيضُ وَقَالَ: إِنْ
تُلْقَنِي أَوْ لَمْ تُلْقَنِي فَإِنِّي لَا أَدْعُهَا! ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى
وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
نَجَّى صَاحِبَنَا.

وَالْآخَرُ: مَا حُكِيَ أَنَّ تَلْمِيذًا لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، حَضَرَتْهُ
الْوَفَاةُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْفُضَيْلُ وَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَقَرَأَ سُورَةَ (يَس) فَقَالَ:
يَا أَسْتَاذُ لَا تَقْرَأْ، فَسَكَتَ؛ ثُمَّ لَقَّنَهُ فَقَالَ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
فَقَالَ: لَا أَقُولُهَا لِأَنِّي مِنْهَا بَرِيءٌ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَدَخَلَ الْفُضَيْلُ
مَنْزِلَهُ وَجَعَلَ يَبْكِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ رَأَهُ فِي النَّوْمِ
وَهُوَ يُسْحَبُ إِلَى جَهَنَّمَ، فَقَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ نَزَعَ اللَّهُ الْمَعْرِفَةَ مِنْكَ وَكُنْتَ
أَعْلَمَ تَلَامِيذَتِي؟ قَالَ: بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ:

أَوَّلُهَا: التَّمِيمَةُ، فَإِنِّي قُلْتُ لِأَصْحَابِي، بِخِلَافِ مَا قُلْتُ لَكَ.

أسباب
نزع
المعرفة بالله

= كان ابن شبرمة عفيفاً، صارماً، عاقلاً، خيراً، يشبه الشُّسَاك. وكان شاعراً،
كريماً، جواداً.

وعن ابن شبرمة قال: عجبت للناس يحتمون من الطعام مخافة الداء ولا يحتمون
من الذنوب مخافة النار. سير أعلام النبلاء ٣٤٧/٦.

(١) هو أبو عمرو عمر بن شراحيل، كوفي، تابعي جليل القدر وافر العلم قيل كان
مولده في إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها. ويذكر الذهبي أنه ولد
بعد سنة اثنتين وثلاثين. وقد حدث عن كبار الصحابة، وروى عنه كبار العلماء.
قال الواقدي: مات سنة خمس ومئة عن سبع وسبعين سنة. سير أعلام النبلاء
٢٩٤/٤.

وَالثَّانِي: الْحَسَدُ، حَسَدْتُ أَصْحَابِي.

وَالثَّلَاثُ: كَانَ بِي عِلَّةٌ فَجِئْتُ إِلَى الطَّيِّبِ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، قَالَ:
تَشْرَبُ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَدْحًا مِنْ خَمْرٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ تَبْقَى بِكَ الْعِلَّةُ؛
فَكُنْتُ أَشْرَبُهُ/، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ.

[٧٠/ب]

ثُمَّ أَذْكَرُ حَالَ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَا حُكِيَ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ لَمَّا أَحْتَضَرَ، نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَضَحِكَ وَقَالَ:

﴿ لِيُنَالِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصفات: ٦١]. وَسَمِعْتُ إِمَامَ رِوَايَةِ عَنِ
الْحَرَمِيِّينَ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي بَكْرٍ^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ: كَانَ لِي صَاحِبٌ أَيَّامَ التَّعْلِيمِ، وَكَانَ مُبْتَدَأًا كَثِيرَ الْجَهْدِ فِي
التَّعْلِيمِ، تَقِيًّا مُتَعَبِّدًا، وَكَانَ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَعَ ذَلِكَ الْاجْتِهَادِ إِلَّا
الْقَلِيلُ، وَكُنَّا نَتَعَجَّبُ مِنْ حَالِهِ؛ فَمَرِضَ فَلَزِمَ مَكَانَهُ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي
الرَّبَاطِ، وَلَمْ يَدْخُلْ بَيْتَ الْمَرَضِيِّ^(٣)، وَكَانَ يَجْتَهِدُ مَعَ مَرَضِهِ، فَأَشْتَدَّ
بِهِ الْحَالُ وَأَنَا بِجَنَبِهِ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ شَخَصَ بَبَصَرِهِ إِلَى
السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ لِي: يَا أَبْنَ فُورَكَ: (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)
وَتُوْفِّي عِنْدَ ذَلِكَ رَحْمَةً اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْآخَرُ، فَفَنَحُوْ مَا رُوِيَ عَنِ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ
دَخَلَ عَلَى جَارٍ لَهُ أَحْتَضَرَ، فَقَالَ لَهُ: يَا مَالِكُ: جَبَلَانِ مِنْ نَارٍ بَيْنَ
دِينَارِ مَالِكِ بْنِ

(١) إمام الحرمين: هو أبو نعماني عبد الملك الجويني، ابن الشيخ أبي محمد، من أصحاب الإمام الشافعي.

(٢) أبو بكر: هو محمد بن الحسن بن فورك.

(٣) بيت لمرضى: جناح يخص للمرضى من الطلبة، يُغَرَدُونَ فِيهِ لِلَاعْتِدَاءِ
وَالْمَعَانِجَةِ.

يَدِّيْ أَكَلْتُ الصُّعُوْدَ عَلَيْنِهِمَا، فَسَأَلْتُ أَهْلَهُ فَقَالُوا: كَانَ لَهُ مِكْيَالَانِ
يَكْبَلُ بِأَحَدِهِمَا وَيَكْتَالُ بِالْآخَرَ، فَدَعَوْتُ بِهِمَا، فَضَرَبْتُ أَحَدَهُمَا
بِالْآخِرِ حَتَّى كَسَرْتُهُمَا، ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّجُلَ فَقَالَ: مَا يَزِدَادُ الْأَمْرَ عَلَيَّ
عَظْمًا.

٢ - وَأَمَّا الْقَبْرُ وَالْحَالُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَأَذْكَرُ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ:

رواية عن
سفيان
الثوري
أَحَدُهُمَا: مَا ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ: رَأَيْتُ سُفْيَانَ
الثَّوْرِيَّ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟
فَأَعْرَضَ عَنِّي وَقَالَ: لَيْسَ هَذَا زَمَانَ الْكُنَى! فَقُلْتُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا
سُفْيَانُ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ: [الطويل]:

نَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عَيَانًا فَقَالَ لِي هَنِيشاً رِضَائِي عَنْكَ يَا ابْنَ سَعِيدِ
لَقَدْ كُنْتُ قَوَامًا إِذَا اللَّيْلُ قَدْ دَجَا بَعْبِرَةَ مُشْتَقٍ وَقَلْبٍ عَمِيدِ
فَدُونِكَ فَأَخْتَرَ أَيَّ قَضِرٍ تُرِيدُهُ وَرُزْنِي فَإِنِّي عَنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

وَالرَّجُلُ الثَّانِي: مَا ذَكَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ رُوِيَ فِي النَّوْمِ شَاحِبَ
اللَّوْنِ، مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَأَنْشَدَ
يَقُولُ: [المتقارب]:

[٧١/أ] تَوَلَّى زَمَانَ لِعَيْنَابِهِ وَهَذَا زَمَانٌ بِنَايَلَعَبُ/

رواية عن
عمر بن
عبد العزيز
وَحَالَ آخَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ:
كَانَ لِي ابْنٌ أَسْتَشْهِدُ، فَلَمَّ أَرَهُ فِي الْمَنَامِ إِلَى لَيْلَةٍ تُوفِّي عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ الْعَزِيزِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذْ تَرَأَى لِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقُلْتُ: يَا

(١) هو الخليفة الأموي، والإمام العادل، أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. أجمعوا على جلالته وعلمه وصلاحه وزهده وورعه وعدله، وقد اعتُبر =

بُنِيَ أَلَمْ تَكُ مَيَّنًا؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْتَشْهِدُ، وَأَنَا حَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَرْزُقُ، فَقُلْتُ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: نُودِيَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: أَلَا لَا يَبْقَى نَبِيٌّ وَلَا صَدِيقٌ وَلَا شَهِيدٌ إِلَّا وَحَضَرَ الصَّلَاةَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَجِئْتُ لِأَشْهَدَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ جِئْتُكُمْ لِأَسَلِّمْ عَلَيْكُمْ.

وأما الآخرُ: نحو ما روي عن هشام بن حسان^(١) أنه قال: مات لي ابنٌ حدثٌ، فرأيتُهُ في المنام، فإذا هو أشيبٌ، فقلتُ: يَا بُنَيَّ مَا هَذَا الشَّيْبُ؟ فَقَالَ: لَمَّا قَدِمَ عَلَيْنَا فُلَانٌ، زَفَرَتْ جَهَنَّمَ لِقُدُومِهِ زَفْرَةً لَمْ يَبْقَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا شَابَ. نَعُودُ بِاللَّهِ الرَّحِيمِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

٣ - وَأَمَّا الْقِيَامَةُ، فَتَأْمَلُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا ﴿٨٦﴾ [مريم: ٨٦].

فَوَاحِدٌ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ. فَإِذَا الْبُرَاقُ عَلَى رَأْسِ الْقَبْرِ وَالنَّاجُ وَالْحُلَلُ، فَيَلْبَسُ وَيَرْكَبُ إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ، لَا يُخَلَّى مِنْ عِزَّةٍ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى الْجَنَّةِ بِرَجَبِيهِ.

= أحد الخلفاء الراشدين. ومنقبه كثيرة. قد ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩. وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر. سير أعلام النبلاء ١١٤/٥.

(١) قال أبو نعيم في الحبية (٦ ٢٦٩): المترقب ذو الأحزان المتبقيظ ذو الأشجان، هشام بن حسان، لزم أستاذه الحسن بن أبي الحسن عشر سنين. وكان يحدث فيكي وتجري الدموع على نحته. وقد أدرك الأئمة الأعلام، واقتبس عنهم الأنضية والأحكام. سمع محمد بن سيرين وقاتدة وعكرمة وهشام بن عروة وحديث عنهم. مات سنة ثمان وأربعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٣٥٥/٦.

وَأَخْرُ يُخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ، فَإِذَا الزَّبَانِيَةُ وَالْأَنْكَالُ، لَا يُخْلَوْنَ الشَّقِيَّ
 أَنْ يَمْشِيَ إِلَى النَّارِ بِرِجْلَيْهِ، بَلْ يُسْحَبُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ عَلَى
 وَجْهِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَرْوِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (١):
 «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرَجُ قَوْمٌ مِنْ قُبُورِهِمْ لَهُمْ نُجُبٌ يَرْكَبُونَهَا، لَهَا
 أَجْنَحَةٌ خُضْرٌ، فَتَطِيرُ بِهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، حَتَّى إِذَا اتَّوَا عَلَى
 حِيطَانِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا رَأَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟
 فَيَقُولُونَ: مَا نَدْرِي، لَعَلَّهُمْ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتِيهِمْ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ
 فَيَقُولُونَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمِنْ أَيِّ الْأُمَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ مِنْ أُمَّةِ
 مُحَمَّدٍ ﷺ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: هَلْ حُوسِبْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُونَ:
 هَلْ وُزِنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُونَ: هَلْ قَرَأْتُمْ كُتُبَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا،
 فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: أَرْجِعُوا فِكْرَ ذَنْبِ وَرَاءِكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَلْ أَعْصَيْتُمُونَا
 شَيْئاً فَتَحَاسَبَ عَلَيْهِ؟. وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: مَا مَلَكْنَا شَيْئاً فَفَعَدْنَا وَلَا
 نَجُورُ/، وَلَكِنْ عَبْدٌ رَبُّهُ حَتَّى دَعَانَا فَأَجَبْنَاهُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: صَدَقَ
 عَبْدِي، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا تَسْمَعُ
 قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يُنْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيءَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:
 ٤٠].

فَأَعْظَمُ بِرِجْلٍ يُشَاهِدُ تِلْكَ الْأَهْوَالَ وَالزَّلَازِلَ وَتَوَقَّعَ، وَهُوَ
 آمِنٌ لَا يَدْخُلُ قَلْبُهُ فَزَعٌ، وَلَا يَكُونُ عَلَى قَلْبِهِ ثِقَلٌ. نَسَأُ اللَّهُ تَعَالَى

(١) لم أجده أصلاً.

أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَوْلِيكَ السُّعْدَاءِ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

٤ - وَأَمَّا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَتَأَمَّلْ بِهِمَا آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى:
إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٦٦) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ
سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿٦٧﴾ [الإنسان: ٢١]. وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ آخِرِينَ:
﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (٦٨) قَالَ أَخْسَتْوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿٦٩﴾
[المؤمنون: ١٠٨].

وَرُوي أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ عِنْدَ ذَلِكَ كِلَابًا يَتَعَاوَنَ فِي النَّارِ. نَعُوذُ
بِاللَّهِ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ يَحْيَى بْنُ
مُعَاذٍ: لَا نَدْرِي أَيُّ الْمُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ: فَوْتُ الْجَنَانِ، أَمْ دُخُولُ النَّارِ؟
أَمَّا الْجَنَّةُ: فَلَا صَبْرَ عَلَيْهَا، وَأَمَّا النَّارُ: فَلَا صَبْرَ عَلَيْهَا؛ وَعَلَى كُلِّ
حَالٍ فَوْتُ التَّعِيمِ أَيْسَرُ مِنْ مُقَاسَاةِ الْجَحِيمِ.

ثُمَّ الطَّامَةُ الْكُبْرَى وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى هِيَ الْخُلُودُ، إِذْ لَوْ كَانَ
الْأَمْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ (١) مُنْقَطِعًا لَكَانَ الْأَمْرُ هَيْئًا؛ وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِي أَمَدٍ
بِلَا آخِرٍ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ! وَأَيُّ نَفْسٍ تَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ؟
وَلِذَلِكَ قَالَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ذِكْرُ الْخَالِدِينَ، يَقَطُّعُ قُلُوبَ
الْخَائِفِينَ».

وَذَكَرَ عِنْدَ الْحَسَنِ (٢) أَنَّ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ آخِرُ مَنْ
هَذَا، عُدْبُ أَلْفِ عَامٍ، يُنَادِي يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ، فَبَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ: يَخْرُجُ مِنَ
النَّارِ

(١) فِي الْأَصْلِ: إِذْ لَوْ كَانَ عَلَى حَالٍ، وَالتَّصْوِيبُ مِنْ بَاقِي النُّسخِ.

(٢) أَيُّ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ هَنَادًا، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ، فَقَالَ: وَيَحْكُمُ، أَلَيْسَ يَوْمًا
يَخْرُجُ؟

قُلْتُ: يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِذَنْ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهِيَ التُّكْتَةُ الَّتِي
تَقْصِمُ الظُّهُورَ، وَتُصَفِّرُ الْوُجُوهُ، وَتَقْطَعُ الْقُلُوبَ، وَتُذِيبُ الْأَكْبَادَ،
وَتَدْمِي الْعُيُونَ مِنَ الْعُبَادِ، وَهِيَ خَوْفُ نَزْعِ الْمَعْرِفَةِ، فَهَذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي
يَنْتَهِي إِلَيْهَا خَوْفُ الْخَائِفِينَ، وَتَبْكِي عَلَيْهَا أَعْيُنُ الْبَاكِينَ.

خوف
نزع
المعرفة

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ النُّمُومَ ثَلَاثَةٌ: غَمُّ الطَّاعَةِ أَنْ لَا تُقْبَلَ،
وَوَغْمُ الْمَعْصِيَةِ أَنْ لَا تُغْفَرَ، وَوَغْمُ الْمَعْرِفَةِ أَنْ تُسَلَّبَ، وَقَالَ
الْمُخْلِصُونَ: بَلِ الْغَمُّ كُلُّهُ وَاحِدٌ بِالْحَقِيقَةِ، وَهُوَ غَمُّ الْمَعْرِفَةِ، وَكُلُّ
غَمٍّ دُونَهُ جَلَلٌ إِذْ لَهُ أَنْقِضَاءٌ.

وَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ يَوْسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ رَحِمَهُ اللَّهُ/ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ
عَلَى سُفْيَانَ فَبَكَى لِنَبِيِّهِ أَجْمَعٍ، فَقُلْتُ: بِكَأُوكَ هَذَا عَلَى الدُّنُوبِ؟
قَالَ: فَحَمَلْتُ تَبْنًا وَقَالَ: الدُّنُوبُ عَلَى اللَّهِ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، إِنَّمَا أَخْشَى
أَنْ يَسْلُبَنِي اللَّهُ الْإِسْلَامَ. نَسَأْتُ اللَّهَ رَبَّنَا الْمَتَّانَ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يَتَّبِلِينَا
بِمُصِيبَةٍ، وَأَنْ يُتِمَّ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ كَبِيرَ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يَتَّوَفَّانَا عَلَى مِلَّةِ
الْإِسْلَامِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَبَبَ سُوءِ الْخَاتِمَةِ وَمَعْنَاهَا
فِي كِتَابِ: «أَحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» فَتَأَمَّلْهُ هُنَاكَ، فَإِنَّ الْخَوْضَ فِيهِ هَهُنَا
خُرُوجٌ إِلَى الْإِكْتَارِ، فَتَمَلَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ، فَإِنَّ التَّفْصِيلَ أَكْثَرُ فِي أَنْ
يَأْتِيَ عَلَيْهِ الْوَهْمُ وَالذِّكْرُ لَعَلَّكَ تُفْسِحُ بِعَوْنِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ.

[٧٧/أ]

بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؟
فَإِنْ قُلْتُ: فَأَيُّ الطَّرِيقَيْنِ أَسْلَكُ: طَرِيقَ الْخَوْفِ، أَمْ طَرِيقَ
الرَّجَاءِ؟

يُقَالُ لَكَ: بَلِ الْمُرْكَبِ بَيْنَهُمَا، فَلَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ صَارَ مُرْجِيًّا^(١) بِهِ، رَبِّمَا يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَصِيرَ خُرْمِيًّا^(٢)، وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ صَارَ حُرُورِيًّا^(٣)؛ وَالْمُرَادُ أَنْ لَا يَنْفَرِدَ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ؛ فَإِنَّ بِالْحَقِيقَةِ الرَّجَاءَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَنْفَكُ عَنِ الْخَوْفِ الْحَقِيقِيِّ، وَالْخَوْفُ الْحَقِيقِيُّ، لَا يَنْفَكُ عَنِ الرَّجَاءِ الْحَقِيقِيِّ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: الرَّجَاءُ كُلُّهُ لِأَهْلِ الْخَوْفِ إِلَّا الْأَمْنَ، وَالْخَوْفُ كُلُّهُ لِأَهْلِ الرَّجَاءِ إِلَّا الْيَأْسَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا أَرْجَحَ وَأَكْثَرَ ذِكْرًا بِحَالٍ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ صَاحِبًا قَوِيًّا، فَالْخَوْفُ أَوْلَى بِهِ؛ وَإِنْ مَرِيضٌ وَضَعْفٌ، لَا سِيَّمَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْآخِرَةِ، فَالرَّجَاءُ أَوْلَى؛ كَذَا سَمِعْتُ الْعُلَمَاءَ يَقُولُونَ.

قُلْتُ: وَذَلِكَ لِمَا رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي»^(٤). فَيَصِيرُ رَجَاؤُهُ أَوْلَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِانْكِسَارِ

(١) المرجئة: هم جماعة يرجئون لعمل عن النية، أي يؤخرون في الرتبة عنها. وكانوا يقولون: لا يضر مع إيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهم يعطون الرجاء. وقيل: هم ضنفة يرجئون الأعمد أي يؤخرونها، فلا يرتبون عليها ثواباً ولا عقاباً. بل يقولون: المؤمن يستحق الجنة بالإيمان دون بقية الطاعات، والكافر يستحق النار بالكفر، دون بقية المعاصي. (راجع الملل والنحل للشهرستاني).

(٢) الخُرْمِيَّة: أصحاب بابك نخومي. (راجع: الملل والنحل للشهرستاني).

(٣) الحورورية: فرقة من الخوارج، منسوبة إلى حوراء، قرية قرب تكوفة، لجأ إليها الخوارج بعد التحكيم في معركة صفين. (راجع: الملل والنحل للشهرستاني).

(٤) — ذكره السخاوي في المقصد (ص ٩٦ حديث رقم ١٨٨) بلفظ: (أنا عند

=

المنكسرة قلوبهم من أجي).

قَلْبِهِ، وَخَوْفِهِ الْمُتَقَدِّمَ زَمَانَ الصَّحَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالْإِمْكَانِ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿الْأَتَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قَدْ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ الْكَثِيرَةُ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ؟

حَسَنُ
الظَّنُّ بِاللَّهِ
بين الرجاء والأُمْنِيَّةِ، أَنْ الرَّجَاءَ يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ، وَالتَّمَنِّيَ لَا يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ؛ مِثَالُهُ: مَنْ زَرَعَ وَاجْتَهَدَ وَجَمَعَ بَيِّدَرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِنْهُ مِائَةٌ قَفِيزٍ، فَذِنْتَ مِنْهُ رَجَاءً؛ وَآخَرُ لَا يَزْرَعُ زَرْعًا، وَلَا يَعْمَلُ يَوْمًا، فَذَهَبَ وَدَمَ وَأَغْفَلَ سَنَّتَهُ، فَإِذَا جَاءَ وَقَتُ الْبَيَادِرِ يَقُولُ: أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِنْهُ قَفِيزٍ: فَتَقُولُ لَهُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الرَّجَاءُ؟ وَإِنَّمَا ذَلِكَ أُمْنِيَّةٌ بِلَا أَصْلٍ. فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْتَهَى عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، يَقُولُ: أَرْجُو أَنْ يَتَقَبَّلَ اللَّهُ هَذَا الْيَسِيرَ. وَبِمِثْلِ هَذَا التَّقْصِيرِ، وَيُعْظَمُ الثَّوَابُ، وَيَعْنَوُ عَنِ الرَّئِيلِ، وَأَحْسَنَ الظَّنِّ. فَهَذَا مِنْ رَجَاءٍ.

فَأَمَّا إِذَا غَفَلَ وَتَرَكَ النُّضَعَاتِ، وَأَرْتَكَبَ الْمَعَاصِيَ. وَتَمَّ يُبَالِ بِسَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا رِضَاهُ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، ثُمَّ أَخَذَ يَرْجُو مِنَ اللَّهِ

= - وكذا ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٢٣٤)، حديث رقم (٦١٤) ونقل قول نقاري: (ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام له يسع الغاية). قلت. وتممه: (وأنا عند المدرسة قلوبهم لأجلي) ولا أصل لهم في المرفوع.

الْجَنَّةَ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَذَلِكَ مِنْهُ أُمْنِيَّةٌ لَا حَاصِلَ تَحْتَهَا، سَمَّاهَا رَجَاءً وَحُسْنَ ظَنٍّ، وَذَلِكَ خَطَأً وَضَلَالًا. وَقَدْ نَظَّمَ الْمَعْنَى الْقَائِلُ^(١):

[البسيط]:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبْسِ

قُلْتُ: وَمِمَّا يَبِينُ هَذَا الْأَصْلَ مَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمَانِيَّ»^(٢) وَفِي ذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: إِنَّ أَقْوَامًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيَّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ حَسَنَةٌ، يَقُولُ: إِنِّي أَحْسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّي، وَكَذَبَ، لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ؛ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] الْآيَةَ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ

(١) يروى هذا البيت لعبد بن المبارك (كما في سراج الطالبين ٢/٣٤٤) وقيل:

مَا بَالُ دِينِكَ تَرْضَى أَنْ تُدْتَسَّهُ وَثَوْبُكَ الدَّهْرَ مَغْسُولٌ مِنَ السُّدْنَسِ
وقد سقط هذا البيت من لأصل ورد في (د) و(ه).

(٢) — رواه ابن حنبل (٤/١٢٤) عن شداد بن أوس.

وراه أيضاً ابن ماجه (٢/١٤٢٣) كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له (الحديث رقم ٤٢٦٠).

— ورواه كذلك الحاكم في مستدرکه (١/٥٧) كتاب الإيمان. وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري. وله يخرجاه. وعلق الذهبي على أحد رواة هذا الحديث وهو أبو بكر بن أبي مريم فقال: أبو بكر واه، أي ضعيف. وقال ابن ظاهر: مدار الحديث عليه أي على أبي بكر — وهو ضعيف جداً (فيض القدير ٥/٦٨).

ويلاحظ أن الغزالي أضاف إلى هذا الحديث لفظه الأخير فنكّل توقف عند عبارة: وتمنى على الله. ويلاحظ أيضاً أن الغزالي أورد هذا الحديث في الإحياء (٢/٣٣١) =

فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿١٣﴾ [فصلت: ٢٣] وَعَنْ جَعْفَرِ الضُّبَيْعِيِّ ^(١) قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا مَيْسِرَةَ الْعَابِدَ ^(٢) وَقَدْ بَدَتْ أَضْلَاعُهُ مِنَ الْإِجْتِهَادِ، قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ؛ فَغَضِبَ وَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ مَا يَدُلُّ عَلَى الْقُنُوطِ؟ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؛ قَالَ جَعْفَرٌ فَأَبْكَانِي قَوْلُهُ.

فَإِذَا كَانَ الرُّسُلُ وَالْأَبْدَالُ وَالْأَوْلِيَاءُ، مَعَ كُلِّ هَذَا الْإِجْتِهَادِ فِي الطَّاعَةِ، وَالْحَذَرِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَايُسُّ تَقُولُ؟ أَمَا كَانَ لَهُمْ حُسْنُ ظَنٍّ بِاللَّهِ؟ بَلَى، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِسِعَةِ رَحْمَتِهِ وَأَحْسَنَ ظَنًّا بِجُودِهِ مِنْهُ، وَلَكِنْ عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ دُونَ الْإِجْتِهَادِ أُمْنِيَّةٌ وَعُرُورٌ. فَاعْتَبِرْ بِهَذِهِ النَّكْتَةِ، وَتَأَمَّلْ حَالَهُمْ، وَأَنْتَبِهْ مِنْ رَفْدَتِكَ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

= ٣٧٩، ٦٨/٤، ٣٩٦) وفي كل هذه المرات توقف عند عبارة: وتمنى على الله، لكنه استبدل لفظه (الأحمق) بنقطة (العاجز).

— وذكره السيوطي في الجامع الصغير وصححه (الحديث رقم ٦٤٦٨).

(١) جعفر بن سليمان الضُّبَيْعِي (والضُّبَيْعِي كما في الحلية) الشيخ العالم الزاهد، محدث الشيعة، أبو سليمان الضُّبَيْعِي البصري. كان ينزل في بني ضُبَيْعَةَ فُنُسَ إِلَيْهِمْ. صحب العباد ونقل عنهم وعن زهاد، صحب مالك بن دينار وفرقداً السخبي وغيرهما. وقد روى عن مالك أقوالاً عدة، فقد اختلف إليه عشر سنين يأخذ عنه ويصلي معه صلاة الليل. كان ثقة. سير أعلام النبلاء ١٧٦/٨.

(٢) لم نعر على ترجمته. ولعل أبا ميسرة العابد هذا من رجال أوائل القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني للهجرة.

فصل

خلاصة العقبة الخامسة، عقبة البواعث

كرامات

الأولياء

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا تَذَكَّرْتَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ
وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ إِنَّ كُنْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ / الْكَرِيمَةِ [أ/٧٣]
عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ غَايَةٌ (١) فَضْلِهِ الْكَرِيمِ، وَكَمَالَ جُودِهِ الْقَدِيمِ،
وَجَعَلَ (٢) عُنْوَانَ كِتَابِهِ إِلَيْكَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثُمَّ كَثْرَةُ
أَيَادِيهِ إِلَيْكَ وَنِعْمَتُهُ ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ، مِنْ غَيْرِ شَفِيعٍ أَوْ قَدَمٍ سَابِقَةٍ لَكَ؛
وَتَذَكَّرْتَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، كَمَالَ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَعَظَمَ سُلْطَانَهُ
وَهَيْبَتَهُ؛ ثُمَّ شِدَّةَ غَضَبِهِ الَّذِي لَا تَقُومُ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؛ ثُمَّ غَايَةَ
غَفْلَتِكَ وَكَثْرَةَ ذُنُوبِكَ وَجَفْوَتِكَ، مَعَ دِقَّةِ أَمْرِهِ وَخَطَرِ مُعَامَلَتِهِ، فِي
إِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ بِالْغُيُوبِ وَالْغُيُوبِ؛ ثُمَّ حُسْنَ وَعَدِهِ وَنَوَابِهِ؛ الَّذِي
لَا يَبْلُغُ كُنْهَهُ الْأَوْهَامُ، وَشِدَّةَ وَعِيدِهِ وَالْأَلِيمَ عِقَابِهِ، الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ
ذِكْرَهُ الْقُلُوبُ، تَارَةً تَنْظُرُ إِلَى فَضْلِهِ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى عَذَابِهِ، وَتَارَةً
تَنْظُرُ إِلَى رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِكَ فِي جَفَوَاتِهَا
وَجَنَائِبَاتِهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ يُودِي بِكَ جَمِيعَ ذَلِكَ إِلَى الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ،

(١) أي ثم تذكرت غاية فضله تكريماً .

(٢) أي وإنه جعل الآية الأولى في القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم .

وَكُنْتَ قَدْ سَلَكْتَ السَّبِيلَ الشَّارِعَ الْقَصْدَ^(١)، وَعَدَلْتَ عَنِ الْجَانِبَيْنِ
 الْمُهْلِكَيْنِ: الْأَمْنِ وَالْيَأْسِ؛ وَلَا تَتَّبِعْ فِيهِمَا مَعَ التَّائِبِينَ، وَلَا تَهْلِكْ مَعَ
 الْهَالِكِينَ؛ وَشَرِبْتَ الشَّرَابَ الْمَمْزُوجَ الْعَدْلَ، فَلَا تَهْلِكْ بِرُودَةِ الرَّجَاءِ
 الصَّرْفِ، وَلَا بِحَرَارَةِ الْخَوْفِ الصَّرْفِ؛ فَكَأَنِّي بِكَ وَقَدْ وَصَلْتَ إِلَى
 الْمَقْصُودِ غَانِمًا، وَشُفِيتَ مِنَ الْعَلْتَيْنِ سَالِمًا، وَوَجَدْتَ النَّفْسَ قَدْ
 أُبْعِثَتْ لِلطَّاعَةِ، وَدَانَتْ فِي الْخِدْمَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْ غَيْرِ فِتْرَةٍ وَلَا
 عَقْلَةٍ، وَاجْتَنَبْتَ الْمَخَازِي وَالْمَعَاصِيَ وَهَجَرْتَهَا بِمَرَّةٍ، كَمَا قَالَ
 نُوْفٌ^(٢): «إِنَّ نَوْفًا إِذَا ذَكَرَ الْجَنَّةَ طَالَ شَوْقُهُ، وَإِذَا ذَكَرَ النَّارَ طَارَ
 نَوْمُهُ». وَصِرْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الْأَصْفِيَاءِ الْخَوَاصِّ الْعَابِدِينَ، الَّذِينَ
 وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِأَلْحَابِ
 وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وَكُنْتَ
 قَدْ خَلَقْتَ هَذِهِ الْعَقَبَةَ الْخَضِيرَةَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، فَكَمْ
 لَكَ مِنْ حَلَاوَةٍ وَصَفْوَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَكَمْ لَكَ مِنْ ذُخْرِ كَرِيمٍ وَأَجْرِ
 عَظِيمٍ فِي الْعُقْبَى، وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَسْئُولٌ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّاَنَا بِحُسْنِ
 تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَلَا حَوْلَ/ [٧٣/ب]
 وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

(١) السبيل الشارِع القصد: أي نظير لأعظم الوسط. راجع سورة النحل الآية ٩.

(٢) أي نوف البكالي:

وهو نوف بن أبي فضالة يكنى (بنكسر والتخفيف ولام، نسبة إلى بك ككتاب،
 بطن من حمير) وهو امرؤ غلب في المحاسبة والمعالي. كان نكيب قارياً، وإلى
 المحامد داعياً، وعن المحاذر ناهياً. تابعي، شامي، كان إمام أهل دمشق في
 عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في الصحيحين مات في الغزو شهيداً بعد
 التسعين (نحو ٩٥ هـ)، وكان راوياً لنقصص. وهو ابن زوجة كعب الأحمار.
 حلية الأولياء ٤٨/٦. تهذيب التهذيب ٤٩٠/١٠.

العقبة السادسة وهي عقبة القوادح القادح الأول: عدم الإخلاص لله تعالى

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي أَيَّدَكَ اللَّهُ وَإِيَانًا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، بَعْدَ مَا أَسْتَبَانَ
لَكَ السَّبِيلُ، وَأَسْتَقَامَ لَكَ الْمَسِيرُ، بِتَمْيِيزِ سَعِيكَ وَصِيَانَتِهِ عَمَّا يُفْسِدُهُ
وَيُضَيِّعُهُ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا (لَزِمَكَ) ^(١) ذَلِكَ بِإِقَامَةِ الْإِخْلَاصِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ،
وَالاجْتِنَابِ عَنْ ضِدِّهِ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِمَا فِي فِعْلِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ، وَهُوَ حُسْنُ الْقَبُولِ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى وَفَوْزُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ.

فائدة
الإخلاص

(والثاني: لما في تركه من عقوبة وخطر) ^(٢) فَتَكُونُ مَرْدُودًا
ذَاهَبَ الثَّوَابِ، كُلًّا أَوْ بَعْضًا، عَلَى مَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «أَنَا أَغْنِي الْأَغْنِيَاءَ عَنِ الشَّرِكِ،
مَنْ عَمَلَ عَمَلًا فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَنَصَبِي لَهُ، فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ
خَالِصًا» ^(٣).

(١) لفظة ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

(٢) زيادة من المحقق يقتضيها حسن ترتيب الكلام.

(٣) — رواه مسلم (٢٢٨٩/٤) كتاب الزهد والرقائق: باب من أشرك في عمله غير الله؛ عن
أبي هريرة (الحديث رقم ٢٩٨٦).

وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِعَبْدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا التَّمَسَّ ثَوَابَ عَمَلِهِ: «أَلَمْ يُوسِّعْ لَكَ فِي الْمَجَالِسِ؟ أَلَمْ تَكُنْ الرَّئِيسَ فِي الدُّنْيَا؟ أَلَمْ يَرْخُصْ بِبَيْعِكَ وَشِرَاؤِكَ؟ أَلَمْ تُكْرَمْ؟» (١) هَذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنَ الْخَطَرِ وَالضَّرَرِ.

قُلْتُ: وَمِنْ خَطَرِ الرِّيَاءِ فَضِيحَتَانِ وَمُصِيبَتَانِ:

أَمَّا الْفَضِيحَتَانِ: فَأِحْدَاهُمَا فَضِيحَةُ السَّرِّ، وَهِيَ اللَّوْمُ عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ لِمَا رُوِيَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُجْتَهِدِينَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «رُدُّوهُ إِلَيَّ سَجِينًا، فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي

خطر
الرياء
فضيحتان

= — ورواه ابن ماجه في سننه (١٤٠٥/٢) كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة بروايتين (الحديث رقم ٤٢٠٢ والحديث رقم ٤٢٠٣).

— وروى هذا الحديث بن حنبل في مسنده (٣٠١/٢) (٤٣٥) عن أبي هريرة بلفظ: (قال الله عز وجل: أن خير شركاء، من عمل لي عملاً فأشرك فيه غيري أنا منه بريء، وهو للذي أشرك).

— وذكره السيوطي في نجمع الصغير (الحديث رقم ١٩٣١) وحسنه.

— وعلق المتناوي في فيض القدير على هذا الحديث (٣١١/٢) بقول الهيثمي: فيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره، وضعفه غير واحد، وبقيه رجاله ثقات.

(١) — مأخوذ من حديث روى أبو هريرة عن رؤية العبد يوم القيامة ربّه حيث يقول الله تعالى له: (... أَلَمْ أَكْرَمَكَ وَأَسْوَدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ. وَأَذَرَكَ تَرَاسًا وَتَرْبَعًا؟...).

— رواه مسلم في صحيحه (راجع الأحاديث القدسية ص ٤١٨).

— وأخرج الترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري مختصراً برواية مسلم. وقال الترمذي: حديث صحيح غريب. (الأحاديث القدسية ص ٤٢٠).

— ورواه البيهقي أيضاً في البعث كما ذكر الكديري في سراج الضالين (٣٥٣/٢).

بِهِ»^(١)، فَيَفْتَضِحُ ذَلِكَ الْعَمَلُ وَالْعَبْدُ.

وَالثَّانِيَةُ: فَصِيحَةُ الْعَلَانِيَةِ، وَهِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ
الْخَلَائِقِ.

رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الْمُرَائِيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَادِي بِأَرْبَعَةِ
أَسْمَاءٍ: يَا كَافِرُ، يَا فَاجِرُ، يَا غَادِرُ، يَا خَاسِرُ، ضَلَّ سَعْيُكَ، وَبَطَلَ
أَجْرُكَ، فَلَا خَلَاقَ لَكَ، الْيَوْمَ أَلْتَمِسُ الْأَجْرَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا
مُخَادِعُ»^(٢) وَرُويَ أَنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْمَعُ الْخَلَائِقَ: «أَيْنَ
الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ النَّاسَ؟ خُذُوا أَجُورَكُمْ مِمَّنْ كُنْتُمْ عَمِلْتُمْ لَهُ، فَإِنِّي
لَا أَقْبَلُ عَمَلًا خَالَطَهُ شَيْءٌ»^(٣).

وَأَمَّا الْمُصِيبَتَانِ فَأِحْدَاهُمَا: فَوَاتُ الْجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ مَا رُويَ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ تَكَلَّمَتْ وَقَالَتْ: أَنَا حَرَامٌ عَلَى كُلِّ بَخِيلٍ
وَمُرَاءٍ»^(٤) وَالْخَبْرُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

(١) — قال العراقي (إحياء ٣/٢٩٤): أخرجه ابن المبارك في الزهد، ومن طريقه ابن أبي
الدنيا في الإخلاص. وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلًا،
ورواه ابن الجوزي في الموضوعات. .
ورواية الإحياء: إن لله تعالى يقول للملائكة: إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في
سجين .

(٢) — قال العراقي (إحياء ٣/٢٩٤): أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة النحاصي عن
صحابي لم يسم، وزاد (يا كافر يا خاسر) ولم يقل (يا مرائي) وإسناده ضعيف .

(٣) — روى ابن ماجه في سننه (١٤٠٦/٢) كتاب الزهد، باب نريد والسمعة قول
رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله لأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد:
ما كان أشرك في عمل له الله، فيطلب ثوابه من عند غير الله، فإني أغني الشركاء عن
الشرك» (الحديث رقم ٤٢٠٣) راجع الحديث وتخريجه ص ٣٣٥ حاشية (٣).

(٤) لم أجد له أصلًا.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذَا الْبَخِيلَ مَنْ يَبْخُلُ بِأَقْبَحِ بَخْلٍ، وَهُوَ قَوْلُ: [١/٧٤] لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؛ وَهَذَا الْمُرَائِي مَنْ يُرَائِي بِأَقْبَحِ رِيَاءٍ، وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يُرَائِي بِإِيمَانِهِ وَتَوْحِيدِهِ. وَفِي هَذَا الْقَوْلِ تَرْجِيَةٌ.

وَالثَّانِي: مَنْ لَمْ يَنْتَهَ عَنِ الْبُخْلِ وَالرِّيَاءِ، وَلَمْ يُرَاعِ نَفْسَهُ، فَفِيهِ خَطْرَانِ: (أحدهما أن) ^(١) يَلْحَقَهُ سُؤْمٌ ذَلِكَ، فَيَقَعُ فِي الْكُفْرِ، فَتَقُوتُهُ أَلْجَتُهُ رَأْسًا وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ؛ (وَالْآخَرُ سَلْبُ الْإِيمَانِ؛ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ النَّارَ، نَعُودًا بِاللَّهِ مِنْ سُخْضِهِ وَشَدِيدِ غَضَبِهِ) ^(٢).

وَالْمُصِيبَةُ الثَّانِيَّةُ: دُخُولُ النَّارِ، وَذَلِكَ لِمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنُتَدْرِءُ: أَلَمْ أَعْلَمَنَّكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قُمْتُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانَ قَارِيٌّ. وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ نَهْ: أَلَمْ أَوْسَعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَصِلُ بِهِ الرَّحِمَ

(١) زيادة يقتضيهما سياق الكلام، وهي مثبتة في (د) و(ه).

(٢) جملة ساقطة من (أ) و(ب) و(ج). مثبتة في (و) و(ه)، وهي لازمة لاستكمال الكلام.

وَأَتَّصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ، فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُوتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ: مَا فَعَلْتُ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى رُكْبَتِي، وَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: أَوْلَيْكَ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ يُسْعَرُ بِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّارَ وَأَهْلَهَا يَعُجُّونَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَعُجُّ النَّارُ؟ قَالَ: مِنْ حَرِّ النَّارِ الَّتِي يُعَذِّبُونَ بِهَا»^(٢) وَفِي هَذِهِ الْفَصَائِحِ عِبْرَةٌ لِأَوْلِي الْأَبْصَارِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيَّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: فَخَيْرٌ عَنِ حَقِيقَةِ الْإِخْلَاصِ وَالرِّيَاءِ وَحُكْمِهِمَا وَتَأْثِيرِهِمَا فِي الْعَمَلِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِخْلَاصَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا إِخْلَاصَانِ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، حَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ

(١) - رواه مسلم (٣/١٥١٤) في كتاب الإمامة، باب من قاتل للرياء عن أبي هريرة بلفظ: (إن أول الناس يقضي يوم نعيمة عبيه...).

- ورواه ابن حنبل (٢/٣٢٢) عن أبي هريرة بلفظ: (إن أول الناس يقضي فيه يوم القيمة ثلاثة...).

كذلك رواه الترمذي (باب نزهة ٤٨) والنسائي (باب الجهاد ٢٢).

(٢) لم أجدنه نصلاً.

١ - فَأَمَّا إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، فَهُوَ/ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِ أَمْرِهِ، وَإِجَابَةُ دَعْوَتِهِ؛ وَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ هُوَ الْإِعْتِقَادُ الصَّحِيحُ.

النَّفَاقُ

وَصِدُّ هَذَا الْإِخْلَاصِ النَّفَاقُ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ إِلَى مَنْ دُونَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: النَّفَاقُ هُوَ الْإِعْتِقَادُ الْفَاسِدُ الَّذِي هُوَ لِلْمُنَافِقِ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْإِرَادَاتِ لِعِلَّةِ ذِكْرِنَاهَا فِي مَوْضِعِهَا.

٢ - وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ؛ فَهُوَ إِرَادَةُ نَفْعِ الْآخِرَةِ بِعَمَلِ الْخَيْرِ. وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِنَّهُ إِرَادَةُ نَفْعِ الْآخِرَةِ بِخَيْرٍ، لَمْ يُرَدِّ رَدًّا يَتَعَدَّرُ خَيْرُهُ، بِحَيْثُ تُرْجَى بِهِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةُ. وَقَدْ شَرَحْنَا هَذِهِ الشَّرَائِطَ.

وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ^(١) لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا الْخَالِصُ مِنَ الْأَعْمَالِ؟ قَالَ: الَّذِي تَعْمَلُهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا تُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ وَهَذَا تَعَرُّضٌ لِتَرْكِ الرِّيَاءِ، وَإِنَّمَا خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْمَشْوُوشَةِ لِلْإِخْلَاصِ.

وَقَالَ الْجَنِيدُ: الْإِخْلَاصُ تَصْفِيَةُ الْأَعْمَالِ مِنَ الْكُدُورَاتِ. وَقَالَ الْفُضَيْلُ: الْإِخْلَاصُ دَوَامُ الْمَرَاقِبَةِ وَنَسْيَانُ الْحُطُوطِ كُلِّهَا، وَهَذَا هُوَ الْبَيَانُ الْكَامِلُ.

وَالْأَقَاوِيلُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، فَلَا فَائِدَةَ فِي تَكْثِيرِ النُّقْلِ بَعْدَ أَنْكِشَافِ الْحَقَائِقِ؛ وَقَدْ قَالَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

(١) الحواريون: جمع حواري، وحواري الرجل: خالسته. وهو من الحور أي البياض الخالص، سُمِّيَ به أصحاب عيسى ابن مريم عليه السلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم.

محمد ﷺ، إِذْ سُئِلَ عَنِ الْإِخْلَاصِ فَقَالَ: «تَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمُ
كَمَا أَمَرْتُ»^(١) أَيْ لَا تَعْبُدُ هَوَاكَ وَنَفْسَكَ، وَلَا تَعْبُدُ إِلَّا رَبَّكَ،
وَتَسْتَقِيمُ فِي عِبَادَتِكَ كَمَا أَمَرْتُ. وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَطْعِ كُلِّ مَا
سِوَى اللَّهِ عَنِ مَجْرَى النَّظَرِ، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ حَقًّا.

وَضِدُّ الْإِخْلَاصِ الرِّيَاءُ^(٢)، وَهُوَ إِرَادَةُ نَفْعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ. الرِّبَاءُ

ونوعاه

ثُمَّ الرِّيَاءُ ضَرْبَانِ: رِيَاءٌ مَحْضٌ، وَرِيَاءٌ تَخْلِيطٌ.

فَالْمَحْضُ: أَنْ تُرِيدَ بِهِ نَفْعَ الدُّنْيَا لَا غَيْرُ، وَالتَّخْلِيطُ: أَنْ
تُرِيدَهُمَا جَمِيعًا، نَفْعَ الدُّنْيَا وَنَفْعَ الْآخِرَةِ، هَذَا حَدُّهُمَا.

وَأَمَّا تَأْيِيرُهُمَا: فَإِنَّ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ أَنْ تَجْعَلَ الْفِعْلَ قُرْبَةً،
وَإِخْلَاصَ طَلَبِ الْأَجْرِ أَنْ تَجْعَلَهُ مَقْبُولًا وَافِرًا الْأَجْرِ وَالتَّعْظِيمِ.

وَالنَّفَاقُ يُحِيطُ الْعَمَلَ وَيُخْرِجُهُ عَنِ كَوْنِهِ قُرْبَةً، مُسْتَحَقًّا عَلَيْهِ
الثَّوَابُ بِالْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

فَالرِّيَاءُ الْمَحْضُ لَا يَكُونُ مِنَ الْعَارِفِ، عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنْ

كَانَ أَبْطَلُ لِنُصْفِ الثَّوَابِ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ قَدْ يَكُونُ الرِّيَاءُ الْمَحْضُ مِنْ [٧٥/أ]

(١) — رواه مسلم في صحيحه (١/٦٥) كتاب الإيمان، عن سفيان بن عبد الله الثقفي،
(تحديث رقم ٦٨).

— وذكره الغزالي في الإحياء (٤/٣٨٢) وخرجه العراقي فقال: لم أره بهذا اللفظ،
ولنترمذي وصححه، وبين وجهه. من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت: يا
رسول الله حدثني بأمر اعتصم به قل: «قل ربي الله ثم استقم».

(٢) يلاحظ هنا الفرق بين الرِّبَاءِ وَالْإِخْلَاصِ، وَالنَّفَاقِ وَالْإِخْلَاصِ. فَالنَّفَاقُ اعْتِقَادُ الرِّبَاءِ
عَمَلٌ.

الْعَارِفِ، وَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِنِصْفِ الْأَضْعَافِ. وَالتَّخْلِيْطُ يَذْهَبُ بِرُبْعِ الْأَضْعَافِ.

وَالصَّحِيْحُ عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّ الرِّيَاءَ الْمَخْضَ لَا يَكُونُ مِنَ الْعَارِفِ مَعَ تَذَكُّرِهِ الْآخِرَةِ، وَيَكُونُ مَعَ السَّهْوِ.

وَالْمُخْتَارُ أَنَّ مِنْ تَأْثِيرِ الرِّيَاءِ رَفْعَ الْقُبُولِ وَالتَّقْصَانِ فِي الثَّوَابِ، وَلَا تَقْدِيرَ لَهُ بِنِصْفٍ وَلَا بِرُبْعٍ، وَشَرْحُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ يَطْوُلُ، وَقَدْ شَرَحْنَا تَأْثِيرَ الرِّيَاءِ فِي كِتَابِ: «أَحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» شَرْحاً مُسْتَفْصِياً، وَأَشْبَعْنَا الْقَوْلَ «فِي أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ».

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَوْضِعُ الْإِخْلَاصِ، وَفِي أَيِّ طَاعَةٍ يَقَعُ وَيَجِبُ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ: مواضع الإخلاص

— قِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ الْإِخْلَاصُ جَمِيعاً، وَهُوَ الْعِبَادَاتُ الظَّاهِرَةُ الْأَصْلِيَّةُ.

— وَقِسْمٌ لَا يَقَعُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُمَا، وَهُوَ الْأَعْمَالُ الْبَاطِنَةُ الْأَصْلِيَّةُ.

— وَقِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ إِخْلَاصٌ طَلَبَ الْأَجْرَ دُونَ إِخْلَاصِ الْعَمَلِ، وَهُوَ الْمُبَاحَاتُ الْمَأْخُوذَةُ بِنُعْدَةٍ.

قَالَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَحْتَمِلُ الصَّرْفَ إِلَى غَيْرِ اللهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْأَصْلِيَّةِ يَقَعُ فِيهِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَالْعِبَادَاتُ الْبَاطِنَةُ أَكْثَرُهَا يَقَعُ فِيهَا إِخْلَاصُ الْعَمَلِ.

٢ - وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ: قَالَ مَشَايخُ الْكِرَامِيَّةِ^(١): لَا يَبْقَى فِي الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ، إِذْ لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ فَامْتَنَعَ مِنْهَا دَوَاعِي الرِّيَاءِ، فَلَمْ يُحْتَجَّ إِلَى إِخْلَاصِ طَلَبِ الْأَجْرِ. وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِذَا أَرَادَ مَرِيءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ نَفْعَ الدُّنْيَا فَهُوَ أَيْضاً رِيءاً.

قُلْتُ أَنَا: وَلَا يَبْعُدُ إِذَنْ أَنْ يَبْقَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الْإِخْلَاصَانِ، وَكَذَلِكَ فِي التَّوَافِلِ، يَجِبُ فِيهَا الْإِخْلَاصَانِ جَمِيعاً عِنْدَ الشُّرُوعِ فِيهَا.

وَأَمَّا الْمُبَحَّاتُ الْمَأْخُوذَةُ لِلْعُدَّةِ، فَإِنَّمَا يَبْقَى فِيهَا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ دُونَ إِخْلَاصِ الْعَمَلِ، إِذْ هِيَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بِنَفْسِهَا قُرْبَةً بَلْ هِيَ عُدَّةٌ عَنِ نُقْرَبَةٍ.

فَإِنْ قُلْتُ: هَذَا مَوْضِعُهُمَا، فَبَيِّنْ لِي وَفْتَهُمَا مِنَ الْعَمَلِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ مَعَ النِّعَمِ يُقَارِنُهُ لَا مَحَالَةَ وَلَا يَتَّخِرُ عَنْهُ، وَأَمَّا إِخْلَاصُ صَبِّ الْأَجْرِ، فَرُبَّمَا يَتَّخِرُ عَنْهُ، وَعِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ يَتَّبِعُونَ فِيهِ وَقْتِ الْفَرَاغِ مِنَ الْعَمَلِ، فَإِذَا فَرَغَ عَنِ إِخْلَاصِ أَوْ رِيَاءٍ فَقَدْ انْقَضَى لَأَمْرٌ. وَلَا يُمَكِّنُهُ اسْتِدْرَاكُهُ بَعْدُ. وَعِنْدَ عَبْدَانَ [٧٥/ب] مِنَ الْمَشَايخِ الْكِرَامِيَّةِ: مَا نَمَّ يَنْتَلِ الْمَنْتَعَةَ الْمَطْلُوبَةَ بِرِيَاءٍ، يُمَكِّنُهُ إِقَامَةُ الْإِخْلَاصِ فِي ذَلِكَ لِعَمَلٍ، فَإِذَا نَالَ الْمَطْلُوبَ فَقَدَّتْ.

وَقَدْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْفَرِيضَةَ يُمَكِّنُ إِقَامَةَ الْإِخْلَاصِ فِيهَا

(١) الكرامية: فرقة من المشيخة. أصحاب عبد الله محمد بن كرام.

إِلَى الْمَوْتِ، وَأَمَّا التَّوَافِلُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ. قَالَ: وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ اللَّهَ أَدْخَلَ الْعَبْدَ فِي الْفَرِيضَةِ، فَمَا مَوْلُ مِنْهُ التَّفْضُلُ وَالتَّيْسِيرُ فِيهَا؛ وَأَمَّا التَّقَلُّ فَالْعَبْدُ الَّذِي أَدْخَلَ فِيهِ نَفْسَهُ وَتَكَلَّفَهُ، فَطُولِبَ بِحَقِّ مَا تَكَلَّفَهُ.

قُلْتُ: وَفِي هَذِهِ الْمَسْئَلَةِ فَائِدَةٌ، وَهِيَ أَنَّ مَنْ سَبَقَ مِنْهُ الرِّيَاءُ، أَوْ تَرَكَ الْإِخْلَاصَ فِي عَمَلٍ، فَيُمْكِنُهُ اسْتِدْرَاكُ ذَلِكَ وَتَلَاوِيهِ عَلَى أَحَدِ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا. وَالْمَقْصُودُ مِنْ نَقْلِ مَذَاهِبِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الدَّقَائِقِ، عَلِمْنَا الْآنَ بِقَلَّةِ الْعَامِلِينَ وَقَلَّةِ الرَّغْبَةِ فِي سُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ، وَالتَّقَرُّبُ عَلَى الْمُبْتَدِئِ فِي الْعِبَادَةِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ لِعَلَّتِهِ دَوَاءً فِي هَذَا الْقَوْلِ، وَجَدَهُ فِي الْآخِرِ لِإِخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ وَعِلَلِ الْأَعْمَالِ وَأَفَاتِهَا، فَافْهَمُ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَإِنْ قُلْتُ: أَكُلُّ عَمَلٍ يَخْتَاجُ إِلَى إِخْلَاصٍ مُفْرَدٍ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ اخْتَبَفَ فِي ذَلِكَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَجِبُ لِكُلِّ عَمَلٍ الإِخْلَاصُ فِي الإِخْلَاصِ مُفْرَدًا، وَقِيلَ: يَجُوزُ تَنَاوُلُ الإِخْلَاصِ لِجُمْلَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، فَالْعَمَلُ ذُو الْأَرْكَانِ كَنْصَلَةِ وَالْوُضُوءِ يَكْفِيهِمَا إِخْلَاصٌ وَاحِدٌ، لِأَنَّ بَعْضَهَا مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضِ صَلَاحٍ وَفَسَادًا، فَصَارَتْ كَشَيْءٍ وَاحِدٍ.

فَإِنْ قُلْتُ: إِنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الْخَيْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَلَا يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا مِنْ مِدْحَةٍ أَوْ سُمْعَةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ، أَيْكُونُ ذَلِكَ رِيَاءً؟ فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مَحْضُ الرِّيَاءِ، قَالَ عَلَمًا وَرَحِمَهُمُ اللَّهُ: الْإِعْتِبَارُ فِي الرِّيَاءِ بِالْمُرَادِ، لَا بِالَّذِي يُرِيدُ مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُرَادَكَ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ نَفْعًا دُنْيَوِيًّا فَإِنَّهُ رِيَاءٌ، سِوَاءِ أَرَدْتَهُ مِنَ اللَّهِ أَوْ مِنَ النَّاسِ،

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِمْ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وَلَيْسَ الْاِعْتِبَارُ بِلَفْظَةِ الرِّبَاءِ وَأَشْتَقَاقِهَا مِنْ مَعْنَى الرُّؤْيَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هَذِهِ الْإِرَادَةُ الْفَاسِدَةُ بِهَذَا الْاِسْمِ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مَا تَقَعُ وَتَكُونُ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وَرُؤْيَتِهِمْ، فَافْهَمْ.

فَإِنْ/ قُلْتَ: إِذَا كَانَ الْقَضْدُ فِي الدُّنْيَا الَّتِي يُرِيدُهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى [٧٦/أ] التَّعَفُّفَ عَنِ النَّاسِ، وَالْعُدَّةَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى أَيْكُونُ ذَلِكَ رِبَاءً؟
فَاعْلَمْ أَنَّ التَّعَفُّفَ لَيْسَ فِي كَثْرَةِ الْمَالِ وَالنَّجَاهِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْفَنَاعَةِ وَالثَّقَةِ بِكِفَايَةِ اللهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا الْعُدَّةُ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا كَانَ مُرَادُهُ ذَلِكَ، فَلَا يَكُونُ رِبَاءً، وَكَذَلِكَ مَا يَتَّصِلُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ وَأَسْبَابِهَا، وَيَصِيرُ لُطْفًا لِذَلِكَ، فَإِنْ أُرِيدَ بِعَمَلِ الْخَيْرِ هَذَا التَّنَوُّعُ فَلَا تَكُونُ تِلْكَ الْإِرَادَةُ رِبَاءً، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ (تَصِيرُ)^(١) يَتَلَكَّ النَّيَّةَ خَيْرًا، وَتَصِيرُ فِي حُكْمِ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُ إِرَادَةُ الْخَيْرِ رِبَاءً.

وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ تَعْظِيمٌ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَحَبَّةٌ عِنْدَ الْمَشَايخِ وَالْأَيْمَةِ، يَكُونُ قَضْدُكَ مِنْ ذَلِكَ التَّمَكُّنَ مِنْ مَذْهَبِ الْحَقِّ وَالرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ، وَالنُّشْرَ لِلْعِلْمِ أَوْ حَضْرَ النَّاسِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ تَقْصِدَ بِذَلِكَ شَرَفَ نَفْسِكَ، مِنْ حَيْثُ هِيَ أَوْ دُنْيَا تَتَأَلَّهَا، فَإِنَّ هَذِهِ كُنْهًا إِرَادَاتٍ سَدِيدَةً وَنِيَّاتٍ مَحْمُودَةً، لَا

(١) لفظه ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْهَا فِي بَابِ الرِّيَاءِ، إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا أَمْرُ الْآخِرَةِ
بِالْحَقِيقَةِ.

وَأَعْلَمَ أَنِّي سَأَلْتُ بَعْضَ مَشَايخِنَا عَمَّا يَعْتَادُهُ أَوْلِيَاؤُنَا مِنْ قِرَاءَةِ
سُورَةِ الْوَاقِعَةِ فِي أَيَّامِ الْعُسْرَةِ، أَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنْ يَذْفَعَ اللَّهُ تِلْكَ
الشَّدَّةَ عَنْهُمْ، وَيُوسِّعَ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ،
فَكَيْفَ تَصِحُّ إِرَادَةُ مَتَاعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ؟

قراءة
سورة
الواقعة

فَقَالَ فِي جَوَابِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَاماً مَعْنَاهُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ أَنْ
يَرْزُقَهُمُ اللَّهُ قَنَاعَةً أَوْ قُوَّةً يَكُونُ لَهُمْ عُدَّةً عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّةً
عَلَى دَرَسِ الْعِلْمِ؛ وَهَذِهِ مِنْ جُمْلَةِ إِرَادَاتِ الْخَيْرِ دُونَ الدُّنْيَا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ السِّيْرَةَ، أَعْنِي قِرَاءَةَ هَذِهِ السُّورَةِ عِنْدَ الشَّدَّةِ فِي
أَمْرِ الرِّزْقِ وَالْخِصَاصَةِ^(١)، إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَرَدَّتْ بِهِ الْأَخْبَارُ الْمَأْثُورَةُ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَحَتَّى أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ عُوتِبَ فِي أَمْرِ وَلَدِهِ، إِذْ لَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا
شَيْئاً، قَالَ: لَقَدْ خَلَّفْتُ لَهُمْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْأَصْلِ فِي
السَّنَةِ هَذِهِ الْخِصْلَةُ فِي سِيْرِ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَإِلَّا فَلَا مَبَالَاةَ
بِحَمْدِ اللَّهِ/تَعَالَى بِشِدَّةٍ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا أَوْ سَعَةٍ، وَهُمْ الَّذِينَ يَغْتَنِمُونَ
ضَيْقَ الدُّنْيَا وَعُسْرَهَا، وَيَتَعَالَوْنَ بِذَلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَعْدُونَهُ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى نِعْمَةً عَظِيمَةً، وَيَخَافُونَ إِذَا بَدَأَ لَهُمْ سَعَةٌ مِنَ الدُّنْيَا، الَّتِي لَا
يَعُدُّهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا الْإِحْسَانَ وَالنَّعْمَةَ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَسْتِدْرَاجاً

[٧٦/ب]

(١) الخِصَاصَةُ: الْحَاجَةُ.

مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمُصِيبَةً؛ كَيْفَ وَبِطَانَتُهُمُ الْأَسْفَارُ وَالطَّيِّ (١) فِي عُمُومِ
أَحْوَالِهِمْ، وَمُقَدَّمُوهُمْ يَقُولُونَ: الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا، فَهَذَا وَضَعُ مَذْهَبِ
أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَهُوَ مَذْهَبِي وَمَذْهَبِ أَشْيَاخِي، وَبِذَلِكَ جَرَتْ سِيرَةُ
سَلَفِنَا.

وَأَمَّا تَقْصِيرُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ فَلَا يُعْتَبَرُ بِهِ. وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا
الْفَضْلَ لِيَلَّا يَغْمِزَ فِيهِمْ مُخَالِفٌ، جَهْلًا مِنْهُ بِمَقَاصِدِ الْقَوْمِ فِي أُمُورِهِمْ
أَوْ يَغْلَطَ مِنْهُمْ مُبْتَدِئٌ سَلِيمُ الصَّدْرِ، لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْعِلْمِ حَقَّهُ بِأَنَّ
يَقُولُ: كَيْفَ يَلِيقُ هَذَا بِحَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّجَرُّدِ وَأَرْبَابِ الصَّبْرِ
وَالرِّيَاضَةِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَأْخُودٌ مِنَ السُّنَّةِ.

ثُمَّ الْمَقْصُودُ حُضُورُ الْقِنَاعَةِ وَالْعُدَّةِ، لَا اتِّبَاعُ الشَّرِّ وَالشَّهْوَةِ أَوْ
الضَّعْفِ عَنِ احْتِمَالِ نَعْسَرَةِ وَالشَّدَّةِ؛ وَأَكْثَرُ مَا تَرَى فِي عَقِيبِ
ذَلِكَ (٢)، قِنَاعَةٌ فِي الْقَبِّ وَفَتْدٌ كَلْبِ الْجُوعِ (٣) وَضَعْنَهُ. وَسُوِّهُ عَنِ
الطَّعَامِ وَنَهْمَتِهِ، عَلِمَ ذِيكَ مَنْ امْتَحَنَهُ، فَأَعْلَمَ هَذِهِ الْجُمُنَةَ مَوْفَقًا إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

(١) اضْيَ وَنُصِي: الْجُوعُ.

(٢) عَقِيبُ ذِيكَ: أَيُّ بَعْدَ قِرَاءَةِ سُورَةِ نُوْفَعَةٍ.

(٣) كَلْبُ الْجُوعِ: الْأَلْمُ الَّذِي يَحْدِثُهُ الْجُوعُ فِي الْمَعْدَةِ.

القادح الثاني : المُجَب

وَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ اجْتِنَابُهُ لِأَمْرَيْنِ :

الأول : أَنَّهُ يَحْتَجِبُ عَنِ التَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ
المُعْجَبَ مَخْذُولٌ ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنِ الْعَبْدِ التَّأْيِيدُ وَالتَّوْفِيقُ فَمَا أَسْرَعَ مَا
يَهْلِكُ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ : «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شَحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ ،
وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(١) .

لزوج
اجتناب
العجب
لأمرين :

- (١) — رواه أبو نعيم في الحنية عن أنس بن مالك من حديث قتادة بلفظ : (ثلاث مهلكات
وثلاث منجيات . . .) قال أبو نعيم : حديث غريب (٣٤٣/٢) .
— ورواه أيضاً برواية ثانية عن أنس بن مالك من حديث زياد النميري بلفظ : (ثلاث
كفارات ، وثلاث درجات ، وثلاث منجيات وثلاث مهلكات . . . فأما المهلكات ، فشح
مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) (٢٦٩/٦) .
وفي رواية ثالثة يذكرها أبو نعيم عن ابن عباس بلفظ : (ثلاث مهلكات : شح مطاع ،
وهوى متبع ، وعجب كل ذي رأي برأيه) (٢١٩/٣) .
— وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٤٦٩/١) (الحديث رقم ٣٤٧١ و٣٤٧٢) عن
أبي الشيخ في التوبيخ . وعن المعجم الأوسط للطبراني بروايته عن أنس ، وأشار إلى
ضعفه .
— وقال المناوي في فيض القدير (٣٠٨/٣) في تعقبه هذا الحديث : قال العلاء : سنده
ضعيف ، وعده في الميزان من المناكير ، قال الهيثمي : فيه ابن لهيعة ومن لا يعرف .

الثاني: أَنَّهُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ كَمْ مِنْ سِرَاجٍ قَدْ أَطْفَأَتْهُ الرِّيحُ، وَكَمْ مِنْ عَابِدٍ قَدْ أَفْسَدَهُ الْعُجْبُ.

وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ وَالْفَائِدَةُ الْعِبَادَةَ، وَهَذِهِ الْخَصْلَةُ تَحْرِمُ الْعَبْدَ حَتَّى لَا يَحْصُلَ لَهُ خَيْرٌ، فَإِنْ حَصَلَ فَقَلِيلٌ مِنْ ذَلِكَ^(١) يُفْسِدُهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى بِيَدِهِ شَيْءٌ، فَحَقِيقٌ أَنْ يُحْذَرَ مِنْ ذَلِكَ وَيَتَحَفَّظَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا حَقِيقَةُ الْعُجْبِ وَمَا مَعْنَاهُ وَمَا تَأْتِيهِ وَحُكْمُهُ/ [٧٧/أ] فَبَيِّنْ لَنَا ذَلِكَ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ حَقِيقَةَ الْعُجْبِ اسْتِعْظَامُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَفْصِيلُهُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ذَكَرَ الْعَبْدُ حُصُولَ شَرَفِ الْعَمَلِ بِشَيْءٍ دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ النَّاسِ أَوْ الشَّيْءِ. قَالُوا: وَقَدْ يَكُونُ الْعُجْبُ مَثَلًا، بِأَنْ يُذَكَرَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعًا: النَّفْسُ وَالْخَلْقُ وَالشَّيْءُ جَمِيعًا^(٢) وَمُنْتَهَى، بِأَنْ يَذْكَرَهُ مِنْ اثْنَيْنِ، وَمَوْحَدًا، بِأَنْ يَذْكَرَهُ مِنْ وَاحِدٍ.

وَضِدُّ الْعُجْبِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَذْكَرَ أَنَّهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ

= — وتجدد الإشارة هنا إلى أن الألباني في (ضعيف الجامع الصغير) لم يذكر هذا الحديث فهو لم يعتبره ضعيفاً.

— وقد ذكر الغزالي هذا الحديث مرات عديدة. وقال الحافظ نعرقي في تخريجه: أخرجه البرزاري والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث نس، بإسناد ضعيف (إحياء ١/١٥٠) ووافق العجوني في كشف الخفاء (ص ٣٨٦).

(١) من ذلك: أي من العجب.

(٢) كرر اللفظة يشير إلى حصول هذه الثلاثة مجتمعة.

الَّذِي شَرَّفَهُ وَعَظَّمْ ثَوَابَهُ وَقَدَّرَهُ، وَهَذَا الذِّكْرُ فَرَضٌ عِنْدَ دَوَاعِي
العُجْبِ، نَفْلٌ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ.

تأثير المعجب
وَأَمَّا تَأْثِيرُ الْعُجْبِ فِي الْعَمَلِ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُعْجِبُ
يَنْتَظِرُ الْإِحْبَاطَ، فَإِنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ سَلِمَ وَإِلَّا أُحْبِطَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ
مُحَمَّدُ بْنُ صَابِرٍ مِنْ شُبُوحِ الْكِرَامِيَّةِ، وَالْإِحْبَاطُ عِنْدَهُ: أَنْ يَذْهَبَ عَنِ
الْعَمَلِ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَةِ حَتَّى لَا يَسْتَحِقَّ بِذَلِكَ ثَوَابًا وَلَا مِدْحَةً
الْبَتَّةَ، وَفِي قَوْلٍ غَيْرِهِ: هُوَ ذَهَابُ الْإِضْعَافِ لَا غَيْرُ^(١).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَنْتَبِسُ عَلَى الْعَبْدِ الْعَارِفِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ
الَّذِي وَفَّقَ لِلْعَمَلِ الصَّاحِحِ وَعَظَّمْ قَدْرَهُ وَأَكْثَرَ ثَوَابَهُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ؟
فَاعْلَمْ أَنَّ هَهْنَا نُكْتَةً نَضِيفَةً وَذَخِيرَةً شَرِيفَةً، وَهِيَ أَنَّ النَّاسَ فِي
الْعُجْبِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

أصناف المعجبين
— صَنَّفْتُ هُمْ مُعْجِبُونَ بِكُلِّ حَالٍ، وَهُمْ الْمُعْتَرِثَةُ وَالْقَدْرِيَّةُ،
وَالَّذِينَ لَا يَرَوْنَ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مَنَّةً فِي أَعْمَالِهِمْ، وَيُنْكِرُونَ نِعْمَانَ وَتَوْفِيقَ
الْحَاصِّ وَاللُّطْفَ، وَذَلِكَ نِشْبَةٌ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ.

— وَصَنَّفْتُ هُمْ نَذَائِرُونَ نِمَّةً بِكُلِّ حَالٍ، وَهُمْ مُسْتَتِيمُونَ،
لَا يَعْجِبُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَذَلِكَ لِبَصِيرَةِ كَرَمِهَا وَتَأْيِيدِ
خُصْرَائِهَا بِهِ.

— وَالثَّالِثُ هُمُ الْمُخَلِّطُونَ، وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ نِسْنَةِ تَارَةٍ

(١) أي مضاعفة الأجر من عند الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وإنه يضاعف لمن يشاء﴾
سورة بقره الآية ٢٦١.

يَنْتَبَهُونَ فَيَذْكُرُونَ مِثَّةَ اللَّهِ، وَتَارَةً يَغْفُلُونَ فَيَعْجَبُونَ، وَذَلِكَ لِمَكَانِ
الْغَفْلَةِ الْعَارِضَةِ وَالْفِتْرَةِ فِي الْاجْتِهَادِ^(١)، وَالتَّقْصِ فِي الْبَصِيرَةِ.

المعتزلة
والأفعال

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ حَالُ الْقَدْرِيةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ فِي أفعالِهِمْ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ اخْتِلافًا فَقِيلَ إِنَّهُ مُحِيطٌ لِمَكَانِ اعْتِقَادِهِمْ؛
وَقِيلَ: لَا يَحِيطُ عَمَلٌ بِاعْتِقَادٍ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ فِرْقِ الْإِسْلَامِ حَتَّى
يَخْصَرَ كُلَّ/ عَمَلٍ بِإِعْجَابٍ؛ كَمَا أَنَّ اعْتِقَادَ أَهْلِ السُّنَّةِ لَا يَمْنَعُ
[٧٧/ب] الْعُجْبَ فِي كُلِّ عَمَلٍ، حَتَّى يَخْصَّهُ بِذِكْرِ الْمِنَّةِ.

قوادح
أخرى في
العمل

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ سِوَى الْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ مِنْ قَادِحٍ فِي الْعَمَلِ؟

قِيلَ لَهُ: أَجَلٌ. إِنْ فِيهِ لِقَوَادِحَ سِوَاهُمَا؛ لَكِنَّا خَصَّصْنَاهُمَا
بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُمَا الْأَصْلُ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِمَا مُعْظَمُ الْبَابِ. وَقَدْ قَرَأَ
بَعْضُ الْمَشَايخِ: إِنْ حَقَّ نُعْبُدُ أَنْ يَتَحَفَّظَ فِي الْعَمَلِ مِنْ عَشْرَةِ أَشْيَاءَ:
التَّفَاقُ، وَالرِّيَاءُ، وَالتَّخْيِيطُ، وَالْمَنْ، وَالْأَذَى، وَالتَّدَامَةُ، وَالْعُجْبُ،
وَالْحَسْرَةُ، وَالتَّهَاؤُنِ. وَخَوْفِ مَلَامَةِ النَّاسِ.

القوادح
وأضدادها

ثُمَّ ذَكَرَ شَيْخٌ رَحِمَهُ اللَّهُ ضِدًّا كُلَّ خِصَّةٍ مِنْهَا وَإِضْرَارَهَا
بِالْعَمَلِ؛ فَضِدُّ التَّفَاقِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَضِدُّ الرِّيَاءِ إِخْلَاصُ طَلَبِ
الْأَجْرِ، وَضِدُّ التَّخْيِيطِ التَّقْرِيدُ، وَضِدُّ الْمَنْ تَسْلِيمُ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ،
وَضِدُّ الْأَذَى تَحْصِينُ الْعَمَلِ. وَضِدُّ التَّدَامَةِ تَثْبِيتُ النَّفْسِ، وَضِدُّ
الْعُجْبِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ، وَضِدُّ الْحَسْرَةِ اغْتِنَامُ الْخَيْرِ، وَضِدُّ التَّهَاؤُنِ تَعْظِيمُ
التَّوْفِيقِ. وَضِدُّ خَوْفِ مَلَامَةِ النَّاسِ الْخَشْيَةُ.

(١) الفِترَةُ فِي لاجْتِهَادِ: الْفِتْرُ وَنُكْسَرُ فِي الْعِبَادَةِ.

تأثير هذه
القوادح

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّفَاقَ يُحِبُّ الْعَمَلَ، وَالرِّيَاءَ يُوجِبُ رَدَّهُ؛ وَالْمَنَ وَالْأَذَى يُحِبُّانِ الصَّدَقَةَ أَضْلًا فِي الْوَقْتِ^(١) وَعِنْدَ بَعْضِ الْمَشَايخِ يُبْطِلَانِ أضعافها^(٢). وَأَمَّا النَّدَامَةُ فَإِنَّهَا تُحِبُّ الْعَمَلَ فِي قَوْلِهِمْ جَمِيعاً^(٣)؛ وَالْعُجْبُ يُذْهِبُ أضعافَ الْعَمَلِ؛ وَالْحَسْرَةُ وَالتَّهَاؤُنُ وَخَوْفُ الْمَلَامَةِ تُخَفِّفُ الْعَمَلَ فَتُذْهِبُ رِزَانَتَهُ.

قُلْتُ: فَالْقَبُولُ وَالرَّدُّ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْصِيلِ، يَرْجِعَانِ إِلَى ضُرُوبٍ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالِاسْتِخْفَافِ، وَالِإِحْبَاطِ إِطْطَالِ مَنَافِعِ تَكُونُ بِالْفِعْلِ وَبِسَبَبِهِ. ثُمَّ تَارَةً يَكُونُ إِطْطَالًا لِلثَّوَابِ وَأُخْرَى إِطْطَالًا لِلتَّضْعِيفِ. وَالثَّوَابُ مَنَفَعَةٌ يَفْتَضِيهَا الْفِعْلُ بِعَيْنِهِ وَقَرَائِنِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ وَالتَّضْعِيفُ زِيَادَةٌ عَلَى هَذَا؛ وَالرِّزَانَةُ زِيَادَةٌ تَحْصُلُ لِمُقْتَضَى قَرَائِنِ وَأَحْوَالِ أُخْرَى، كَالِإِحْسَانِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، ثُمَّ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، ثُمَّ إِلَى نَبِيِّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ. فَفِي الشَّيْءِ يَكُونُ رِزَانَةٌ فَلَا يَكُونُ تَضْعِيفاً^(٤). فَهَذَا تَهْدِيبٌ مَا تَحَقَّقَتْ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(١) في الوقت: أي في الحال، وفي الوقت نفسه الذي تُقَدَّمُ فِيهِ الصَّدَقَةُ.

(٢) يبطلان أضعافها: أي يبطلان أجرهما مضاعف.

(٣) قولهم جميعاً: أي قول جميع العلماء.

(٤) يكون إعطاء رزانة: أي ففي مثل هذا الشيء من الأعمال، يكون إعطاء والثواب رزانة وليس تضعيفاً.

فصل في الرياء والعُجب وخطرهما

فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ الْمُخَوَّفَةِ، ذَاتِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَتَالِفِ فِي غَايَةِ التَّحَرُّزِ، فَإِنَّ صَاحِبَ بِضَاعَةِ الطَّاعَاتِ قَدْ قَطَعَ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ، وَتَحَمَّلَ تِلْكَ الْمَشَقَّاتِ، حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ بِبِضَاعَتِهِ/ مِنَ الْعِبَادَةِ عَزِيزَةٌ شَرِيفَةٌ، فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ عَلَى بِضَاعَتِهِ تِلْكَ، إِلَّا فِي هَذِهِ الْعَقَبَةِ، فَإِنَّ فِيهَا مَقَاطِعَ يَخْذَرُ أَنْ تُسَلَبَ فِيهَا بِبِضَاعَتُهُ، وَمَتَالِفَ يَخْذَرُ أَنْ يَبْدُو لَهُ مِنْهَا آفَاتٌ تُفْسِدُ عَلَيْهِ طَاعَاتِهِ. ثُمَّ أَعْظَمُهَا خَطَرًا وَأَعْمَقُهَا وَقُوعًا، هَذَا الْقَاطِعَانِ اللَّذَانِ هُمَا: الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ. فَلنَذْكُرْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصُولًا مُفْنِعَةً، نُجَرِّدُهَا لَكَ، لَعَلَّكَ تُكْفَى مُؤْنَتَهَا بِإِذْنِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

أصول الرياء:

أما الرِّيَاءُ فَاذْكُرْ فِيهِ أَوْلَى:

الأصل الأول: قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، كَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: إِنِّي خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، فِي كُلِّ هَذِهِ الصَّنَائِعِ

وَالْبَدَائِعِ، وَاکْتَفَيْتُ بِنَظَرِكَ لِتَعَلَّمَ أَنِّي عَالِمٌ قَادِرٌ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ،
مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَعَايِبِ وَالتَّفْصِيرِ، فَلَا تَكْتَفِي بِنَظَرِي إِلَيْكَ،
وَبِعِلْمِي بِكَ، وَتُنَائِي عَلَيْكَ، وَشُكْرِي لَكَ، حَتَّى تُحِبَّ أَنْ يَعْلَمَ
الْخَلْقُ لِيَمْدَحُوكَ بِذَلِكَ، أَيْكُونُ ذَلِكَ وَفَاءً؟ أَيْكُونُ ذَلِكَ عَقْلًا يَرْضَاهُ
أَحَدٌ لِنَفْسِهِ؟ وَيَحْكُ أَفَلَا تَعْقِلُ؟

إرادة الدنيا
دون
الآخرة

الأصل الثاني: أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ، يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْخُذَ فِي
ثَمَنِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ فَبَاعَهُ بِفَلَسٍ، أَلَيْسَ يَكُونُ ذَلِكَ خُسْرَانًا عَظِيمًا
وَعُتْبَانًا فِظِيعًا، وَدَلِيلًا بَيِّنًا عَلَى خِسَّةِ الْهَمَّةِ، وَقُصُورِ الْعِلْمِ، وَضَعْفِ
الرَّأْيِ وَقِلَّةِ الْعَقْلِ؟ فَمَا يَنَالُهُ الْعَبْدُ بِعَمَلِهِ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ مِدْحَةٍ
وَحُطَامٍ، بِالإِضَافَةِ^(١) إِلَى رِضَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرِهِ وَتُنَائِيهِ وَتَوَابِهِ،
لَأَقْلُ مِنْ فَلَاسٍ فِي جَنْبِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَضْعَافِ ذَلِكَ؛ بَلْ فِي
جَنْبِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَأَكْثَرُ وَأَكْبَرُ. أَلَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ أَنْ
تُفَوَّتَ نَفْسَكَ تِلْكَ الْكِرَامَاتِ الْعَزِيزَةِ الشَّرِيفَةِ، بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْحَقِيرَةِ
الدُّنْيَا؟ ثُمَّ إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْخَسِيسَةِ، فَاقْصِدِ أَنْتَ الْآخِرَةَ
تَتَّبِعَكَ الدُّنْيَا، بَلْ أَضْبِ الرَّبَّ وَحْدَهُ يُعْطِكَ الدَّارَيْنِ، إِذْ هُوَ مَالِكُهُمَا
جَمِيعًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا
بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا»^(٢). فَإِذَا أَنْتَ أَخْلَصْتَ

(١) بِالإِضَافَةِ: تَعْنِي هُنَا بِالْمُقْتَرَنَةِ مَعَ.

(٢) - رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ عَنْ أَنَسٍ، وَهَكَذَا نَقَلَهُ عَنْهُ نَسِيطِي فِي الْجَامِعِ
الصَّغِيرِ (٢٥٧/١) بِلَفْظٍ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا عَلَى نِيَّةِ الْآخِرَةِ، وَأَبَى أَنْ يُعْطِيَ
الْآخِرَةَ عَلَى نِيَّةِ الدُّنْيَا) وَشَارَ إِلَى ضَعْفِهِ.

النِّبَّةَ، وَجَرَدَتْ الِهِمَّةَ لِلْآخِرَةِ، حَصَلَتْ لَكَ الْآخِرَةُ وَالْدُّنْيَا جَمِيعاً؛
 وَإِنَّ أَنْتَ أَرَدْتَ الدُّنْيَا ذَهَبَتْ عَنْكَ الْآخِرَةُ فِي/ الْوَقْتِ، وَرُبَّمَا لَا [ب/٧٨]
 تَتَأَلَّ الدُّنْيَا كَمَا تُرِيدُ، وَإِنْ نَلَيْتَهَا فَلَا تَبْقَى لَكَ، فَتَكُونُ قَدْ خَسِرْتَ
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، فَتَأْمَلْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ.

الأصلُ الثالثُ: أَنَّ المَخْلُوقَ الَّذِي لِأَجْلِهِ تَعْمَلُ، وَرِضَاهُ العمل
 تَطْلُبُ، لَوْ عَلِمَ أَنَّكَ تَعْمَلُ لِأَجْلِهِ لِأَبْغَضِكَ وَلَسَخِطَ عَلَيْكَ وَأَسْتَهَانَ للمبغض لا
 بِكَ وَأَسْتَحَفَّ بِكَ، فَكَيْفَ يَعْمَلُ الْعَاقِلُ الْعَمَلَ لِأَجْلِ مَنْ لَوْ عَلِمَ بِهِ للمحب
 أَنَّهُ يَطْلُبُ رِضَاهُ لَسَخِطَ عَلَيْهِ وَأَهَانَهُ؟

فَاعْمَلْ يَا مَسْكِينُ لِأَجْلِ مَنْ إِذَا عَمِلْتَ لِأَجْلِهِ، وَقَصَدْتَهُ
 بِسَعْيِكَ، وَطَلَبْتَ رِضَاهُ بِذَلِكَ، أَحَبَّكَ وَأَعْطَاكَ، وَأَكْرَمَكَ حَتَّى
 أَرْضَاكَ وَأَغْنَاكَ وَكَفَّاكَ. فَهَذِهِ هَذِهِ، فَافْطِنْ لَهَا إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ.

الأصلُ الرابعُ: أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ سَعْيٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَكْتَسِبَ بِهِ العمل على
 رِضَا أَعْظَمَ مَلِكٍ فِي الدُّنْيَا، فَطَلَبَ بِهِ رِضَا كَثِيرٍ خَسِيسٍ بَيْنَ كسب رضا
 النَّاسِ، أَقْلًا يَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى السَّفَهِ وَرَدَاءَةِ الرَّأْيِ مِنْهُ وَسُوءِ الناس لا
 الْحِظِّ، وَيُقَالُ: مَا حَاجَّتْ إِلَى رِضَا هَذَا الْكَثَّاسِ مَعَ امْتِكَانِكَ مِنْ رضا الله
 رِضَا الْمَلِكِ؟ فَكَيْفَ وَقَدْ سَخِطَ الْكَثَّاسُ عَلَيْكَ بِسَبَبِ سَخِطِ الْمَلِكِ؟
 فَفَاتَكَ الْكُلُّ، فَهَذَا حَدُّ الْمُرَانِيِّ.

= - وقد ذكره الألباني في (ضعيف نجامع الصغير) برقم (١٧٤٤) وأُشِرَ إلى ضعفه أيضاً
 وذكر رقمه في الأحاديث الضعيفة (٣١٥٦).

- ويذكر المناوي في فيض القدير (٢/٣٠٤٤) أن الدليمي خرجه في مسنده الفردوس.
 مسنداً عن أنس بهذا اللفظ.

- وفي سراج الطالبين (٢/٣٩٤) أن الدليمي رواه بإسناد ضعيف.

وَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى إِرْضَاءِ مَخْلُوقٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ، وَهُوَ
مُتَمَكِّنٌ مِنْ تَحْصِيلِ رِضْوَانِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْكَافِي عَنِ الْكُلِّ؟

فَإِنْ ضَعُفَتِ الْهِمَّةُ، وَكَلَّتِ الْبَصِيرَةُ، حَتَّى طَلَبْتَ رِضَا مَخْلُوقٍ
لَا مَحَالَةَ، فَسَبِيلُكَ أَنْ تُجَرِّدَ إِرَادَتَكَ، وَتُخْلِصَ سَعْيَكَ لِلَّهِ، فَإِنَّ
الْقُلُوبَ وَالتَّوَاصِيَّ بِيَدِهِ، فَهُوَ يُمِيلُ إِلَيْكَ الْقُلُوبَ، وَيَجْمَعُ لَكَ
التُّفُوسَ، وَيَسْحَنُ مِنْ حُبِّكَ الصُّدُورَ، فَتَنَالُ بِذَلِكَ مَا لَا تَنَالُ بِجَهْدِكَ
وَقَصْدِكَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، وَقَصَدْتَ بِعَمَلِكَ رِضَا الْمَخْلُوقِينَ دُونَهُ
سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ يَصْرِفُ عَنْكَ الْقُلُوبَ وَيُنْفِرُ عَنْكَ التُّفُوسَ، وَيُسَخِطُ
عَلَيْكَ (الْخَلْقَ) ^(١)، فَيَحْضِلُ لَكَ بِهَذَا الْأَمْرِ سَخَطُ اللَّهِ وَسَخَطُ النَّاسِ
جَمِيعاً، فَيَأْتِيهِ مِنْ خُسْرَانٍ وَحِرْمَانٍ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقُولُ: وَاللَّهِ
لَأَعْبُدَنَّ اللَّهَ عِبَادَةً أَذْكَرُ بِهَا؛ فَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلِ الْمَسْجِدِ وَآخِرَ خَارِجِ
مِنَهُ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ حِينَ انْصِلَاةِ إِلَّا قَائِماً يُصَلِّي، وَصَائِماً لَا يُفْطِرُ،
وَيَجْلِسُ إِلَى حِلْقِ الذِّكْرِ، فَلَبَثَ كَذَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِقَوْمٍ
إِلَّا قَالُوا: فَعَلَ اللَّهُ بِهَذَا الْمُرَائِي وَصَنَعَ؛ فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ بِاللُّومِ،
وَقَالَ: أَرَانِي فِي غَيْرِ شَيْءٍ/ لِأَجْعَلَنَّ عَمَلِي كُلَّهُ لِلَّهِ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى
عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ تَغَيَّرَتْ نِيَّتُهُ إِلَى الْخَيْرِ؛ فَكَانَ
بَعْدَ ذَلِكَ يَمُرُّ بِالنَّاسِ فَيَقُولُونَ: رَحِمَ اللَّهُ فُلَاناً، الْآنَ أَقْبَلَ عَلَى
الْخَيْرِ؛ ثُمَّ قَرَأَ الْحَسَنُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] قَالَ: يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ.

[٧٩]

(١) في الأصل: القلوب، وهذا خطأ واضح من الناسخ، والتصويب من باقي النسخ.

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ: [مجزوء البسيط]:

يَا مُبْتَغِي الْحَمْدِ وَالنَّوَالَا فِي عَمَلٍ تَبْتَغِي مُحَالَا
قَدْ خَيَّبَ اللَّهُ ذَارِيَاءَ وَأَبْطَلَ السَّعْيَ وَالْكَلَالَا
مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّ أَخْلَصَ مِنْ خَوْفِهِ الْفِعَالَا
الْخُلْدُ وَالنَّارُ فِي يَدَيْهِ فَرَائِهِ يُعْطِكَ النَّوَالَا
وَالنَّاسُ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئَا فَكَيْفَ رَأَيْتَهُمْ ضَالَالَا

أصول العُجب

وَأَمَّا الْعُجْبُ فَلَنَذْكُرُ فِيهِ أُصُولًا:

أَحَدُهَا: أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ إِنَّمَا صَارَتْ لَهُ قِيَمَةٌ لِمَا وَقَعَ مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا يَرَى
مَوْعَ الرِّضَا وَالْقَبُولِ، وَإِلَّا فَتَرَى الْأَجِيرَ يَعْمَلُ طُولَ النَّهَارِ بِدِرْهَمَيْنِ،
وَالْحَارِسُ يَسْهَرُ طُولَ اللَّيْلِ بِدَانِقَيْنِ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الصَّنَاعَاتِ
الْإِنْسَانِ مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي
وَالْحَرَفِ كُلِّ وَاحِدٍ يَعْمَلُ فِي النَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَيَكُونُ قِيَمَةُ ذَلِكَ دَرَاهِمَ
تَقْدِيرِ
مَعْدُودَةً. فَإِنْ صَرَفْتَ الْعَمَلَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَانَى، فَصُمْتَ لِلَّهِ
عَمَلَهُ
تَعَالَى يَوْمًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٠)
[الزُّمَرُ: ١٠]، وَفِي الْخَبَرِ: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ
رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» (١) فَهَذَا يَوْمُكَ
الَّذِي قِيَمَتُهُ دِرْهَمَانِ. مَعَ أَحْتِمَالِ التَّعَبِ الْعَظِيمِ. صَارَتْ لَهُ هَذِهِ
الْقِيَمَةُ، بِتَأْخِيرِ غَدَاءٍ إِلَى عَشَاءٍ. وَلَوْ قُفِّتْ لَيْتَةً نَبَّهَ تَعَالَى، قَالَ
تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧)

(١) — رواه مسلم (٤/٢١٧٤): كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها بلفظ: قال الله عز وجل:

«أعددت لعبادي الصالحين...» (حديث رقم ٢٨٢٤).

[السجدة: ١٧] فَهَذَا الَّذِي قِيمَتُهُ دَانِقَانٍ وَدِرْهَمَانٍ صَارَتْ لَهُ هَذِهِ الْقِيَمَةُ وَالْقَدْرُ؛ بَلْ جَعَلَتْ لِلَّهِ تَعَالَى سَاعَةً، تُصَلِّي فِيهَا رَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، بَلْ نَفْسًا قُلْتَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْوَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] فَهَذِهِ سَاعَةٌ مِنْ أَنْفَاسِكَ الَّتِي لَا قِيَمَةَ لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَا عِنْدَكَ، فَكَمْ تُضَيِّعُهَا فِي لَا شَيْءٍ، وَكَمْ تَمُرُّ عَلَيْكَ بِلَا فَائِدَةٍ، وَصَارَ لَهُ^(١) هَذَا الْقَدْرُ الْعَظِيمُ لِمَاذَا؟ لِمَا أَنَّهُ وَقَعَ مَرْضِيًّا لِلَّهِ تَعَالَى، فَعَظَّمَ قَدْرَهُ وَكَبَّرَ قِيَمَتَهُ بِفَضْلِهِ، فَحَقَّ إِذْنٌ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَرَى حَقَّارَةَ عَمَلِهِ، وَقِلَّةَ قَدْرِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَأَنْ لَا يَرَى إِلَّا مِثَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا شَرَّفَ مِنْ قَدْرِ عَمَلِهِ، وَأَعْظَمَ مِنْ جَزَائِهِ، وَأَنْ يَحْذَرَ عَلَى فِعْلِهِ مِنْ أَنْ يَفْعَ عَلَى وَجْهِ لَا يَصْلُحُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَقَعُ مِنْهُ مَوْعَ الرِّضَا، وَتَذَهَبُ عَنْهُ الْقِيَمَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ، فَيَعُودُ إِلَى مَا كَانَ فِي الْأَصْلِ مِنَ الثَّمَنِ الْخَفِيرِ مِنْ دَرَاهِمٍ أَوْ دَوَانِقٍ، وَأَخْفَرَ وَأَخْسَرَ مِنْ ذَلِكَ.

وَمِثَالُهُ، أَنَّ الْعُنْتُودَ مِنَ الْعِنَبِ، وَالْإِضْبَارَةَ^(٢) مِنَ الرِّيحَانِ، يَكُونُ قِيَمَتُهُ فِي السُّوقِ دَانِقًا. فَإِنْ أَهْدَاهُ وَاحِدًا إِلَى مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ

= - ورواه البخاري (١٤٣/٤) باب صفة الجنة، وفي تفسير سورة السجدة (١٤٥/٦).
- وفي سنن ابن ماجه (١٤٤٧/٢) باب صفة الجنة: يقول الله عز وجل: «أعدت لعبادي الصالحين...» (حديث رقم ٤٣٢٨).
- وأخرجه الترمذي (٢٢٥/٢) في تفسير سورة الواقعة باللفظ نفسه.

(١) صار له: أي صار للعمل.

(٢) الإضبارة من الريحان: المجموعة من غصون شجر الريحان.

فَاسْتَحْسَنَهُ، فَوَقَعَ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا فَوَهَبَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ أَلْفَ دِينَارٍ لِمَا وَقَعَ مِنَ الْمَلِكِ مَوْقِعَ الرِّضَا، فَصَارَ مَا قِيمَتُهُ حَبَّةً بِأَلْفِ دِينَارٍ، فَإِذَا لَمْ يَرْضَهُ الْمَلِكُ، وَرَدَّهُ عَلَيْهِ، رَجَعَ إِلَى قِيمَتِهِ الْخَسِيسَةِ مِنْ حَبَّةٍ أَوْ دَانِقٍ^(١)؛ فَكَذَلِكَ مَا نَحْنُ فِيهِ فَتَنَبَّهُ وَأَبْصُرْ مِنْهُ اللَّهُ وَصُنْ فِعْلَكَ عَمَّا يَشِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الأصلُ الثَّانِي: مَا تَعَلَّمَ أَنَّ الْمَلِكَ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَجْرَى عَلَى نسيان
 أَحَدٍ جَرَايَةً، مِنْ طَعَامٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ دَرَاهِمٍ أَوْ دَنَانِيرٍ مَعْدُودَةٍ فَايْتِيَةً، فَإِنَّهُ يَسْتَحْدِمُهُ بِضُرُوبِ الْخِدْمَةِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَلْدَلِّ وَالصَّغَارِ، وَيَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى تُخَدَّرَ رِجْلَاهُ، وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا رَكِبَ، وَرُبَّمَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَابِهِ طُولَ اللَّيْلِ حَارِسًا؛ وَرُبَّمَا يَبْدُو لَهُ عَدُوٌّ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يُقَاتِلَ عَدُوَّهُ، فَيَبْدُلَ رُوحَهُ الَّتِي لَا خَلْفَ عَنْهَا لِأَجْلِهِ، وَيَحْتَمِلُ كُلَّ هَذِهِ الْخِدْمَةِ وَالْكَلْفَةِ وَالضَّرَرِ، لِأَجْلِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةِ النَّكَدَةِ الْحَقِيرَةِ، مَعَ أَنَّهَا بِالْحَقِيقَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا هُوَ^(٢) بِمَنْزِلَةِ سَبَبٍ فِي ذَلِكَ، فَرَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا، ثُمَّ رَبَّاكَ فَأَحْسَنَ التَّرْبِيَةَ، ثُمَّ أَنْعَمَ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فِي دِينِكَ وَنَفْسِكَ وَدُنْيَاكَ، مَا لَا يَبْلُغُ كَنْهَهَا فَهَمُّكَ وَوَهْمُكَ. قَدْ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ/ : ﴿وَإِنْ نَعُدُوا نَعَمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ثُمَّ إِنَّكَ [٨٠/أ]
 تُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَعَايِبِ وَالْآفَاتِ. وَمَعَ مَا وَعَدَ عَلَيْهِمَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ وَضَرْبِ مِنَ الْكِرَامَاتِ، حَتَّى

(١) الحبة: أصغر وحدة من النقود، والدانق: سدس الدرهم.

(٢) أي الملك.

تَسْتَعْظِمَ ذَلِكَ وَتَعْجَبَ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِ عَاقِلٍ إِذَا نَظَرَتْ، فَهَذِهِ هَذِهِ.

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَخْدُمَهُ الْمُلُوكُ وَالْأَمْرَاءُ، وَتَقُومَ عَلَى رَأْسِهِ السَّادَاتُ وَالْعُظَمَاءُ، وَيَتَوَلَّى خِدْمَتَهُ الْأَلْبَاءُ وَالْحُكَمَاءُ، وَيَطْلُبُ مَدْحَتَهُ الْعُقَلَاءُ وَالْعُلَمَاءُ، وَيَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَكَابِرُ وَالرُّؤَسَاءُ، إِذَا أَدِنَ لِسُوقِيٍّ أَوْ قُرُوبِيٍّ، بِمُقْتَضَى رَافَةِ وَعِنَايَةِ لَهُ، فِي بَابِهِ حَتَّى زَا حَمَّ أَوْلِيكَ الْمُلُوكَ وَالسَّادَاتِ وَالْأَكَابِرَ وَالْفُضَلَاءَ، فِي خِدْمَتِهِ وَمَدْحَتِهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ مَقَامًا مِنْ حَضْرَتِهِ مَعْلُومًا، وَيَنْظُرُ إِلَى خِدْمَتِهِ بَعَيْنِ الرِّضَا، وَإِنْ كَانَتْ مُشَوَّشَةً مَعِيبَةً، أَلَيْسَ يُقَالُ لَهُ: لَقَدْ كَبُرَتْ عَلَى هَذَا الْحَقِيرِ الْمِثَّةُ مِنَ الْمَلِكِ، وَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُ بِهِ، فَإِنْ أَخَذَ هَذَا الْحَقِيرُ يَمُنُّ عَلَى الْمَلِكِ بِتِلْكَ الْخِدْمَةِ الْمَعِيبَةِ، وَيَسْتَعْظِمُ ذَلِكَ وَيَعْجَبُ بِهِ، أَلَا يُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ لَسَفِيهَةٌ جِدًّا وَمَجْنُونٌ لَا يَعْقِلُ شَيْئًا؟

قَلَّةُ تَقْدِيرِ الْعَبْدِ لِعِظْمَةِ اللَّهِ

وَلَمَّا تَقَرَّرَ هَذَا. فَإِنَّ إِلَهَنَا سُبْحَانَهُ، هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَعْبُودُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا.

فَمِنْ الْخَدَمِ عَنَى بَبِهِ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَعِزْرَائِيلُ، وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالْكَرُوبِيُّونَ^(١) وَالرُّوحَانِيَّةُونَ، وَسَائِرُ

(١) الْكَرُوبِيُّونَ: بَفَتْحِ الْكَافِ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ، هُمْ سَادَاتُ الْمَلَائِكَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ حَوَّنَ =

الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، الَّذِينَ لَا يُخْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ،
فِي مَنَازِلِهِمُ الرَّفِيعَةَ وَأَنْفُسِهِمُ الطَّاهِرَةَ وَعِبَادَاتِهِمُ الْعَظِيمَةَ.

ثُمَّ مِنَ الَّذِينَ خَدَمَ عَلَى بَابِهِ: آدَمُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى،
وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ، مَعَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ،
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، فِي مَرَاتِبِهِمُ الْمُنِيفَةِ، وَمَنَاقِبِهِمُ الْعَزِيزَةَ
الشَّرِيفَةَ، وَمَقَامَاتِهِمُ الْكَرِيمَةَ، وَعِبَادَاتِهِمُ الْجَلِيلَةَ الْخَطِيرَةَ.

ثُمَّ الْعُلَمَاءُ الْأَيْمَةُ الْأَبْرَارُ وَالزُّهَادُ فِي مَرَاتِبِهِمُ الْفَاحِشَةَ،
وَأَبْدَانِهِمُ النَّقِيَّةِ الطَّاهِرَةَ، وَعِبَادَاتِهِمُ الْكَثِيرَةَ الْخَالِصَةَ الْمُتَطَاهِرَةَ.

وَأَذَلُّ الْخَدَمِ عَلَى بَابِهِ / مُنُوكُ الدُّنْيَا وَجَبَابِرَتُهَا، يَخِرُّونَ لَهُ عَلَى [ب/٨٠]

الْأَذْقَانِ سَاجِدِينَ صَاحِرِينَ، وَيُعْفَرُونَ الْوُجُوهَ فِي الشَّرَابِ خَاضِعِينَ،
وَيَرْفَعُونَ إِلَيْهِ حَوَائِجَهُمْ بَاكِينَ ضَارِعِينَ، وَيَعْتَرِفُونَ نُهُ بِالْعُبُودِيَّةِ
وَلِأَنْفُسِهِمْ بِالتَّقْصِصِ، عَانِينَ صَاحِرِينَ، حَتَّى رُبَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً،
وَيَقْضِي لَهُمْ بِفَضْلِهِ حَاجَةً، أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ بِكَرَمِهِ زَنْةً؛ فَمَعَ هَذِهِ
الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، وَالْمُلْكِ وَنِكَمَالِ، قَدْ أَدْنَى لَكَ فِي حَقَارَتِكَ
وَعُيُوبِكَ، وَأَنْتَ الَّذِي لَوْ أَسْتَأْذَنْتَ عَلَى رَئِيسِ بَلَدِكَ. فَرُبَّمَا لَا يَأْذَنُ
لَكَ، وَإِنْ كَلَّمْتَ أَمِيرَ نَاحِيَّتِكَ. فَرُبَّمَا لَا يَكَلِّمُكَ. وَإِنْ سَجَدْتَ
لِسُلْطَانِ بَلَدِكَ بِأَرْضِ، فَرُبَّمَا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْكَ. أَدْنَى لَكَ اللَّهُ
جَلَّ جَلَالُهُ حَتَّى تَعْبُدَهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ وَتُخَاطِبَهُ، بَلْ تُدْثِ عَلَيْهِ بِالْمَسْئَلَةِ
وَتُبَاسِطُهُ، فَتَسْتَقْضِيهِ حَاجَتَكَ، وَتَسْتَكْفِيهِ مُهِمَاتِكَ. ثُمَّ إِنَّهُ يَرْضَى

= العرش. طائفون به، نُفِرُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مُتَصَدِّعُونَ لِلدَّعَاءِ. يَرِيعُ نَكْرَبُ عَنِ الْأُمَّةِ.
وقيل غير ذلك، والله أعلم.

رَكَعَتَيْكَ فِي مَعَايِبِهِمَا، بَلْ يُعِدُّ مِنَ الثَّوَابِ عَلَيْهِمَا مَا لَا يَخْطُرُ بِقَلْبِ
بَشَرٍ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ تَعْجَبُ بِهَاتَيْنِ الرَّكَعَتَيْنِ، وَتَسْتَكْثِرُ ذَلِكَ
وَتَسْتَغْظِمُهُ، وَلَا تَرَى مِنْهُ اللَّهَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ؛ فَمَا أَسْوَكَ مِنْ عَبْدٍ،
وَمَا أَجْهَلَكَ مِنْ إِنْسَانٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُسْتَعَانُ، وَإِلَيْهِ الْمُشْتَكَى مِنْ
هَذِهِ النَّفْسِ الْجَاهِلَةِ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، فَهَذِهِ هَذِهِ.

فصل

في من يُعجَبُ بِعَمَلِهِ وَيُنْسِي فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ

وَعَلَى وَجْهِ آخَرَ، الْمَلِكُ الْعَظِيمُ إِذَا أَدِنَ بِإِدْخَالِ الْهَدَايَا إِلَيْهِ،
فَيَدْخُلُ بِحَضْرَتِهِ الْأَمْرَاءَ وَالْكَبْرَاءَ وَالرُّؤَسَاءَ وَالتَّبَلَاءَ وَالْأَغْنِيَاءَ، بِأَنْوَاعِ
الْهَدَايَا مِنَ الْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ وَالذَّخَائِرِ النَّفِيسَةِ وَالْأَمْوَالِ الْجَلِيلَةِ؛ فَإِنْ
جَاءَ بِقَالٍ بِبَاقَةِ بَقْلِ، أَوْ قَرَوِيٍّ بِسَلَّةِ عِنَبٍ تُسَاوِي دَانِقًا أَوْ حَبَّةً،
فَيَدْخُلُ فِي حَضْرَتِهِ وَيُرَاحِمُهُ أَوْلِيكَ الْأَكَابِرِ وَالْأَغْنِيَاءَ بِهَدَايَاهُمْ الْكَثِيرَةَ
الشَّرِيفَةَ، وَهَذَا الْمَلِكُ يَقْبَلُ مِنْ هَذَا الْفَقِيرِ هَدِيَّتَهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ بِنَظَرِ
الْقَبُولِ وَالرِّضَا، وَيَأْمُرُهُ بِأَنْفَسِ خِلْعَةٍ وَكَرَامَةٍ، أَلَا يَكُونُ مِنْهُ ذَلِكَ
عَايَةَ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ؟ فَإِنْ أَخَذَ هَذَا الْفَقِيرُ يَمْنُ بِذَلِكَ عَلَى الْمَلِكِ
وَيُعْجَبُ بِهِ، وَيَسْتَعْظُمُهُ وَيُنْسِي ذِكْرَ مَنَّةِ الْمَلِكِ، أَلَا يَدُنْ هَذَا مَجْنُونٌ
مُضْطَرِبُ الْعَقْلِ، أَوْ سَفِيهُ سَرَى الْخُلُقِ عَظِيمِ الْجَهْلِ؟ فَلَا نَ إِثْنُكَ إِذَا
قُمْتَ لِلَّهِ لَيْلَةً وَصَلَّيْتَ رَكَعَتَ، فَإِذَا فَرَعْتَ فَتَفَكَّرَ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الْخَدَمِ فِي / أَقْطَارِ الْأَرْضِ بَرًّا وَبَحْرَهَا، وَجِبَالَهَا [٨١] أ
وَبِلَادَهَا، مِنْ أَصْنَافِ الْمُسْتَبِيمِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْخَائِفِينَ وَالْمُشْتَأِقِينَ،
وَالْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُتَضَرِّعِينَ. وَكَمْ حَضَرَتْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ بِنَابِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادَةٍ صَافِيَةٍ. وَخِدْمَةٍ خَالِصَةٍ، عَنْ أَنْفُسٍ خَاشِعَةٍ وَأَبْدَانِ
طَاهِرَةٍ، وَعَيُونِ بَاكِئَةٍ وَقُلُوبِ عَامِرَةٍ وَصُدُورِ نَفِيَّةٍ. وَأَرْكَانِ نَفِيَّةٍ.

وَصَلَاتِكَ إِنْ كُنْتَ بَدَلْتَ الْمَجْهُودَ فِي تَحْسِينِهَا وَإِحْكَامِهَا وَإِصْلَاحِهَا،
فَلَا تَكَادُ تَصْلُحُ بِحَضْرَةِ هَذَا الْمَلِكِ، وَلَا تَتَبَيَّنُ فِي جَنْبِ تِلْكَ
الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ هُنَاكَ؛ كَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ مِنْكَ عَنْ قَلْبِ غَافِلٍ
(مُخْتَلِطٍ بِأَنْوَاعِ الْعُيُوبِ، وَبَدَنٍ نَجَسٍ بِأَقْدَارِ الذُّنُوبِ، وَلِسَانٍ)^(١)
مُتَلَطِّخٍ بِأَنْوَاعِ الْمَعْصِيَةِ وَالْفُضُولِ؛ فَكَيْفَ يَصْلُحُ هَذَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَى
تِلْكَ الْحَضْرَةِ، وَكَيْفَ يَسْتَأْهَلُ أَنْ يُهْدَى إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ؟

قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنْظِرْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ، هَلْ وَجَّهْتَ قَطَّ
صَلَاةٍ مِنْ صَلَوَاتِكَ إِلَى السَّمَاءِ، كَمَا نَدَى بَعَثْتَهَا إِلَى بُيُوتِ الْأَغْنِيَاءِ؟

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ يَقُولُ: مَا فَرَعْتُ مِنْ صَلَاةٍ إِلَّا اسْتَحَيْتُ
مِنْهَا حِينَ فَرَعْتُ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ حَيَاءِ أُمْرَأَةٍ فَرَعَتْ مِنَ الزَّانَا. ثُمَّ إِنَّ
الرَّبَّ الْكَرِيمِ سُبْحَانَهُ، بِمَخْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ، عَظَّمَ قَدْرَ هَاتَيْنِ
الرَّكَعَتَيْنِ، وَوَعَدَ عَلَيْهِمَا مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ مَا وَعَدَ، وَأَنْتَ عَبْدُهُ وَفِي
جَرَائِئِهِ، وَعَمِلْتَ مَا عَمِلْتَ بِتَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ تَعَجَّبْتَ بِذَلِكَ
وَتَنَسَى مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْكَ. هَذَا وَإِنَّهُ أَعْجَبُ الْعَجَبِ لَا يَكْدُ يَذْهَبُ مِثْلُهُ
إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ لَا فِكْرَ لَهُ. وَغَافِلٍ لَا ذِهْنَ لَهُ، وَقَلْبٍ مَيَّتٍ خَاوٍ لَا
خَيْرَ فِيهِ، فَهَذِهِ هَذِهِ، نَسْنَا نَنَّا حُسْنَ السَّلَامَةِ بِمَنَّهُ وَفَضْلِهِ.

(١) جملة ساقطة من الأصل. مثبتة في نسخة النسخ.

فصل

في الدعوة إلى التيقُّظ من الغفلة لاجتياز عقبة القوادح

ثُمَّ أَقُولُ بَعْدَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ: تَيْقِظْ مِنْ رَقْدَتِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ فِي هَذِهِ الْعَقْبَةِ وَإِلَّا كُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعَقْبَةَ أَشَدُّ وَأَشَقُّ وَأَمْرٌ وَأَضْرُّ عَقْبَةً أَسْتَقْبَلْتِكَ فِي هَذِهِ الضَّرِيقِ، إِذْ تَنْتَهِي ثَمْرَةٌ كُلِّ مَا مَضَى مِنَ الْعَقَبَاتِ؛ فَإِنْ سَلِمْتَ غَنِمْتَ وَرَبِحْتَ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى، فَقَدْ ضَاعَ السَّعْيُ كُلُّهُ وَخَابَ الْأَمَلُ. وَبَطَلَ الْعُمُرُ.

ثُمَّ الشَّانُ كُنْهُ أَنْ قَدْ جُمِعَ فِي هَذِهِ الْعَقْبَةِ هَهُنَا ثَلَاثَةُ أُمُورٍ هِيَ: أَنَّ الْأَمْرَ دَقِيقٌ جَدًّا. وَنُعْبَنُ شَدِيدًا، وَالْخَطَرَ عَظِيمًا.

١ - أَمَا دِقَّةُ الْأَمْرِ. فَإِنَّ مَجَارِي الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ فِي الْأَعْمَالِ دَقِيقَةٌ خَفِيَّةٌ بِالْغَايَةِ، فَلَا يَكْدُ يَتَنَبَّهُ/ لِذَلِكَ إِلَّا كُنْ نَحْرِيْرٍ فِي أَمْرِ الدِّينِ، بِصِيرٍ يَقْضِي نَقَبٍ مُتَحَرِّزٍ، وَأَنْ يَضِعَ عَيْنَهُ الْجَاهِلُ اللَّعُوبُ، وَالْغَافِلُ الشُّرُءُ؟

وَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ عَمَّائِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ بَنِيَسْبُورَ يَحْكِي أَنَّ عَطَاءَ السُّنَمِيِّ (١) رَحِمَهُ اللَّهُ. نَسَجَ ثَوْبًا فَأَحْكَمَهُ وَحَسَنَهُ جِدًّا، ثُمَّ

(١) وقيل: نسيمي، بفتح نسين وكسر اللام، نسبة إلى سلمة بن مانك، وهم بطن من =

حَمَلَهُ إِلَى الشُّوقِ فَعَرَضَهُ فَأَسْتَرَحَصَهُ الْبِرَّازُ^(١) وَقَالَ: إِنَّ فِيهِ عُيُوبًا كَيْتٌ وَكَيْتٌ؛ فَأَخَذَهُ عَطَاءٌ وَجَلَسَ يَبْكِي بُكَاءً شَدِيدًا، فَندِمَ الرَّجُلُ عَلَى ذَلِكَ، وَجَعَلَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، وَيَبْدُلُ لَهُ فِي ثَمَنِهِ مَا يُرِيدُ؛ فَقَالَ عَطَاءٌ: لَيْسَ ذَلِكَ مَا تَظُنُّ، إِنَّمَا أَنَا عَامِلٌ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، وَقَدْ أَجْتَهَدْتُ فِي إِحْكَامِ هَذَا الثَّوبِ وَإِصْلَاحِهِ وَتَحْسِينِهِ، حَتَّى لَا يُوجَدَ بِهِ عَيْبٌ، فَلَمَّا عَرَضَ عَلَى الْبَصِيرِ بَعِيُوبِهِ، أَظْهَرَ فِيهِ عُيُوبًا كُنْتُ عَنْهَا غَافِلًا، فَكَيْفَ أَعْمَلُنَا هَذِهِ، إِذَا عَرَضْتَ غَدًا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمْ يَبْدُو فِيهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالتَّقْصَانِ، الَّذِي نَحْنُ الْيَوْمَ عَنْهَا غَافِلُونَ؟

وَعَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ: كُنْتُ لَيْلَةً فِي وَقْتِ السَّحْرِ فِي عُرْفَةٍ لِي شَارِعَةٍ أَقْرَأُ سُورَةَ طهَ، فَلَمَّا أَنْ خَتَمْتُهَا غَفَوْتُ غَفْوَةً، فَرَأَيْتُ شَخْصًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِيَدِهِ صَحِيفَةٌ، فَنَشَرَهَا بَيْنَ يَدَيَّ، فَإِذَا فِيهَا سُورَةُ طهَ، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ مُثَبَّتَةٌ إِلَّا كَلِمَةً وَاحِدَةً، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَكَانَهَا مَخُورًا وَلَمْ أَرَ تَحْتَهَا شَيْئًا؛ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَرَأْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَلَا أَرَى لَهَا ثَوَابًا وَلَا أَرَاهَا أُثِبْتُ؛ فَقَالَ الشَّخْصُ: صَدَقْتُ، قَدْ قَرَأْتَهَا وَكَتَبْتَاهَا، إِلَّا أَنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا مِنْ قِبَلِ الْعَرَضِ: أَمْحُوهَا وَأَسْقِطُوا ثَوَابَهَا، فَمَحَوْنَاهَا؛ قَالَ فَبَكَيْتُ فِي مَنَامِي وَقُلْتُ: لِمَ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: مَرَّ رَجُلٌ فَرَفَعَتْ صَوْتَكَ لِأَجَلِهِ فَذَهَبَ ثَوَابُهَا، فَهَذِهِ هَذِهِ.

= الأزد، زاهد مشهور، ويقال له العبدى وهو من صفار التابعين، روى عن أنس بن مالك، وكان يسكن البصرة وسمع من الحسن البصري وجعفر بن زيد، واشتغل بنفسه عن الرواية. وكان قد أزعجه فرط الخوف من الله. سير أعلام النبلاء ٨٦/٦.

(١) البرزاز: صانع البر، وهو الخياط.

٢ - وَأَمَّا شِدَّةُ الْغَنِينِ، فَلِأَنَّ الرِّيَاءَ وَالْعُجْبَ آفَةٌ تَقَعُ فِي لَحْظَةٍ،
فَرُبَّمَا تُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبَادَةَ سَبْعِينَ سَنَةً.

وَحِكْمِي أَنْ رَجُلًا أَضَافَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَصْحَابَهُ
فَقَالَ لِأَهْلِهِ: هَاتُوا الطَّبَقَ لِأَلَّذِي آتَيْتُ بِهِ فِي الْحَجَّةِ الْأُولَى، بَلِ
الَّذِي آتَيْتُ بِهِ فِي الْحَجَّةِ الثَّانِيَةِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سُفْيَانُ وَقَالَ: مِسْكِينٌ قَدْ
أَفْسَدَ عَلَيْهِ بِهَذَا حَجَّتَيْهِ.

وَوَجْهُ آخَرُ فِي الْغَنِينِ، أَنَّ أَقْلَ طَاعَةٍ سَلِمَتْ مِنْ هَذَا الرِّيَاءِ
وَالْعُجْبِ، يَكُونُ لَهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْقِيَمَةِ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ،
وَأَكْبَرُ طَاعَةٍ/ إِذَا أَصَابَتْهَا هَذِهِ الْآفَةُ، بَقِيَتْ لَا قِيَمَةَ لَهَا، إِلَّا أَنْ [٨٢/أ]
يَتَذَارَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى. عَنِ مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:
لَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَقْبُولٌ أَنْبَتَهُ. وَكَيْفَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَقْبُولٌ^(١)؟

وَسُئِلَ التُّخَعِيُّ. عَنْ عَمَلٍ كَذَا وَكَذَا: مَا ثَوَابُهُ؟ فَقَدْ: إِذَا قُبِلَ
لَا يُحْصَى ثَوَابُهُ.

وَعَنْ وَهْبٍ قَالَ: كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، رَجُلٌ عَبَدَ اللَّهَ سَبْعِينَ
عَامًا صَائِمًا، يُفْطِرُ مِنْ سَبْتٍ إِلَى سَبْتٍ، فَطَلَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
حَاجَةً فَلَمْ تُقْضَ، فَجَبَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: مِنْ قَبْلِكَ أُتَيْتُ، لَوْ كَانَ
عِنْدَكَ خَيْرٌ لَقُضِيَتْ حَاجَتِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ فَقَالَ: يَا ابْنَ
آدَمَ، سَاعَتُكَ الَّتِي أَرَزَيْتَ بِنَفْسِكَ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَتِكَ الَّتِي مَضَتْ.

(١) قال الكندي في سراج الضالين (٢/٤٢٢): «قد ورد هذا القول في قوت القلوب
بلفظ: قال علي كرم الله وجهه: كونوا بقبول العمل أشدَّ اهتمامًا منكم بالعمل، فإنه لا
يقبل عمر مع تقوى وكيف يغفل عمر يُتقبل؟»

قلت: فَلْيَنْظُرِ الْعَاقِلُ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ. أَلَيْسَ مِنَ الْغَنِيِّ أَنْ
وَاحِدًا يَكْدُحُ وَيَتَعَبُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَآخَرَ يَتَفَكَّرُ سَاعَةً، فَيَكُونُ فِكْرُهُ
سَاعَةً أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً (عبادة)^(١) وخيراً؟ أَلَيْسَ مِنَ الْغَنِيِّ
الْعَظِيمِ أَنَّكَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ سَاعَةٍ خَيْرٍ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً، وَتَتْرُكُ ذَلِكَ مِنْ
غَيْرِ حَاجَةٍ؟ بَلَى إِنَّهُ لِأَعْظَمُ الْغَنِيِّ، وَإِنْ إِغْفَالُهُ لِأَشَدُّ خُسْرَانًا، وَإِنَّ
الْحِصْلَةَ الَّتِي لَهَا هَذِهِ الْقِيَمَةُ وَالْخَطَرُ، يَجِبُ أَنْ تُحَذَرَ وَتُجْتَنَّبَ،
وَلِمِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا وَقَعَ نَظَرُ أَوْلِي الْأَبْصَارِ مِنَ الْعِبَادِ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الدَّقَائِقِ، وَأَهْتَمُّوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَسْرَارِ بِمَعْرِفَتِهَا أَوْلًا، ثُمَّ رِعَايَتِهَا
وَالْتَحَفُظِ عَنْهَا ثَانِيًا، وَلَمْ تُغْنِهِمْ كَثْرَةُ الْأَعْمَالِ بِالظَّاهِرِ، وَقَالُوا:
السَّأْنُ فِي الصَّفْوَةِ لَا فِي الْكَثْرَةِ، وَقَالُوا: جَوْهَرَةٌ وَاحِدَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ
خَرَزَةٍ.

وَأَمَّا الَّذِينَ قَلَّ عِنْمُهُمْ. وَكَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ نَظْرُهُمْ. فَجَهَلُوا
الْمَعَانِي، وَأَغْفَلُوا مَا فِي نُتُوبِ مِنَ الْعُيُوبِ، وَأَشْتَعَبُوا بِاتِّعَابِ
النُّفُوسِ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ. وَالْإِمْسَاكِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَنَحْوِهِ،
فَغَرَّهُمُ الْعَدَدُ وَالْكَثْرَةُ. وَلَمْ يَنْظُرُوا مَا فِيهَا مِنَ الْمُخْتَلَفِ وَالصَّفْوَةِ،
وَمَا يُعْنِي عَدَدُ الْجُوزِ وَلَا نَبْ فِيهَا؟ وَمَا يَنْفَعُ رَفْعُ السُّتُوفِ وَلَمْ

(١) لفظة ساقطة من الأصل. مثبتة في باقي النسخ.

(٢) منح: منح كل شيء: خالصه. ومنح العباد: أصله ونغرض منها، ومنه
قوله ﷺ: الدعاء منح عبادة. فهو امثال أمر الله تعالى حيث قال: ﴿ادعوني
أستجب لكم﴾، فهو محض العبادة وخالصها، وهو أيضاً توجه إلى الله وحده وقض
الأمر عن سواه، وهذا هو أصل عبادة.

تُحَكِّم مَبَانِيهَا؟ وَمَا يَعْقِلُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ إِلَّا الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ
الْمُكَاشِفُونَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ.

٣ - وَأَمَّا عَظْمُ الْخَطَرِ فَمِنْ وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ:

١ - مَلِكٌ لَا نِهَايَةَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

٢ - وَلَهُ عَلَيْكَ نِعْمٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى.

٣ - وَلَكَ بَدَنٌ / مَعِيْبٌ بِمُعْيُوبٍ خَفِيَّةٍ، مُؤَوِّفٌ^(١) بِآفَاتٍ كَثِيرَةٍ. [٨٢/ب]

٤ - وَأُمُورٌ مَخُوفَةٌ إِنْ وَقَعَ زَلَلٌ مَعَ تَسَارُعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ، فَتَحْتَاجُ
أَنْ تَسْتَخْرِجَ عَمَلًا صَالِحًا صَافِيًا سَالِمًا مِنْ بَدَنِ مَعِيْبٍ وَنَفْسٍ مَائِلَةٍ
إِلَى الشَّرِّ، أَمَّارَةٌ بِالشَّرِّ عَلَى وَجْهِهِ يَصْلُحُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِي جَلَالِهِ
وَعَظَمَتِهِ، وَكَثْرَةِ أَيَادِيهِ وَمِنْتِهِ. وَيَقَعُ مِنْهُ مَوْعِدُ الرِّضَا وَالْقَبُولِ، وَإِلَّا
فَيَقُوتُكَ الرَّبْحُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا تَسْمَعُ النَّفْسُ بِفَوْتِهِ، بَلْ رُبَّمَا يُصِيبُكَ
فِيهِ مُصِيبَةٌ لَا طَاقَةَ لَكَ بِهَا. وَهَذَا وَاللَّهِ شَأْنٌ عَظِيمٌ وَخَطْبٌ جَسِيمٌ.

١ - وَأَمَّا جَلَالُ الْمَلِكِ وَعَظَمَتُهُ بِحَيْثُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبِينَ
الْأَبْرَارَ، قَائِمُونَ لَهُ بِالْخِدْمَةِ نَدَى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ حَتَّى إِنْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ
مُنْذُ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِيَمِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي رُكُوعٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ
هُوَ فِي سُجُودٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ، فَلَا يُتِمُّ الْقَائِمُ
قِيَامَهُ. وَلَا الرَّائِعُ رُكُوعَهُ. وَلَا السَّاجِدُ سُجُودَهُ. وَلَا الْمُسَبِّحُ
تَسْبِيحَهُ، مَاذَا بِهِ صَوْتَهُ إِذْ تَنَحَّى الصُّورَ؛ ثُمَّ لَمَّا فَرَعُوا مِنْ هَذِهِ

(١) مؤوف: أُنصبت آفة، ونفس يفت كتيل فهو مؤوف ومثيف.

الْخِدْمَةِ الْعَظِيمَةِ، نَادَوْا بِأَجْمَعِهِمْ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ .
وهَذَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَخَيْرُ الْعَالَمِينَ، أَعْلَمُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُهُمْ،
مُحَمَّدٌ ﷺ يَقُولُ: «لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ» (١)
يَقُولُ: أَنَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أُثْنِيَ عَلَيْكَ ثَنَاءً أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ، فَضَلًّا عَنْ
أَنْ أَعْبُدَكَ كَمَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ: «لَيْسَ أَحَدٌ يَدْخُلُ
الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ
يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ» (٢).

(١) — هذا جزء من حديث رواه مسلم (٣٥٢/١) كتاب الصلاة: باب ما يقال في
الركوع والسجود، ورقه الحديث (٢٢٢) وهو دعاء ولفظه: «اللهم أعوذ برضاك
من سخطك، وبمعاذتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك
أنت كما أثنت على نفسك».

— كذلك رواه مالك في الموطأ (١٦٧/١) باب ما جاء في الدعاء.

— ورواه أيضا أبو داود في سننه (٥٤٧/١) كتاب الصلاة: باب الدعاء في
الركوع والسجود، الحديث رقم (٨٧٩) والروايات الثلاثة السابقة كلها عن عائشة
رضي الله عنها.

— كذلك أخرجه ابن ماجه عن علي بن أبي طالب، كواحد من أدعية الوتر
(٣٧٣/١) كتاب إقامة الصلاة. باب ما جاء في القنوت والوتر الحديث رقم
(١١٧٩) ثم عاد ابن ماجه وأخرجه برواية ثانية عن عائشة رضي الله عنها
(١٢٦٣/٢) في كتاب الدعاء. حديث رقم (٣٨٤١).

— وأخرجه الإمام أحمد عن عبيد بن أبي طالب رضي الله عنه (٩٦/١)، ١١٨،
(١٥٠) وعن عائشة أيضا (٥٨/٦) وتتفق جميع الروايات في جميع كتب السنة
على ألفاظ هذا الحديث بلا زيادة ولا نقصان. ورواه أيضا النسائي في قيام
النبي. والترمذي في الدعوات.

(٢) — رواه البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يدخل
أحد عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن =

٢ - وَأَمَّا النَّعْمُ وَالْأَيَادِي، فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَعَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُ يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى ثَلَاثَةِ دَوَاوِينَ: دِيْوَانَ الْحَسَنَاتِ، وَدِيْوَانَ السَّيِّئَاتِ، وَدِيْوَانَ النَّعْمِ، فَتَقَابُلُ الْحَسَنَاتِ بِالنَّعْمِ، فَلَا يُؤْتَى بِحَسَنَةٍ إِلَّا أُتِيَ بِنِعْمَةٍ، حَتَّى تَعَمَّ الْحَسَنَاتُ بِالنَّعْمِ، وَتَبْقَى السَّيِّئَاتُ وَالذُّنُوبُ؛ فَلِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا الْمَشِيئَةُ.

٣ - وَأَمَّا عُيُوبُ النَّفْسِ وَأَفَاتُهَا فَقَدْ قَدَّمْنَا فِي بَابِهَا.

٤ - وَالْأَمْرُ الْمَخُوفُ أَنَّ الْعَبْدَ يَكْدَحُ وَيَذْأَبُ سَبْعِينَ سَنَةً غَافِلًا عَنِ عُيُوبِهِ وَأَفَاتِهِ؛ فَرُبَّمَا لَا يَكُونُ وَاحِدًا مِنْهَا مَقْبُولًا، وَرُبَّمَا يَتَّعَبُ

= يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب» (١٥٧/٧) (كتاب المرضى).

— كذلك رواه البخاري أيضاً (كتاب ترقاق ١٢٣/٨) عن عائشة.
— ورواه مسلم في صحيحه (٤/٢١٦٩)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله عن أبي هريرة بلفظ: «لن ينجي أحداً منكم عمله...».

— وكذلك رواه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة (كتاب لزهد، باب التوقي على العمل ١٤٠٥/٢ الحديث رقم ٤٢٠١، وأشار إلى حسن إسنده كما يقول الهيثمي في الزوائد).

— ورواه الدارمي في سننه (٢/٣٠٥، باب لا ينجي أحدكم عمه) عن جابر، والمعنى واحد.

— ويروي ابن حنبل هذا الحديث في مسنده خمساً وعشرين مرة عن أبي هريرة وعن أبي سعيد الخدري، وعن جابر بن عبد الله، وعن عائشة وبإقفاظ متقاربة مع إضافة عبارة (ولا ينجي من النار).

— راجع ابن حنبل (٢/٢٣٥، ٢٥٦، ٢٦٤...).

أَعْوَاماً فَتَفْسُدُ، بِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ رَبَّمَا يُنْظَرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْعَبْدِ وَهُوَ يُرَائِي النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَخِدْمَتِهِ، جَعَلَ/ [أ/٨٣] ظَاهِرُهُ لِلَّهِ، وَقَلْبُهُ وَبَاطِنُهُ لِلْخَلْقِ، فَيَطْرُدُهُ طَرْدًا لَا مَرَدَّ لَهُ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

روايات
عن عدم رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ:
أَقَامَنِي اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ يَا حَسَنُ: أَتَذْكُرُ يَوْمَ كُنْتَ تُصَلِّي فِي
الْمَسْجِدِ، إِذْ رَمَقَكَ النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ فَزِدْتَ حُسْنًا لِصَلَاتِكَ، فَلَوْلَا أَنَّ
أَوَّلَ صَلَاتِكَ كَانَ لِي خَالِصًا، لَطَرَدْتُكَ الْيَوْمَ عَنْ بَابِي، وَلَقَطَعْتُكَ
عَنِّي مَرَّةً وَاحِدَةً.

رَابِعَةُ الْعَدْوِيَّةُ
وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْجُمْلَةِ مِنَ الدَّقَّةِ وَالصُّعُوبَةِ إِلَى حَدِّ عَظِيمٍ،
نَظَرَ أُولُو الْأَبْصَارِ فِيهِ، فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَا
يَلْتَفِتُ إِلَى جَمِيعِ مَا يُضْهِرُ لِلنَّاسِ مِنْ أَعْمَالِهِ، حَتَّى حُكِيَ عَنْ رَابِعَةَ^(١)
أَنَّهَا قَالَتْ: مَا ظَهَرَ مِنْ أَعْمَالِي لَا أَعِدُّهُ شَيْئًا؛ وَقَالَ آخَرُ: أَكُتْمُ
حَسَنَاتِكَ كَمَا تَكُتْمُ سَيِّئَاتِكَ. وَآخَرُ يَقُولُ: إِنْ أَمَكَّنَكَ أَنْ تَجْعَلَ لَكَ
حَبْنًا مِنَ الْخَيْرِ فَافْعَلْ، قَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قِيلَ لِرَابِعَةَ: بِمَ تَرَبِّحِينَ أَكْثَرَ مَا
تَرْتَبِحِينَ؟ فَقَالَتْ: بِيَأْسِي مِنْ جُلِّ عَمَلِي.

وَحُكِيَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، فَقَالَ
مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: إِمَّا طَعَةُ اللَّهِ أَوْ النَّارُ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ^(٢): إِمَّا

(١) البصرية، الزاهدة، العابدة، الخشعة، أم عمرو رابعة بنت إسماعيل قيل: عاشت
ثمانين سنة، وتوفيت سنة ثمانين ومئة. سير أعلام النبلاء ٨ ٢١٥.
(٢) الإمام الرباني، القدوة، أبو بكر الأزدي البصري العابد، وكان رحمه الله يقول: =

رَحْمَةُ اللَّهِ أَوْ النَّارُ، فَقَالَ مَالِكٌ: مَا أَحْوَجَنِي إِلَى مُعَلِّمٍ مِثْلِكَ.

وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ الْبَسْطَامِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَابَدْتُ الْعِبَادَةَ ثَلَاثِينَ أَبُو يَزِيدَ
سَنَةً، فَرَأَيْتُ قَائِلًا يَقُولُ لِي: يَا أَبَا يَزِيدَ: خَزَائِنُهُ مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ، الْبَسْطَامِيُّ
فَإِنْ أَرَدْتَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ فَعَلَيْكَ بِالذَّلَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ.

وَسَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا الْحَسَنِ، يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي الْفَضْلِ
رَحِمَهُمَا اللَّهُ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا أَعْمَلُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ غَيْرُ
مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَأَجَابَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا
يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفِعْلُ حَتَّى يَكُونَ مَقْبُولًا وَأَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ أَقُومُ بِذَلِكَ،
فَعَلِمْتُ أَنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ؛ قِيلَ لَهُ: فَلِمَ تَفْعَلُهَا؟ قَالَ عَسَى أَنْ
يُصَلِحَنِي اللَّهُ تَعَالَى يَوْمًا فَتَكُونَ التَّنَسُّرُ مُتَعَوِّدَةً لِعَمَلِ الْخَيْرِ؛ أَفَلَا
أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أُعَوِّدَهُ ذَلِكَ مِنَ الرَّأْسِ؟ فَهَذِهِ حَالُ هَؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ،
وَذَوِي الْمَجَاهِدَاتِ وَالْأَقْدَارِ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: [الكامل]:

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ صُحْبَةً مَعَ غَيْرِهِمْ وَقَعَ الْأَيَّاسُ وَخَابَتِ الْأَمَالُ
هَيْهَاتَ تُذْرِكُ بِنَتَوَانِي سَادَةً كَدُّوا الثُّفُوسَ وَسَاعَدَ الْإِقْبَانُ/ [ب/٨٣]

ثُمَّ رَأَيْتُ أَنِّي أُثَبِّتُ هَهُنَا الْخَيْرَ الْمَأْثُورَ عَنِ الصَّدِيقِ الْمَصْدُوقِ،
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ كِتَابٍ.

رُويَ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ رَجُلٍ (وَهُوَ خَالِدُ بْنُ حَدِيثِ بَعَاذِ

= من زهد في الدنيا فقد مت الدنيا والآخرة. ويقول أيضاً: من نبر بقلبه على الله
أقبل الله بقلوب العباد إليه. حدث عن أنس بن مالك ومحمد بن سيرين
وغيرهم. وهو قليل الرواية. مات سنة ثلاث وعشرين ومئة أو سبع وعشرين
ومئة كما في رواية أخرى. سير أعلام النبلاء ٦/١١٩.

مَعْدَانَ^(١) (٢) أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَدَّثَنِي حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَفِظْتُهُ وَذَكَرْتُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ شِدَّتِهِ وَدِقَّتِهِ، قَالَ نَعَمْ، ثُمَّ بَكَى بُكَاءً طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: وَأَشَوْقَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى لِقَائِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ رَكِبَ وَأُردَفَنِي، ثُمَّ سِرْنَا فَرَفَعَ بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَقْضِي فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ. يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، قَالَ: أَحَدُثُكَ بِحَدِيثٍ إِنْ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ ضَيَعْتَهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَا مُعَاذُ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاقٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، لِكُلِّ سَمَاءٍ مَلَكًا، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَوَاتِ مَلَكًا بَوَّابًا عَلَى قَدْرِ الْبَابِ وَجَلَالَتِهِ، فَتَضَعُ الْحَفِظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ، لَهُ نُورٌ وَشُعَاعٌ كَالشَّمْسِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، وَالْحَفِظَةُ تَسْتَكْثِرُ عَمَلَهُ وَتُرَكِّبُهُ، فَإِذَا أَنْتَهَى إِلَى الْبَابِ قَالَ الْمَلِكُ لِلْحَفِظَةِ: أَضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، أَنَا صَاحِبُ الْغَيْبَةِ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلًا مِنْ يَغْتَابُ النَّاسَ يُتَجَاوَرَنِي إِلَيَّ غَيْرِي.

العمل
والغيبه

ثُمَّ يَجِيءُ الْحَفِظَةُ مِنَ الْغَدِ، مَعَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ، لَهُ نُورٌ، تَسْتَكْثِرُهُ الْحَفِظَةُ وَتُرَكِّبُهُ حَتَّى إِذَا أَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ قَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ: قِفُوا وَأَضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ عَرْضَ

العمل
والدنيا

(١) هو أبو عبد الله الكلاعي الشامي ثقة، عابد. شيخ أهل الشام، حدث عن خلق من الصحابة، وهو معدود من أئمة الفقه، وثقه ابن سعد والعجلي والنسائي. مات سنة خمس ومئة للهجرة. سير أعلام النبلاء ٥٣٦/٤.

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة في باقي النسخ.

الدُّنْيَا، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي. فَتَلَعْتُهُ
المَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِي.

وَتَصَعَدُ الحَفِظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ مُبْتَهَجًا، فِيهِ صَدَقَةٌ وَصِيَامٌ وَكَثِيرٌ مِنَ العَمَلِ
مِنَ البَرِّ، فَتَسْتَكْرِهُ الحَفِظَةُ وَتُزَكِّيهِ، فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، وَالكِبَرِ
قَالَ المَلِكُ البَوَّابُ: قِفُوا وَأَضْرِبُوا بِهَذَا العَمَلِ وَجَهَ صَاحِبِهِ، أَنَا
المَلِكُ صَاحِبُ الكِبَرِ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُتَجَاوَزُنِي إِلَى
غَيْرِي، إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ.

وَتَصَعَدُ الحَفِظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ وَهُوَ يَزْهُو كَمَا تَزْهُو الثُّجُومُ مِنَ العَمَلِ
وَالكَوَكَبُ الدَّرِّيُّ، لَهُ دَوِيٌّ وَتَسْبِيحٌ بِصَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ، فَإِذَا
انْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، قَالَ المَلِكُ المُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوا وَأَضْرِبُوا
بِهَذَا العَمَلِ وَجَهَ/ صَاحِبِهِ، أَنَا المَلِكُ صَاحِبُ الإِعْجَابِ، أَمَرَنِي رَبِّي [٨٤/أ]
أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي، إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَدْخَلَ
العُجْبَ فِيهِ.

وَتَصَعَدُ المَلَائِكَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ يُرْفُ كَمَا تُرْفُ العُرُوسُ إِلَى العَمَلِ
أَهْلِهَا، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ بِذَلِكَ العَمَلِ الحَسَنِ مِنَ العَمَلِ
جِهَادٍ وَحَجٍّ لَهُ ضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ، فَيَقْرَأُ المَلِكُ المُوَكَّلُ: أَنَا
المَلِكُ صَاحِبُ الحَسَدِ. إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ، فَقَدْ سَخِطَ مَ رَضِيَ اللَّهُ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ
يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي.

وَتَصَعَدُ المَلَائِكَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ بِوُضُوءٍ تَامٍّ، وَصَلَاةٍ كَثِيرَةٍ وَصِيَامٍ مِنَ العَمَلِ
وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ فَيَتَجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَيَقْرَأُ لَهُمُ المَلِكُ
المُوَكَّلُ بِالنَّبِيِّ: أَنَا صَاحِبُ نَرْحَمَةِ، أَضْرِبُوا بِهَذَا العَمَلِ وَجَهَ
والرحمة

صَاحِبِهِ، إِنَّهُ لَمْ يَرْحَمْ قَطُّ إِنْسَانًا، وَإِنْ أُصِيبَ عَبْدٌ شِمِتَ بِهِ؛ أَمْرِي
رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي.

العمل والذكر وَتَصَعَّدُ الْمَلَائِكَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ، بِنَفَقَةٍ كَثِيرَةٍ وَصَوْمٍ وَصَلَاةٍ
وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ، لَهُ صَوْتُ كَصَوْتِ الرَّعْدِ، وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الْبَرْقِ، فَإِذَا
أَنْتَهَوْا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ يَقُولُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالسَّمَاءِ: أَنَا صَاحِبُ
الذِّكْرِ، إِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْعَمَلِ أَرَادَ بِهِ الذِّكْرَ فِي الْمَجَالِسِ، وَالرَّفْعَةَ
عِنْدَ الْقُرَاءِ، وَالْجَاهَةَ عِنْدَ الْكِبَرَاءِ، أَمْرِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ
يُتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ، وَلَا
يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلَ الْمُرَائِي.

العمل والإخلاص وَتَصَعَّدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ
وَعُمُرَةٍ وَحَجٍّ وَخَلْقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتُشِيعُهُ مَلَائِكَةُ
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، حَتَّى تَنْفُذَ الْحُجُبَ كُلَّهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيَقِفُونَ
بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ. وَيَشْهَدُونَ بِالْعَمَلِ الصَّحِيحِ الْمُخْلِصِ،
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْتُمْ أَحْفَظَةُ عَلَيَّ عَمَلِ عَبْدِي، وَأَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيَّ
مَا فِي نَفْسِهِ، إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهَذَا الْعَمَلِ، وَلَا أَخْلَصَهُ لِي. وَأَنَا أَعْلَمُ
بِمَا أَرَادَ بِعَمَلِهِ؛ عَلَيْهِ نَعْتِي. غَرَّ الْأَدَمِيِّينَ وَغَرَّكُمْ وَنَهَى بَعْرُنِي وَأَنَا
عَلَامُ الْغُيُوبِ، الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ، لَا تَخْفَى عَلَيَّ خَافِيَةٌ،
وَلَا تَعْرُبُ عَلَيَّ عَازِبَةٌ؛ عِنْمِي بِمَا كَانَ، كَعِلْمِي بِمَا لَمْ يَكُنْ، وَعِلْمِي
بِمَا مَضَى، كَعِلْمِي بِمَا بَقِيَ؛ وَعِلْمِي بِالْأَوَّلِينَ، كَعِلْمِي بِالْآخِرِينَ؛
أَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، فَكَيْفَ يَغُرَّنِي عَبْدِي بِعَمَلِهِ؟ إِنَّمَّا يَغُرُّ الْمَخْلُوقِينَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ، عَلَيْهِ لَعْنَتِي. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ
[٨٤ ب] السَّبْعَةُ وَالثَلَاثَةُ / الْأَلْفَ وَالْمُشِيعُونَ: يَا رَبَّنَا عَيْبَهُ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا؛

وَتَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ» ثُمَّ بَكَى مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْتَحَبَ أَنْتَحَاباً شَدِيداً، وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَيْفَ النَّجَاةُ مِمَّا ذَكَرْتُ؟ قَالَ: «يَا مُعَاذُ أَقْتَدِ بِبَنِيكَ فِي الْيَقِينِ». قُلْتُ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، كَيْفَ لِي النَّجَاةُ وَالْخَلَاصُ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا مُعَاذُ، إِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ تَقْصِيرٌ، فَاقْطَعْ لِسَانَكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ فِي النَّاسِ، وَعَنْ إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ خَاصَّةً، وَلِيُرِدَّكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ فِي النَّاسِ مَا تَعَلَّمَهُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِكَ، وَلَا تُرِكَ نَفْسَكَ بِذِمِّ إِخْوَانِكَ، وَلَا تَرْفَعْ نَفْسَكَ بِوَضْعِ إِخْوَانِكَ، وَلَا تُرَأِّ بِعَمَلِكَ كَيْ تَعْرِفَ فِي النَّاسِ، وَلَا تَدْخُلْ فِي الدُّنْيَا دُخُولاً يُنْسِيكَ أَمْرَ الْآخِرَةِ، وَلَا تُتَاجِرَ رَجُلًا وَعِنْدَكَ آخَرُ، وَلَا تَتَعَطَّمْ عَلَى النَّاسِ فَتَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا تَفْحَشْ فِي مَجْلِسِكَ كَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ، وَلَا تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلَابُ جَهَنَّمَ» قَوْلُهُ: ﴿وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ٢] يَقُولُ: تَنْزِعُ اللَّحْمَ عَنِ الْعِظَامِ؛ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيقُ هَذِهِ الْخِصَالَ؟ قَالَ: «يَا مُعَاذُ إِنَّ الَّذِي وَصَفْتُ لَكَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتُكْرَهُ لَهُمْ مَا تُكْرَهُ لِنَفْسِكَ؛ فَإِذَنْ أَنْتَ قَدْ سَلِمْتَ»^(١).

(١) - أورد الغزالي هذا الحديث بطوله، وأسند روايته إلى عبد الله بن المبارك عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ. وذكر الغزالي هذا الحديث في الإحياء (٢٩٥/٣) في ربيع المهلكات، باب الرياء وما ورد في ذمه. وأخرجه الإمام العراقي فقال: (رواه بن المبارك في الزهد، وفي إسنده كما ذكر من لم يُسَمِّ) إشارة إلى أن الغزالي غفل في الإحياء ذكر اسم الرجل الذي نقل عنه ابن المبارك رواية معاذ بن جبل. علماً بأن الغزالي ذكر هنا في منهاج العابدين أن =

قَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: وَكَانَ مُعَاذٌ لَا يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ،
كَمَا يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ هَذَا الْحَدِيثِ وَذَكَرَهُ فِي مَجْلِسِهِ.

العودة
إلى الله خَطَرُهُ، الْأَلِيمَ أَثَرُهُ، الَّذِي تَطِيرُ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَحِيرُ لَهُ الْعُقُولُ، وَتَضِيقُ
عَنْ حَمَلِهِ الصُّدُورُ، وَتَجْزَعُ مِنْ هَوْلِهِ النَّفُوسُ؛ فَاعْتَصِمَ بِمَوْلَاكَ إِلَهِ
الْعَالَمِينَ، وَالزَّمِ الْبَابَ بِالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ وَالْبُكَاءِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ
النَّهَارِ مَعَ الْمُتَضَرِّعِينَ الْمُبْتَهِلِينَ، فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا
بِرَحْمَتِهِ، وَلَا سَلَامَةَ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ إِلَّا بِنَظَرِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَعِنَايَتِهِ، فَتَنَبَّهْ
مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ، وَاعْقِلِ الْأَمْرَ حَقَّهُ، وَجَاهِدْ نَفْسَكَ فِي هَذِهِ الْعَقَبَةِ
الْمَخُوفَةِ لَعَلَّكَ لَا تَهْلِكَ مَعَ الْهَالِكِينَ، وَالْمُسْتَعَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ
حَالٍ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ مُعِينٍ، وَهُوَ تَعَالَى أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا
[٨٥/أ] قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

= الرجل هو خالد بن معدان، ولعن العراقي له يطنع على هذه الرواية. ثم يضيف
العراقي: (رواه ابن الجوزي في لموضوعات).

فصل في الإخلاص لله بالطاعة

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ، فَرَأَيْتَ قَدَرَ طَاعَةِ اللَّهِ
تَعَالَى وَرَأَيْتَ عَجْزَ الْخَلْقِ وَضَعْفَهُمْ وَجَهْلَهُمْ، فَلَا تَلْتَفِتَ إِلَيْهِمْ
بِقَلْبِكَ، وَكُنْ زَاهِدًا فِي ثَنَانِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ، الَّذِي لَا فَائِدَةَ
تَحْتَهُ، فَلَا تُرِدُ بِطَاعَتِكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِذْ رَأَيْتَ خِصَّةَ الدُّنْيَا
وَحَقَارَتَهَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا. فَلَا تُرِدْهَا أَيْضًا بِطَاعَتِكَ، وَتَقُولُ: يَا نَفْسُ
أَتُنَاءُ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَشَكَرُهُ وَبِعِزَّازِهِ خَيْرٌ أَمْ ثَنَاءُ الْمَخْضُوقِينَ الْعَاجِزِينَ
الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قَدَرَ عَمَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ وَمَا تَحَمَّلْتَ فِيهِ وَمَا
يَلْغُونَ حَقَّكَ فِيمَا عَمِيتَ وَتَحَمَّلْتَ؟ بَلْ رَبُّمَا يُفَضِّلُونَ عَيْنِكَ مَنْ هُوَ
أَدْوَنُ حَالًا بِالْأَلْفِ دَرَجَةٍ. وَيُضَيِّعُونَكَ فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ وَيُنْسُونَكَ؛
وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فَمَدَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بِأَيْدِيهِمْ وَإِلَى مَاذَا تَبْلُغُ
قُدْرَتُهُمْ، ثُمَّ هُمْ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ. وَإِلَى مَا
يَشَاءُ؟ فَاعْقِلِي أَيْتَهَا النَّفْسُ. وَلَا تُضَيِّعِي طَاعَاتِكَ الْعَزِيزَةَ بِهِمْ، وَلَا
يَقُوتِكَ نَدَاءً مِنْ ثَنَاؤُهُ كُلِّ فَخْرٍ. وَعَطَاءً مِنْ عَطَاؤُهُ كُلِّ دُخْرِ. وَلَقَدْ
صَدَقَ الْقَدِيرُ: [الكامل]:

سَهْرُ الْعُيُونِ بَعِيرٌ وَجِهَتِكَ بِظُلْمٍ وَبُكَاءُهُنَّ لِعَبْرِ عَفْوِكَ ضَائِعٌ

وَقُلْ: يَا نَفْسُ، أَجِنَّةُ الْخُلْدِ خَيْرٌ أَمْ لَطَخَةٌ مِنْ حَرَامِ الدُّنْيَا
 وَحُطَامِهَا التَّكْدِ الْفَانِي؟ وَأَنْتِ مُتَمَكِّنَةٌ مِنْ أَنْ تُحْصَلِي بِطَاعَتِكَ هَذَا
 النَّعِيمَ الْمُقِيمَ، فَلَا تُكُونِي خَسِيسَةَ الْهَمَّةِ، رَدِيئَةَ الْإِرَادَةِ، دَنِيئَةَ
 الْأَفْعَالِ، أَمَا تَرَيْنَ الْحَمَامَ إِذَا كَانَ سَمَاوِيًّا^(١)، كَيْفَ تَعْلُو قِيَمَتَهُ
 وَيَزْدَادُ قُدْرَهُ؟ فَارْفَعِي هِمَّتَكَ كُلَّهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَجَرِّدِي قَلْبَكَ لِلَّهِ
 تَعَالَى الْوَاحِدِ، الَّذِي بِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَلَا تُضَيِّعِي مَا ظَفِرْتِ بِهِ مِنْ
 طَاعَتِكَ بِلَا شَيْءٍ. وَكَذَلِكَ إِذَا أَحْسَنْتِ التَّأَمُّلَ فَرَأَيْتِ أَيَادِي اللَّهِ تَعَالَى
 وَمِنَّةَ الْعِظَامِ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ، بَأَنْ أَمَكَّنَكَ مِنْهَا وَأَعْطَاكَ الْآلَةَ
 أَوَّلًا، ثُمَّ أَزَاحَ عَنْكَ الْعَائِقَ حَتَّى تَفَرَّغْتَ لَهُذِهِ الطَّاعَةِ ثَانِيًا، ثُمَّ
 خَصَّكَ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ، وَبَسَّرَهَا عَلَيْكَ وَزَيَّنَهَا فِي قَلْبِكَ، حَتَّى
 عَمَلْتَهَا ثَالثًا، ثُمَّ مَعَ جَلَالَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْكَ وَعَنْ طَاعَتِكَ،
 وَكَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْكَ أَعَدَّ لَكَ عَلَى هَذَا/ الْعَمَلِ الْيَسِيرِ، الثَّنَاءَ الْجَزِيلَ [ب/٨٥]
 وَالثَّوَابَ الْعَظِيمَ مَا لَا تَسْتَحْقِينَهُ رَابِعًا، ثُمَّ شَكَرَكَ عَلَى ذَلِكَ وَأَثْنَى
 عَلَيْكَ وَأَحَبَّكَ بِذَلِكَ حَمِيسًا، هَذِهِ كُلُّهَا بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ لَا غَيْرُ، وَإِلَّا
 فَبَائِي أَسْتَحْقَاقِي لَكَ، وَأَيُّ قَدْرِ لِعَمَلِكَ الْحَقِيرِ، الْمَعْيُوبِ؟ فَادْكُرِي
 أَيُّهَا النَّفْسُ مَنَّةَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَهُ، فِيمَا أَحْسَنَ إِلَيْكَ فِي
 هَذِهِ الطَّاعَةِ، وَأَسْتَخِيبِي مِنْ أَنْ تَلْتَفِتِي إِلَى عَمَلِكَ، بَلِ الْفَضْلُ
 وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا بِكُلِّ حَالٍ، فَلَا يَكُونُ لَكَ شُغْلٌ بَعْدَ حُصُولِ
 هَذِهِ الطَّاعَةِ إِلَّا التَّضَرُّعُ وَالِإِتِهَالُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَتَبَلَّلَهَا. أَمَا
 تَسْمَعُ قَوْلَ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَمَّا فَرَّغَ مِنْ خِدْمَتِهِ
 فِي بِنَاءِ بَيْتِهِ، كَيْفَ أَبْتَهَلَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالْقَبُولِ، فَقَالَ:

(١) الحمام السماوي: الحمام المرتفع في طيرانه.

﴿ رَبَّنَا لَقَبَلْنَا مِنْكَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ قَالَ: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَنَا ﴾ [إبراهيم: ٤٠] فَلَمَّا مَنَّ عَلَيْكَ بِقَبُولِ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُزْجَاةِ، فَلَقَدْ أَكْمَلَ الْمِنَّةَ وَأَعْظَمَ النُّعْمَةَ، وَيَا لَكَ مِنْ سَعَادَةٍ وَدَوْلَةٍ وَعِزٍّ وَرَفْعَةٍ، وَكَمْ تَرَيْنَ لَدُنْكَ مِنْ خِلْعَةٍ وَنِعْمَةٍ، وَذُخْرِ وَكَرَامَةٍ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَيَا لَكَ مِنْ خُسْرَانٍ وَغَبْنٍ وَحِرْمَانٍ. فَاهْتَمَّ وَأَشْتَغَلَ بِهَذَا الشَّأْنِ، فَإِذَا وَاطَبَتْ عَلَى مِثْلِ هَذَا وَكَرَّرْتَهُ عَلَى قَلْبِكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْ طَاعَتِكَ، وَأَسْتَعْنَتْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، صَرَفَكَ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْخَلْقِ وَالنَّفْسِ، وَسَهَّلَكَ عَنْ مُرَاءَاةِ وَإِعْجَابِ، وَبَعَثَكَ عَلَى مَحْضِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الطَّاعَاتِ، وَالتَّمَسُّكِ بِذِكْرِ مِنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ. وَيَحْصُلُ لَكَ أَرْجَى طَاعَاتٍ ضَاهِرَةٍ لَا غَيْبَ فِيهَا، وَخَيْرَاتٍ خَائِصَةٍ لَا شَوْبَ فِيهَا، وَعِبَادَاتٍ مَقْبُولَةٍ لَا نَقْصَ فِيهَا، بَلْ مِثْلُ هَذِهِ نَضْعَةٍ. وَإِنْ حَصَلَتْ فِي الْعُمُرِ مَثَلًا مَرَّةً وَاحِدَةً لَا غَيْرُ، فَإِنَّهَا بِحَقِيقَتِهَا كَبِيرَةٌ. لَعَمْرِي وَإِنَّهَا وَإِنْ قَرَّ عَدَدُهَا نَقْدًا كَثُرَ مَعْنَاهَا وَعَظُمَ قَدْرُهَا. وَكَثُرَ نَفْعُهَا وَطَابَ عُقْبَاهَا. وَرَبُّكَ تَوَفَّقَ لِمِثْلِهَا عَزِيزٌ، وَالنَّفْصُ بِهِ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ لِكَبِيرِهِ. فَأَيُّ هِدْيَةٍ جَلُّ مِنْ هِدْيَةٍ يَقْبَلُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَيُّ سَعْيٍ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيٍ بِشُكْرِهِ وَيُثْنِي عَلَيْهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَيُّ بِضَاعَةٍ أَعَزُّ مِنْ بِضَاعَةٍ خُتِرَتْ وَرَضِيَهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

فَقَامَلْ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ. وَرَبِّكَ/ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَغْبُورِينَ، وَإِذَا [٨٦] جَرَى الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الْجَنِيَّةِ. كُنْتَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ تَهْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْخَالِصِينَ. الذَّاكِرِينَ لِمِنَّةِ الْمَرَضِيِّينَ، وَكُنْتَ قَدْ حَنَنْتَ هَذِهِ الْعَقَبَةَ الْمَخُوفَةَ. وَسَنِمْتَ مِنْ فَتْيَاهَا، وَسَبَقْتَ بِخَيْرَاتِهَا وَتَمَرَّتْهَا فَائِزًا إِلَى

الأبَدِ بِكَرَامَاتِهَا وَسَعَادَاتِهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيَّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ بِمَنِّهِ
وَفَضْلِهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

العقبة السابعة: وهي عقبة الحمد والشكر

عَلَيْكَ، وَفَكَ اللهُ وَإِنَّا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، بَعْدَ قَطْعِ هَذِهِ
الْعُقَبَاتِ، وَالظَّفَرِ بِالْمَقْصُودِ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ، السَّالِمَةِ مِنَ الْآفَاتِ،
بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لِهَيْبَتِهِ وَتَعْنِي عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْمِنَّةِ
الْكَرِيمَةِ.

وَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

لزوم الحمد
والشكر دوام
النعمة

أَحَدُهُمَا: لِدَوَامِ نِعْمَةٍ. وَالثَّانِي: لِحُصُولِ الزِّيَادَةِ.

— فَأَمَّا دَوَامُ نِعْمَةٍ. فَلِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعَمِ. بِه تَدْوِمُ وَتَبْقَى،
وَيَتْرِكُهُ تَزُولُ وَتَحْوِي. قَالَ فِي سُبْحَانِهِ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمِهِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:
﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَادْفَعْهُ اللَّهُ لِيَأْسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ
بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]. وَقَوْلُ اللَّهِ: «إِنَّ
لِلنِّعَمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ. فَتَيَدُّوهَا بِالشُّكْرِ»^(١).

(١) — ذكر سخاوي في مقصد حديثاً في المعنى نفسه عند كلامه على حديث =

وَأَمَّا حُصُولُ الزِّيَادَةِ، فَلَمَّا كَانَ الشُّكْرُ هُوَ قَيْدُ النِّعْمَةِ، فَهُوَ يُثْمَرُ
 الزِّيَادَةَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِيَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] -
 ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ - [محمد: ١٧] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
 سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وَلِلسَّيِّدِ الحَكِيمِ إِذَا رَأَى العَبْدَ قَدْ قَامَ
 بِحَقِّ نِعْمَةٍ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِأخْرَى وَيَرَاهُ أَهْلًا لَهَا، وَإِلَّا فيَقْطَعُ ذَلِكَ عَنْهُ.

النعم
 وأقسامها

ثُمَّ النِّعْمُ قِسْمَانِ: دُنْيَوِيَّةٌ، وَدِينِيَّةٌ.

فَالدُّنْيَوِيَّةُ ضَرْبَانِ: نِعْمَةٌ نَفْعٍ، وَنِعْمَةٌ دَفْعٍ.

فِنِعْمَةُ النَّفْعِ: أَنْ أُعْطَاكَ المَصَالِحَ وَالمَنَافِعَ.

فَالْمَنَافِعُ ضَرْبَانِ:

١ - الخِلْقَةُ السَّوِيَّةُ فِي سَلَامَتِهَا وَعَافِيَتِهَا.

٢ - وَالمَلَادُ الشَّهِيَّةُ مِنَ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالمَلْبَسِ وَالمَنْكَحِ
 وَغَيْرِهَا مِنْ فَوَائِدِهَا.

وَنِعْمَةُ الدَّفْعِ: أَنْ صَرَفَ عَنْكَ المَفَاسِدَ وَالمَضَارَّ. وَهِيَ

ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُمَا: بِأَنْ سَلَّمَك مِنْ زَمَانَتِهَا وَسَائِرِ آفَاتِهَا وَعِلَلِهَا.

= (إن الله لا يعذب بقطع الرزق) (الحديث رقم ٢٣٦) عن السيدة عائشة أنه ﷺ قال
 لها: «يا عائشة أحسني جوار نعم الله، فإنها قلما نفرت عن أهل بيت أن ترجع
 إليهم».

وهذا الحديث رواه الخرنطزي في كتاب (فضيلة الشكر لله على نعمته) ص ٥٧
 رقم ٦٨.

وَالثَّانِي: دَفَعُ مَا يَلْحَقُكَ بِهِ مِنْ ضَرَرٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَوَاقِبِ، أَوْ
يَقْصِدُكَ بِسَوْءٍ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ وَسِبَاعٍ وَهَوَامٍّ وَنَحْوِهَا. [ب/٨٦]

وَأَمَّا النِّعْمُ الدِّينِيَّةُ فَضَرْبَانِ: نِعْمَةُ التَّوْفِيقِ، وَنِعْمَةُ الْعِصْمَةِ.
فَنِعْمَةُ التَّوْفِيقِ: أَنْ وَقَّفَكَ أَوَّلًا لِلْإِسْلَامِ، ثُمَّ لِلسُّنَّةِ، ثُمَّ
لِلطَّاعَةِ.

وَنِعْمَةُ الْعِصْمَةِ: أَنْ عَصَمَكَ أَوَّلًا عَنِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، ثُمَّ عَنِ
الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، ثُمَّ سَائِرِ الْمَعَاصِي.

وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ لَا يُخَصِّصُهُ إِلَّا السَّيِّدُ الْعَالِمُ، الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكَ،
كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وَإِنَّ دَوَامَ هَذِهِ النِّعَمِ كُلِّهَا بَعْدَ مَا مَنَّ عَلَيْكَ بِهَا، وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهَا
مِنْ كُلِّ بَابٍ، مَا لَا يَبْلُغُهُ وَهْمُكَ، كُلُّهَا تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ
الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنَّ خِصْلَةَ تَكُونُ لَهَا كُلُّ هَذِهِ الْقِيَمَةِ، وَتَكُونُ
فِيهَا كُلُّ هَذِهِ الْفَائِدَةِ، لِحَقِيقٍ أَنْ يُتَمَسَّكَ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ بِحَالٍ،
فَإِنَّهُ جَوْهَرٌ ثَمِينٌ وَكِيمِيَاءٌ عَزِيزَةٌ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حَقِيقَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَمَا مَعْنَاهُمَا وَحُكْمُهُمَا؟

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ فَرَّقُوا بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ التَّخْصِيلِ، أَنَّ
الْحَمْدَ مِنْ أَشْكَالِ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ، فَيَكُونُ مِنَ الْمَسَاعِي الظَّاهِرَةِ؛
وَالشُّكْرُ مِنْ أَشْكَالِ الصَّبْرِ وَالتَّفْوِيضِ، فَيَكُونُ مِنَ الْمَسَاعِي الْبَاطِنَةِ.
وَلِأَنَّ الشُّكْرَ يُقَابِلُ الْكُفْرَانَ، وَالْحَمْدَ يُقَابِلُ اللُّؤْمَ وَالدَّمَّ، وَلِأَنَّ الْحَمْدَ

أَعْمُ وَأَكْثَرُ وَالشُّكْرَ أَقْلُ وَأَخْصُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]. فَبَيَّنَتْ أَنَّهُمَا مَعْنِيَانِ مُتَمَيِّزَانِ.

ثُمَّ الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى أَحَدٍ بِالْفِعْلِ الْحَسَنِ؛ هَذَا مُقْتَضَى كَلَامِ شَيْخِنَا^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا الشُّكْرُ فَتَكَلَّمُوا فِي مَعْنَاهُ وَأَكْثَرُوا؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: الشُّكْرُ هُوَ الطَّاعَةُ بِجَمِيعِ الْجَوَارِحِ لِرَبِّ الْخَلْقِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ. وَإِلَى نَحْوِهِ ذَهَبَ بَعْضُ مَشَائِخِنَا فَقَالَ: الشُّكْرُ هُوَ آدَاءُ الطَّاعَاتِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَنَّهُ اجْتَنَابُ الْمَعَاصِي ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَقَالَ غَيْرُهُ: الشُّكْرُ الْإِحْتِرَاسُ عَنِ اخْتِيَارِ مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى، تَحْتَرِسُ عَلَى قَلْبِكَ وَلِسَانِكَ وَأَرْكَانِكَ، حَتَّى لَا تَعْصِيَ اللَّهَ تَعَالَى بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ^(٢) وَبَيْنَ قَوْلِ الشَّيْخِ الْأَوَّلِ^(٣)، أَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ، جَعَلَ الْإِحْتِرَاسَ مَعْنَى مُثَبِّتًا زَائِدًا عَلَى الْاجْتِنَابِ عَنِ الْمَعَاصِي؛ وَأَمَّا الْاجْتِنَابُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ لَا يَفْعَلَ الْمَعْصِيَةَ عِنْدَ دَوَاعِيهَا، وَلَا يَكُونُ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى مُحْصَلًا، يَكُونُ الْعَبْدُ بِهِ مُشْتَغَلًا، وَعَنِ الْكُفْرَانِ مُعْتَصِمًا. وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ الشُّكْرَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ عَلَى مُقَابَلَةِ/ نِعْمَتِهِ، عَلَى حَدِّ يَمْنَعُهُ عَنِ جَفَاءِ الْمُنْعِمِ

[١/٨٧]

(١) هو أبو بكر الوراق.

(٢) الضمير هنا يعود إلى الغير (قال غيره).

(٣) الشيخ الأول: هو الذي عرّفه المصنّف بقوله: بعض مشايخنا.

وَكُفْرَانِهِ^(١). وَلَوْ قُلْتَ: تَعْظِيمُ الْمُحْسِنِ عَلَى مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِ، لَصَحَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّهِ الشُّكْرُ لِلْعَبْدِ^(٢)، فَحَسَنٌ؛ وَفِيهِ تَفَاصِيلٌ قَدْ شَرَحْنَاهَا فِي كِتَابِ: «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ»^(٣) وَغَيْرِهِ، وَلَكِنَّ التَّحْصِيلَ أَنَّ الشُّكْرَ مِنَ الْعَبْدِ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ مَنْ جَفَاءً مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ بِتَذَكُّرِ إِحْسَانِهِ وَحُسْنِ حَالِ الشَّاكِرِ فِي شُكْرِهِ، وَقُبْحِ حَالِ الْكَافِرِ فِي كُفْرَانِهِ.

قُلْتُ: إِنَّ أَقْلَ مَا يَسْتَوْجِبُهُ الْمُنْعَمُ بِنِعْمَتِهِ، أَنْ لَا يَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى مَعْصِيَةٍ، وَمَا أَقْبَحَ حَالٌ مَنْ جَعَلَ نِعْمَةَ الْمُنْعَمِ سِلَاحًا عَلَى عِضْيَانِهِ، فَعَلَى الْعَبْدِ إِذْنٌ مِنْ فَرَضِ الشُّكْرِ فِي حَقِيقَتِهِ، أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، مَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ عَلَى حَسَبِ تَذَكُّرِ نِعْمِهِ، فَإِذَا أَتَى بِذَلِكَ فَقَدْ أَتَى بِمَا هُوَ الْأَصْلُ فِيهِ، ثُمَّ يَقَابِلُ ذَلِكَ بِجِدِّ فِي الطَّاعَةِ، وَجُهْدٍ فِي الْقِيَامِ بِالْخِدْمَةِ، إِذْ هُوَ مِنْ حُقُوقِ النِّعْمَةِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِحْتِرَاسِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَوْضِعُ الشُّكْرِ؟

موضع
الشكر
فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ النِّعْمُ؛ وَالنِّعْمُ دِينِيَّةٌ وَدُنْيَوِيَّةٌ عَلَى أَقْدَارِهِمَا. وَأَمَّا الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ فِي الدُّنْيَا، فِي نَفْسٍ أَوْ أَهْلِ أَوْ مَالٍ، فَتَكَلَّمُوا فِي ذَلِكَ، هَلْ يَنْزِمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا؟ قَدْ بَعْضُهُمْ: لَا يَلْزِمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ، وَإِنَّمَا يَجِبُ فِيهَا الصَّبْرُ. وَأَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ عَلَى النِّعْمَةِ لَا غَيْرُ. قَالُوا: وَلَا شِدَّةَ إِلَّا وَفِي جَنْبِهَا الشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ

(١) الكفران: جحود النعمة وكفر بها.

(٢) معنى شكر الله للعبد أن يوفقه لأن يشكره ويشني عليه بما هو أهله.

(٣) يرجع كتاب الصبر والشكر. وهو الكتاب الثاني من ربيع لمنجيات من كتب

الإحياء (ج ٤ ص ٥٣).

نِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى، فَيَلْزِمُ الشُّكْرُ عَلَى تِلْكَ النِّعَمِ الْمُقْتَرِنَةَ بِهَا دُونَ نَفْسِ الشُّدَّةِ.

وَتِلْكَ النِّعَمُ مَا قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا أَبْتَلَيْتُ بِبَلِيَّةٍ إِلَّا كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيَّ فِيهَا أَرْبَعُ نِعَمٍ: إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي، وَإِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَإِذْ لَمْ أُحْرَمِ الرِّضَا، وَإِذْ رَجَوْتُ الثَّوَابَ عَلَيْهَا. وَقَدْ قِيلَ أَيْضًا: مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ أَنَّ تِلْكَ الشُّدَّةَ زَائِلَةٌ غَيْرُ دَائِمَةٍ، وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ مَخْلُوقٍ، فَإِنَّهَا لَكَ عَلَيْهِ، لَا لَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَا نَزَمَ الْعَبْدُ الشُّكْرَ عَلَى النِّعَمِ الْمُقْتَرِنَةَ بِالشُّدَّةِ.

الشكر على الشدائد
وَقَالَ آخَرُونَ، وَهُوَ الْأَوْلَى عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ شِدَائِدَ الدُّنْيَا مِمَّا يَلْزِمُ الْعَبْدَ الشُّكْرَ عَلَيْهَا، لِأَنَّ تِلْكَ الشَّدَائِدَ نِعَمٌ بِالْحَقِيقَةِ، بِدَلِيلِ أَنَّهَا تُعَرِّضُ الْعَبْدَ لِمَنَافِعٍ عَظِيمَةٍ، وَمَثُوبَاتٍ جَزِيلَةٍ، وَأَعْوَاضٍ كَرِيمَةٍ فِي الْعَاقِبَةِ، تَتَلَاشَى فِي جَنْبِهَا/ مَشَقَّةٌ هَذِهِ الشَّدَائِدِ، [٨٧/ب] وَأَيُّ نِعْمَةٍ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ مَنْ يَسْقِيكَ دَوَاءً كَرِيمًا مُرًّا لِدَاءٍ شَدِيدٍ، أَوْ يَفْصِدُكَ أَوْ يَخْجُمُكَ لِعِلَّةٍ عَظِيمَةٍ مَخُوفَةِ الْخَطَرِ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى صِحَّةِ النَّفْسِ، وَسَلَامَةِ الْبَدَنِ، وَصَفْوَةِ الْعَيْشِ، فَيَكُونُ إِيْلَامُهُ إِيَّاكَ بِمَرَارَةِ الدَّوَاءِ، أَوْ جِرَاحَةِ الْفُضْدِ وَالْحِجَامَةِ، نِعْمَةً بِالِغَةِ بِالْحَقِيقَةِ، وَمِنَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَإِنْ كَانَ فِي صُورَتِهِ مَكْرُوهًا، يَنْفِرُ عَنْهُ الطَّبْعُ، وَتَسْتَوْحِشُ مِنْهُ النَّفْسُ، وَأَنْتَ تَحْمَدُ الَّذِي تَوَلَّى مِنْكَ هَذَا، بَلْ تُحْسِنُ إِلَيْهِ مَا أَمَكَّنَكَ.

وَكَذَلِكَ حُكْمُ هَذِهِ الشَّدَائِدِ؛ أَمَا تَرَى أَنَّ السَّبِيَّ ﷺ، كَيْفَ حَمَدَ اللَّهَ وَشَكَرَهُ عَلَى الشَّدَائِدِ شُكْرَهُ عَلَى الْمَسَارِّ، حَيْثُ قَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا سَاءَ وَسَرَّ»^(١). أَمَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ:
﴿ فَسَوَّيْ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]
وَمَا سَمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرًا، فَهُوَ أَكْثَرُ مِمَّا يَبْلُغُهُ وَهَمُّكَ؛ يُؤَكِّدُ هَذَا
الْقَوْلَ أَنَّ النُّعْمَةَ لَيْسَتْ خَيْرًا عَنِ اللَّذَّةِ وَمَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ بِمُقْتَضَى
الطَّبْعِ، إِنَّمَا هُوَ مَا يَزِيدُ فِي رِفْعَةِ الدَّرَجَةِ، وَلِذَلِكَ تُسَمَّى نِعْمَةً فِي
مَعْنَى الزِّيَادَةِ؛ وَإِذَا كَانَتِ الشَّدَّةُ مِمَّا تَصِيرُ سَبَبًا فِي زِيَادَةِ شَرَفِ الْعَبْدِ
وَرِفْعَةِ دَرَجَتِهِ، فَتَكُونُ نِعْمًا بِالْحَقِيقَةِ، وَإِنْ كَانَتْ تُعَدُّ فِي الشَّدَائِدِ
وَالْمِحَنِ بظَاهِرِهَا، فَأَعْلَمَ ذَلِكَ مُوَفَّقًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالشَّاكِرُ أَفْضَلُ أَمْ الصَّابِرُ؟

مفاضلة
بين الشكر
والصابر

فَأَعْلَمَ أَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ الشَّاكِرَ أَفْضَلُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ
عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ [سبأ: ١٣] فَجَعَلَهُمْ أَحْصَرَ الْخَوَاصِّ. وَقَالَ فِي

(١) — لم أعر عنى هذا الحديث بنصه كما رواه الغزالي. لكن معناه معروف مشهور. فقد روى نحوه في مستدرکه (٥٠٢/١) كتاب ندعاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ).

قال الحاكم: حديث صحيح عسى شرط الشيخين.

— وفي رواية أخرى يذكره غزالي (٨١/٤):

(ينادى يوم القيامة: يَبِّئْهُمُ الحَمَادُونَ... قيل: ومن الحَمَادُونَ؟ قال: الذين يشكرون الله تعالى عسى كل حال) وفي لفظ آخر: (الذين يشكرون الله على السراء والضراء).

— قال العراقي في تخريج هذا الحديث: أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: (أول من يدعى إلى الجنة الحمادون) قال: وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (انظر الحلية ٦٩/٥).

نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَبْدًا شَاكِرًا﴾ [الإسراء: ٣] وَقَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِي﴾ [النحل: ١٢١]، وَلِأَنَّهُ فِي مَنزِلَةِ الْإِنْعَامِ وَالْعَافِيَةِ، وَلِلذَلِكَ قِيلَ: لِأَنَّهُ أُتِمَّ فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ.

وَقِيلَ: بَلِ الصَّابِرُ أَفْضَلُ، لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مَشَقَّةً؛ فَيَكُونُ أَعْظَمَ ثَوَابًا وَأَرْفَعَ مَنزِلَةً. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]. وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قُلْتُ أَنَا: الشَّاكِرُ بِالْحَقِيقَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا صَابِرًا، وَالصَّابِرُ بِالْحَقِيقَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا شَاكِرًا، لِأَنَّ الشَّاكِرَ فِي دَارِ الْمِحْنَةِ لَا يَخْلُو مِنْ مِحْنَةٍ يَصْبِرُ عَلَيْهَا لَا مَحَالَةَ وَلَا يَجْزَعُ؛ فَإِنَّ الشُّكْرَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ عَلَى حَدِّ يَمْنَعُ مِنَ عِصْيَانِهِ، وَالْجَزَعُ عِصْيَانٌ، وَالصَّابِرُ لَا يَخْلُو مِنْ نِعْمَةٍ؛ كَمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الشَّدَائِدَ نِعْمٌ بِالْحَقِيقَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ، فَإِنَّهُ شَكَرَ بِالْحَقِيقَةِ إِذْ صَبَرَ، لِأَنَّهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَنِ الْجَزَعِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الشُّكْرُ بِعَيْنِهِ. إِذْ هُوَ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ عَنِ الْعِصْيَانِ؛ وَلِأَنَّ الشَّاكِرَ يَمْنَعُ نَفْسَهُ عَنِ الْكُفْرَانِ فَصَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَحَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الشُّكْرِ. وَصَبَرَ عَلَى نِطَاعَةِ، فَصَارَ صَابِرًا عَنِ الْحَقِيقَةِ؛ وَالصَّابِرُ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى، حَتَّى مَنَعَهُ تَعْظِيمُهُ عَنِ الْجَزَعِ فِيمَا أَصَابَهُ وَحَمَمَهُ عَلَى الصَّبْرِ، فَقَدْ شَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى فَصَارَ شَاكِرًا بِالْحَقِيقَةِ؛ وَلِأَنَّ حَبْسَ النَّفْسِ عَنِ الْكُفْرَانِ مَعَ قَصْدِ النَّفْسِ لَهُ شِدَّةٌ يَصْبِرُ عَلَيْهَا الشَّاكِرُ؛ وَتَوْفِيقُ الصَّبْرِ وَالْعِصْمَةُ نِعْمَةٌ يَشْكُرُ عَلَيْهَا الصَّابِرُ، فَأَحَدُهُمَا

لَا يَنْفَكُ عَنِ الْآخِرِ، لِأَنَّ الْبَصِيرَةَ الْبَاعِثَةَ عَلَيْهَا وَاحِدَةٌ، وَهِيَ بَصِيرَةٌ
الِاسْتِقَامَةِ فِي قَوْلِ بَعْضِ عُلَمَائِنَا؛ فَمِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ قُلْنَا: إِنَّ أَحَدَهُمَا
لَا يَنْفَكُ عَنِ الْآخِرِ، فَأَعْرِفْ هَذِهِ الْجُمْلَةَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فصل في وجوب الحمد والشكر

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِي قَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ الْيَسِيرَةِ
الْمُؤَنَّةِ، الْكَبِيرَةِ الْجُدْوَى، الْعَزِيزَةِ الْمُعْتَصِرِ، الْعَظِيمَةِ الْقَدْرِ، وَتَأَمَّلْ
أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ النُّعْمَةَ إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا؛ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ
قَدْرَهَا الشَّاكِرُ.

وَدَلِيلُ مَا قُلْنَا، قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْكُفَّارِ وَالرَّذِّ
عَلَيْهِمْ ﴿أَهْتُولَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].
ظَنَّ أَوْلِيكَ الْجَهَّالُ أَنَّ النُّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْمِنَّةَ
الْكَرِيمَةَ، إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَكُونُ أَكْثَرَهُمْ مَالًا، وَأَشْرَفُهُمْ حَسَبًا وَنَسَبًا،
فَقَالُوا: مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ بِزَعْمِكُمْ، مِنَ الْعَبِيدِ وَالْأَحْرَارِ، أُعْطُوا
هَذِهِ النُّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِزَعْمِكُمْ دُونَنَا؟ فَقَالُوا عَلَى صَرِيحِ الْإِسْتِكْبَارِ
وَمَجْرَى الْإِسْتِهْزَاءِ: ﴿أَهْتُولَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ
تَعَالَى بِهَذِهِ التُّكْتَةِ الزَّاهِرَةِ، فَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [٥٣].
تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّ السَّيِّدَ الْكَرِيمَ، إِنَّمَا يُعْطَى نِعْمَتَهُ مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا؛
وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا مَنْ أَقْبَلَ بِنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ فَاخْتَارَهَا عَلَى غَيْرِهَا، وَلَا

يَعْبَأُ بِمَا تَحَمَّلَ مِنْ أَعْبَاءِ الْمَوْتَةِ فِي تَحْصِيلِهَا؛ ثُمَّ لَا يَزَالُ قَائِمًا
بِالْبَابِ يُؤَدِّي شُكْرَهَا، وَكَانَ فِي عِلْمِنَا السَّابِقِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ
يَعْرِفُونَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، وَيَقُومُونَ بِشُكْرِهَا، فَكَانُوا أَوْلَى بِهَذِهِ النِّعْمَةِ
مِنْكُمْ؛ فَلَا أَعْتَبَارَ بَيْنَاكُمْ وَتَرَوْتَكُمْ، وَلَا جَاهَكُمْ فِي الدُّنْيَا
وَحَشْمَتِكُمْ، وَلَا / نَسَبِكُمْ فِي الْأَنْسَابِ، وَلَا حَسَبِكُمْ، إِنَّمَا تَحْسِبُونَ [ب/٨٨]
النِّعْمَةَ كُلَّهَا الدُّنْيَا وَحُطَامَهَا، وَالْحَسَبَ وَالنَّسَبَ وَعُلُوَّهُ، لَا الدِّينَ
(والعلم)^(١) وَالْحَقَّ وَمَعْرِفَتَهُ؛ وَإِنَّمَا تُعْظَمُونَ ذَلِكَ وَتَتَفَاخَرُونَ بِهِ؛ أَلَا
تَرَوْنَ أَنَّكُمْ لَا تَكَادُونَ تَقْبَلُونَ هَذَا الدِّينَ وَالْعِلْمَ وَالْحَقَّ إِلَّا بِمَنَّةٍ عَلَى
مَنْ آتَاكُمْ بِهِ، وَذَلِكَ لِاسْتِحْقَاقِكُمْ ذَلِكَ وَقَلَّةِ مَبَالِغِكُمْ بِهِ؟ وَأَنَّ هَؤُلَاءِ
الضُّعَفَاءِ يَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَيَبْذُلُونَ مُهْجَتَهُمْ فِيهِ، وَلَا يُبَالُونَ
بِمَا فَاتَهُمْ وَلَا بِمَنْ عَادَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ، لِتَعَلُّمِ أَنَّ هُمْ الَّذِينَ عَرَفُوا
قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَرَسَخَ فِي قُلُوبِهِمْ تَعْظِيمُهَا، وَهَانَ عَلَيْهِمْ قُوَّةُ كُلِّ
شَيْءٍ دُونَهَا، وَطَابَ نَهْمُ أَحْتِمَالِ كُلِّ شِدَّةٍ، وَيَسْتَعْرِقُونَ جَمِيعَ الْعُمُرِ
فِي شُكْرِهَا، فَلِذَلِكَ اسْتَهْنَوْا هَذِهِ الْمِنَّةَ الْكَرِيمَةَ، وَالنِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ^(٢)
فِي سَابِقِ عِلْمِنَا وَخَصَّصْنَاهُمْ بِهَا دُونَكُمْ، فَهَذِهِ هَذِهِ.

ثُمَّ أَقُولُ: وَكَذَلِكَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ، خَصَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُقَدَّرُ
بِنِعْمَةٍ مِنَ نِعَمِ الدِّينِ، عِنْدَ أَوْ عَمَلٍ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ بِالْحَقِيقَةِ أَعْرَفَ النِّعْمَةَ إِلَى
النَّاسِ بِقَدْرِهَا، وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيمًا لَهَا، وَأَجَدَّهُمْ فِي تَحْصِيلِهَا، أَهْلِهَا
وَأَعْظَمَهُمْ فِي إِكْرَامِهَا. وَأَقْوَمَهُمْ بِشُكْرِهَا؛ وَالَّذِينَ حَرَمَهُمْ ذَلِكَ،

(١) لفظة ساقطة من الأصل. مثبتة في (د) و(هـ) وذكرناها لأهميتها فيما بعدها.

(٢) لفظة ساقطة من الأصل. مثبتة في (ج) و(د) و(هـ).

فَلِقَلَّةِ أَحْتِفَالِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لِحَقِّهَا بَعْدَ الْقَدْرِ السَّابِقِ؛ فَلَوْ كَانَ تَعْظِيمُ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فِي قُلُوبِ الشُّوقَةِ وَالْعَامَّةِ مِثْلَ مَا هُوَ فِي قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ، لِمَا آثَرُوا سُوقَهُمْ عَلَيْهِ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُ، أَلَّا تَرَى أَنَّ فِقِيهَا إِذَا ظَفَرَ بِتَعْلِيمِ مَسْئَلَةٍ كَانَتْ مُلْتَبِسَةً عَلَيْهِ، ثُمَّ ظَفَرَ بِهَا، كَيْفَ يَرْتَاحُ قَلْبُهُ وَيَعْظُمُ سُرُورُهُ، وَيَجِلُّ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، حَتَّى رُبَّمَا لَوْ وَجَدَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ مَا كَانَ يَغْدُلُ ذَلِكَ، وَرُبَّمَا يَهْمُهُ أَمْرٌ مَسْئَلَةٌ فِي بَابِ الدِّينِ فَيَتَفَكَّرُ فِيهَا سَنَةً، بَلْ عَشْرًا بَلْ عِشْرِينَ وَأَكْثَرَ، لَا يَسْتَكْبِرُ ذَلِكَ وَلَا يَمَلُّ، حَتَّى رُبَّمَا يَرْزُقُهُ اللَّهُ فَهَمَّ ذَلِكَ، فَيَعُدُّهُ أَعْظَمَ مَنَّةٍ وَأَكْبَرَ نِعْمَةٍ، وَيَرَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، أَغْنَى كُلَّ غِنْيٍ، وَأَشْرَفَ كُلَّ شَرِيفٍ؛ بَلْ رُبَّمَا يَتَبَيَّنُ مِثْلَ هَذِهِ الْمَسْئَلَةِ لِسُوقِيٍّ، أَوْ لِمُتَعَلِّمٍ كَسَلَانَ، يَرَى مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مِثْلُهُ فِي رِغْبَةٍ فِي الْعِلْمِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ، فَلَا يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ حَقًّا، وَرُبَّمَا إِنْ طُرِدَ عَيْبَهُ نِكْلَامٌ يَمَلُّ وَيَنَامُ، وَإِنْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ لَهُ، فَلَا يَعُدُّهُ كَبِيرَ أَمْرٍ.

كَذَلِكَ الْمُنِيبُ إِذَا نَبِهَ تَعَانَى، كَمَا يَجْتَهِدُ وَيَدَأُ بِالرِّيَاضَةِ وَصِيَانَةِ/ [٨٩] النَّفْسِ عَنِ شَهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ، وَإِلْجَامِ الْأَرْكَانِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ، عَسَى أَنْ يُتَمَّمَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ رَكَعَتَيْنِ فِي آدَابِ وَظَهَارَةٍ، وَكَمْ يَنْصَرِّعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، عَسَى أَنْ يَرْزُقَهُ سَاعَةً مُنَاجَاةً بِصُنُورَةٍ وَحَلَاوَةٍ، فَلَمَّا ظَفَرَ بِذَلِكَ مَرَّةً فِي شَهْرٍ، بَلْ فِي سَنَةٍ مَرَّةً، بَلْ فِي الْعُمُرِ كُلِّهِ مَرَّةً، عَدَّ ذَلِكَ أَكْبَرَ مَنَّةٍ وَأَعْظَمَ مَنَّةٍ؛ فَكَمْ يُسْرُّ، وَكَمْ يَشْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَكْتَرِثُ بِمَا قَاسَاهُ مِنَ الْمَشَقَّاتِ، وَكَابَدَ مِنَ اللَّيَالِي، وَهَجَرَ مِنَ اللَّذَاتِ فِيهَا.

ثُمَّ تَرَى الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَاغِبٌ فِي الْعِبَادَةِ، يُحِبُّ أَنْ يُحْصَلَ

مِنْهَا شَيْئًا، لَوْ أَحْتَاجَ أَحَدُهُمْ فِي تَحْصِيلِ مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الصَّافِيَةِ جَهْلَ الْبَعْضِ إِلَى نَقْصَانِ لُقْمَةٍ مِنْ عَشَائِهِمْ وَتَرَكَ كَلِمَةً لَا تَعْنِيهِمْ، وَدَفَعَ نَوْمَ سَاعَةٍ بِنِعْمِ اللَّهِ عَنْ أَعْيُنِهِمْ، فَلَا تَسْمَحُ أَنْفُسُهُمْ بِذَلِكَ، وَلَا تَطِيبُ قُلُوبُهُمْ؛ وَإِنْ أَتَفَقَ لَهُمْ فِي النَّادِرِ، حُصُولُ عِبَادَةٍ فِي صَفْوَةٍ، فَلَا يَعُدُّونَهُ خَطِيرًا، وَلَا يُقَدِّمُونَ فِيهِ كَثِيرَ شُكْرِ؛ إِنَّمَا يَعْظُمُ لَهُمْ سُرُورُهُمْ، وَيَكْثُرُ بِالظَّاهِرِ حَمْدُهُمْ، إِذَا حَصَلَ لَهُمْ دِرْهَمٌ، أَوْ أُسْتَقَامَتْ لَهُمْ كِسْرَةٌ أَوْ طَابَتْ لَهُمْ مَرَقَةٌ، أَوْ طَالَتْ لَهُمْ فِي سَلَامَةٍ، فِي الْبَدَنِ رَقْدَةٌ، فَيَقُولُونَ عِنْدَ ذَلِكَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ؛ فَأَنَّى يُسَاوِي هَؤُلَاءِ الْغَافِلُونَ الْعَاجِزُونَ، أَوْلَيْكَ السُّعْدَاءُ الْمُجِدِّينَ الْمُجْتَهِدِينَ؟

صَارَ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينُ عَنْ هَذَا الْخَيْرِ مَحْرُومِينَ، وَأَوْلَيْكَ الْمُؤَيَّدُونَ بِهِ ظَافِرِينَ فَتْرِينَ؛ وَكَذَلِكَ قَسَمَ الْأَمْرَ أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَعْلَمُ بِالْعَالَمِينَ؛ فَهَذَا تَفْصِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فَتَفَهَّمْ وَرَاعِهِ حَقَّهُ، وَأَعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تُحْرَمَ قَطُّ خَيْرًا أَنْتَ تَتَمَنَّى إِلَّا مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ، فَابْذُلْ مَجْهُودَكَ لِتَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَتُعْظِمَهَا حَقَّ تَعْظِيمِهَا، فَتَكُونَ أَهْلًا لَهَا وَإِلَاعِطَائِهَا؛ ثُمَّ يَمُرُّ عَيْنُكَ بِبَيْتِهَا، كَمَا مِنْ عَيْنِكَ بِابْتِدَائِهَا. عَلَى مَا نَذَرْتَهُ فِي الْأَصْلِ نَشِيءِي. إِنَّهُ هُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ.

الْأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّ النُّعْمَةَ إِنَّمَا تُسَلَبُ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا الْكُفُورُ الَّذِي كَفَرَهَا، وَلَا يُؤَدِّي شُكْرَهَا.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴿[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦] آيَةٌ: تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَا أَنْعَمْتُ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ

[٨٩/ب] بِالنَّعْمِ الْعِظَامِ، وَالْأَيَادِي/ الْجِسَامِ فِي بَابِ الدِّينِ، بِمَا مَكَّنَّاهُ فِي
 منزلة من ذَلِكَ مِنْ تَحْصِيلِ الرُّثْبَةِ الْكَبِيرَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ عَلَى بَابِنَا وَيَصِيرُ
 لَا يَعْرِفُ رَفِيعاً عِنْدَنَا، عَظِيمَ الْقَدْرِ، كَبِيرَ الْجَاهِ، وَلَكِنَّهُ جَهْلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا،
 رَبِّهِ فَمَالَ إِلَى الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ الْحَقِيرَةِ، وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ الدَّنِيئَةِ، وَلَمْ
 يَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا لَا تَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ
 بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْإِكْرَامَ مِنَ الْإِهَانَةِ، وَالرَّفْعَةَ وَالشَّرْفَ
 مِنَ الْحَقَارَةِ، وَإِنَّمَا الْكِرَامَةُ كُلُّهَا عِنْدَهُ فِي كِسْرَةِ يُطْعَمُ، أَوْ عِرَاقٍ (١)
 مَائِدَةٍ يُرْمَى إِلَيْهِ، سَوَاءَ تُفْعَدُهُ عَلَى سَرِيرٍ مَعَكَ، أَوْ تُقِيمُهُ فِي الثَّرَابِ
 وَالْقَدْرَ بَيْنَ يَدَيْكَ، نَهْمَتُهُ وَكَرَامَتُهُ وَنِعْمَتُهُ كُلُّهَا فِي ذَلِكَ.

فَهَذَا الْعَبْدُ الشُّؤْمُ إِذَا جَهَلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا، وَلَمْ يَعْرِفْ حَقَّ مَا
 آتَيْنَاهُ مِنْ كَرَامَتِنَا، وَكَثُرَ بَصِيرَتُهُ، وَسَاءَ فِي مَقَامِ الْقُرْبَةِ أَدَبُهُ
 بِالْإِلْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِنَا، وَالِإِشْتِغَالِ عَنِ ذِكْرِ نِعْمَتِنَا، بِدُنْيَا حَقِيرَةٍ وَلَدَّةٍ
 خَسِيسَةٍ، فَنَظَرْنَا إِلَيْهِ نَظَرَ السِّيَاسَةِ، وَأَحْضَرْنَا مِيزَانَ الْعَدْلِ، وَأَمَرْنَا
 فِيهِ بِحُكْمِ الْجَبْرُوتِ، فَسَبَّهَهُ جَمِيعَ خَلْعِنَا وَكَرَامَاتِنَا، وَنَزَعَهُ مِنْ قَلْبِهِ
 مَعْرِفَتِنَا، فَانْسَلَخَ عَارِيّاً عَنْ جَمِيعِ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِنَا. فَصَرَ كَلْباً
 طَرِيداً، أَوْ شَيْطَاناً رَجِيماً. نَعُوذُ بِاللَّهِ ثُمَّ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَأَلِيمِ
 عِقَابِهِ، إِنَّهُ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

مثل آخر
 لمن لا يقدر
 نعمة الله
 عليه
 ثُمَّ أَفْنَعُ بِمِثَالِ مَلِكٍ يُكْرِمُ عَبْدًا لَهُ، فَيَخْلَعُ عَلَيْهِ خَاصَّةً ثِيَابَهُ
 وَيَقْرَبُهُ مِنْهُ، وَيَجْعَلُهُ فَوْقَ سَائِرِ خُدَامِهِ وَحُجَّابِهِ، وَأَمْرَهُ بِلُزُومِ بَابِهِ،
 ثُمَّ أَمَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنْ تُبْنَى لَهُ الْقُصُورُ، وَتُوضَعَ لَهُ الْأَسْرَةُ،

(١) العَرَاقُ: الْعِظْمُ أَكْلَ لَحْمِهِ. وَكَذَلِكَ الْعِرَاقُ.

وَتُنصَبَ لَهُ الْمَوَائِدُ، وَتُزَيَّنَ لَهُ الْجَوَارِي، وَتُقَامَ لَهُ الْغِلْمَانُ، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مِنَ الْخِدْمَةِ، أُجْلِسَ هُنَالِكَ مَلِكًا مَخْدُومًا مُكْرَمًا، وَمَا بَيْنَ حَالِ خِدْمَتِهِ إِلَى مُلْكِهِ وَوِلَايَتِهِ إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ أَوْ أَقَلُّ؛ فَإِنْ أَبْصَرَ هَذَا الْعَبْدُ بِجَانِبِ بَابِ الْمَلِكِ سَائِسًا لِلدَّوَابِّ يَأْكُلُ رَغِيْفًا، أَوْ كَلْبًا يَمْضُغُ عَظْمًا، فَيَسْتَعْلُ عَنْ خِدْمَةِ الْمَلِكِ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَا لَهُ مِنَ الْخَلْعِ وَالْكَرَامَةِ، فَيَسْعَى إِلَى ذَلِكَ السَّائِسِ، وَيَمُدُّ يَدَهُ وَيَسْأَلُهُ كِسْرَةً مِنْ رَغِيْفِهِ، أَوْ يُزَاحِمُ الْكَلْبَ عَلَى عَظْمِهِ، يَغْطِطُهُمَا وَيُعْظَمُ مَا هُمَا فِيهِ، أَلَيْسَ الْمَلِكُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَقُولُ: هَذَا السَّفِيْهُ، ثُمَّ يَعْرِفُ/ حَقَّ كِرَامَتِنَا، وَلَمْ يَرَ قَدْرَ إِعْزَازِنَا [أ/٩٠] إِيَّاهُ، بِخَلْعِنَا وَالتَّقْرِيْبِ إِلَى حَضْرَتِنَا، مَعَ مَا صَرَفَتْ إِلَيْهِ مِنْ عِنَايَتِنَا، وَأَمْرُنَا لَهُ مِنْ الدَّخْرِ وَضُرُوبِ الأَيَادِي، مَا هَذَا إِلَّا سَقِطٌ عَظِيمٌ الْجَهْلُ، قَلِيلُ التَّمْيِيزِ. نَسُبُوهُ نُخْلَعُ وَأَطْرُدُوهُ عَنْ بَيْتِنَا.

فَهَذَا حَالُ الْعَبْدِ إِذَا مَنَّ إِلَى الدُّنْيَا، وَالْعَابِدِ إِذَا تَبَعَ الْهَوَى، فَعَبَدَمَا أَكْرَمَهُ بِعِبَادَتِهِ وَمَعْرِفَةِ يَدَيْهِ وَشَرِيْعَتِهِ وَأَحْكَامِهِ. وَنَمْ يَعْرِفُ قَدْرَ ذَلِكَ، فَيَصْبِرُ عَلَى خَفَرِ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَهْوَنِ عِنْدَهُ، فَيَرْغَبُ فِيهِ وَيَحْرِصُ عَلَيْهِ. وَيَكُونُ أَعْظَمَ شَيْءٍ فِي قَلْبِهِ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يَعْطَى مِنْ تِنْتِ نَعْمِ الْعَزِيْزَةِ مِنَ الْعِنَمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْحِكْمِ وَالْحَقَائِقِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ خَصَّهُ نَهْ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ تَوْفِيْقِهِ وَعِصْمَتِهِ، وَزَيَّنَهُ بِأَنْوَارِ خِدْمَتِهِ وَعِبَادَتِهِ. وَيُدِيْبُ النَّظَرَ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ. وَيُبَاهِي بِهِ مَلَائِكَتَهُ، وَغُضُّهُ عَنِ بَابِهِ الْقِيَادَةَ وَالْوَجْهَةَ، وَأَحْلَهُ مَحَلَّ الشَّفَاعَةِ. وَأَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الْأَعْزَةِ. حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ نُو دَعَاهُ لِأَجَابَهُ

وَلَبَّاءُ، وَلَوْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ وَأَغْنَاهُ، وَلَوْ شَفَعَ فِي عَالِمٍ لَشَفَعَهُ فِيهِمْ وَأَرْضَاهُ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ لِأَبْرَهُ وَأَوْفَاهُ، وَلَوْ خَطَرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ لَأَعْطَاهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ بِلِسَانِهِ، فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَهُ، ثُمَّ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هَذَا الْمُنْعَمِ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى قَدْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَيَعْدِلَ عَنِ ذَلِكَ إِلَى شَهْوَةِ نَفْسِ رَدِيئَةٍ لَا حَيَاءَ لَهَا، أَوْ لَعَقَةٍ مِنَ الدُّنْيَا الدَّيْنِيَّةِ الَّتِي لَا بَقَاءَ لَهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْكِرَامَاتِ وَالْخَلَعِ، وَالْهَدَايَا وَالْمَنَنِ وَالْعَطَايَا، ثُمَّ مَا وَعَدَهُ وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ؛ فَمَا أَحْقَرَهَا مِنْ نَفْسٍ، وَمَا أَسْوَأَهُ مِنْ عَبْدٍ، وَمَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ لَوْ عَلِمَ، وَمَا أَفْحَشَ صَنِيعَهُ لَوْ فَهَمَ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الْبَارَّ الرَّحِيمَ، أَنْ يُصَلِّحَنَا بِعَظِيمِ فَضْلِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

بذل الجهد
لمعرفة نعم
الله

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ حَتَّى تَعْرِفَ قَدْرَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ؛ فَإِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعَمِ الدِّينِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَلْتَقِتَ إِلَى الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ مِنْكَ إِلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّهَاوُنِ، بِمَا أَوْلَاكَ رَبُّكَ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَابِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الْحَجَر: ٨٧ - ٨٨]؛ تَقْدِيرُهُ؛ [٩٠/ب] أَنَّ كُلَّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، حُقَّ لَهُ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ نَظْرَةً بِاسْتِحْلَاءٍ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ، وَلِيَلْزِمَ الشُّكْرَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهَا الْكِرَامَةُ الَّتِي حَرَصَ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنْ يَمُنَّ بِهَا عَلَى أَبِيهِ فَلَمْ يَفْعَلْ، وَحَرَصَ حَبِيبُهُ الْمُضْطَنَّى ﷺ أَنْ يَمُنَّ بِهَا عَلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ يَفْعَلْ.

الدنيا بلاء

وَأَمَّا حُطَامُ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَصُبُّهُ عَلَى كُلِّ كَافِرٍ وَفِرْعَوْنٍ وَمُلْحِدٍ

وَزَنْدِيقٍ وَجَاهِلٍ وَفَاسِقٍ، الَّذِينَ هُمْ أَهْوَنُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، حَتَّى رَقُوا فِيهِ،
وَيَضْرِفُهُ عَنْ كُلِّ نَبِيٍّ وَصَفِيٍّ وَصَدِيقٍ وَعَالِمٍ وَعَابِدٍ، الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ
خَلْقِهِ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصِيبُونَ كِسْرَةً وَخِرْقَةً، وَيَمْنَنَ
عَلَيْهِمْ بِأَنْ لَا يُلْطَخَهُمْ بِقَدْرِهَا، حَتَّى قَالَ، عَزَّ مِنْ قَائِلٍ، لِمُوسَى
(وهارون عليهما) ^(١) السَّلَامُ: «وَلَوْ أَشَاءَ أَنْ أُزَيِّنَكُمَا بِزِينَةِ، عِلْمٍ
فِرْعَوْنُ حِينَ يَرَاهَا أَنْ مَقْدِرَتُهُ تَعْجِزُ عَنْهَا لَفَعَلْتُ، وَلَكِنِّي أَزُوي عَنْكُمَا
الدُّنْيَا وَأَرْعُبُ بِكُمَا عَنْهَا، كَذَلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي؛ وَإِنِّي لَأَذُودُهُمْ عَنْ
نَعِيمِهَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عَنْ مَبَارِكِ العُرَّةِ، وَإِنِّي لِأَجْنِبُهُمْ
سُكُونَهَا وَعَيْشَهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ، وَلَكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا حَظَّهُمْ
مِنْ كَرَامَتِي» ^(٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا
لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ...﴾ الآيتين: [الرَّخْف: ٣٣ -
٣٤]؛ فَانظُرِ الفَرْقَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ إِنْ كُنْتَ مُبْصِرًا وَقُلْ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمِنِّ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، وَصَرَفَ عَنَّا

(١) في الأصل: موسى عليه السلام. والتصويب من (د) و(هـ) وهذا يتنزه مع سياق الكلام الآتي.

(٢) - قال الكديري في شرح نظائير (٢/٤٩٩): أورده صاحب تحفة وصاحب القوت عن وهب بن منه.

- وذكر الغزالي في إحياء حديثاً بنفس المعنى تقريباً وهو قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ سَابٍ وَهُوَ يَحْبُهُ كَمَا يُحْمِي أَحَدَكُمْ مَرِيضَهُ».

قال نِعْرَاقِي: أخرجه ترمذي وحسنه الحاكم وصححه (إحياء ٤: ١٢٨).

- ورواية الحاكم في مستدرکه عن قتادة بن النعمان بلفظ: (إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الماء) قال: حديث صحيح على شرط الشيخين وله يخرجاه (٤: ٣٠٩. كتاب الرقاق).

الشكر على
 فِتْنَةَ أَعْدَائِهِ، لِنُحْصَ بِالشُّكْرِ الأَوْفَرَ، وَالحَمْدِ الأَكْبَرَ، وَالمَنَّةِ الكُبْرَى،
 نعمة
 وَالنَّعْمَةِ العُظْمَى الَّتِي هِيَ الإسلامُ، فَإِنَّهَا الأُولَى وَالأُخْرَى، بِأَنَّ لآ
 الإسلام
 تَفْتَرُ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ عَن شُكْرِهَا، وَإِنْ كُنْتَ عَاجِزاً عَن عِرْفَانِ قَدْرِهَا،
 فَأَعْلَمُ بِالحَقِيقَةِ أَنَّكَ لَوْ خُلِقْتَ مِن أَوَّلِ الدُّنْيَا، وَأَخَذْتَ فِي شُكْرِ
 الإسلامِ مِن أَوَّلِ الوَقْتِ إِلَى الأَبَدِ لَمَا كُنْتَ تَقُومُ بِذَلِكَ، وَلَمَا قَضَيْتَ
 بَعْضَ الحَقِّ، لِمَا هُنَالِكَ مِنَ الفَوْزِ العَظِيمِ.

قُلْتُ: وَاعْلَمَ أَنَّ المَوْضِعَ لَا يَحْتَمِلُ ذِكْرَ مَا يَبْلُغُهُ عِلْمِي مِن
 قَدْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَلَوْ أَمَلَيْتُ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ وَرَقَةٍ، لَكَانَ مَبْلُغُ عِلْمِي
 فَوْقَ ذَلِكَ، مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ مَا أَعْلَمُهُ/ فِي جَنْبِ مَا لَا أَعْلَمُهُ، كَنُقْطَةِ
 [1/91] فِي بَحَارِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا.

أَمَّا تَسْمَعُ وَيَحْكُ قَوْلُهُ تَعَالَى لِسَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ: ﴿ مَا كُنْتُ
 تَدْرِي مَا أَلِكْتَبُ وَلَا أَلِإِيْمَنُ ﴾ [الشورى: ٥٢] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا
 لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] وَقَالَ
 تَعَالَى لِقَوْمٍ: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيْمَنِ ﴾ [الحجرات: ١٧]
 الآيَةَ.

أَمَّا تَسْمَعُ قَوْلَهُ ﷺ. وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى
 الإسلامِ فَقَالَ: «إِنَّكَ تُحَمِّدُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ»^(١) وَلَمَّا قَدِمَ

(١) - رواه الخرائطي في كتاب فضيلة الشكر لله على نعمته (الحديث رقم ١٥)
 بلفظ: (مرَّ النبي ﷺ بَرَجْرٍ وَهُوَ يَقُولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَجَعَلَنِي
 مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ شَكَرْتَ عَظِيمًا).

الْبَشِيرُ^(١) عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ؟ قَالَ: عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: الْآنَ تَمَّتِ النُّعْمَةُ^(٢).

وَقِيلَ: مَا مِنْ كَلِمَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا أْبْلَغَ عِنْدَهُ فِي الشُّكْرِ مِنْ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مِنْ عَلَيْنَا وَهَدَانَا إِلَى الْإِسْلَامِ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْفَلَ الشُّكْرَ وَتَغْتَرَّ بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ، مِنْ الْإِسْلَامِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ، فَإِنَّ مَعَ ذَلِكَ لَا مَوْضِعَ لِلْأَمْنِ وَالْغَفْلَةِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ بِالْعَوَاقِبِ.

وَكَانَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: مَا مِنْ أَحَدٍ عَلَى دِينِهِ إِلَّا سَلِبَ.

وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتَ بِحَالِ الْكُفَّارِ وَخُلُودِهِمْ فِي النَّارِ، فَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ، فَإِنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْخَطَرِ، وَلَا تَدْرِي مَاذَا يَكُونُ مِنَ الْعَاقِبَةِ وَمَاذَا سَبَقَ لَكَ فِي حُكْمِ الْغَيْبِ؛ فَلَا تَغْتَرَّ بِصَفَاوَةِ الْأَوْقَاتِ، فَإِنَّ تَحْتَهَا غَوَامِضَ الْآفَاتِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَا مُعْتَرِّ الْمُعْتَرِّينَ بِالْعِصْمِ، إِنَّ تَحْتَهَا أَنْوَاعَ النَّقْمِ، زَيْنَ اللَّهِ إِبْنِيسَ بِأَنْوَاعِ عِصْمَتِهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ فِي حَقَائِقِ لَعْنَتِهِ، وَزَيْنَ بِلْعَامِ^(٣) بِأَنْوَاعِ وِلَايَتِهِ. وَهُوَ فِي حَقَائِقِ عَدَاوَتِهِ.

(١) البشير: هو المبشر بخير يوسف عليه السلام، وذكر المفسرون أن اسمه يهوذا ذهب إلى يعقوب عليه السلام ليشره أن ابنه يوسف ما زال حياً بعد أن كان أخيره أن الذئب أكله.

(٢) هكذا ذكره النسفي في تفسيره.

(٣) بلعام بن بعوراء: من عمماء بني إسرائيل.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَمِ مِنْ مُسْتَدْرِجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ،
وَكَمِ مِنْ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ، وَكَمِ مِنْ مَغْرُورٍ بِالسُّرْرِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ لِذِي الثُّونِ: مَا أَقْصَى مَا يُخْدَعُ بِهِ الْعَبْدُ؟ قَالَ بِالْأَلْطَافِ
وَالْكَرَامَاتِ. كَذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾ [الأعراف: ١٨٢] أَي تُسْبِغُ عَلَيْهِمُ النَّعَمَ وَتُنْسِيهِمُ
الشُّكْرَ؛ (كما قال الشاعر)^(١): [البيسط]:

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلَمْتُكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ كُنْتَ صِرْتَ أَقْرَبَ، فَأَمْرُكَ أَخَوْفُ وَأَصْعَبُ،
[٩١/ب] وَالْمُعَامَلَةُ أَشَقُّ وَأَدْقُ، وَنَخْطُرُ عَلَيْكَ/ أَعْظَمُ، فَإِنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ
أَبْلَغَ عُلُوقًا إِذَا أَنْقَلَبَ كَانَ أَصْعَبَ وَقُوعًا، كَمَا قِيلَ: [مجزوء
الكامل]:

مَا طَارَ طَيْرٌ فَارْتَفَعَ إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعُ

فَإِذَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى زَأْمِنِ، وَإِغْفَالِ نَشْكْرِ، وَتَرَكِ الْإِبْتِهَالِ فِي
الْحِفْظِ بِحَالٍ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: كَيْفَ
تَأْمَنُ وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ صَوَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَقُولُ: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وَيُوسُفُ الصَّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ:
﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]. وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ
سَلِّمْ سَلِّمْ، كَأَنَّهُ فِي سَفِينَةٍ يَخْشَى الْغَرَقَ.

(١) زيادة من (د) و(هـ) يقتضيها الكلام.

وَبَلَّغْنَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ (١) أَنَّهُ قَالَ: تَأَمَّلْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ
لَيْلَةً فَبَكَى اللَّيْلَ أَجْمَعَ، قُلْتُ: بِكَأُوكَ هَذَا عَلَى الدُّنُوبِ؟ قَالَ،
فَحَمَلَ تَبْنَةً، وَقَالَ: الدُّنُوبُ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا إِنَّمَا أَخْشَى أَنْ
يَسْلُبَنِي اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَسَمِعْتُ أَنَا بَعْضَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: إِنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ سَأَلَ اللَّهَ
تَعَالَى عَنْ أَمْرِ بِلْعَامٍ وَطَرِدِهِ بَعْدَ تِلْكَ الْآيَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، فَقَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: لَمْ يَشْكُرْنِي يَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ عَلَى مَا أَعْطَيْتُهُ، وَلَوْ شَكَرْتَنِي عَلَى
ذَلِكَ مَرَّةً لَمَا سَلَبْتُهُ.

فَتَيَقَّظُ أَيُّهَا الرَّجُلُ، وَاحْتَنِظْ بِرُكْنِ الشُّكْرِ جَدًّا جَدًّا. وَأَحْمَدِ اللَّهَ
عَلَى مِنْهُ فِي الدِّينِ، أَعْلَاهَا الْإِسْلَامُ وَالْمَعْرِفَةُ، وَأَدْنَاهَا مَثَلًا تَوْفِيقُ
لِتَسْبِيحِ، أَوْ عِصْمَةٍ عَنْ كَلِمَةٍ لَا تَعْنِيكَ، عَسَى أَنْ يُتَمَّ نِعْمَهُ عَلَيْكَ
وَلَا يَتَّيَلِّكَ بِمَرَارَةِ الزَّوَالِ، فَإِنَّ أَمْرَ الْأُمُورِ وَأَصْعَبَ الْإِهْدَانَةِ بَعْدَ
الْإِكْرَامِ، وَالنَّزْدُ بَعْدَ التَّقْرِيبِ. وَالْفِرَاقُ بَعْدَ الْوَصْلِ. وَاللَّهُ تَعَالَى
الْمَاجِدُ الْكَرِيمُ. الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ.

(١) من كبار الزهاد، كان رجلاً فضلاً، لم يذكر الدنيا قط. وكان من المبارك معجباً

فصل في وجوب التضرع إلى الله تعالى

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ فِي مَنِ اللَّهِ تَعَالَى الْعِظَامَ
عَلَيْكَ، وَأَيَادِيهِ الْجِسَامِ الْكِرَامِ لَدَيْكَ، الَّتِي لَا يَحْصَرُهَا قَلْبُكَ، وَلَا
يُحِيطُ بِهَا وَهْمُكَ، حَتَّى خَنُفَتْ هَذِهِ الْعُقَبَاتِ الصَّعَابِ، فَوَجَدْتَ
الْعُلُومَ وَالْبَصَائِرَ، وَتَطَهَّرْتَ مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْكَبَائِرِ، وَسَبَقْتَ الْعَوَائِقَ،
وَدَفَعْتَ الْعَوَارِضَ، وَظَفَرْتَ بِالْبَوَاعِثِ، وَسَلِمْتَ مِنَ الْقَوَادِحِ، فَكَمْ
حَصَلَ لَكَ فِيهَا مِنْ خَصَنَةِ شَرِيفَةٍ، وَرُتَبَةٍ مُنِيفَةٍ. أَوْلَاهَا التَّبْصِيرُ
وَالتَّعْرِيفُ، وَآخِرُهَا التَّقْرِيبُ وَالتَّشْرِيفُ، فَتَأَمَّلْتَ فِيهَا بِمَقْدَارِ عَقْلِكَ
وَتَوْفِيقِكَ، وَشَكَرْتَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى قَدْرٍ طَوْقِكَ، بِأَنْ يَشْفَعَ لِسَانَكَ [٩٢] أ
بِحَمْدِهِ وَثَنَائِهِ، وَيَمْلَأَ قَبْكَ بِعَظَمَتِهِ، وَيُبَلِّغَكَ مَبْلَغًا يَحُورُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
عِضْيَانِهِ، وَيَبْعَثَكَ عَلَى نَحْدَمَةٍ بِمَا أَمَكَّنَكَ، أَوْ يَسَعَةَ ضَقَّتِكَ، مُعْتَرِفًا
بِالنُّصُورِ عَنْ حَقِّ إِنْعَامِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَكُلَّمَا أَغْفَلْتَ شُكْرَهُ أَوْ فَتَرْتَ أَوْ
زَلَلْتَ، عَاوَدْتَ وَاجْتَهَدْتَ وَتَضَرَّعْتَ وَتَوَسَّلْتَ وَقُتَّ: يَا اللَّهُ يَا
مَوْلَايَ، كَمَا بَدَأْتَ بِالْإِحْسَانِ بِفَضْلِكَ مِنْ غَيْرِ سُنْحَقَاقٍ (فَاتَمِّمُهُ
بِفَضْلِكَ أَيْضًا مِنْ غَيْرِ أَسْتَحْقَاقٍ)^(١)، وَتُنَادِيهِ بِنِدَاءِ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ

(١) جملة ساقطة من الأصل. مثبتة في باقي النسخ.

وَجَدُّوْا تَاجَ هِدَايَتِهِ، وَذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ. فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حُرْفَةَ
الطَّرْدِ وَالْإِهَانَةِ، وَوَحْشَةَ الْبُعْدِ وَالضَّلَالَةَ، وَمَرَارَةَ الْعَزْلِ وَالْإِزَالَةَ،
فَتَضَرَّعُوا بِالْبَابِ مُسْتَعِيْثِيْنَ، وَمَدُّوْا إِلَيْهِ الْأَكْفَ مُبْتَهَلِيْنَ، وَنَادَوْا فِي
الْخَلَوَاتِ مُسْتَضْرِحِيْنَ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ ﴾ [آل عمران: ٨].

قُلْتُ أَنَا: تَقْدِيرُهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَا وَجَدْنَا مِنْكَ نِعْمَةً فَطَمِعْنَا
فِي أُخْرَى، لِأَنَّكَ أَنْتَ الْجَوَادُ الْوَهَّابُ، فَكَمَا وَهَبْتَ لَنَا مَزِيَّةَ الْإِنْعَامِ
فِي الْإِبْتِدَاءِ، فَهَبْ لَنَا رَحْمَةَ الْإِتْمَامِ فِي الْإِنْتِهَاءِ. أَمَا تَسْمَعُ -
وَيَحْكُ - أَنْ أَوَّلَ دُعَاءِ عِلْمِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِبَادَهُ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ
أَصْطَفَاهُمْ اللهُ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ. هَذَا الدُّعَاءُ: قَوْلُهُ: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] أَيُّ بُنْيَانًا عَلَيْهِ وَأَدِمَهُ لَنَا. هَكَذَا تَضَرَّعُ
إِلَيْهِ فَإِنَّ الْخَطَرَ عَظِيمٌ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْحُكَمَاءَ نَظَرُوا فَرَدُّوْا مَصَائِبَ الْعَالَمِ وَمِخْنَهَا ^(١) إِلَى
خُمْسٍ:

الْمَرَضِ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْفَقْرِ فِي الشَّيْبِ، وَالْمَوْتَ فِي الشَّبَابِ،
وَالْعَمَى بَعْدَ الْبَصْرِ. وَالتَّكْرَةَ ^(٢) بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ.

وَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: [البسيط]:
لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ وَلَيْسَ لِلَّهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضٍ

(١) مِخْنَهَا: أَيُّ مِحْنِ الْمَصَائِبِ. وَفِي رِوَايَةِ أُخْرَى: مِخْنَهُمْ: أَيُّ مِحْنِ النَّاسِ.

(٢) التَّكْرَةُ: أَيُّ الْإِنْكَارِ، وَالْمَقْصُودُ: الْإِنْكَارُ نَعْمَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ.

وَلِغَيْرِهِ: [الطويل]:

إِذَا أَبَقَتِ الدُّنْيَا عَلَى المَرءِ دِينَهُ فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرٍ

وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ نِعْمٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكَ، وَتَأْيِيدَ أَيْدِكَ بِهِ فِي قَطْعِ عَقَبَةٍ مِنَ العَقَبَاتِ، لِيُبَيِّنَ عَلَيْكَ مَا أَعْطَى، وَيَزِيدَكَ فَوْقَ مَا تَوَدُّ وَتَتَمَنَّى؛ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، كُنْتَ قَدْ خَلَفْتَ هَذِهِ العَقَبَةَ الخَطِيرَةَ، وَكُنْتَ قَدْ ظَفَرْتَ بِالكَنْزَيْنِ الكَرِيمَيْنِ العَزِيزَيْنِ، اللَّذَيْنِ هُمَا: الإِسْتِقَامَةُ وَالإِسْتِزَادَةُ، فَتَدْوُمُ لَكَ النِّعْمُ المَوْجُودَةُ الَّتِي أَعْطَاكَهَا، فَلَا تَخْشَى زَوَالَهَا، وَيَزِيدَكَ مِنَ النِّعْمِ المَفْقُودَةِ الَّتِي لَمْ تُعْطَ بَعْدُ مَا لَا تُحْسِنُ أَنْ تَسْأَلَهَا وَتَتَمَنَّاها/ فَلَا تَخْشَى فَوَاتَهَا، وَكُنْتَ [٩٢/ب]

حِينَئِذٍ مِنَ العَارِفِينَ العُلَمَاءِ بالدينِ، التَّائِبِينَ الطَّاهِرِينَ، الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، المُتَجَرِّدِينَ لِلخِدْمَةِ، القَاهِرِينَ لِلشَّيْطَانِ، المُتَّقِينَ حَقَّ التَّقْوَى بِالقَلْبِ وَالأَرْكَانِ، القَاصِرِينَ لِالأَمَلِ، النَّاصِحِينَ الخَاشِعِينَ المُتَوَاضِعِينَ، المُتَوَكِّلِينَ المُفَوِّضِينَ، الرَّاضِينَ الصَّابِرِينَ، الخَائِفِينَ الرَّاجِينَ، المُخْلِصِينَ الدَّاكِرِينَ المِنَّةَ، الشَّاكِرِينَ لِأَنِّعَمَ سَيِّدِكَ رَبِّ العَالَمِينَ؛ ثُمَّ تَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ المُسْتَقِيمِينَ المُكْرَمِينَ الصِّدِّيقِينَ. فَتَأْمَلُ هَذَا الكَلَامَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، لَقَدْ قَلَّ مِنَ النَّاسِ العَابِدُ لِهَذَا المَعْبُودِ، الوَاصِلُ إِلَيَّ هَذَا المَقْصُودِ، وَمَنِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى هَذِهِ المُونِ وَتَحْصِيلِ هَذِهِ الشَّرَائِطِ؟

صعوبة
تحصيل
الشكر
فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى، كَذَلِكَ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾
[سبأ: ١٣] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ [يوسف: ٣٨] ﴿لَا

يَعْلُونَ ﴿١٣﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [يوسف: ٢١]،
٤٠، ٦٨].

ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَعَلَى الْعَبْدِ
الْاجْتِهَادُ، وَعَلَى اللَّهِ الْهِدَايَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ يَوْمُ بِمَا عَلَيْهِ،
فَمَا ظَنُّكَ بِالرَّبِّ الْقَدِيرِ الْغَنِيِّ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ؟ فَإِنْ قُلْتَ: فَالْعُمُرُ
قَصِيرٌ، وَهَذِهِ عَقَبَاتٌ طَوِيلَةٌ شَدِيدَةٌ، فَكَيْفَ يَبْقَى الْعُمُرُ حَتَّى تَكْمَلَ
هَذِهِ الشَّرَائِطُ وَتُقَطَعَ هَذِهِ الْعَقَبَاتُ؟

قطع
العقبات
وقصر العمر

فَلَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ الْعَقَبَاتِ طَوِيلَةٌ، وَالشَّرَائِطُ فِيهَا شَدِيدَةٌ، وَلَكِنْ
إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْتَبِيَ عَبْدَهُ، قَصَرَ عَلَيْهِ طَوِيلَهَا، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ
شَدِيدَهَا، حَتَّى يَقُولَ بَعْدَ قَطْعِهَا: مَا أَقْرَبَ هَذِهِ الصَّرِيحَ وَأَقْصَرَهَا،
وَمَا أَهْوَنَ هَذَا الْأَمْرَ وَأَيْسَرَهُ.

وفي مثل ذلك قلتُ أنا عند وُقُوفِي عَسَى هَذِهِ نِعَايَةَ:

العقبات

[الكامل]:

بتوفيق الله

عَلِمُ الْمَحَجَّةَ وَاصْخُ بُرَيْدِهِ وَأَرَى الْقُلُوبَ عَنِ الْمَحَجَّةِ فِي عَمِي
وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِهَائِلِ وَنَجَاتِهِ مَوْجُودَةٌ وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ نَجَا

حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَنْصَعُ هَذِهِ الْعَقَبَاتِ فِي سَبْعِينَ سَنَةً. وَمِنْهُمْ
مَنْ يَنْصَعُهَا فِي عِشْرِينَ سَنَةً (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا) ^(١) فِي عَشْرِ سِنِينَ،
وَمِنْهُمْ مَنْ تَحْصُلُ لَهُ فِي سَنَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِي شَهْرٍ بَلْ فِي

(١) عبارة ساقطة من الأصل، مشنة في - في النسخ.

جُمُعَةٍ، بَلْ فِي سَاعَةٍ، حَتَّى أَنْ مِنْهُمْ مَنْ يُحَصِّلُهُ فِي لَحْظَةٍ بِتَوْفِيقِ
خَاصٍ وَعِنَايَةٍ سَابِقَةٍ.

[أ/٩٣] أما تَذَكَّرُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ؟ كَانَتْ مُدَّتُهُمْ خَطَرَةً حَيْثُ رَأَوْا/
أَصْحَابَ الكَهْفِ التَّعَيَّرَ فِي وَجْهِ مَلِكِهِمْ دِقْيَانُوسَ^(١) فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
الآيَةِ [الكهف: ١٤]، حَصَلَتْ لَهُمْ الْمَعْرِفَةُ وَأَبْصَرُوا مَا فِي هَذَا
الطَّرِيقِ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَقَطَعُوا هَذَا الطَّرِيقَ فَصَارُوا مُفَوَّضِينَ مُتَوَكِّلِينَ
مُسْتَقِيمِينَ، إِذْ قَالُوا: ﴿فَأَوَّأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ الْآيَةِ
[الكهف: ١٦]، وَكُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ سَاعَةٍ أَوْ
لَحْظَةٍ.

سحرة فرعون
أما تَذَكَّرُ سَحْرَةَ فِرْعَوْنَ؟ مَا كَانَتْ مُدَّتُهُمْ إِلَّا لَحْظَةً حَيْثُ رَأَوْا
مُعْجِزَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى
وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأعراف: ١٢٢] فَأَبْصَرُوا الطَّرِيقَ وَقَطَعُوهُ بِحَقِّهِ،
فَصَارُوا مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ، بَلْ أَقَلَّ، مِنَ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ، الرَّاضِينَ
بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلَائِهِ، الشَّاكِرِينَ لِأَلَانِهِ، الْمُشْتَاقِينَ
إِلَى لِقَائِهِ، فَتَادَوْا: ﴿لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

إبراهيم بن أدهم
وَلَقَدْ حَكَيْنَا أَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ، كَانَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
أَمْرِ الدُّنْيَا، فَعَدَلَ وَقَصَدَ هَذَا الطَّرِيقَ، فَلَمْ يَكُنْ مِقْدَارُ سَيْرِهِ مِنْ بَلْخِ
إِلَى مَرَوْ، حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ أَسَارَ إِلَى رَجُلٍ سَقَطَ مِنَ الْقَنْطَرَةِ فِي

(١) في كتب التفسير إنه دقيانوس نجبار، وهو ممن عبد الأصنام وذبح للطواغيت،
وقتل من خالفه، وكان ينزل قري الروم، فلا يترك في قرية نزلها أحداً إلا فتنه
عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله.

الماء الكثير هُنَالِكَ، أَنْ قَفَ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ مَكَانَهُ فِي الْهَوَاءِ
فَتَخَلَّصَ.

وَأَنَّ رَابِعَةَ الْبَصْرِيَّةِ كَانَتْ أُمَّةً كَبِيرَةً السَّنِّ، يُطَافُ بِهَا فِي سُوقِ رَابِعَةِ الْبَصْرِيَّةِ
الْبَصْرَةِ، لَا يَزْعَبُ فِيهَا أَحَدٌ لِكِبَرِ سِنَّهَا، فَرَحِمَهَا بَعْضُ الثَّجَّارِ
فَاشْتَرَاهَا بِنَحْوِ مِائَةِ دِرْهَمٍ وَأَعْتَقَهَا، فَاخْتَارَتْ هَذَا الطَّرِيقَ وَأَقْبَلَتْ
عَلَى الْعِبَادَةِ، فَمَا تَمَّتْ لَهَا سَنَةٌ حَتَّى زَارَهَا عُبَادُ الْبَصْرَةِ وَقَرَأُواهَا
وَعُلِّمُواهَا لِعِظَمِ مَنْزِلَتِهَا.

وَأَمَّا الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ الْعِنَايَةُ، وَلَمْ يُعَامَلْ بِالْفَضْلِ فَيُوكَلُّ إِلَى
نَفْسِهِ، فَرُبَّمَا يَبْقَى فِي شُعْبَةٍ مِنْ عَقَبَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ سَنَةً لَا يَقْطَعُهَا،
وَكَمْ يَصْبِحُ وَيَضْرُخُ، مَا أَظْلَمَ هَذَا الطَّرِيقَ وَأَشْكَلُهُ، وَأَعْسَرَ هَذَا
الْأَمْرَ وَأَعْضَلَهُ، فَإِنَّ الشَّانَ كُلَّهُ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ، الْعَدْلِ الْحَكِيمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أَخْصَصَ هَذَا بِالتَّوْفِيقِ الْخَاصِّ وَحُرِّمَ هَذَا،
وَكِلَاهُمَا مُشْتَرِكَانِ فِي رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ؟

فَعِنْدَ هَذَا السُّؤَالِ تُنَادِي مِنْ سُرَادِقَاتِ الْجَلَالِ: أَنْ الزَّمَّ الْأَدَبُ،
وَأَعْرَفَ سِرَّ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُ: ﴿لَا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قُلْتُ أَنَا: وَمِثَالُ هَذَا الطَّرِيقِ فِي الدُّنْيَا الصِّرَاطُ فِي الْآخِرَةِ، فِي
عَقَبَاتِهَا وَمَسَافَاتِهَا وَمَقَاضِيهَا، وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْخَلَائِقِ فِيهَا، [٩٣/ب]
فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالرَّيْحِ
الْعَاصِفِ، وَآخَرُ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ وَآخَرُ كَالطَّائِرِ، وَآخَرُ يَمْسِي، وَآخَرُ

يَزْحَفُ حَتَّى يَصِيرَ فَحْمَةً، وَآخِرُ يَسْمَعُ حَسِيْسَهَا، وَآخِرُ يُؤْخَذُ
بِكَلَالِيْبٍ فَيُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ.

وَكَذَلِكَ حَالُ هَذَا الطَّرِيقِ مَعَ سَالِكِيهِ فِي الدُّنْيَا، فَهَمَا
صِرَاطَانِ: صِرَاطُ الدُّنْيَا، وَصِرَاطُ الآخِرَةِ؛ فَصِرَاطُ الآخِرَةِ لِلْأَنْفُسِ،
يَرَى أَهْوَالَهَا أَهْلُ الأَبْصَارِ، وَصِرَاطُ الدُّنْيَا لِلْقُلُوبِ، يَرَى أَهْوَالَهَا
ذَوُو البَصَائِرِ وَالأَلْبَابِ، وَإِنَّمَا اأَخْتَلَفَتِ الأَحْوَالُ لِلسَّالِكِينَ فِي الآخِرَةِ
لِاأَخْتِلَافِ اأَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَتَأْمَلْ ذَلِكَ حَقَّهُ، فَهَذِهِ هَذِهِ.

فصل

في أن طريق الآخرة روحاني تسلكه القلوب

ثُمَّ أَعْلَمَ مَا هُوَ التَّحْقِيقُ فِي هَذَا الْبَابِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ هَذَا
الطَّرِيقُ فِي طَوْلِهِ وَقَصْرِهِ مِثْلَ الْمَسَافَاتِ الْمَكَانِيَّةِ الَّتِي تَسْلُكُهَا
الْأَنْفُسُ، فَتَقْطَعُهَا بِالْأَقْدَامِ فَيَكُونُ قَطْعُهَا عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْأَنْفُسِ
وَضَعْفِهَا، إِنَّمَا هُوَ طَرِيقُ رَوْحَانِيٍّ تَسْلُكُهُ الْقُلُوبُ، فَتَقْطَعُهُ بِالْأَفْكَارِ
عَلَى حَسَبِ الْعَقَائِدِ وَالْبَصَائِرِ. أَضْلُهُ نُورٌ سَمَاوِيٌّ وَنَظَرٌ إِلَهِيٌّ، يَقَعُ
فِي قَلْبِ الْعَبْدِ يَنْظُرُ نَظْرَةً فَبَرَى بِهَا أَمْرَ الدَّارَيْنِ بِالْحَقِيقَةِ، ثُمَّ هَذَا
النُّورُ رُبَّمَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ مِائَةَ سَنَةٍ فَلَا يَجِدُهُ وَلَا أَثَرَ مِنْهُ. وَذَلِكَ لِخَطِيئِهِ
فِي الطَّلَبِ، وَتَقْصِيرِهِ فِي الاجْتِهَادِ، وَجَهْلِهِ بِطَرِيقِ ذَلِكَ. وَآخِرُ يَجِدُهُ
فِي خَمْسِينَ وَآخِرُ فِي عَشْرِ. وَآخِرُ فِي يَوْمٍ، وَآخِرُ فِي سَاعَةٍ وَلِحِظَةٍ
بِعِنَايَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ تَعَالَى وَلِيُّ الْهَدَايَةِ، لَكِنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ
بِالاجْتِهَادِ، فَعَلَيْهِ بِمَا أَمَرَ. وَالْأَمْرُ مَقْسُومٌ مَقْدُورٌ. وَالرَّبُّ حَكَمٌ
عَدْلٌ، يَقَعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا أَغْظَمَ هَذَا الْخَطَرَ وَأَشَدَّ هَذَا الْأَمْرَ، وَأَكْثَرَ مَا
يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هَذَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ، فَكُلُّ هَذَا الْعَمَلِ وَالْجُهْدِ وَتَحْصِيلِ
هَذِهِ الشَّرَائِطِ نِمَاذًا؟

فَأَقُولُ لِعَمْرِي: إِنَّكَ لَصَادِقٌ فِي قَوْلِكَ، إِنَّ الْأَمْرَ شَدِيدٌ،
وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿٤﴾
[البلد: ٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾
[الأحزاب: ٧٢].

وَلِذَلِكَ قَالَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ «لَوْ عَلِمْتُمْ
مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا / وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا»^(١). [١/٩٤]

- (١) - رواه البخاري عن عائشة (٤٣/٢) باب الصلاة في كسوف الشمس، بلفظ:
(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله.. يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم
لضحكتكم قليلاً ولبكيتكم كثيراً).
- ورواه البخاري أيضاً في كتاب النكاح، باب الغيرة (٤٥/٧) عن عائشة أيضاً.
ورواه في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم (١٢٧/٨) عن
أبي هريرة.
- ورواه أيضاً مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف
(٦١٨/٢) عن عائشة ضمن حديث طويل فيه وصف لصلاة النبي ﷺ في كسوف
الشمس.
- ورواه ابن ماجه في الزهد، باب الحزن والبكاء (١٤٢/٢) عن أنس بن مالك
(الحديث رقم ٤١٩١) مقتصراً على ما لدينا.
- ورواه الدارمي عن أنس بن مالك أيضاً (٣٠٦/٢).
- وفي موطأ الإمام مالك (١٤٩/١) عن عائشة، يروي حديث الكسوف، وفي
ختمه قوله ﷺ: «يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم...»
- وفي مسند الإمام أحمد (٣٢٣/٢) ورد هذا الحديث عن أبي هريرة بلفظ:
(والذي نفس محمد بيده، لو تعلمون ما أعلم لضحكتكم قليلاً ولبكيتكم كثيراً).

وَرَوَى أَنَّ الْمُنَادِيَ يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ: «لَيْتَ الْخَلَائِقَ لَمْ يُخْلَقُوا
وَلَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا».

وَكَذَلِكَ يَقُولُ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ خَضِرَاءَ تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ مَخَافَةَ
الْعَذَابِ.

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ إِنْسَانًا يَقْرَأُ: ﴿هَذَا آقَى عَلَى الْإِنْسَانِ
حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] فقال لَيْتَهَا تَمَّتْ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَدِدْتُ أَنِّي كَبِشٌ، فَيَفْتَرِّقُ
لَحْمِي وَيَتَحَسَّى مَرَقِي وَلَمْ أُخْلَقْ.

وَعَنْ وَهَبِ بْنِ مُبَيِّهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: خُلِقَ ابْنُ آدَمَ أَحْمَقَ، وَلَوْلَا
حَمَقُهُ مَا هَنَأُ عَيْشٌ.

وَعَنْ الْفُضَيْلِ: إِنِّي لَا أُغْبِطُ مَلِكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا وَلَا
عَبْدًا صَالِحًا، أَلَيْسَ هَذَا يُعْتَبَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ إِنَّمَا أُغْبِطُ مَنْ لَمْ
يُخْلَقْ.

وَعَنْ عَطَاءِ السُّنَمِيِّ^(٢): نَوَّأَنَّ نَارًا أُجِّجَتْ وَقِيلَ: مَنْ أَلْقَى نَفْسَهُ

(١) صحابي جليل، وقائد إسلامي مشهور، واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري المكي. أحد السابقين الأولين، ومن عزمه تصديق علي توليته الخلافة. شهد له النبي بالجنة. وسماه أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمّة. روى أحاديث معدودة وغزا غزوات مشهورة. وكان أبو عبيدة موصوفاً بحسن الخلق وبالحمه الزائد وبالتواضع. وقد توفي أبو عبيدة سنة سبع عشرة للهجرة. سير أعلام النبلاء، ٥/١.

(٢) والأصح السيمي، وهذا القول ورد في الحلية (٦/٢١٥).

فِيهَا صَارَ لَا شَيْءَ، لَخَشِيْتُ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الْفَرَحِ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى النَّارِ.

فَالْأَمْرُ إِذَنْ أَيُّهَا الرَّجُلُ شَدِيدٌ كَمَا تَقُولُ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا تَظُنُّ وَتَتَوَهَّمُ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ سَبَقَ فِي الْعِلْمِ الْقَدِيمِ، وَتَدْبِيرٌ أُجْرَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، وَلَا حِيلَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِذَلِّ الْمَجْهُودِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَالِإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ، وَالِإِبْتِهَالِ دَائِمًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، عَسَى أَنْ يَرْحَمَهُ فَيَسْلِمَهُ بِفَضْلِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: كُلُّ هَذَا لِمَاذَا؟

فَهَذَا كَلَامٌ يَدُلُّ مِنْكَ عَلَى غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ، بَلِ الصَّوَابُ أَنْ تَقُولَ: كُلُّ هَذَا فِي جَنْبِ مَا يَضُرُّهُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ مَاذَا^(١)؟ أَتَدْرِي مَا يَطْلُبُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ؟

أَقْلُ مَا يَطْلُبُهُ عَنِ الْجُمْلَةِ شَيْئَانِ، أَحَدُهُمَا: السَّلَامَةُ فِي الدَّارَيْنِ، وَالثَّانِي: الْمُتَّكُ فِي الدَّارَيْنِ. مطلب العبد

أَمَّا السَّلَامَةُ فَإِنَّ شَيْئًا وَفَتَنَّتْهَا وَغَوَّائِلَهَا^(٢)، بِحَيْثُ نَمَّ يَسْلَمُ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ. فَقَدْ سَمِعْتَ حَدِيثَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ^(٣)،

(١) أي: أي شيء هو؟

(٢) أي: أن الدنيا مخلوقة هي وفتنتها وغوائلها، فإذا طلبت الدنيا أخذتها مع ما فيها وم معها.

(٣) هاروت وماروت: من ملائكة العابدين الصالحين. نظر خبيرهما في كتب التفسير، تفسير سورة بقره الآية ١٠٢ (وعلى الأخص في تفسير الخازن).

حَتَّى رُوي أَنَّهُ إِذَا عُرِجَ بِرُوحِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ، تَقُولُ مَلَائِكَةُ
السَّمَوَاتِ مُتَعَجِّبِينَ: كَيْفَ نَجَا هَذَا مِنْ دَارٍ فَسَدَ فِيهَا خِيَارُنَا؟ وَأَنَّ
الْآخِرَةَ فِي أَهْوَالِهَا وَشَدَائِدِهَا، بِحَيْثُ تَضْرُخُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ:
نَفْسِي نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي. حَتَّى رُوي أَنَّهُ: لَوْ كَانَ
لِرَجُلٍ عَمَلٌ سَبْعِينَ نَبِيًّا، لَظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ
فِتْنِ هَذِهِ، فَيَخْرُجَ مِنْهَا بِالْإِسْلَامِ سَالِمًا، لَا تُصِيبُهُ فِتْنَةٌ مِنْ أَهْوَالِ
هَذِهِ/ فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ سَالِمًا، لَا تُصِيبُهُ نَكْبَةٌ، أَيَكُونُ ذَلِكَ أَمْرًا هَيِّنًا؟ [ب/٩٤]

وَأَمَّا الْمُلْكُ وَالْكَرَامَةُ، فَإِنَّ الْمُلْكَ نَفَاذُ التَّصَرُّفِ وَالْمَسِيئَةِ، وَإِنَّ
ذَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ فِي الدُّنْيَا لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَصْفِيائِهِ، الرَّاضِينَ
بِقَضَائِهِ، الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْأَرْضِ لَهُمْ قَدَمٌ، وَالْحَجَرِ وَالْمَدَرُ لَهُمْ ذَهَبٌ
وَفِضَّةٌ، وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَالْبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ لَهُمْ مَسَخَرُونَ، لَا يَشَاءُونَ
شَيْئًا إِلَّا وَهُوَ كَائِنٌ، لِأَنَّهُمْ لَا يَشَاءُونَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ
كَانَ، وَلَا يَهَابُونَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، وَيَهَابُهُمْ كُلُّ الْخَلْقِ. وَلَا يَخْدُمُونَ
أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَيَخْدُمُهُمْ كُلُّ مَنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَيْنَ لِمُلُوكِ الدُّنْيَا بِعُشْرِ
مِغْشَارِ هَذِهِ الرُّتْبَةِ، بَلْ هُمْ أَقَلُّ وَأَذَلُّ، وَأَمَّا مُلْكُ الْآخِرَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَمْرًا رَأَيْتَ نَبِيًّا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠] وَأَعْظَمُ بِمَا
يَقُولُ رَبُّ الْعِزَّةِ إِنَّهُ مُلْكٌ كَبِيرٌ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا قَلِيلَةٌ،
وَأَنَّ بَقَاءَهَا مِنْ أَوْلِيَّهَا إِلَى آخِرِهَا قَلِيلٌ، وَتَصِيبُ أَحَدِنَا مِنْ هَذَا الْقَلِيلِ
قَلِيلٌ، ثُمَّ الْوَاحِدُ مِمَّا قَدْ يَبْدُلُ مَالَهُ وَرُوحَهُ حَتَّى يَظْفَرَ بِقَدْرِ قَلِيلٍ مِنْ
هَذَا الْقَلِيلِ فِي بَقَاءِ قَلِيلٍ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ فَيَعْتَدِرُ بَلْ يُغْبَطُ، وَلَا
يَسْتَكْبِرُ مَا بَدَّلَ فِيهِ مِنَ الْمَالِ وَالنَّفْسِ، نَحْوَ مَا ذَكَرَ عَنِ أَمْرِيءِ

الْفَيْس (١) حَيْثُ يَقُولُ: [الطويل]:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيَقِنَ أَنَا لِأَحْقَانٍ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرَا

فَكَيْفَ حَالُ مَنْ يَطْلُبُ الْمُلْكَ الْكَبِيرَ فِي دَارِ النَّعِيمِ الْخَالِدِ
الْمُقِيمِ؟ أَيْسَتْكُثْرُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ لِهَذَا تَعَالَى، أَوْ يُنْفِقَ
دِرْهَمَيْنِ، أَوْ يَسْهَرَ لَيْلَتَيْنِ؟ كَلَّا، بَلْ لَوْ كَانَ لَهُ أَلْفُ أَلْفِ نَفْسٍ،
وَأَلْفُ أَلْفِ رُوحٍ، وَأَلْفُ أَلْفِ عُمْرٍ، كُلُّ عُمْرٍ مِثْلُ عُمْرِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرُ،
فَبَدَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي هَذَا الْمَطْلُوبِ الْعَزِيزِ، لَكَانَ ذَلِكَ قَلِيلًا، وَلَتُنْ
ظَفَرَ بَعْدَهُ بِمَا طَلَبَ، كَانَ ذَلِكَ غُنْمًا عَظِيمًا، وَفَضْلًا مِنَ الَّذِي أَعْطَاهُ
كَبِيرًا، فَتَنَّبَهُ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ.

ثُمَّ إِنِّي تَأَمَّلْتُ مَا يُعْطِي اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ إِذَا أَطَاعَهُ، وَلَزِمَ
خِدْمَتَهُ، وَسَلَكَ هَذِهِ الصَّرِيقَ عُمْرَهُ، فَوَجَدْتُهَا عَلَى الْجُمْلَةِ أَرْبَعِينَ

(١) امرؤ القيس بن حجر بن نحرث الكندي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق،
اشتهر بلقبه، وكان أبوه من أسد وغطفان، وأمه أخت المهدي الشاعر. وقد
ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه. فخرج طالباً ثار أبيه، وقال في ذلك شعراً كثيراً.
وقد مات في أنقرة على أثر فروح ظهرت في جسمه عندما كان هناك يطلب
مساعدة قيصر الروم في القسطنطينية. وقد جمع ما نُسب إليه من شعر في ديوان
صغير طبع بتحقيق عبد السلام هارون. وتوجد دراسات عديدة تناولت حياته
وشعره.

انظر ترجمته وأخباره في:

الأغاني (طبعة دار الكتب ٧٧/٩، تهذيب ابن عساكر ٣ ١٠٤ الشعر والشعراء
لابن قتيبة ٣١، خزنة الأدب لبغدادي ١/١٦٠، دائرة المعارف الإسلامية
٦٢٢/٢.

كِرَامَةٌ وَخِلْعَةٌ، عِشْرُونَ مِنْهَا/ فِي الدُّنْيَا، وَعِشْرُونَ فِي الْعُقْبَى. [أ/٩٥]

أَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا:

فَالْأُولَى: أَنْ يَذْكُرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَأَكْرَمَ بَعْدَ يَكُونُ كِرَامَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي ذِكْرِهِ وَثَنَائِهِ.

الأولياء في الدنيا

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَشْكُرَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَيُعْظِمَهُ، وَلَوْ شَكَرَكَ مَخْلُوقٌ ضَعِيفٌ مِثْلَكَ وَعَظَّمَكَ، لَشَرُفْتَ بِهِ، فَكَيْفَ بِاللَّهِ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ؟

وَالثَّلَاثَةُ: أَنْ يُحِبَّهُ، وَلَوْ أَحَبَّكَ رَئِيسُ مَحَلَّةٍ، أَوْ أَمِيرُ بَلَدَةٍ، لَأَفْتَحَرْتَ بِذَلِكَ، وَأَنْتَفَعْتَ بِهِ فِي مَوَاطِنَ عَزِيزَةٍ، فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟

الرَّابِعَةُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ وَكَيْلًا يُدَبِّرُ أَمْرَهُ.

الْخَامِسَةُ: أَنْ يَكُونَ نِزْقُهُ كَفَيْلًا يُوجِّهُهُ إِلَيْهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ أَوْ زَوَالٍ.

السَّادِسَةُ: أَنْ يَكُونَ نُهُ نَصِيرًا يَكْفِيهِ كُلَّ عَدُوٍّ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ قَاصِدٍ بِسُوءٍ.

السَّابِعَةُ: أَنْ يَكُونَ نُهُ أَنْيسًا، لَا يَسْتَوْحِشُ بِحَالٍ، وَلَا يَخَافُ التَّغْيِيرَ وَالِاسْتِبْدَالَ.

الثَّامِنَةُ: عِزُّ النَّفْسِ، فَلَا يَلْحَقُهُ ذُلُّ خِدْمَةِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، بَلْ لَا يَرْضَى أَنْ تَخْدُمَهُ مَلُوكُ الدُّنْيَا وَجَبَابِرَتُهَا.

التَّاسِعَةُ: رَفْعُ الْهِمَّةِ، فَيَتَرَفَّعُ عَنِ التَّلَطُّحِ بِمَقَادِرِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا

وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى زَخَارِفِهَا وَمَلَاهِيهَا، تَرْفَعِ الرَّجَالَ الْأَوْلِيَاءَ عَنِ مَلَاعِبِ
الصُّبْيَانِ وَالنُّسْوَانِ.

العَاشِرَةُ: غِنَى الْقَلْبِ، فَيَكُونُ أَغْنَى كُلِّ غِنَى فِي الدُّنْيَا، لَا
يَزَالُ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَسِيحَ الصَّدْرِ، لَا يَفْزَعُهُ حَدَثٌ وَلَا يَهْمُهُ عُدْمٌ.

الإِخْدَى عَشْرَةَ: نُورُ الْقَلْبِ، فَيَهْتَدِي بِنُورِ قَلْبِهِ إِلَى عُلُومِ
وَأَسْرَارِ وَحِكْمِ، لَا يَهْتَدِي إِلَى بَعْضِهَا غَيْرُهُ إِلَّا بِجُهْدِ جَهِيدٍ، وَعُمُرِ
مَدِيدٍ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: شَرْحُ الصَّدْرِ، فَلَا يَضِيقُ ذَرْعاً بِشَيْءٍ مِنْ مِحَنِ
الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا، وَمُؤْنِ النَّاسِ وَمَكَايِدِهِمْ.

الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ: الْمَهَابَةُ وَالْمَوْقِعُ فِي النُّفُوسِ، يَخْتَرِمُهُ الْأَخْيَارُ
وَالْأَشْرَارُ، وَيَهَابُهُ كُلُّ فِرْعَوْنَ وَجِبَارٍ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْمَحَبَّةُ فِي الْقُلُوبِ، يَجْعَلُ لَهُ الرَّحْمَنُ وُدّاً،
فَتَرَى الْقُلُوبَ كُلَّهَا مَجْبُولَةً عَلَى حُبِّهِ، وَالنُّفُوسَ كُلَّهَا بِأَجْمَعِهَا
مَطْبُوعَةً عَلَى تَعْظِيمِهِ وَإِكْرَامِهِ.

الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الْبِرْكَةُ الْعَامَّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ كَلَامٍ أَوْ نَفْسٍ
أَوْ فِعْلٍ أَوْ ثَوْبٍ^(١) أَوْ مَكَانٍ^(٢) حَتَّى يَتَبَرَّكَ بِتُرَابِ وَطْنِهِ، وَبِمَكَانٍ
جَلَسَ فِيهِ يَوْماً، وَإِنْسَانٍ رَأَهُ وَصَحِبَهُ حِيناً.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: تَسْخِيرُ الْأَرْضِ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إِنْ شَاءَ

(١) ثاب ثوباً: رَجَعَ، أَي فَعَلَ فِعْلاً أَوْ رَجَعَ عَنِ فِعْلِ.

(٢) مكان: أَي مَكَانٍ حَلَّ فِيهِ أَوْ وَطْنِهِ.

سَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ، أَوْ قَطَعَ وَجْهَ الْأَرْضِ / بِأَقْلٍ مِنْ [٩٥/ب] سَاعَةً.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَسْخِيرُ الْحَيَوَانِ مِنَ السَّبَاعِ وَالْوُحُوشِ، وَالْهَوَامِّ وَغَيْرِهَا فَتَجِيبُهُ الْوُحُوشُ وَتَبْضِصُ لَهُ الْأَسُودُ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: مِلْكُ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ، فَحَيْثَمَا يَضْرِبُ يَدُهُ فَلَهُ كَنْزٌ إِنْ أَرَادَ، وَحَيْثَمَا يَضْرِبُ رِجْلَهُ فَلَهُ عَيْنٌ مَاءٍ إِنْ أَحْتَاجَ، وَأَيْتَمَا نَزَلَ فَلَهُ مَائِدَةٌ تَحْضُرُهُ إِنْ قَصَدَ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الْقِيَادَةُ وَالْوَجَاهَةُ عَلَى بَابِ رَبِّ الْعِزَّةِ، فَيَبْتَغِي الْخَلْقُ الْوَسِيلَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِخِدْمَتِهِ، وَتُسْتَجْعَبُ الْحَاجَاتُ إِلَى اللَّهِ بِوَجَاهَتِهِ وَبِرَكَتِهِ.

العِشْرُونَ: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ، وَلَا يَشْفَعُ لِأَحَدٍ إِلَّا شَفَعَ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَبْرَةٍ بِمَا شَاءَ، حَتَّى أَنْ مِنْهُنَّ مَنْ نَزَّ أَشَارَ إِلَى جَبَلٍ لَزَالَ، فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى السُّؤَالِ بِاللِّسَانِ، وَنَزَّ خَضَرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ لَحَضَرَ، وَلَا يَخْتَاجُ إِلَى الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ، فَهَذِهِ كَرَامَاتٌ فِي الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الَّتِي فِي الْمُعْتَمَى:

كرامات
الأولياء في
الاعتقبي

فَالْإِحْدَى وَالْعِشْرُونَ: أَنْ يَهْوُونَ عَلَيْهِ أَوْ لَا سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَهِيَ الَّتِي وَجَلَّتْ قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهَا، حَتَّى سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَهْوَنَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى أَنْ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ الْمَوْتُ عِنْدَهُ مِثْلَ شُرْبَةِ الْمَاءِ الزُّلَالِ لِلظَّمآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢].

وَالثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التَّيْبِتُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْإِيمَانِ، وَهُوَ الَّذِي
 مِنْهُ الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ، وَعَلَيْهِ كُلُّ الْبُكَاءِ وَالْجَزَعِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:
 ﴿يَتَيْبَتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾
 [إبراهيم: ٢٧].

وَالثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِرْسَالُ الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ بِالْبُشْرَى وَالْأَمَانِ،
 قَوْلُهُ: ﴿الْأَخْتَفَاؤُا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾
 [فصلت: ٣٠] فَلَا يَخَافُ مِمَّا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ فِي الْعُقْبَى، وَلَا يَخْزَنُ عَلَى
 مَا خَلَفَهُ فِي الدُّنْيَا.

وَالرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْخُلُودُ فِي الْجَنَانِ، وَمُجَاوَرَةُ الرَّحْمَنِ.

وَالْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْحَيَاةُ فِي السَّرِّ لِرُوحِهِ، فَيَعْرُجُ عَلَى
 مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ بِالْإِكْرَامِ وَالْإِلْطَافِ وَالْإِنْعَامِ، وَلِبَدْنِهِ فِي الْعَلَانِيَةِ،
 بِتَعْظِيمِ جَنَازَتِهِ، وَالْمُرَاحَمَةِ عَلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى
 تَجْهِيزِهِ، يَرْجُونَ ذَلِكَ أَكْبَرَ ثَوَابٍ وَيَعُدُّونَهُ أَعْظَمَ غُنْمٍ.

وَالسَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْأَمَانُ مِنْ فِتْنَةِ سُؤَالِ/ الْقَبْرِ وَتَلْقِينِ
 الصَّوَابِ، فَيَأْمَنُ مِنْ ذَلِكَ الْهَوْلِ. [٩٦/أ]

وَالسَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: تَوْسِيعُ الْقَبْرِ وَتَنْوِيرُهُ، فَيَكُونُ فِي رَوْضَةٍ
 مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَالثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِبْنَسُ رُوحِهِ وَنَسَمَتِهِ وَإِكْرَامُهَا، فَتَجْعَلُ فِي
 أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ مَعَ الْإِخْوَانِ الصَّالِحِينَ، فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ بِمَا
 آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

وَالتَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْحَشْرُ وَالْعِزُّ وَالْكَرَامَةُ، مِنْ حُلِّ وَتَاجٍ وَبُرَاقٍ.

وَالثَّلَاثُونَ: بِيَاضِ الْوَجْهِ وَتَوْرُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [عبس: ٣٩].

وَالْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الْأَمْنُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِيءَ أَيْمَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وَالثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الْكِتَابُ بِالْيَمِينِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفِيَ الْكِتَابَ رَأْسًا.

وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّلَاثُونَ: تَنْسِيرُ الْحِسَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَحَاسِبُ أَضْلًا.

وَالرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: ثِقَلُ الْمِيزَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُوقَفُ لِلزَّوْنِ أَضْلًا.

وَالْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: وَرُودُ الْحَوْضِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيَشْرَبُ شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

وَالسَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: جَوَازُ الصَّرَاطِ وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، حَتَّىٰ إِنْ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَسْمَعُ حَسِيْسَهَا، وَتُخَمَدُ لَهُ النَّارُ.

وَالسَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الشَّفَاعَةُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ نَحْوًا مِنْ شَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وَالثَّمَانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: مَلِكُ الْأَبَدِ فِي الْجَنَّةِ.

وَالثَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الرِّضْوَانُ الْأَكْبَرُ.

وَالْأَرْبَعُونَ: لِقَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، بِلَا كَيْفٍ، جَلَّ جَلَالُهُ.

ثُمَّ أَقُولُ: وَإِنَّمَا عَدَدْتُ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ فَهْمِي وَمَبْلَغِ عِلْمِي وَقُصُورِهِ وَنَقْصِهِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَجْمَلْتُ وَأَوْجَزْتُ، وَذَكَرْتُ مِنَ الْأُصُولِ وَالْجُمَلِ، وَلَوْ فَصَّلْتُ ذَلِكَ لَمَا أَحْتَمَلَهُ الْكِتَابُ. أَلَا تَرَى أَنِّي جَعَلْتُ مُلْكَ الْأَبَدِ خِلْعَةً وَاحِدَةً، وَلَوْ فَصَّلْتُهَا لَأَرْتَفَعَتْ عَلَى أَرْبَعِينَ خِلْعَةً مِنْ نَوْعِ الْحُورِ وَالْقُصُورِ وَاللَّبَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ ثُمَّ كُلُّ نَوْعٍ يَشْتَمِلُ عَلَى تَفَاصِيلَ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الَّذِي هُوَ خَالِقُهَا وَمَالِكُهَا، وَأَيُّ مَطْمَعٍ لَنَا فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، [ب/٩٦] ثُمَّ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَلَقَ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١) وَإِنَّ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] إِنَّ هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ بِاللُّطْفِ وَالْإِكْرَامِ؛ وَمَنْ تَكُونُ حَالُهُ هَذِهِ، فَأَتَى يَبْلُغُ جُزْءًا مِنْ أَلْفِ أَلْفِ جُزْءٍ وَهُمْ بَشَرٌ، وَيُحِيطُ بِهِ عِلْمُ مَخْلُوقٍ؟

(١) - رواه مسلم (٤/٢١٧٥): كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. (الحديث رقم ٢٨٢٥) عن سهل بن سعد الساعدي بلفظ: (شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة، حتى انتهى. ثم قال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»).

كَلَّا بَلْ تَقَاعَدْتَ الِهْمَمُ، وَتَقَاصَرَتْ دُونَهُ الْعُقُوفُ، وَحَقٌّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَهُوَ عَطَاءُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، عَلَى مُقْتَضَى الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَحَسَبِ الْجُودِ الْقَدِيمِ. أَلَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ وَلْيَبْذُلِ الْمُجْتَهِدُونَ جُهْدَهُمْ لِهَذَا الْمَطْلُوبِ الْعَظِيمِ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ أَقْلٌ قَلِيلٌ فِي جَنْبِ مَا هُمْ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ، وَإِيَّاهُ يَطْلُبُونَ، وَلَهُ يَتَعَرَّضُونَ.

وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ أَرْبَعَةٍ: الْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالْخَوْفِ، فَلْيَعْلَمْ أَوَّلًا الطَّرِيقَ، وَإِلَّا فَهُوَ أَعْمَى؛ ثُمَّ يَعْمَلْ بِالْعِلْمِ وَإِلَّا فَهُوَ مَحْجُوبٌ؛ ثُمَّ يُخْلِصِ الْعَمَلَ وَإِلَّا فَهُوَ مَغْبُوتٌ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَخَافُ وَيَحْذَرُ مِنَ الْآفَاتِ إِلَى أَنْ يَجِدَ الْأَمَانَ، وَإِلَّا فَهُوَ مَغْرُورٌ.

وَلَقَدْ صَدَقَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: الْخَلْقُ كُلُّهُمْ مَوْتَى إِلَّا الْعُلَمَاءَ، وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ نِيَامٌ إِلَّا الْعَامِلِينَ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ مَغْتَرُونَ إِلَّا الْمُخْلِصِينَ، وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ.

قُلْتُ أَنَا: وَانْعَجِبْ كُلَّ انْعَجَبٍ مِنْ أَرْبَعَةٍ:

أحدها: مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ عَالِمٍ؛ أَمَا يَهْتَمُّ بِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ؟ أَمَا يَتَعَرَّفُ مَا هُوَ مُطَّلِعٌ بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي هَذِهِ الدَّلَائِلِ وَالْعِبَرِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى هَذِهِ الْآيَاتِ وَالتَّذَرُّرِ وَالِانْتِزَاعِ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ وَالْهَوَاجِسِ فِي النَّفْسِ؟ فَانَّ اللَّهَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَنْظُرُونَ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾﴾ [المطففين: ٥].

وَالثَّانِي: مِنْ عَالِمٍ غَيْرِ عَامِلٍ؛ أَمَا يَتَذَكَّرُ مَا يَعْلَمُ يَقِينًا مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعِظَامِ وَالْعَقَبَاتِ الصَّعَابِ، وَهَذَا هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرَضُونَ؟

وَالثَّلَاثُ: مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ مُخْلِصٍ، أَمَا يَتَأَمَّلُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [١١٧] ﴿الكَهْفُ: [١١٠].

وَالرَّابِعُ: مِنْ مُخْلِصٍ غَيْرِ خَائِفٍ، أَمَا يَنْظُرُ إِلَى مُعَامَلَاتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَعَ أَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَدَمِهِ، الدَّالَّةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، حَتَّى يَقُولَ لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٥] وَنَحَوَهَا. حَتَّى حُكِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «شَيْبَتِي هُوَ وَأَخَوَاتُهَا»^(١).

ثُمَّ جُمْلَةُ الْأَمْرِ وَتَنْصِيهِهُ، مَا قَالَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهِنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. ثُمَّ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثُمَّ أَجْمَلَ الْكُلَّ فَقَدَّ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

(١) - راجع تخريج هذا الحديث الذي ورد سابقاً ص ٣١٦ حشوية (١).

وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ كُلِّ مَا زَلَّ بِهِ الْقَدَمُ، أَوْ أَطْفَى بِهِ الْقَلَمُ،
وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ أَقَاوِيلِنَا الَّتِي لَا تُوَافِقُ أَعْمَالَنَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَدْعَيْنَاهُ
وَأَظْهَرْنَاهُ مِنَ الْعِلْمِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ التَّقْصِيرِ فِيهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ
كُلِّ خَطَرَةٍ دَعَيْنَا إِلَى تَصْنُوعِ وَتَزْيِينِ، فِي كِتَابِ سَطْرِنَاهُ أَوْ كَلَامِ
نَظْمِنَاهُ، أَوْ عِلْمِ أَفْذِنَاهُ؛ وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مَعَشَرَ الْإِخْوَانِ،
بِمَا عَلِمْنَاهُ عَامِلِينَ، وَلِوَجْهِهِ بِهِ مُرِيدِينَ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَهُ وَبَالًا عَلَيْنَا،
وَأَنْ يَضَعَهُ فِي مِيزَانِ الصَّالِحَاتِ إِذَا رُدَّتْ أَعْمَالُنَا إِلَيْنَا، إِنَّهُ جَوَادٌ
كَرِيمٌ.

فَهَذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نَذْكُرَهُ فِي شَرْحِ كَيْفِيَّةِ سُلُوكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ،
وَقَدْ وَفَّقَنَا بِالْمَقْصُودِ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ مَوْلُودِ دَعَا إِلَى أَفْضَلِ
مَعْبُودِ، مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

تم كتاب «منهاج العابدين» بحمد الله تعالى وعونه، وحسن
توفيقه.

الفهارس العامة

- ١ - فهرس الأحاديث .
- ٢ - فهرس الأعلام .
- ٣ - فهرس أسماء الكتب الواردة في «منهاج العابدين» .
- ٤ - فهرس القوافي والأشعار .
- ٥ - أهم مصادر التحقيق .
- ٦ - محتوى الكتاب .

١ - فهرس الأحاديث

أعوذ بعفوك . . .	٣١٨	أ -	
أفلا أكون عبداً شكوراً . . .	٣١٨	الأبدال يكونون بالشام . . .	(١٢٥) (١)
إقطع لسانك عن حملة القرآن . . .	١٧٣	احفظ الله تجده . . .	٢٣٤
أكثروا من معرفة المؤمنين . . .	١١٢	أخوف ما أخاف عليكم . . . (عني)	١٨٢
ألا أدلكم على أشرف . . . ٦٨ - ٦٩		إذا أحب الله قوماً . . .	٢٩٦
ألا وإن الجنة . . .	٥٤	إذا رأيتم الناس . . .	١٠٩
إلزم بيتك . . .	١٢٤	إذا ظهرت البدع . . .	١١٩
ألم يوسع لك في لمجانس . . .	٣٣٨	إذا كان يوم القيامة . . .	٣٢٨
اللهم بارك لنا فيه . . .	٢٦٨	إذا كذب العبد . . .	٨٣
أما تعجبون من أسمية . . .	١٨٤	إذا ولد لابن آدم . . .	١٣٥
أنا أغني الأغنياء . . .	٣٣٧	أربعة قد فرغ منهم . . .	٢٥٣
أنا عند المنكسرة قلوبهم . . .	٣٣١	أشد الناس بلاء . . .	٢٧٠
إن يدفع عن عمرتك . . .	١١٠	أشد الناس بلاء . . .	٢٩٦
إن ابن آدم . . .	١٦٨	أصل كل دواء الحمية . . .	٢٢٥
إن الله تبارك وتعالي . . .	٣٧٦	أصل كل داء البردة . . .	٢٠٥
إن الله ليعطي الذبي . . .	٣٥٦	اطلعت نية المعراج	٧٩
إن الله تعالى لا ينظرني صوركم . . .	١٧٥	أعددت لعبدي الصائمين . . .	٣٥٩
إن أول من يدعى يوم القيامة	٣٤٠		
إن الجنة حفت بالمكره . . .	٥٤		
إن الجنة تكلمت . . .	٣٣٩		

(١) وضع لرقم بين قوسين يعني أن المفهرس له موجود في الحاشية.

٣٩١	الحمد لله على ما ساء وسرّ... ..	١٨٩	إن ديننا هذا متين... ..
٢٠٥	الحلال لا يأتيك إلا قوتاً	١٣٤	إنّ ذكر الله في جنب الشيطان... ..
٢١٥	حلالها حساب... ..	١٢٣	إن الشيطان مع الفذّ... ..
٤٢٤	خلق فيها ما لا عين رأت... ..	١٢٣-١٢٢	إن الشيطان ذئب الإنسان... ..
٩٥-٩٤	خياركم كل متفتن تواب	٦٨	إن فضل العالم على العابد... ..
- د-ذ-ر-ز -		١٧٦	إن في الجسد مضغة... ..
٢٠٧	الدنيا حلالها حساب... ..	٣٨٥	إن للنعم أوأابد... ..
١٠٩	ذاك أيام الهرج... ..	٣٢١	إنّ لله مائة رحمة... ..
٣٣٨	ردّوه إلى سجين... ..	(٩٣)	إن المؤمن إذا أذنب... ..
٢٤٨	الرزق مقسوم... ..	٣٣٩	إن المرآئي يوم القيامة ينادي... ..
١٠١	ركعتان من رجل عالم... ..	٣٤١	إن النار وأهلها يعجّون... ..
١٢٦	رهبانية أمتي... ..	١٦٣	إن النظر إلى محاسن المرأة... ..
١٢٩	زُرَّ غَبّاً تزدد حبّاً... ..	٥٩	إن النور إذا دخل القلب... ..
- س-ش -		٧٢	إن نوماً على علم... ..
١٨٦	سته يدخلون النار... ..	٤٠٢	إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة... ..
٣١٨	شبيّنتي هود وأخواتها... ..	١٥٧-١٥٦	إنما سمّي المتقون متقين... ..
٤٢٦	شبيّنتي هود وأخواتها... ..	٧٣	إنه يلهمه السعداء... ..
- ص-ض-ط-ظ -		٢٩٥	إنني لأذود أوليائي... ..
٧٤	طلب العلم فريضة... ..	٢٦٠	إياكم والطمع... ..
- ع-غ -		٣٣٩	أين الذين كانوا يعبدون... ..
١٤١	العجلة من الشيطان... ..	- ب-ت-ث -	
٧٠	العلم إمام العمل... ..	٢١٢	بعثت بالحنيفية السمحة
١٢٤-١٢٢	عليكم بالجماعة... ..	(١٣٤)	تعوذ بالله... ..
- ف-ق -		(١٠٩)	تكون فتنة، النائم... ..
(١٦٧)	قل ربّي الله ثم استقم	٣٤٣	تقول: ربّي الله
- ج-ح-خ -		٣٥٠	ثلاث مهكّت... ..
١٨٦	الحسد يأكل نحسات... ..	- ح-ج-خ -	

١٦٣	ما من مسلم . . .	فمن يرد الله أن يهديه يشرح قلبه
٢٠٤	ما فضلكم أبو بكر . . .	للإسلام
٢٨١	مكتوب على ظهر الحوت . . .	الكبرياء ردائي . . .
١٠٠	من أحبّ ديناه . . .	كل لحم نبت من سحت . . .
٢٤٢	من سرّه أن يكون . . .	كم من قائم ليس به . . .
٢١٦	من طلب الدنيا . . .	الكيس من دان نفسه . . .
٢١٥	من طلب الدنيا حلالاً مباحياً . . .	كيف بك إذا بقيت . . .
٧٨	من طلب العلم ليفاخر به . . .	
١٧٠	من كثر لفظه . . .	— ل —
(١٣٤)	من قال لا إله إلا الله . . .	١٣٦ للشيطان لَمَّةً بابن آدم . . .
٢٩١	من لم يرضَ بقضائي . . .	٢٩٥ لله أرحم بعبده المؤمن . . .
	— ن —	٣٢١ لله أرحم بالعبد من الوالدة . . .
٨٧	الندم توبة . . .	٣٠٤ لو أخذنا أنا وعيسى . . .
٦٨	نظرة إلى العالم . . .	٤٠١ لو أشاء أن أزينكما . . .
	— لا —	٣١٨ لو أني وعيسى . . .
٣٧٢	لا أحصي ثناء عنيت . . .	٤١٤ لو تعلمون ما أعلم . . .
٢٠٦	لا أنقص من آخرت شيئا . . .	٢٤٦ لو توكلتم على الله . . .
٢٠٢	لا تميّتوا القلب بكثرة نضمه . . .	٤١٤ لو علمتم ما أعلم . . .
١٩٦	لا حسد إلا في ثنتين . . .	٣٧٢ ليس أحد يدخل الجنة . . .
	— و-ي —	٢٩٠ لَيْقِلَ هَمَّكَ . . .
٢٥٢	هاك، لو لم تتب لأنتت . . .	١٧٢ ليلة أسري بي . . .
		— م —
		٢٧٣ ما أعطي أحد من عطاء . . .



٢ - فهرس الأعلام

- أ -
- أبو إسحاق الإسفراييني: ٩٢، ١١٩،
(٢٦٢)، (٢٨٢) (٢٨٥)
- أبو إسحاق الشيرازي: ٢٨٦
- أبو بكر الصديق: ٢٠٤، ٢١١
- أبو بكر الطرطوشي: (٨٥)
- أبو بكر العربي (القاضي): ١٣
- أبو بكر الوراق: (١٠٣)، (١١٦)،
(١٨٤)، (٢٦٢)، (٣٦٦)، (٣٨٨)
- أبو جعفر الحداد: ٢٠٢
- أبو حازم: ٢٣٥
- أبو حامد الإسفراييني: ٢٨٥
- أبو حامد الغزالي: ٩، ١٠
- أبو داود (صاحب السنن): ١٨
- أبو الدرداء: ١٠٠
- أبو ذر الغفاري: ١٨٢
- أبو سعيد الخدري: ١٦٨
- أبو سعيد الخراز: ٢٨٤
- أبو سعيد الصوفي: ٢٨٦
- أبو سليمان الكوفي (را. الأعمش)
- أبو الطيب الطبري: ٢٨٦
- إبراهيم (عليه السلام): ١٥، ٣١٦،
٣٢٠، ٣٢٢
- إبراهيم بن أدهم: ١١٥، ١٢٦، ٢٢٨،
٢٧٧، ٢٨٣، ٤٠٤، ٤١٠
- إبراهيم التيمي: ٢٨٣
- إبراهيم الخواص (أبو إسحاق): ٢٤٢
- إبراهيم بن علي (را. أبو إسحاق
الشيرازي)
- إبراهيم بن محمد (را. أبو إسحاق
الإسفراييني)
- إبراهيم النخعي: ٢٣١
- ابن الجوزي (أبو الفرج): ١٨، (٢٧)
- ابن السماك: ٣٠٤
- ابن شبرمة: ٣٢٣
- ابن عباس (را. عبد الله بن عباس)
- ابن عربي (محيي الدين): ٢٢، ٢٣
- ابن فورك: ١١٩، ٣٢٥
- ابن مسعود (را. عبد الله بن مسعود)
- ابن مطيع: ١٧٢

أبو عبد الرحمن (ابن عمر): ٢٠٩

أبو عبيدة ابن الجراح: ٤١٥

أبو عبيدة القاسم بن سلام: ١١٤

أبو العتاهية: (١٥٣)

أبو عمر (شيخ الغزالي) (را. محمد بن

إبراهيم)

أبو قلابة: ١٧٣

أبو محمد (شيخ الغزالي): ٢٤٠

أبو مطيع البلخي: ٢٤٣

أبو المعالي الجويني (را. الجويني)

أبو معاوية الأسود: ٢٨٣

أبو ميسرة العابد: ٣٣٤

أبو نصر الإسماعيلي: ١٠

أبو هريرة: (٩٣)، ١٢٩، ٢٠٩، ٣٤٠

أبو يزيد البسطامي (را. البسطامي)

أبو يعقوب النهرجوري: ١٨٨

أحمد بن أبي طاهر (را. أبو حامد

الإسفرائيني)

أحمد بن أرقم البلخي: ٢٢٢

أحمد بن عيسى البغدادي (را. أبو سعيد

الخراز)

آدم عليه السلام: ٣١٥

أسامة بن زيد: ١٨٤

إسحاق بن محمد (را. أبو يعقوب

النهرجوري)

إسماعيل بن يحيى (را. المزني)

الأعمش: ٢٨٣

إمام الحرمين: (را. الجويني)

امرؤ القيس: ٤١٨

أؤيس القرني: ١١٥، ٢٤٥

- ب -

البخاري (إمام الحديث): ١٧، ٢٦

البسطامي، أبو يزيد: ٧٩، ٢٣٠، ٢٤٥،

٣٧٥

بلعام بن باعوراء: ٩٢، ٤٠٢، ٤٠٣

بويج: ٢٤

البيتماني (حسين بن الشيخ طعمة): ٣٤

البكري (مصطفى): ٣٨

البلاطسي (شمس الدين): ٣٨

- ث -

ثوبان بن إبراهيم: ؟؟

- ج -

جاردنر: ٢٤

الجاحظ: ٢٥٠

جعفر الضبعي: ٣٣٤، ٣٣٥

جندب بن جنادة (را. ذو النون المصري)

الجُنَيْد: (٢٤٩)، ٣٤٢

جوشه: ٢٤

الجويني أبو المعنى إمام الحرمين: ١١،

٢٥٤، ٢٦٢، (٢٨٢)، (٣٢٥)

- ح -

حاتم الأصم: ١٨٨، ١٩٢، ٢٤٣، ٢٥٢

الحارث بن أسد المحاسب: ٢٨٧

الحارث بن عميرة: ١١٠

حرملة: ٢٨٧

زرارة بن أوفى: ١٨٥

الزركلي: ٢٢

زين العابدين: ٥٦

- س -

السبتي (علي المسفر): ٢٣، ٢٥، ٢٦

الشُّبكي: ٢٣

السجزي: ٢٥٩

سنجر (حاكم خراسان): ١٦

سعد بن مالك الأنصاري (را. أبو سعيد

الخدري)

سفيان بن عبد الله: ١٦٧

سفيان بن عيينة: ١١٢

سفيان الثوري: ١١١، ١٢٩، ٢٠٤،

٢٣٠، ٢٣١، ٣٠٦، ٤٠٣، ٤٠٤،

٤٠٥

سلمان الفارسي: ١٠١

سلمة بن دينار: (را. أبو حازم)

سليمان الخواص: ١١٥، (٢٤٩)

سهل التَّسْتُرِي: ٢٢٨

السبخي (أبو يعقوب): ٢٣٢

- ش -

الشافعي (الإمام) محمد بن إدريس: ٢٨٧

الشعبي: ٣٢٤

الشعراني، (عبد الوهب): ٣٨

شفيق البلخي: ٢٥٢، ٢٥٦

- ص -

ضياء الدين عبد نسك (را. الجويني)

حسان بن أبي سنان: ١٦٩

الحسباني (محمد بن سالم): ٣٢

الحسن البصري: ٦٩، ٢٤٤، (٣٠٤)،

(٣٢٩)، ٣٥٨، ٣٧٤

الحفصي (أبو سهل): ١٨

الحليبي (أحمد بن علي): ٣٤

- خ -

خالد بن معدان: ٣٧٦، ٣٨٠

خالد بن الوليد: ٢٠٧

الخواص (را. سليمان الخواص)

- د -

الدَّاراني: ٢٠٣

داود (عليه السلام): ٧٧

داود الطائي: ١١٤، ١٨١

دقيانوس: ٤١٠

- ذ -

ذو النون المصري: ٤٢٥

الذهبي: ١٧، ١٨، (٢٧)

- ر -

رابعة العدوية: ٤١١

الراذكاني أحمد: ١٠

الرازي (را. يحيى بن معاذ)

رُوَيْم: (٢٤٩)

- ز -

الزجاجي (را. محمد بن إبراهيم)

طاهر بن عبد الله (را. أبو الطيب الطبري)
طيفور بن عيسى (را. البسطامي)
الطوسي (أبو الفتح الحاكمي): ١٨

- ع -

عائشة بنت أبي بكر: ١٥١
عامر بن زيد (را. أبو الدرداء)
عامر بن عبد قيس (أبو بردة): ١٥٢
عباد الخواص: ١١١
عبدان (من مشايخ الكرامية): ٣٤٥
عبد الرحمن بن أحمد (را. الداراني)
عبد الرحمن بن بدوي: ٣٨، ٣١، ٢٢
عبد الرحمن بن صخر الدوسي (را. أبو هريرة)

عبد الله بن زيد (را. أبو قلابة)

عبد الله بن شبرمة (را. ابن شبرمة)

عبد الله بن عباس: ٢٠١، ٢٠٩، ٢٢٤

عبد الله بن عمر: ٢٤٤، ٣٩٠

عبد الله بن عمرو بن العاص: ١٠٨

عبد الله بن المبارك: ١٧١

عبد الله بن مسعود: ١١٠، ١٢٢، ٣٤٨

عبد الله بن مطيع (را. ابن مطيع)

عبد الملك بن عبد الله: ٢٢، ٢٤، ٢٦

٥٣، ٣٥

عثمان بن محمد: ٣٥

عطاء بن أبي رباح: ٢٣١

عطاء السلمي: ٣٦٧، ٤١٥

علي بن أبي طالب: ٧٨، ١٨٢، ٢١٠

٢١٦

علي بن الحسن المسفر (را. السبتي)
علي بن الحسين (را. زين العابدين)
علي بن نظام الملك (فخر الملك): ١٦
عمر بن الخطاب: ٨٦، ١٠٠، ٢٠٧،
٢٧٣، ٤١٥

عمر بن شراحيل (را. الشعبي)

عمر بن عبد العزيز: ٣٢٦، ٣٢٧

عنان (جارية الناطفي): ٢٥

عناني: ٣٩

عون بن عبد الله: ١٨٣

عويمر بن زيد (را. أبو الدرداء)

عيسى عليه السلام: ٣٢٩، ٣٤٢

الغزالي (را. أبو حامد الغزالي)

عمرو بن العاص: ١٠٨

- ف -

فرقد السبخي: ٢٣٢

الفضيل بن عياض: ١١٣، ١٢٩، ٢٣٢

٢٧١، ٣٢٤، ٤١٥، ٢٨٠، ٣٦٩

٤٠٤

- ق -

القاسم بن سلاء (رجع أبو عبيدة)

قتادة السدوسي: ١٥١

- ك -

الكديري (الشيخ حسن بن محمد دحلان)

(الجمسني): ٣٨، ٤١

الكرامية: ٣٤٥

كعب الأحبار: ٤٤

كههمس بن الحسن: ٩٣

- م -

- ماروت: ٤١٦
ماسينيون: ٢٣
مالك بن دينار: ٢٠٦، ٢٣١، ٣٢٥، ٣٧٤
مأمون بن أحمد: ١١٩
المتنبي: ٢٣٦
مجاهد بن جبير: ١٥٥
المحاسبى (را. الحارث بن أسد المحاسبى)
محمد بن إبراهيم الزجاجي: ٢٤٩
محمد بن إدريس (را. الشافعي)
محمد بن الحسن (را. ابن فورك)
محمد بن الحسيني (الزبيدي) ٢٣
محمد بن سابق: ٢٥٤
محمد بن صابر: ٣٥٢
محمد بن سعيد آل حمزة؟؟
محمد بن صبيح (را. ابن السكك)
محمد بن ملكشاه: ١٦
محمد بن واسع: ٣٧٤
محمد بن يوسف الأصبهاني: ٤٠٥
المزني إسماعيل بن يحيى: ٢٨٧
مسد بن الحجاج: ٢١
مصطفى البابي الحلبي: ٣٨
معد بن جبل: ١٧٣، ٣٧٦
معاوية بن أبي سفيان: ٢٤٠
معروف نكرخي: ٢٢٧
المُناوي: (١٢٣)
موسى (عليه السلام): ١٣٠، ١٩٢، ٣٢٠، ٣١٦

- ن -

- نصر المقدسي: ٢٨٦
نظام الملك: ١٢
النهرجوري (را. أبو يعقوب)
النوري: (٢٤٩)
نوف البكالي: ٣٣٦
نهاني (إلياس بن عبد الله): ٣٩
نوح عليه السلام: ٢٣٠، ٣١٥، ٣٩٢

- ه -

- هاروت: ٤١٦
هارون الرشيد: ٢٧٧
هرم بن حيان العبدي: ١١٥، ٢٤٥
هشام بن حسان: ٣٢٧
الهيثمي (الحافظ): (١٢٣)

- و -

- واسين بلايتوس: ٢٤
وهب بن منبه: ٤١٥
وهب بن الورد: ٢١٣

- ي -

- يحيى بن معاذ الرازي: (١٠٣)، ١١٥، ١٣٢، ١٨١، ٢٠٠
يوسف بن أسباط الشيباني: ١١١، ٣٣٠
يوسف بن تاشفين: ١٦
يوسف (عليه السلام): ٤٠٤
يونس بن عبيد الله: ١٦٨، ٣١٩
يحيى (عليه السلام): ٢٠٣
يونس (عليه السلام): ٢١٦، ٢٢٤، ٣٢١

٣ - فهرس أسماء الكتب الواردة في «منهاج العابدين»

اسم الكتاب	المؤلف	مكان وروده
١ - إحياء علوم الدين	الغزالي	١٥٩ ، ٩١ ، ٧٠ ، ٥٦ ٢١١ ، ٢٠٨ ، ١٩٣ ، ١٨٠ ٣٨٩ ، ٣٤٤ ، ٣٣٠ ، ٢١٩
٢ - أخلاق الأبرار والنجاهة من الأشرار	الغزالي	١١٤
٣ - أسرار معاملات الدين	الغزالي	١٨٠ ، ١٧٧ ، ١٧٤ ، ٥٧ ٣٤٤ ، ٢١٩ ، ٢٠٨ ، ١٩٣
٤ - تلبس إبليس	الغزالي	١٣٥
٥ - تنبيه الغافلين	الغزالي	٣١٢
٦ - الجامع للجلبّي والخفّي	أبو إسحاق الإسفراييني	١٢٠
٧ - الغاية القصوى	الغزالي	٩١
٨ - القربة إلى الله	الغزالي	٢١٩ ، ٩١ ، ٥٦



٤ - فهرس القوافي والأشعار

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية
	قافية الباء		
٩٤	—	المتقارب	يتوب
١٢٥	الغزالي	الخفيف	الأحباب
١٣١	أبو بكر الورّاق	الخفيف المجزوء	جانباً
١٦٥	—	المتقارب	المشبه
٣٠٠	—	الوافر	قريب
٣٢٦	—	المتقارب	يلعب
	قافية التاء		
٢٣٦	—	الطويل	فستمرّت
	قافية الجيم		
٢٧٢	—	البسيط	فرج
	قافية الحاء		
١٥١	—	السريع	الرابعُ
١٧٠	—	الخفيف	مستريحاً
٢٤٣	—	الوافر	مزاحه
	قافية الدال		
١١٢	—	البسيط	مسعود

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية
٢٤٣	—	مجزوء الرجز	أحدأ
٢٨٧	—	الطويل	عهدأ
٣٢٦	سفيان الثوري	الطويل	سعيد
قافية الرء			
٩٣	—	الكامل	كثير
١٦٢	—	الطويل	المناطر
١٧٢	ابن المطيع	الوافر	إغارة
١٧٨	—	البيسط	أطواره
٢٧٤	—	الضويل	الصبر
٢٩٠	—	الكمز	يقدر
٣٠٠	—	مجزوء نوافر	برخ
٣٠٦	—	البيسط	إقتار
٤٠٤	—	البيسط	القدر
٤٠٨	—	الطويل	بضائر
٤١٨	امرؤ القيس	الطويل	بقيصرا
ذنية السنين			
٣٠٣	عبد الله بن المبارك	البيسط	البيس
ذنية الضاد			
٤٠٧	—	البيسط	عوض
ذنية العين			
١٢١	الغزالي	الطويل	الوقائع
١٤٥	—	الوافر	أوجاعي
١٥١	—	الخفيف المجزوء	دعي
١٦٤	—	الطويل	بالمدامع
٢٢٠	—	كامل	يخدع

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية
٢٣٦	—	الكامل	تقتنع
٢٧٧	إبراهيم بن أدهم	الطويل	نُرْفَعُ
٣٨١	—	الكامل	ضائع
٤٠٤	—	مجزوء الكامل	وقع
	قافية الغين		
١٣٠	—	الكامل	الفارغُ
	قافية الفاء		
١١٣	—	الطويل	وأكشَفُ
١١٣	—	الطويل	نتعارفُ
٢٤٥	محمد بن سابق	البسيط	منحرفُ
	قافية القاف		
١٥١	—	السريع	الشقي
١٧٢	—	الكامل	بالمنطقِ
٢٢٢	—	مجزوء البسيط	نهق
٤٠٤	—	مجزوء الكامل	وقع
	قافية اللام		
١٩٠	—	البسيط	الزليل
٢٢٠	—	الوافر	زوالِ
٢٣٦	المتنبّي	/	تتحملُ
٣٥٩	—	مجزوء البسيط	مُحَلَا
٣٧٥	—	الكامل	الآمان
	قافية الميم		
١١٦	—	السريع	الحاكمُ
١٥٣	أبو العتاهية	الطويل	العدم
٢٣٧	—	المتقارب	لمولاهم

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية
٣٠٣	—	مجزوء الكامل	الملامة
٤٠٩	الغزالي	الكامل	عمى
قافية النون			
٥٦	زين العابدين	البيسط	يفتتنا
٢٢٣	—	البيسط	شيطاناً
٢٣٣	ذو النون	الوافر	مجانّه
٢٨٠	علي بن أبي طالب	الطويل	آمنا
٢٩٩	—	الكامل	محزون
٢٩٩	—	الخفيف	تكونُ
قافية الهاء			
١٧٢	ابن المبارك	المتقارب	قتله
٢٥٧	—	الخفيف	المكروه
قافية الواو			
٢٧٤	—	مجزوء البيسط	يكونُ
٢٩٩	—	الكامل	لو
قافية الباء			
١٤٥	—	الطويل	راضياً
٢٥٨	—	الوافر	منته



٥ - أهم مصادر التحقيق

- ١ - ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، صفة الصفوة، دار المعرفة - بيروت ط ٣ - ١٩٨٥ م.
- ٢ - ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.
- ٣ - ابن الجوزي: الموضوعات، المدينة المنورة، ط ١، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م.
- ٤ - ابن الجزري: شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ط ١، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م.
- ٥ - ابن حجر: العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، ط ١، ١٩٧١ م.
- ٦ - ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط ٢، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م، دار الكتب الحديثة - القاهرة.
- ٧ - ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار المعرفة - بيروت (د. ت).
- ٨ - ابن حجر: الإصابة تمييز الصحابة، مطبعة السعادة - القاهرة، ط ١، ١٣٢٨ هـ - ١٩١٩ م وبهامشه الاستيعاب لابن عبد البر.
- ٩ - ابن حجر: تهذيب التهذيب، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند (د. ت).
- ١٠ - ابن حجر: تقريب التهذيب، ط ٢، ١٩٧٥ م، دار المعرفة.

- ١١ - ابن حبان: محمد بن حبان التميمي البستي: صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط بيروت ط ١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- ١٢ - ابن حنبل، أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر - بيروت (د. ط، د. ت).
- ١٣ - أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي. البحر المحيط، ط ٢ دار افكر (د. ت).
- ١٤ - ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت ١٩٦٨ م.
- ١٥ - ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة: صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى، المكتب - بيروت ط ١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ١٦ - أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، إعداد وتعليق: عزت الدعاس، نشر وتوزيع: محمد علي السيد - حمص ١٩٦٩ م.
- ١٧ - ابن سعد: محمد بن سعد، أبو عبد الله، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.
- ١٨ - ابن عربي، محي الدين: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار (١ - ٢) دار النيقطة العربية ١٩٦٨ م.
- ١٩ - ابن عساکر، الإمام الحفظة ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي: تهذيب تاريخ دمشق، دار المسيرة - بيروت ط ٢، ١٩٧٩.
- ٢٠ - ابن العماد، الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة - بيروت (د، ط، د. ت).
- ٢١ - ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية مكتبة المعارف - بيروت ط ٢، ١٩٧٧ م.
- ٢٢ - ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٩٥٢ م.

- ٢٣ - ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري: طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريعة مكتبة الخانجي - القاهرة ط ١، ١٩٧٣ م.
- ٢٤ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب دار صادر - بيروت (د. ت).
- ٢٥ - أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ١، ١٩٣٢ م.
- ٢٦ - ابن الأثير، لعز الدين ابن الأثير الجزري: اللباب في تهذيب الأنساب دار صادر - بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٢٧ - الألباني: محمد ناصر الدين: ضعيف الجامع الصغير وزياداته: المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٢، ١٩٧٩ م.
- ٢٨ - الألباني: صحيح الجامع الصغير، المكتب الإسلامي - بيروت (د، ت).
- ٢٩ - البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري: الصحيح، عالم الكتب - بيروت، ط ٢ بيروت ١٩٨٢ م.
- ٣٠ - بدوي، د. عبد الرحمن. مؤلفات الغزالي، الكويت ط ٢، ١٩٧٧ م.
- ٣١ - البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب: تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي - بيروت (د. ت).
- ٣٢ - البيهقي: أحمد بن عني: السنن الكبرى، حيدرآباد ط ١، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م.
- ٣٣ - الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، السنن. وهو الجامع الصحيح، دار الفكر - بيروت (د. ت).
- ٣٤ - الجوهري: إسماعيل بن حماد الجوهري. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين. بيروت (د، ت).
- ٣٥ - حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد (د، ت).

- ٣٦ - الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، النيسابوري: المُستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية - بيروت، (د. ط، د، ت).
- ٣٧ - الخرائطي: فضيلة الشكر لله على نعمه، دار الفكر، دمشق، (د. ت).
- ٣٨ - الخطابي: حمد بن محمد، أبو سليمان البستي، معالم السنن، دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٣٩ - الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام: سنن الدرامي، باعثناء: محمد أحمد دهمان، نشرته: دار إحياء السنة النبوية (د. ط، د. ت).
- ٤٠ - الدارقطني، علي بن عمر: سنن الدارقطني، باعثناء ونشر السيد عبد الله هاشم يماني المدني، المدينة المنورة - ١٩٦٦ م.
- ٤١ - الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: عبي محمد أبجاوي، دار المعرفة - بيروت (د. ط، د. ت).
- ٤٢ - الذهبي، شمس ندين أبو عبد الله محمد بن أحمد: تلخيص المستدرك على الصحيحين، دار كتب نعمة - بيروت (د. ط، د. ت).
- ٤٣ - الذهبي، شمس ندين محمد أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة - بيروت - نضبة لأولى - ١٩٨١ م.
- ٤٤ - الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - نضبة الرابعة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م.
- ٤٥ - الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دمشق ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ٤٦ - الزركلي، خير ندين: الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت الطبعة السادسة - ١٩٨٤ م.
- ٤٧ - السبكي: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن تقي ندين نسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية.
- ٤٨ - السخاوي، شمس ندين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن: المقاصد الحسنة، دار الكتب العلمي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٩٧٩ م.

- ٤٩ - السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة - بيروت (د، ت).
- ٥٠ - السُّلَمي، أبو عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريفة، مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٦٩ م.
- ٥١ - السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية، بيروت - دار المعرفة طبعة ١٩٨٣.
- ٥٢ - السيوطي، جلال الدين: الجامع الصغير.
- ٥٣ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الجامع الصغير من حديث البشير النذير (١ + ٢) حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ط ١ - المكتبة التجارية - مصر - ١٣٥٢ هـ.
- ٥٤ - السيوطي: جلال الدين: تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك، مصطفى الباي الحلبي - مصر - ١٩٥١ م.
- ٥٥ - الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري، الطبقات الكبرى، (لوائح الأنوار في طبقات الأخبار) مصطفى الباي الحلبي - مصر - الطبعة الأولى - ١٩٥٤ م.
- ٥٦ - الشهرستاني، المِملِّ والنَّحل، المطبعة التجارية - مصر.
- ٥٧ - الشوكاني، محمد بن علي: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية، جدة - الطبعة الثانية - ١٣٩٢ هـ.
- ٥٨ - الشيباني: أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحَّاك بن أبي مخلد الشيباني، كتاب السنة، المكتب الإسلامي - الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٥٩ - شيخ الأرض، تيسير: الغزالي، دار الشرق الجديد - بيروت سلسلة أعلام الفكر العربي (٦) ط ١ - ١٩٦٠ م.
- ٦٠ - الصَّفَّدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، نشر: جمعية المستشرقين الألمانية الجزء الأول - الطبعة الثانية ١٩٦٢ م.
- ٦١ - انصُراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد: المعجم الصغير، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

- ٦٢ - الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي - بغداد - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ٦٣ - الطيالسي: سليمان بن داود، أبو داود، مسند أبي داود الطيالسي، الهند - حيدر آباد، ١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م.
- ٦٤ - عبد الباقي: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطابع الشعب القاهرة.
- ٦٥ - العجلوني، إسماعيل بن محمد: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٩٨٣ م.
- ٦٦ - عبد الرزاق: أبو بكر بن همام الصنعاني، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي الهند ط ١ - ١٩٣٢ هـ - ١٩٧٢ م.
- ٦٧ - العزّوزي، محمد العربي: الجمع بين الصحيحين، منشورات مطبعة الإنصاف - بيروت ١٩٦٠ م.
- ٦٨ - الغزالي، أبو حمد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت، (د. ط. د. ت).
- ٦٩ - الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٦ م.
- ٧٠ - القُضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة: مُسْنَدُ الشَّهَاب، مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى. ١٩٨٥ م.
- ٧١ - كارادوفو، البارون: الغزالي، نقله إلى العربية: عدل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة. ١٩٥٩ م.
- ٧٢ - الكُتبي، محمد بن شكري: فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٧٣ م.
- ٧٣ - كحانة، عمر رضا: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٩٥٧ م.

- ٧٤ - مالك بن أنس، الإمام: مؤطاً الإمام مالك، مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، ١٩٥١ م.
- ٧٥ - مرتضى الزبيدي، السيد محمد بن الحسيني: إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين.
- ٧٦ - المزي: جمال الدين، أبو الحجاج يوسف بن الزكي، تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، الهند، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- ٧٧ - مُسَلِّمُ بن الحَجَّاجِ القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، باعثناء: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٩٥٦ م.
- ٧٨ - المكي، أبو طالب بن أبي الحسن علي بن عباس: قوت القلوب، دار صادر - بيروت (د. ط، د. ت).
- ٧٩ - المناوي، عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م.
- ٨٠ - المنذري: عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٨١ - المنوفي، الحسيني، السيد محمود أبو الفيض: جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف، مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة - الطبعة الأولى، ١٩٦٧ م.
- ٨٢ - النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، السنن، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٨٣ - الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٢ - ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
- ٨٤ - الهيثمي: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، دار الكتب العلمية - بيروت. (ب، ت).
- ٨٥ - ونسك، أ. ي: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مكتبة بريل - لندن، ١٩٣٦ م.
- ٨٦ - ياقوت، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، دار صادر - بيروت ١٩٧٧ م.

٦ - محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة التحقيق	٧ - ٥٢
أولاً: الكاتب	٩
ثانياً: الكتاب	٢٠
ثالثاً: التحقيق	٤٠
افتتاحية الكتاب	٥٣
تقديم الهداية إلى طريق العبادة	٥٩
عقبات طريق العبادة	٦٧
العقبة الأولى: عقبة العلم	٦٧ - ٨١
العقبة الثانية: عقبة التوبة	٨٣ - ٩٧
العقبة الثالثة: عقبة العوائق	٩٩ - ٢٣٨
العائق الأول: الدنيـة	٩٩
العائق الثاني: الخنق	١٠٧
العائق الثالث: الشيطان	١٣١

١٤٤	العائق الرابع: النفس
٢١٨ - ١٦١	تقوى الأعضاء الخمسة:
١٦١	الفصل الأول: العين
١٦٥	الفصل الثاني: الأذن
١٦٧	الفصل الثالث: اللسان
١٧٥	الفصل الرابع: القلب
١٩٩	الفصل الخامس: البطن وحفظه
٢١٩	فصل: في معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس
٢٢٦	فصل: في رعاية الأعضاء الأربعة
٢٣٤	فصل: في السُّبُل المؤدية إلى الزهد
٣٠١ - ٢٣٩	العقبة الرابعة: عقبة العوارض
٢٧٦	فصل: في الرزق وتدييره
٢٨٠	فصل: نصائح في التوكل على الله في تدبير الرزق
٢٩٨	فصل: في الرضا بترك التدبير إلى الله تعالى
٣٣٦ - ٣٠٣	العقبة الخامسة: عقبة البواعث
٣١٠	فصل: ضرورة الاحتياط عند قضع عقبة البواعث
٣٣٤ - ٣١٢	أصول سلوك طريق الخوف والرجاء
٣١٣	الأصل الأوَّل: أقواله سبحانه
٣١٥	الأصل الثاني: في أفعاله ومعاملاته
٣٢٣	الأصل الثالث: في ذكر ما وعد وأوعد في المعاد
٣٣٥	فصل: خلاصة العقبة الخامسة

العقبة السادسة: عقبة القوادح	٣٣٧ - ٣٨٤
القادح الأول: عدم الإخلاص	٣٣٧
القادح الثاني: العجب	٣٥٠
فصل: في الرياء والعجب وخطرهما	٣٥٥
فصل: في من يعجب بعمله وينسى فضل الله عليه	٣٦٥
فصل: في الدعوة إلى التيقظ من الغفلة لاجتياز عقبة القوادح ..	٣٦٧
فصل: في الإخلاص لله بانضاعه	٣٨١
العقبة السابعة: عقبة الحمد والشكر	٣٨٥ - ٤٢٧
فصل: في وجوب الحمد والشكر	٣٩٤
فصل: في وجوب التضرع إلى الله تعالى	٤٠٦
فصل: في أن ضريبة الآخرة روحاني تسلكه القلوب	٤١٣
الفهارس العامة:	
١ - فهرس لأحاديث	٤٣١
٢ - فهرس لأعلام	٤٣٤
٣ - فهرس أسماء الكتب الواردة في المنهاج	٤٣٩
٤ - فهرس التروافي والأشعار	٤٤٠
٥ - فهرس أهم مصادر التحقيق	٤٤٤
٦ - فهرس محتوى الكتاب	٤٥١



سلسلة الأجزاء والكتب الحديثية
(١٠)

المنتخب من كتاب

الهدى والرقاب

للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب
الترقي سنة ٤٦٣ هـ - رحمه الله تعالى

دراسة وتحقيق وتعليق
الدكتور عامر حسن صبري

دار النشر الإسلامية

الْوَعِظُ الْمَطْلُوبُ

من

قُوَّةِ الْقُلُوبِ

تَأَلَّفَ

الْعَلَّامَةُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْقَاسِمِيُّ الدِّمَشْقِيُّ

(١٢٩٣ - ١٣٣٢ هـ)

تَحْقِيقًا وَتَعْلِيلًا

مَجْلَدُ نَبَاةِ الْعَجْمِيِّ

دَارُ النُّشْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ

